

عوض سعود عوض

# ويزهر القندول (1)

رواية

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

1997

(1) القندول: نبات الواحدة قندولة وهي جُنينة شائكة من فصيلة الفطانيات منبتها منطقة البحر المتوسط، لها زهر أصفر رانحته زكية، قوية بأغصانها وأشواكها، سياجها مئین وحصين، تكثر في الشرق الأوسط

الحقوق كافة  
محمولة  
لاتحاد الكتاب العرب

تصميم الغلاف للفنان : أنور رجا

الإهداء  
- إلى الوطن الذي يضم خمسة وأمهم .

□

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## فاتحة الراوية:

مهما وصفت الحياة بأنها روتينية ومملة، فلن تقنعني أنها خارج الأسر ليست رائعة، يكفي متعة مشاهدة الأحداث أمانا والمساهمة بصناعتها، يكفي أن الواقع الخارجي يخضع لقوانين الحركة والتطور، ويحمل في طياته كل يوم جديداً .

عمر محمود القاسم  
" أبو عباية "

□

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## تمهيد:

مثل انهدام جدار كبير، ونهار تعرى من ضيائه، وليل لبس ثياب حداده، كان سفره في سجل الخالدين، يوم كتب ملحمة الحب والتوحد بالتراب والوطن، فبقي صورة رائعة في أعين الصغار، وغاراً على جبين الوطن.

كان من الصعب أن يغمض جفنيه دون أن يحقق هدفه، فبعد انطلاق الانتفاضة، التي دفع حياته من أجل أن تبدأ، لم يعد يخشى الموت. فالأفكار العظيمة كانت بحاجة إليه، فالإيمان لا يكفي لتحقيق النصر... إنه اليد القوية التي احتضنت الأسرى، رفعت معنوياتهم، لأن هزيمة الروح أشد إيلاًماً من هزيمة المعركة.

فمن بين آلاف الشهداء، ستبقى قلة معروفة، فقد أزلت الريح والمطر ويد الإنسان الصور المجللة بالسواد، استقبلاً لدعوة فرح أو لوضع غيرها، لكن ستظل هناك نجوم تضيء، حتى لو مسحت الأكف صورها وأسماءها، فقد صارت جزءاً من التاريخ والحياة. أحد هؤلاء العمالقة في تاريخنا عمر محمد محمود القاسم " أبو عباية " الذي ظل في سجون العدو الصهيوني إحدى وعشرين سنة، رفض خلالها كل ألوان المساومة، عرضوا عليه أن يكون مواطناً إسرائيلياً وخيروه بين البقاء في القدس أو السفر إلى إحدى دول أوروبا أو أمريكا، فاختر السجن بين رفاقه، رفض حريته الشخصية مقابل المساومة.

إنه المثقف الذي فاضت ذاته وروحه عطاء لرفاقه، قاد تياراً ينادي بالعودة إلى نواة الصراع وتفجيرها، وقف كالطود يشد أبناء القدس وغيرها من مدن الضفة الغربية للتنظيم، طارده العدو، دورياته انتظرتة في كل مكان يمكن أن تجده، اضطر للمغادرة ليقنع القيادة بأن ساحة الصراع غربي النهر. شد الرحال في ليلة الثامن والعشرين من تشرين الأول سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف، اصطدم بكمين وهو في طريقه للتمركز في مرتفعات رام الله والقدس، قاتل حتى نفذت ذخيرته، دخل السجن ولم يخرج منه إلا بعد أن توقف قلبه الكبير .

اشتعلت القدس، ففي الجبال العالية، وفي السماء الواسعة، تراءت نجوم، تأملها الناس وهم يبتسمون، شاهدوها هناك فوق المرتفعات متألقة، تستقبل عروسها مع بدايات حزينان، وقد عرف منها عز الدين القسام وغسان كنفاني

وعبد الكريم الكرّمي " أبو سلمى " وناجي العلي.. الذين وقفوا باستعداد لاستقبال نجم هائل جديد، ففي يوم الرابع من حزيران عام تسعة وثمانين احتضنوه ووضعوه وسطهم، وهم يزغردون مبتهجين بإنضمامه .

وهاهم يشكلون دائرة هناك فوق جبل المكبر والطور وحي الشيخ جراح والعيسوية والعيزرية والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، حتى الوديان المحيطة بالقدس من جهاتها الثلاث، ألهمت وادي جهنم، وارتفعت السنة نيرانها تشكل خندقاً يرد عنها كل شر .

حتى الطبيعة تألمت وفاض حزنها، ولوت الأشجار أغصانها، ففي ذاك المساء القرمزي ودعت شجيرات القندول زهورها الفواحة، مستعدة لربيع جديد، لتكون فيه أشد بأساً، وقد تعلمت درساً في الحياة، فقد أقسمت أن تبدأ عطاءها القادم بوقت مبكر، لم تحزن فقد أعطت خبرتها للأطفال الذين صاروا مثلها ذوي جذور قوية ومخالب وأشواك ورائحة ذكية، حتى باتت لا تميز إن كانت هي القنديلة، أم ذاك المقاوم لكل عوامل الجفاف والمحل والموت.

لم تكن القدس الوحيدة التي ودعته، مدن أخرى عربية عرفته، ولعل دمشق أهمها، فلم تكن محطة وواحة كغيرها من واحات العرب، ولم تكن وصال الرغبة كغيرها من الفتيات، إن حبه لهما يجسد حب الإنسان لوطنه وحببيته الحب الصادق، الذي لا يعلو عليه إلا حبه لمسقط رأسه، ولهذا كان زاد الشام كافياً، مدّه بذكريات رائعه حتى لحظة استشهاده. دمشق اللمة، الإنسان، التاريخ، الحاضر، الحياة بكل ما فيها، فما أجمل أن يكون للإنسان وطناً أحدهما دمشق!

أخيراً فقد حافظت على الحقيقة بالقدر الذي لا يتعارض مع الإبداع، وأنا لا أعتبر الرواية وثيقة ضد عدونا الصهيوني فقط، بل تعلم أجيالنا القادمة وتتفهم وتوضح لهم الكثير من مواقف العدو ونظراته المتغترسة تجاهنا، وذلك الصراع المتغلغل حتى أدق الشرايين والأوردة، فالعدو ليس كما صور نفسه ولا كما صورته الدعاية العربية.. ربما تجد في هذه الرواية ما يجيب عن ذلك.



## - الفصل الأول -

بدأ النهار خطواته عصبي المزاج، مغبر الثياب، منفوش الشعر، وجهه كتلة رمادية وصراخه رمال ثائره هوجاء، مع أول خيط نوراني بدأت الرياح غزلها، شيء كالمراد يرتفع، عامود من الرمل والغبار يتصاعد بشكل لولبي وساحة دائرية تتسع وتضيق حسب قوتها واندفاعها، داخلها قوة جذب إلى الأعلى والأمام تدفع ما بطريقها، تصل هذه الهبوب إلى التلة، تندفع قوية على مراحل، العجاج الذي في الأعلى يسير كالسهم ليكون فاتحة العاصفة القادمة المتسلقة التي تنتهي بنسمات حارقة، عند الأبواب يذرف الهبوب دموعه، يدور دورات حلزونية ماداً ذراعه إلى الداخل ساكباً رعاfe مثلماً بأنامله الجدران ملقياً بثقله هارياً من النفوذ وسيناء سائراً باتجاه النقب والسبع وغزة، أما البقية الباقية فقد غطت وجهها بستار تاركة الأسوار والحديد متجهة إلى الشرق أو الشمال للانتحار.

لم يتوقف الغبار عند أول هبوب، ما أن انتهت أول عاصفة حتى بدأت غيرها بالطريقة ذاتها، الرياح تعوي والصبح يجفل وتنكسر رموشه تحت أقدامها، يصيب الرماد ذاك الوهج المنبعث كعادته من الشمس، والذي ظن أن اليوم سيكون كغيره من الأيام، وأن الصباح سيلبس حلة النور كالصباحات السابقة.

تناغم نباح أم زوبعة مع اقترابها من السجن، زادت سرعتها، دارت الغرف والأقباء، حاولت بحركتها الحلزونية الخروج من الفخ الذي نصبته لنفسها، انعقد لسانها حين حجزت في إحدى الزنانات، كل شيء صامت. تذكرت قوتها الآتية من عمق الصحراء، أرسلت رياحها الخماسينية، بهتت ألوانها، وانفجر سعالها الحاد المترافق مع لفحات حارقة، وكما يسف المريض بعض أنواع الدواء، فقد تسللت إلى الفم، تصرّت تحت الأسنان، أشبه بطفل يلتهم التراب.

كان ذاك الصباح غير عادي، أفاق السجناء، أضافوا إلى أحزانهم حزناً جديداً، النهار من بدايته يبدو معتماً، يقف سجن بئر السبع في مواجهة الطبيعة، تتجمع بجانبه أكوام الرمل، تمر الزوابع كالغيوم، واحدة تترك كوماً وأخرى تمحوها.

تتسلل كمية من الدقيق إلى غرفة السجن الكبيرة، اضطروا في كل مهجع إلى نفض البطانيات والملابس المعلقة على الجدران، ليجمعوا ذلك في دلو.

أمضى عمر القاسم ليلته جالساً في فراشه، عيناه تنتقلان من واحد إلى آخر أشبه بأم تسهر على مريضها. السماء الواسعة أدركت الرياح قبتها، شعر أنها ضيقة، تهبط قليلاً إلى الأسفل، الشمس التي تسلل شعاعها ما هي إلا شمعة تشتعل وتطفئ أمام هبوب الرياح، أحس بموجة من الكآبة، فرد وجهة عل الكآبة ترحل، عليه أن يكون مرحاً ليترك انطباعاً حسناً. لا يعرف لم شعر بالضيق؟

أهو هذا الصباح أم الخبر الذي وصله عن ترحيله إلى سجن جديد؟ أعليه أن يظل حزيناً ويعود إلى ذاته وذكرياته، أم يتابع حديثه عن الكون والثورة والسجن؟

كانت السماء لوحة سريالية، فيها من النجوم والكواكب وما يجعل الإنسان صغيراً أمام الكون الرهيب، نظر إلى الأضواء الخافتة وتلك المشعة، نجوم لها أشكال مختلفة منحنية ومستقيمة ومتعرجة، وبعضها ذات أشكال هندسية دائرية أو خماسية، قضى ليله يدقق في تلك الأشكال، وما ترسمه القبة في نفسه من فرح وتعطيه من الحرية أضعاف ما حلم به، غازل النجوم، إحداهما تبتسم بطريقة غريبة وتمد أذرعها وتفتح فاهها، اقتربت من نجمة أخرى، فنل رأسه، وضع يديه على جبينه، فركه بأصابعه حتى ذهبت الدوخة. نظر إلى الأمام حيث النهر بمياهه الرقراقة قرب المخاضة، أخذ يرسم طريقه إلى الداخل، إلى جبال القدس ورام الله، إلى تلك الجبال الوعرة المسالك، التي تنتشر فيها الحجارة من حجوم مختلفة حيث تشكل تضاريس قائمة بذاتها، تقضي الارتفاعات إلى ارتفاع آخر أو إلى انحدار فهي مليئة بالمضائق، جبال عرف كتلها، تذكر الممرات التي وصلها والكهوف التي أختبأ فيها. أشعرته إقامته بضعة أيام بلباليها بمسؤولياته، ليل لا نهاية لعتمته، الحلم لم يفارقه، بندقيته إلى جانبه مهياً للإطلاق، من حوله تفعل الحيوانات فعلها، أصوات دبحها وعراكها، أصوات تجعله منحرفاً. اعتاد هذا الجو، لم يعد يثيره أو يخيفه، فكر مرات بمصيره، إذا جاء الجنود وطوقوه، ماذا يفعل؟

من أجل ذلك خبر الدروب وخرج في الليالي يبحث عن الطرق الوعرة، حتى بات يعرف كل شبر، اطمأن لوهاجمته مجموعة جنود لأمكنة القضاء عليها، ثم الانحدار بسرعة والركض عبر الدروب المحنية والملتوية، التي لم تعد يخشاها يسير فوقها وكأنه يسير على طريق مستقيم آمن. في أحد الأيام جاءت طائفة مروحية، دارت عدة، نزل منها سبعة جنود، ظلوا ست ساعات يبحثون في الجبال، بينما الطائفة مستمرة في مراقبتها، جمد مكانه، أغلق قسماً من باب الكهف بحجر

كبير ولطى في إحدى الزوايا ويده على الزناد، بعد أن وصله حديثهم وصاروا على أمتار منه، مروا وهم يتحدثون عن فدائيين أفلتوا من أيديهم، أطلقوا مخزن رصاص تجاه الجزء المفتوح من الكهف، وتابعوا سيرهم.

ابتعدوا فخرج من المخبأ وأمضى ليلته في العراء. تلك الليلة تشبه هذه الليلة، القمر نصف رفيف، النسيمات تداعب شعره وتحرك بعض الأغصان الطرية، تلالأت النجوم واحدة تهمس في أذنه، أنا بانتظارك!

سيرحل إلى النجمة، سيبحث عن الحلم والأغنية والقمر والليل والصباح، عن الشمس الهاربة يشدها من جديلتها قبل أن تستعيد فتوتها، يتخلص من العذاب اليومي، من بكاء الأغنية والروح، من بكاء الصغار الذين ظنوا بأن المقاومة حالة وجد تعرضهم عن سني مراهقتهم، تكاثرت عليه الهموم، نسي الجو الذي رتبته رفاقه في المهجع، الذين أعلنوا عن رغبتهم في المرح فغنوا:

الشمس عالناس تطل	وعم تعطينا أنوار
هذه الدنيا فيها علوم	فيها جهل وأمية
فيها ظالم ومظلوم	فيها النفس البرية
فيها سما وفيها نجوم	تضوي الكرة الأرضية
قالوا المي الغربية	ما بتدير الطواحين
أنا وين وأنت وين	باب البوابة ببابين

قفل ومفاتيح اثنين

عالبوابة في عباين	الليل وعنتر بن شداد
سيف ولمعه وبطارين	وبطارين ولمعة وسيف
وسيفين ولمعة وبطارية	

استعاد الحلم الذي اخترق جمجمته، نظر إلى وجوه رفاقه، حاول التخلص من أسئلتهم، الوداع مر وربما يغادر غداً أو بعد غد على أبعد احتمال، أدار وجهه نحو اليمين ثم الشمال، لكن ما فعله لم يهزم القلق ولم ينسه واقعه.

احتفظ بشيء من الهدوء، حرق في وجوههم التي أمطرها ابتسامة ومحبة وفرحاً، لا أحد ينكر أنه رجل يحب الناس وقادر على استخلاص محبتهم، ودفعتهم

للمحبة والتألف، بحث عن عبارات يقولها.. الليل مازال في بدايته والجميع ينظرون إليه وعيونهم كلها دموع .

هل يتابع حديثه عن الكون الواسع ومافيه من مجرات، هل سيصدقون كلامه ؟

سأله سليم الدوري :

- ما فائدة اتساع الكون يا رفيق، إذا كان العالم يبدأ من هذا المعتقل وينتهي فيه ؟!

شعر أن الكون ضار بحجم الغرفة، وإن الأيدي التي ترتفع في المظاهرات، ماهي إلا علامات فرح باهت، وربما هي التي تطوقه. اعتدل المدرس علوان في قعدته وردد وهو ينظر إلى سقف البركس :

- هل لنا برج في هذا الكون ؟

ضحك شيخ البركس الذي انتابته حالة وجد، إذ تذكر برجه وواقعه، فأحب أن يدلي بدلوه، وها هو يطالب بمركبة فضائية قادرة على ثقب الكون ونقلهم خارجه، ما دام هذا العالم غير معترف لهم بوطن :

- أريد مركبة تخترق الكون وتنقلنا بعيداً عنه، وهناك نبني دولتنا !

" عظيم ... عظيم جداً " رد عليه سليم وهو يقهقه ويتمايل فلم يعد يتمالك نفسه من شدة الضحك، وكأنه وجدها واحدة للتندر منه، فعلق:

- أيها الشيخ الوقور مع احترامي الشديد لك، أي مركبة تخترق الكون لم تصنع، ولن تصنع، فأني واحدة ستكون ضمن هذا الكون وليس خارجه، وما حاجتك لبناء دولة .... آه، أيها اللعين تتيمم وأنت على بعد أمتار من نهر الأردن، هذا أنت تريد بناء دولة خارج الزمان والمكان وتترك فلسطين لأبناء الكلبة. لماذا لا تقدم هذا اقتراحاً مكتوباً إلى إدارة السجن ليفكوا وثاقتك ؟!

علق المدرس علوان مبتسماً :

- وحد الله ياسليم، الرجل لم يقصد هذا التفسير، فهل للكون خارج حتى تجدها قصية تستحق التعليق ؟

قام سليم وقد استبدت به روح التحدي والفكاهة وهو يرتدي منامته القصيرة التي تصل إلى الركبة، بعد أن تمزق نصفها السفلي وتهزأت جوانبها، فبان أسفل بطنه، ضحكوا، إلا أنه سخر منهم بقوله:

- اضحكوا كما شئتم فأنا ألبس زي أجدادي !  
نظر إليه شيخ البركس وبصق على الأرض :  
- أجدادك كانوا يعرفون الذوق والخجل والخوف من الله، استر جسديك ولا  
تتشبه بهم أيها الزنديق!  
- طيب يامحترم، أنا زنديق !  
إنك لا تعرف عن تاريخك سوى صورة مشوهة تقيس عليها الأخلاق والدين،  
ألم تسمع ببعل الكنعاني؟.. الإله بعل الذي يتعهد الأراضي البور ويسقيها  
بأمطاره، والذي يرتدي زياً إلى الركبة!  
تلعثم وهو يردد اسم بعل بقوله :  
- بعل ... بعل!  
لم يجد رداً مناسباً فأضاف إلى مقاله :  
- بعل أبعد من الجد الذي قصدته، أليس كذلك ؟  
- وأنت أبعد ما تكون عن المنطق، لم تفهم العالم بعد ضمن جدليته يا  
صاحب الحجة البليغة !  
فضل الشيخ السكوت، لسان سليم سليط، كما أن رفاقه في المهجع علقوا  
تعليقات شتى نالت من شخصه. قال أحدهم:  
- يعني هو جدجد.. جدك !  
ساد جو من الضحك والمرح، لم يمنع الدوري نفسه من القهقهة ولسانه من  
التعليق، غشي وانقلب على جنبه، وكأن أحداً أمسكه من خاصرته وكركره، الجميع  
يراقبون، غشي وانقلب على جنبه، وكأن أحداً أمسكه من خاصرته وكركره، الجميع  
يراقبون حركاته، تطلع إلى وجوههم، اقترب من عمر وهمس في أذنه، ثم أخذ يذرع  
الغرفة جيئةً وذهاباً والكل ينظرون إليه يتهايمون ويبتسمون بخفة ودلال، بحركة  
هستيرية وقف وسط البركس وقال:  
- أيها السجناء وياشيخى البعيد عن المشيخة، أنتم بين جدران سميكة، النقب  
جنوبكم والبحر غربيكم والنهر شرقكم، أينما ذهبتم فالسجن واحد، إخوانكم ما زالوا  
متخلفين عن الركب، اليوم خمر، ولم يصلوا إلى الغد، وقد يتوقف الزمن عند  
أقدامهم العارية، ما داموا يشربون " سم الهاري" ويركبون حمير أوروبا، يشوون لحم

حيواناتنا!

-آه يا صديقي سليم أراك مصراً على فتح جروحي في لحظات وداعي.....  
تدخل أحد السجناء، أوقفه عن الكلام بقوله:

- أنت يا سليم الدوري، أيها المجنون، بالله تعيرنا سكوتك.

قهقه وهو يدندن بكلمات بذيئة ثم قال :

- سأفعل، لكن هل تضمن النتيجة! فأنا إذا أعرتكم سكوتي فلن يبقى سوى الكلام.

ارتفعت الضحكات ثانية ولامست شغاف القلب، بينما صوت من آخر المهجع يتدخل لوقف ذلك:

- بدأت الفلسفة تظهر على أصحابها، وحد الله يا رجل ودعنا نودع عمر.

- تسمي ذلك فلسفة، لبتك قلت " نفنفة " واتكلت على الله.

كانت هذه الكلمات شيخ البركس .

- ما شاء الله، من أي قاموس جلبت هذه الكلمة، بالتأكيد من قاموس " أبي سعيد البسكليتاني " المحجوز عليه صحياً ... إياك أن ترفع يدك، اكسرهما، ولا تقترب، إياك ذلك وإلا " فالغزال يرعى بيننا " .

غنى أحدهم " نفنوفة يا نفنوفة " يا أم القذلة المكفوفة"

عند هذا الحد وصلت الأمور نهايتها، الشيخ في هياج، شعر أنه أهين، وقف المعلم علوان وعمر بينهما، وانتهى المزاح عند هذا الحد.

كان الصباح كالمساء سماء مغيرة وغيوم متفرقة تتلاشى وهي تتجه شرقاً، أشبه بقافلة غجر، الرياح الصفراء تزرع السأم على عويلها أفاق سجناء البركس سبعة، كل واحد ألقى تحية الصباح على عمر وعلى شفاهم ابتسامة باهتة.

البارحة وفي مثل هذا الوقت اقترب من باب البركس من نادى على عمر، كلمح البصر ناوله علبة تبغ ومضى، استغرب نزلاء البركس وجود علبة تبغ بيده، إنهم يعرفونه لايدخن وطوال عمره يهاجم التدخين ويكتب عنه مقالات ويناقشهم في مضاره، ويدعوهم لتركه، نظروا إلى وجهه، تحلقوا حوله، تساءلوا، ما سرّ العلبة، قرأ الحيرة على وجوههم، طمأنهم أنه مازال على موقفه، وهي ربما تحمل أمراً هاماً، يعرفون أنه يتلقى بين الحين والآخر رسائل هامة، كل مرة تصله بطريقة

مختلفة، فمرة توضع بين أرغفة الخبز أو داخل المنشفة أو ترمى من فتحة الباب، لا أحد يعرف كيف ومتى تصل، حتى عمر لم يكن مطلوباً منه أن يدقق بالأمر، يعرف نتيجة انكشاف ذلك وعقوبته، لذلك كان يثق بالشخص الذي يدفعها إليه، فيعطيه ما لديه من رسائل، أغلبها تمده بمعلومات دقيقة عن تحرك إدارة السجن والوضع وفي السجون الأخرى، رسالة ذلك الصباح تضمنت معلومات عن افتتاح سجن جديد في صحراء النقب .

تحلق الرفاق حوله من جديد، هذه الليلة قرروا الاحتفال بوداعه، مؤشرات ترحيله واضحة، إضافة إلى برنامجهم السابق وهو الاحتفال بالأول من أيار عام ثمانين.

سرت روح المرح وتخلص الجميع من عصبيتهم وتركوا نكتهم التي تثير حميتهم، نفضوا عنهم أحزانهم إلا عمر الذي وضع رأسه بين يديه وتجول في ذاكرته، لا يراوده شك أنه حزين، جابهه المحقق بالواقع الذي كانوا يرصدونه بدقة، قال له " كنا بانتظارك "، ليته لم يفسرها ويعقب بكل ثقة، عد إلى ما نشرتموه في جريدتكم " الحرية "، ألم تقولوا إنكم مقبلون على عمليات نوعية، وإنكم تحضرون للانتقال إلى الداخل؟! هذا كلامكم، لم نتوقع اصطيدك بهذه السهولة، لتكون كبش الفداء .

أبعدوا الأغطية جانباً ورتبوا الفرشات على شكل بيضوي. ارتفعت أصواتهم وهم يعملون، ثم جلسوا على الأرض، تحرك المفتاح في الباب، أطل الحارس من النافذة وقال :

- إذا سمعت أي صوت سأقطع الكهرباء .

تطلع ثانية إلى الوجوه وصاح، ألم تسمعوا ؟

لم ينتق أي جواب، الوجوه مشدودة إلى نجاح الاحتفال، ومن أجل ذلك لم يجيبوه، ولن يتفوهوا بأي كلام للحارس ولا لغيره، يمكن أن يعكر عليهم برنامجهم. أغلق الكوة الحديدية وحرك المفتاح " تك.. تك " خمس طلقات سُمعت. اطمأن سليم على فقرته التي سيقدمها أولاً بناء على إصراره، وهو لهذا أحضر زوج الحمام الهزاز ليقدم حركات استعراضية، أعطى أوامره بأن حرك يديه وصفراً، ما كان من زوج الحمام إلا البدء بالحركات، رفع الذكر رأسه عالياً داقاً رجليه ومحرماً ذيله، وما كان من الأنثى إلا الرقص، فأخذ يدور حولها بحركات راقصة دافعاً رأسه بكبرياء، استحوذ الانتباه والتعليقات، واستمر المشهد قرابة ثلاث ساعة، بعدها

جاء دور الكلام، تحدث عمر عن طبيعة المرحلة والصراع محلاً للوضعين العربي والدولي داعياً إلى المحبة، ثم أجاب عن الأسئلة باقتضاب ليفسح المجال للغناء فترددت أغنية " برهوم يا برهوم يا بو الجديلة " وملاً عقبها جو الغرفة، فأظهر سليم براعة في الرقص ما بعدها براعة.

الاحتفال زاد الجو حرارة داخل الغرفة، خلعوا قمصانهم عن أجسادهم العرقانة، وأخذوا يلوحون بها في فضاء الغرفة المخنوقة بحرارة الاحتفال والأنفاس المبتهجة، مسحوا عرقهم بالبطنانيات، انتشرت رائحة واخزة، في حين بدأ الدوري ينهي الفقرات بالعودة إلى المزاح، أخذ يبيث نكته بينما ارتفعت أصوات الضحكات .

استمرت سهرتهم إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين. في هذا الوقت المتأخر، تسللت بعض الرطوبة إلى الغرفة لتطرد الحرارة الملتهبة الخائفة، بدا الجو مقبولاً نام سجناء البركس سبعة باستثناء عمر الذي خاف النوم اقتحام جفنيه وعينيه الساهرتين، وهذه حالة عايشها خاصة في الليلة التي يحل فيها نزيلاً أو مودعاً .

منذ الصغر والنعاس يهرب منه عندما كان يذهب إلى بيت خاله في قرية حبله قضاء قليلية، يسهر ليلة وصوله حتى الصباح، ظلت تلازمه هذه العادة طوال فترة حياته، إن كان في عمان أو في دمشق أو في مدينة القدس أو في أية مدينة يأتيها لأول مرة .

كانت وصال الرغبة تقول له: ألا تتخلص من هذه العادة السيئة! يناقشها في سبب إطلاق صفة سيئة عليها، تبتسم محاولة شرح مضارها على الصحة وعلى الحالة النفسية، ثم تطوقه بذراعيها وهي تطلب منه وعداً بأن يرتاح في ليلة وصوله، لا يسهر ولا يقلق، يعدها لكنه لا يقدر .

أغمض عينيه وأسند رأسه إلى المخدة، الأميرة تقف أمامه بكل شموخها وعنفوانها، طافحة بالأنوثة والصداقة، تبتسم ابتسامتها العذبة الشفافة، تميل بعنقها فيرسم شعرها لوحة راقصة، تشف عن جسد لدن كالعجينة، ونظرة يفوق جمالها نضارة الزهور والزنايق.

ابتسم وهو يستعيد ملامحها وتصرفاتها، ذكرته بدمشق وبدراسته الجامعية وبقاسيون وبردى وبشارع أبي رمانة المفضي إلى بيتها الأنيق، والعادات الدمشقية التي تتمسك بها. منذ اللحظات الأولى لمعرفة دخل قلبها دون استئذان، بدا اهتمامها به واضحاً، ما فتئت تردد على مسامعه كلماتها الغزلية الرائعة، كلمات



جميلة كلها دفء ومودة ولهفة وشوق. في الفترة الأخيرة ترددت كلمة أحبك في سياق حديثها، فظهر الفرح والألق في عينيها، وفار صدرها يفصح عن قلق داخلي وتوجس، سألته إن كان الحب غاية في حد ذاته أم وسيلة؟ هرب من إجابتها أول مرة بانطباق الشفتين وتوحد القلبين، وظل لا يجيب عنه حتى آخر حياته، وعندما ما يخلد إلى ذاته يتشاغل عن الإجابة .

قالت له وهما يمشيان تحت المطر :

هل هناك أروع من المطر والحب، هما لا يغسلان الأبدان فقط بل يطهرانها

!

- أنت كالمطر ياوصال قادرة على بعث الحياة من رقابها كلما ابتسمت أو أشارت عينك إليّ بمودة .

تجرت وحدثته عن الخطوبة وروعتهها، ثم صارت تذكره بمناسبات عدة وما تخلفه هذه الكلمة من تألف ومودة، جرهما ذلك من حيث لا تدري إلى الكلام عن الأسرة والحياة الزوجية. احترم رأيها في البداية، لكن الحديث حول الزواج غير مرة جعله ينتفض ويصرح عن أفكاره، فقد اتهمها بأن تفكيرها لا يتعدى أربعة جدران، حياة صغيرة وزوج وأطفال وبيت مسجل باسمها والظهور بملابس أنيقة بحيث تعطي الأولوية للشكل، ركز على أهمية المضمون والجوهر، حاول أن يقنعها بوجهة نظره التي ترى بأن السعادة غير مفصولة عن الآخرين، فالمجتمع خلية متكاملة، والسعادة في العطاء بلا حدود وبلا ثمن، أما الحب والزواج فقد قال عنهما :

- علينا فصل الحب عن الزواج، الناس يتزوجون لا للحب فقط، بل لحاجتهم إلى المتعة والأطفال، وأنا لا أشعر أن هذه رغبتني الآن ... ربما عملي في حركة القوميين العرب هو الذي ولد لديّ إحساساً بإعطاء الأولوية للقضايا السياسية والاجتماعية وليست للفردية، ربما لا أكون محقاً في ذلك من وجهة نظرك.. اعذريني .

يا صديقتي الزواج لن يهيك وقتاً أكثر مما تأخذينه، إن المسؤوليات وأشياء كثيرة ستقاسمك، وربما لا أجد ما يكفي من الزمن لمداعبتك، إياك أن تدخلني هذه المعادلة، معادلة المحاسبة والأسئلة التي لا تنتهي، أين أنت؟ ولماذا تأخرت. بصراحة أكثر أنا لا أصلح لأن أكون زوجاً، الاحتلال جعلني لا أفكر بمتعة آنية، إن كابوسه أخذ كل ما هو جميل، لم يعد التفكير به إلا ضرباً من الحلم أو

الكابوس .

حدقت به، فاضت عيناها واصفرت وجنتاها، ارتجفت أصابعها، تاهت نظراتها، حنت رأسها مطرقة لثوان بدت زمناً طويلاً، حاولت اصطناع ابتسامة، شربت ثم نظرت إليه وبعد طول تحديق قالت :

- مجنون أنت يا عمر، حكمت عليّ وانتهى الأمر، الذي يحب لا يمكنه أن يكون قاسياً! تعلم سر تعلقي وتكابر، انظر أمامك وخلفك، أنت في وسط دمشق، وتصرح بأفكار غير جميلة، المكان الجميل أيها الصديق يفترض روحاً مرهفة تحس به، حتى يتحول كل ما بيننا إلى حب خالد خلود الواحة الرائعة، دعنا نتحدث عنها، كانت محطة العرب، محطة لكل الأمم، أفنت عروشاً وبقيت يحرسها قاسيون بفتوته وشموخه على الرغم من عمره المديد .

- الله ما أروعك! أنت دمشق بكل ما فيها من حسن وفتنة، عندما أكون في حضرتك أحس بنداوة قاسيون وربيع الغوطة وتمایل الحور في دمر وهامتها. وتغريد طيورها على الأفنان .

رأق لها حديثه، ابتسمت شفتاها وتناغم هذا مع لمعان كلمح البرق من عينيها المشتعلتين، وحركات خفة جعلت وسطها يتمایل خفة ودلعاً وأنوثة وكبرياء، يحس بعبقها وأريجها وأنوحتها، تقور عواطفها شلالات، تغمر وجهه بشعرها اللاهث وراء النسومات التي تشق طريقها عبر وادي بردي، ينظران إلى التضاريس والكتل المتناثرة من الارتفاعات، مناطق التوت غنجاً فبان جمالها في تنافر وتآلف مناظرها، راقبا المياه وكيف يصير لونها أبيض، فيتشكل الزبد أثناء جريان النهر في أماكن محددة، غابات الحور تتأبط ذراع الوادي وبطنه برق وود، كشلال شعرها الهارب. تتحني الأغصان المتدلية وترشف من مياه النهر في حين أرسلت أخواتها عالية تلامس الأفق البعيد. من الجبل الصخري المنكئ على المجرى تتسلل الصبا حنونة تحرك نهايات الأشجار التي تغازل بحركاتها العشوائية ذاك الجمال المنفرد، الذي يرنو بعينيه إلى الصخور المتفتنة.. تسرح السماء في بحر من الزرقة صافية وعميقة، وهي تحاكي الطبيعة، تنتظر إلى عينيها تهيم بهما. الشمس ترتد بفعل القصب المبني والمجدول بخيطان تشده وتجعله قطعة واحدة، ليعطي ظلاً دائماً... بالقرب منهما عائلات دمشقية أو ريفية تشوي اللحم على العيدان اليابسة، التي تأخذ بالطقطقة والخوار والنشيش مع بعض الفقاعات. حركة الزبد الدائمة في هذا المكان تجعل المياه تتطاير كالرذاذ وتصل إلى ما جاورها .

ابتعدا عن الناس جلسا على صخرة، تناول يدها وأطبق كفه السميقة عليها

وأخذ يفركها، حاولت أن تتلمص من هذه الحركة، لكنها لم تبذل جهداً، تركت يدها المطوقة مرتاحة لخدورها، تمشي الشهوة في جسده وتصير غولاً مفترساً، بيده يلامس جسدها ويضغطه ويدفعها إليه، يهمس في أذنها، أحبك.. تسللت يده إلى صدرها، ملابسها تسمح لأنامله بالخريشة، صدرها يصرخ، الشفتان المتقدتان تتفرجان عن ابتسامة، القبل لا تؤدي إلا إلى مزيد من النشوة .

ابتعدا فجسداهما صارا لهيباً. عب كمية من الهواء، شعر بالانتعاش، أمسكها من يدها ودعاها إلى العودة، كانت أن كلثوم تصدح " أطاوع في هواك قلبي وأنسى الكل على شانك " ثم تردد يا ظالمني، أحس أن هذه الأغنية بالذات لها وقع خاص.

مشت إلى جانبه، عرفت أن قوامها رشيق عندما امتدت يده يلامس خصرها، فارق جسدها الحياة كلما اقتربا أكثر من المنتزهين، نظرت إلى عينيه وقالت :

- ما رأيك بالروح ؟
- أنا إنسان علمي .
- وأنا
- أنت فتاة رومانسية كمعظم فتيات دمشق .
- تريد أن تقول بأننا مختلفان فكرياً
- أنا لم أقل شيئاً من ذلك.. ما بك تصمتين.
- دعنا الآن من ذلك وحدثني لا تتبعد عني بأفكارك، لنتحدث عن الحياة، عن الفرح الذي يهرب كلما لامس عينيك، عيناك الحزینتان أقادرتان على منحي إياه؟ كيف تهبني ما تفتقده ؟
- لماذا لا تظل معي. دمشق جنة الدنيا، لا تصمت، قل أي شيء
- نظرت إليه تبحث عن ذاتها، عن حبها، تقرأ أفكاره، وعندما لم تجد ما يطفئ حرارة لهفتها أضافت :
- أحلم بك، أحلامي في عينيك، أجببتك بكل جوانحي، لا تدعني أمت حسرة وكمداً
- أنت تدفعيني للتغزل بعينيك اللتين رأيت فيهما سر الخلق وروعته،

فأدرکت کم هو عظیم ذاک الخالق

كانت وصال عشيقته التي لها مذاق شهى ولروحها انطلاق الحساسين، دائماً تدفعه إلى التغزل بها وتأمل جمالها الخلاب، والتفكير بإجابات محددة حول وضعه، ماذا عليه أن يفعل عندما أخبرته ذات مرة بأنها ستظل وفية لحبه وهي العارفة بأنه لن يتزوجها.

حاول مناقشة كلامها الغريب ورفعها للتريث وعدم اتخاذ القرار. أجابته بأنها في منتهى الذكاء حين اتخذت ذلك مبررة قولها :

- أعلم أنك تحبني وغير قادر على اتخاذ قرارك، أشفق عليك، فالذي لا يحس بالآخرين ويعواظهم تجاهه، لا شيء في العالم قادر على إعطائه ذلك، الآن ربما تفهمني، أحبك مجنونة حبت مجنون .

رنت في أذنه بقية كلامها، عبارات منداة تفتحت أزهارها في الغوطتين وترتسم الآن بقايا أوراقها وسوقها فوق جدار البركس رقم سبعة، حدق بالسقف وابتسم لبقايا صدى في الروح والقلب وفوق سطح الذاكرة. ظل طوال الليلة يتجول في بستان الذكرى، يستعيد كل لحظة مرت به في دمشق، عندما طلع الفجر نادى رفاقه أن ينهضوا، أفاقوا وهم يعلمون أنه لم ينم، كلهم يعرف عادته ويسميها سليم الدوري ليلة القدر .

سليم الدوري ابن الخليل الذي لم يعرف الحزن طريقاً إلى فؤاده، حتى عندما اعتقل وحققوا معه أجابهم ببرود أعصاب وتهكم :

- هل تظنون أنكم شجعان بانتصاركم، لا والله نحن أعطيناكم البطولة، جيوشنا تحمي الحدود وحكوماتنا ترتبط بمعاهدات رسمية، تصوروا لو لم يكن ذلك ما الذي سيحدث؟

- احرص يا حقير، أجب بقدر ما يسمح السؤال.

حرك المحقق يده بعصبية، ترك كفه تورداً على خد سليم .

كان في قمة حزنه يمزح ويضحك، أفاق صباحاً عابساً، نظر إليه عمر ملياً وقال :

- ابتسم يا أخي، أنت الظل الخفيف الباقي في البركس، الرفاق بحاجة إلى روحك المرحه، روحك التي تعطيني القوة، دعني أرّ المرح في عينيك وفي حديثك. امنحني في الفكاهة ما يبدد عتمة الطريق .

- أيها الرفيق لا أجد بلا قلب، دعني أحزن بطريقتي وأعدك أن لا يفقد الأمل ولا الفرح.

كما الرذاذ يرش الأرض ويبللها، فقد تبللت وجنتا سليم واغرورقت عيناه بالفائض من الدموع، أشاح وجهه وهرب إلى زاوية المهجع كطفل صغير أغلقت الدروب في وجهه، أو كطفل حرم من مصروفه اليومي، مسح عينيه بطرف كفه عاد وجسده يهتز، حاول أن يبدو طبيعياً، أن لا يشعر الآخرين بتأثره وانفعاله، وكفكف المطر الهاطل على خديه، تخلص وجهه المدي من احمراره، أحس بضعفه، فافتقر فمه عن ابتسامة صفراء، بلغ حزنه وكنم عواطفه، اصطنع الفرح ليدياري ما به من ألم وحزن، لو أطلق العنان لدموعه لسالت كالأردن، لكن مثل ذلك لا يتناسب مع رجولته، حاول أن يحافظ على صفاء وجهه وسريرته، ليخفي ما بداخله، فهو مرآة القلب والمعبر عن عالمه الجواني. حث الرفاق على الاقتراب من عمر. الذي يحاول أن يشغل نفسه بقراءة عواطف زملائه الذين سيفتقدونه، الحزن مطبوع في بؤبؤ عينيه الزرقاوين. عيناه تائهتان وجسده القوي تراخي، موقعه السياسي ونظرة الرفاق إليه هو ما منعه. جفف دموع قلبه التي فاضت على شرايينه وأوردته، وقبل أن تتملكه لحظة الانفعال صافحهم واحداً واحداً. أشاد المطر المزن لوحدة على قسماته، بينما خطواته المتثاقلة بانتظار أمر الترحيل.

طال الوقت، تفتت الدقيقة إلى مليون ثانية والثانية إلى أجزاء أصغر منها زمناً، منذ الصباح جهز صرته، في أي لحظة يتوقع من يناديه. خرجوا إلى " الفورة " للتنفس بعيداً عن جدران الغرفة السميكة، لا حظوا الإجراءات الأمنية المتخذة وحالة الاستنفار، مثل هذا يذكره بأيام الإضراب حين تلزم إدارة السجون طاقم السجن بالاستنفار والدوام طوال اليوم.

إجراءات الأمن داخل السجن وخارجه غير عادية، السيارة الزنزانة تقف في نهاية الممر المؤدي إلى الباحة، بحيث لا يستطيع الخارج أن يرى ضوء النهار، من البركس إلى السيارة مباشرة، بينما انتشرت الدوريات في باحة السجن وغير بعيد من هناك وقفت أربع سيارات على شكل رتل وفي المقدمة سيارة شرطة عسكرية، وخلفها واحدة أخرى إضافة إلى حوامة تراقب الطريق ودوريات راجلة مجهزة بعتاد كاف.

رُحل إلى سجن بئر السبع قبل ثلاثة شهور، حين قرروا إغلاق القسم الخاص بالأمنيين في سجن الرملة، والذي يسمى أحياناً بقسم فتح أو الفدائيين، وهي مدة كافية لخلق روح التآلف والمحبة بينه وبين نزلاء سجن بئر السبع .

الذكريات سحابة رذاذ في صيف السجن الخماسيني، يهرب السجين من واقع عذابه ووثاقه ليلوذ بماضيه، يتجاوز آلامه، ينساها، يعيش أحلى لحظاته ، تتوارد إلى ذهنه كمطرقة تدق جدار العقل وشغاف القلب، كأنها حصلت الآن، الماضي جزء من حياة الإنسان، يألف واقعه الجديد، الحياة مع جلاديه، مع المكان الذي يصير جزءاً منه، الغرفة التي تضم جسده، الرفاق الحاضر يحجل حوله، تعريه الثانية، الدقيقة، تعيده إلى الجدران السمكية والرطوبة الخانقة والحر الشديد، تصيبه الرجفة، يقتله الهم بينما يحاول التخلص من الدوار. تهرب الأفكار التي في رأسه عاجزة عن التحول إلى واقع، أما الماضي فهو المعبد الذي يؤدي فيه طقوس العبادة منفرداً .

نقل الثورة إلى الداخل عمل جبار يحتاج إلى مخلصين وقيادة ومتابعة وشعب قادر على الصمود، من أين سيستورد ذلك؟ سيعمل بما هو موجود، سيكون ضحية أفكاره، لن يترك ذلك للزمن، المباشرة بزرع قواعد ثابتة ومتحركة وتنظيم الجماهير والعمل في أوساطها، سيبدأ بنفسه، سيأتيه المستقبل طائعاً مهذباً وواقفاً على قدم واحدة يمد يده لمصافحته، يستأذنه بالدخول، لهذا اجتاز النهر إلى ضفته الغربية، الخطوة الأولى خطأها، لكن المستقبل لم يأت له لا طائعاً ولا مهذباً، الجدران تقترب من بعضها .تضغط على صدره، الخطوة الثالثة من يفعلها....ومسيرة آلاف الأميال من يتابعها؟ أيتخلون عن امتيازاتهم بالخطوة الثانية هو من خطاها، سيكون عبئاً على الاحتلال. فأشد حالات الظلمه زمن انبثاق الفجر .

في: الفورة: لم يمارس رياضته المفضلة، عيناه القلقتان تتفحصان، تراقبان تتركان بصماتهما في كل مكان الساحة قبضت على الشمس مع أول خيط من الصباح، لم ترد الأسوار العالية وصولها .

مازالوا في " الفورة " يتناقلون خبر افتتاح سجن جديد في الصحراء، لم يبق سجين في بئر السبع إلا وسمع بهذا الخبر، ويخبر نيتهم نقل عدد من السجناء إليه لتأديبهم، بعض السجناء الذين من غزة والنقب قالوا عن نفحة كلاماً لم يرد مثله في الأساطير، قالوا إنها مقر للشياطين التي تفر من الرجم أيام الحج والعمرة، إضافة إلى الحيوانات المفترسة والأفاعي وبعض الحيوانات الأسطورية.

تدخل المدرس علوان لتفسير كلمة نفحة، قال إنها مشتقة من كلمة نفح، ونفح الطيب انتشرت رائحته .

احتج الجميع على هذا الشرح، تدخل سليم مستغلاً ضعف التفسير اقترب ويده تعبيران عن رفضه لما سمع، قال وكله مرح :

- أين الطبيب يا أستاذ علوان، قل نفحت الريح اشتدت، والله أعلم !  
ضحكات خجولة صدرت من حوله، مما شجعه على الاستمرار بحديثه،  
فأضاف متهمكاً :

- لانتعمق أيها المدرس النجيب باللغة حتى لا تحولها إلى نفخ، ومنها نفخة  
البطن والريح غير الطيبة المؤذية للسمع والشم، أو انتفخ البطن بمعنى كبر وهذا  
أقرب إلى الصحة، لأنها كما علمت تل، ما رأيك؟ ضحك السامعون ووصلت  
قهقهات بعضهم أسماع المجند " عايزر " المكلف بمراقبة السجناء وقت " الفورة "  
وبتقديم تقرير يومي، مما دفعه إلى الاقتراب والإصغاء أكثر، فسمع أشياء ظنها  
مهمة حول الريح ونفخة، أسرع لإبلاغ إدارة السجن بصفته الشاويش المسؤول عن  
الأمن. غالباً يشاهد وهو يدون معلومات يعتقد بأهميتها، يكتشف عند التحقيق أنها  
غاية في النقاهاة. يقدم تقريره بعد نهاية فترة التنفس وعودة السجناء إلى مهاجعهم.  
اليوم اضطر إلى تقديم تقريره قبل دخول السجناء إلى البركسات، وهذا لا يتم إلا  
في الحالات الأمنية الخطرة التي تتطلب إبلاغاً فورياً .

" يتجمع السجناء حول عمر وينفضون، حركتهم غير عادية، بعضهم  
يضحك بصوت عالٍ، وآخرون تبدو عليهم علائم الحزن، يتحدثون عن الإجراءات  
الأمنية والتسفير إلى سجن في قلب الصحراء يطلقون عليه اسم نفحه"

في أسفل هذا التقرير وقع عايزر، قدمه إلى الإدارة وعاد إلى المراقبة  
والتنصت، ارتفع خلال دقائق إلى مردخاي مدير السجن، فنادى على عايزر،  
وطلب إليه تفسير ما كتب، وما يقصده بالإجراءات الأمنية، وما مدى معرفته  
ببعض الأسرار، تبين أنه نقل الكلمات كما سمعها دون معرفته لمعناها. عندها  
ظهرت صور الغضب على وجه مردخاي فصاح بأعلى صوته " نادِ " هزوب "  
عمر، ولد عفريت لن يمضي اليوم على خير ."

تساءل المدير عن سر معرفته بنقله إلى السجن الصحراوي، واستغرب  
إخباره، السجنانون كافة لا يعلمون شيئاً مما يجري، لا أحد يعلم سواه وهو لم يخبر  
إلا نائبه. اتصلت به إدارة السجون المركزية على رقمه الخاص، وأخبروه بأنه أمر  
سري للغاية يمنع تداوله.. ربما العطل في شريط الهاتف، بسرعة طلب إلى موظف  
الهاتف فحص تفرعات الأشرطة، بعد نصف ساعة أخبره أن لا شيء يدعو للقلق .

استدعي، دخل بشموخه المعهود، عيناه واسعتان وجبهته عريضة، وجهه

يميل إلى الطول وشارباه كثان وقد حلق ذقنه، وقف مردخاي يحدق إلى عيني عمر ويقراً ما يرتسم على وجهه، وعند مالم يجد ضالته، لف دورة كاملة كما يفعل الضبع عندما يغافل فريسته، لينثر من بوله شديد الرائحة والنتانة، ليفقدها السيطرة ليكون اصطيادها سهلاً، لم يتحرك القاسم من مكانه. بدا على مدير السجن الغضب الشديد، لم ينطق بكلمة واحدة، صار بمحاذاة خصمه قبل أن يكمل الدورة، أسرع للعودة إلى مكانه، إذ تبين كم هو قصير، تخلص من هذا الهاجس المرعب، بينما ظل عمر رافعاً رأسه كالمارد بانتظار ماسيقوله المدير، الذي حاول استدراجه ليعرف كيف وصلت المعلومات السرية، التي لا يعرفها حتى الضابط في السجن، إضافة إلى تحلق السجناء حوله ومعاملتهم له كزعيم. وابتسامته الدائمة التي تتم عن ثقة بذاته لا حدود لها.

شكلت إجاباته عن الأسئلة صفقة جديدة، غطت الحيرة وجه مردخاي، بدا خاوياً كمغارة مهجورة مغلقة الأبواب، حاول إدانته وحثه على الاعتراف بمعرفته بأمر ترحيله إلى سجن نفحة الصحراوي، سأله وفي رنة صوته الغضب والتحدي:

- أنت تعرف أمر نقلك، من أخبرك؟

- لست موظفاً عندك حتى أقدم إليك تقريراً خاصاً عما يحدث داخل "البركس" أو أثناء " الفورة " ما أنا إلا سجين يحلم بالحرية ويدفع حياته ثمناً لنورها!

- سنتدم على كلماتك، الحرية التي تحلم بها وتدعي أنك تدافع عنها سندفنها وستتحول حياتك إلى جحيم .

- إن شمس الحرية لا تستأذنكم، لها من الضياء بحيث تدخل إلى كوامن نفوسنا وتفرحنا وتثير ظلمات قلوبنا.

- أخرج من هنا ولا تدعني ألحظ وجهك أيها القدر .

أغلق الباب من الداخل، ورمى نفسه على الكرسي، كان رأسه قد نقل دوار الأرض حول ذاتها وحول الشمس إلى داخل جمجمته، رن الجرس لكنه صرف الحاجب بعد أن فتح الباب، جلس وراء الطاولة أدار القرص وقبل أن يتلقى جواباً ألغى المكالمة، ماذا يقول لهم، لدي سجين يعرف كل شيء عن أمر نقله، هل تنتهي الأمور عند هذا الحد؟ إذا قالوا نحن لم نخبر سواك، هذا أمر لا يمكن السكوت عنه، خلال ساعة واحدة عليك أن تعرف كل شيء وتبلغنا به. سيكون السجن مسرحاً لاستجابات لا نهاية لها، والنتيجة مع هذا البغل ستكون صفر



اليدين. وقد تتعدد الأمور ويبعث مدير السجن من ينوب عنه للتحقيق في هذا الموضوع، وربما يحضر بنفسه ومعه كبار الضباط. إذا سألوه كيف تسربت الأخبار ونحن لم نخبر سواكم؟ ماذا يجب وكيف يدافع عن نفسه؟ خرج إلى الشرفة وراقب السجناء، الشاويش عايزر يقوم بمهمته على خير وجه، يسجل في دفتره تقريره اليومي، السجناء يضحكون وعمر يبادلهم الابتسامة، بينما قلبه يتقطع ومعدته التي تفرز حموضتها تؤلمه، وتجعله منقبضاً. منذ الخروج إلى " الفورة " وهو وسط حلقة من السجناء، لم يمارس هوايته المفضلة الرياضة .

" إن فتح تحقيق معه عمل جنوني " وضع يده على خده الآن تأكد أن كل شيء عن الترحيل مكشوف، ترك الشرفة وعاد إلى غرفته، وضع مجموعة أسئلة على ورقة، تصور نفسه يسأله والإجابات المفترضة. مزق الورقة. الخيارات صعبة وأصعبها هو فتح ملف لهذه القضية، التي ستحول إلى ورطة، استعاد ما قاله عمر القاسم على مسامعه وهو يرد.

هز رأسه علامة الموافقة على الأفكار التي تواردت إلى ذهنه، نظر من النافذة وبدأ يحدث نفسه عن الإجراءات.. عندما ينقلونه سأنقم من هؤلاء الأوباش، سأطلق رؤوسهم وأدعهم ثلاثة أيام تحت أشعة القيط، وأجعل عقولهم تدوب كالدهن وتسيل من آذانهم، سيصيحون من الألم، سيتمزقون من الداخل، سيأتون ويطلبون الصفح وتقبيل الأقدام، سأدعهم كما هم وأذهب كل يوم قبل انتهاء الدوام وأنا مطمئن. بعد ساعة فقط سأتخلص من أعند سجين. الليلة تنتظره " فيرا" سيشعل جسدها ويزهر، سيدعها تحلم وهو يهمس في أذنها أرق الكلمات، سيأخذ ثلاث زجاجات خمر، سيشرب وينسى سجن بئر السبع وذاك الحقير الذي تحناه، الليلة مغامرته، ستسجنه بين ذراعيها البضئين، تنتظره، تدندن بعض الأغنيات الماجنة، تدير آلة التسجيل، يمتشق قوامها وهو يترنح بعد أن تخلصت من كل ما يتقل جسدها، سيذهب إذا لم يحدث جديد، ستستحم وتدهن وجهها وتبقى بملابسها الداخلية. قدها الناحل وشبقها وحرارة أوائل آيارلا تخمدها سوى السهرة حتى الصباح، والولوج إلى عالم المتعة وتغذية الأهات بالقبل، هذه الليلة سيفور كيانها من الداخل وستغلي القدور على وهج النار المستعرة، ترتفع حرارة الزفرات، تكشف مواطن جمالها وأنوثتها وتقف أمام المرأة، ترمي نفسها على السرير، تنتظر حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. اللعنة عليك يا عمر إذا لم تُنقل بعد ساعة، ذاك الوجه الصبوح سيدفن فتوته في الفراش، سأضطر إلى إطلاق الرصاص عليك وأتهمك بمحاولة هرب.

أربع سيارات مغلقة مكلفة بنقل الدفعة الأولى من السجناء. توقفت في سجن طولكرم ثم تحركت إلى بيت ليد من هناك إلى عسقلان، ومنها إلى بئر السبع حيث ستتطلق القافلة عصراً باتجاه نفحة دار عايزر على البركات نادى على المطلوب ترحيلهم، حمل كل واحد صره كبيرة، قادم لتسليم ملابس السجن، ظلوا عراة قيل أن يتمكنوا من ارتداء ملابسهم المدنية. شد الأصفاذ على أيديهم بينما السيارة الزنزانة تطلق بوقها. جاء عدد من الحراس، دفعوا السجناء بأكعاب بنادقهم وبأحذيتهم إلى خارج الغرف ومن الساحة إلى حيث تقف السيارات، وظلوا كذلك حتى أدخلوهم الزنزانة المتحركة، وهم يكيلون لهم أقدر الألفاظ " هيا يا أولاد القحبات إلى نفحة، هناك سترون غضب الإله كما وصفه قرآنكم " لم يكتفوا بذلك بل تبادوا في ركلهم وضربهم، وعند صعودهم إلى السيارة سدوا إليهم لطمات عدة، ثم أغلقوا الباب بالقفل. كانت السيارات محشوة بالسجناء ومع ذلك أفردوا لهم مكاناً ليجلسوا .

قهقه مدير السجن وأصدر أمره بالعودة إلى الحالة الطبيعية وإلغاء حالة الاستنفار القصوى. استدعى الضباط إلى غرفته وقدم لهم القهوة. أشعرهم أنه سعيد، تعالت الابتسامات والتعليقات التي ركزت على التخلص من أشرس أسير عرفته السجون الإسرائيلية، ليس هذا فقط بل قدرته على الجدل والإقناع مما يدفعهم إلى تفادي نقاشه .

لوحث الأيدي من طاقات " البركسات " العالية، أغلب الظن أنه ركب بعضهم فوق أكتاف بعضهم، أطلق سليم زوج الحمام الهزاز الذي دار دورات عدة قبل أن يتخذ وجهة الجنوب .

في السيارة الزنزانة بلغت درجة الحرارة حداً لا يطاق، فالشمس الحادة تتضاعف درجة حرارتها أكثر فأكثر كلما لا مست الحديد. يتصعب سيل العرق من الأعلى إلى نهاية القدمين مشكلاً ساقية من الحمم، ترافق ذلك مع ألم في العينين، الملوحة والذبق يخففان من الرؤية، تفرز العين دموعها، يختلط الدمع بالعرق. الوجوه تتصافح، تتلمس مواطن القوة في كل فرد. الابتسامة هي الرد على التحية وهي اللغة المشتركة على الرغم من ملوحة الشفتين وتيبسهما .

الزنزانة المنتقلة أشبه بصهرج كنفاني، لاشيء يعملها بالعالم الخارجي سوى فتحتين مستطيلتين متقابلتين عليهما قضبان حديدية... العرق المتصعب جعل ملابسهم رطبة، كطفل فعلها في بنطاله، انتشرت الرائحة الواخزة التي هي مزيج من العفونة والرطوبة والتعرق ورائحة كل منهم .

يكشف الجو والغبار الممتطى صهوة الريح الاختلاف الكبير ما بين بئر السبع وجنوبها، الرؤية قليلة بينما السواقي تلطم حوانب السيارة وترتفع كالمارد إلى الأعلى لتضيق في لجة الصحراء، ولتتولد من جديد هبوبات أخرى .

تحركت السيارة، الشمس تأتي عن يمينه، تأكد عمر أنها تسير جنوباً، السيارات بطيئة لا تتجاوز سرعتها أربعين أو خمسين. الحراسات المرافقة تتحدث بالأجهزة التي تحملها، إذ بقيت على اتصال دائم مع سجن بئر السبع حتى وصل الموكب إلى نفحة. عندها قرر مردخاي إغلاق أجهزة الاتصال اللاسلكية والذهاب إلى فيرا التي تنتظره، رفع سماعة الهاتف وأخبرها قراره ثم توجه شمالاً .

طائرة مروحية تروح وتأتي خلف الموكب وأمامه، تغيب قليلاً لتعود من جديد في حركة طيران دائمة، لا أحد علم إن كان وجودها مرتبطاً بالتنقل أم بمهمة تدريبية أو بمناورات، وظل الأمر مبهماً حتى تلقى القاسم تقريراً تضمن بأن قيادة السجون بالتعاون مع " جيش الدفاع " والشرطة، نشرت خمسين دورية ما بين طولكرم ونفحة مروراً بالسجون الأخرى ومراقبات جوية سرية ومكشوفة، إضافة إلى استنفار السجون قبل يومين.

## الفصل الثاني

نفحة تل عال في النقب، نهد على سفوحه منحدرات والتواءات، تصله النسمة نقية بعد أن تترك غبارها عند أقدامه، تتخلص من حملها الثقيل وتنتقي كلما ارتفعت، وصلته الجرافات فخربت حلمته وكبيراهه وأزالت تعرجاته، فلم يعد ثدياً فتيماً، بل صار كصدر عجوز أزيل ما فيه من توثب، ليبدو امرأة منسدحة على وجهها.

الذين يذكرون هذا التل يحكون قصص عشق سورت التواءاته وجناباته، عند كل منحي جلس شاب وفتاة من البدو يتصارحان، بعد أن أرهقهما ما يحسان به كل تجاه الآخر دون قدرة على البوح، تعاهدا جانب صخرة أو نبتة شيح، وككل محبي البدو لا يصل العاشق إلى حبيبته، التي تكون من نصيب الذي ارتضاه أهلها صهراً. تمر الأيام وتحفظ الذاكرة الشعبية بقصص الوله والعشق، فيظل المحبون أحياء في المكان الذي ارتادوه، وتظل قصصهم على كل لسان. وصلت الجرافات هرست في طريقها كل أثر للماضي، لم يعد واضحاً مكان قطشة وعود وحمدان وغزالة وهذيل وهيلة وعقل وبورة.. ولكل واحد من هؤلاء قصة حب تقطع نياط القلب، وللحجرين المتقابلين قصة مع الشتاء، إذ تواعد عاشقان في ليلة باردة، جاء والظلام يلف المكان، لم يبصر أحدهما الآخر، ظل كل منهما ينتظر الآخر وهو غير بعيد عنه سوى أمتار قليلة دون أن يعرف بمقدم حبيبته، وعندما جاء الصباح كانا قد تجمدا برداً، وتوقف القلبان. منهم من قال إنها مارسا الحب بعد لقائهما فمسخهما الله، ومنهم من قال إنها آدم وحواء حين خرجا من الجنة عراة، ارتاحا أثناء سيرهما الطويل باتجاه الشمال في هذا المكان.

تنتصب حول التل الخيام السود مع نهاية الشتاء، في سنوات الخير يستوطنونه وغالباً ما يتذرون به من الرياح الغربية والجنوبية، فالبرد في الشتاء " يقص المسمار " ويتسلل إلى العظام جافاً دون مطر، أما بقية فصول السنة فصيف قانظ وعجاج لافح وعواصف رملية. ينتقلون مع الريح ويبنون خيامهم في

الطرف المقابل، فيصير مصداً يحميهم. في الصيف تخف درجة الحرارة كلما بلغنا أعاليه، هناك تسمع همهمات قادمة من الأعلى، تبحث عن مصدر ذلك فلا تجده .

الخماسين رياح الموت الصفراء تحيل كل شيء إلى رمادي قاتم، يسود الجو، يغبّر، يصير خانقاً وترتفع سحب الزوابع حاملة الدقيق وذرات الرمال، تدخل بعض حبيباته الناعمة إلى العين، فتحد من الرؤية، يضطر إلى فركها، تدمع وتخرج الحبيبات الرملية التي تتحدر إلى الخدين. يقال إن مصدر تقلبات الرياح الشديدة كونها تؤمر من الجان. كلما كانت شديدة فدلالة على أن ملوكهم على رأسها يفرزن عرسانهم. للبدو تقاليدهم الخاصة في مواجهة هبوبها، منها رش الماء والملح والرماد المتبقي من النار وقراءة بعض الآيات وقصار السور والأدعية، ودعوتها أن تتجنب المرور بخيام الكرام بقولهم " هبي على البخيل " .

هذه نفحة وسط صحراء واسعة تحاول التمدد والتمرد و السيطرة، إذ غازلت النقب بتلالها ورمالها ماجاورها، حاولت منذ آلاف السنين أن ترحف إلى البحر، فكانت تردّها عوامل الطبيعة والتضاريس، إلا أنها استطاعت أن تفرض شيئاً من ذاتها على ما حولها، لتشكل امتداداً طبيعياً لها غرباً وشرقاً وجنوباً.. أمواج المتوسط وحتى الأحمر تصطف منتظمة خلف بعضها، تسحبها الرياح في محاولة لحفظ التوازن، ورد الهبوب القادم من الجنوب والشرق والمحافظة على الذات، وحتى لا تزداد حفرتها الانهدامية. الأمواج تترنج وهي تغيب في غياهب اللجة، لكنها تظهر من جديد أكثر فتوةً وعنفواناً لتبدأ حياتها.

من أعلى التل تبدو الدنيا أكوام رمال وأرضاً منبسطة تارة ومحدودية تارة أخرى، لاشيء سوى " متسفي رامون " التي تبدو أطلالها من التل، شرقاً ودياناً سحيقه وجبالاً متفاوتة الارتفاع، تتصل بالأردن من ناحية الطفيلة. غرباً هدير الطائرات يتعالى في كل الأوقات، مطار ريمون يقع غير بعيد من هناك. من فتحات السجن تبدو مدرجاته، وترى بعض الطائرات الهابطة والمقلعة في حركة دائمة لا تتوقف .

وصلت السيارات بعد مسير ست ساعات لاهثة إلى السجن الصحراوي، مالنت الشمس إلى المغيب، مغيبة آخر شعاع نورها في الوقت الذي توقفت فيه السيارات. أول ما سمعوه نباح كلاب مفترسة، تقدمت حتى صارت أمامهم مباشرة، مكشرة عن أنيابها ونباحها يشق سكون المكان.

ترجل السائق والمرافقون وهرع من نفحة من فتح باب السجن وأبواب

الزئذانات، البناء مؤلف من قسمين منفصلين بينهما ساحة للوفرة مجمل مساحتها أقل من مئة وعشرين متراً مربعاً، أما بناء الإدارة فبعد مدخل الشارع مباشرة، يبعد عن السجن تسعين متراً .

توجهت السيارات من بئر السبع إلى مثلث ديمونا ثم إلى مستعمرة بن غوريون، واصلت سيرها جنوباً في عمق النقب، وقبل متسفي رامون بعد كيلو مترات اتجهت السيارات يساراً، وصلت نفخة، المكان يتوسط المسافة بين الحدود الأردنية والمصرية .

السجن كتلة اسمنت امتدت على مساحة واسعة من التل، ترك بلا سور خارجي استثناء لانراه في بقية السجون. وهذا لايعني أنه غير محصن، حوله صفان من الأسلاك الشائكة على ارتفاع متر ونصف المسافة بينهما أربعة أمتار داخلها كلاب بوليسية تحولت إلى متوحشة عند وصولها إلى هناك، إضافة إلى ثلاثة أبراج مراقبة عدا البرج الأساس الكائن فوق السجن مباشرة والذي يكشف المنطقة بكاملها مجهز بألات رصد واستكشاف طوال أربع وعشرين ساعة .

السجن عامر بطاقمه، في المقدمة مدير السجن عرام اليمني الذي نقش ريشه وتصور أنه سليمان الذي أخضع الإنس والجن. أعطى أوامره المشددة، الغضب مسيطر عليه وواضح في كل كلمة يتفوه بها. صاح بأعلى صوته فتفرق الإنس والجان. ترك السجناء صرهم على الأرض، لاحقتهم كلماته وأسواط السجنائين:

- يا أولاد الزناجئتم إلى جهنم، أقسم بيهوه وبأستير أن نحول هذا المكان إلى مقبرة. سندفنكم وأنتم أحياء. إنكم لا تستحقون الحياة وهذا شأن أعدائنا، العرب جميعاً سيأتون إلى هنا ويقبلون أحذيتنا. إن من يقاثل شعب الله المختار حقت عليه اللعنة والمذلة، وأنتم لا تستحقون أكثر من ذلك .

قال عرام ذلك ثم أمر الجنود باستخدام سياطهم. يهرول السجناء في الباحة وطاقم السجن خلفهم، بدأ التعب والإرهاق في هذا الجو المخنوق بالحرارة والغبار يؤثر عليهم. وقع عشرة من شدة الإعياء في حين اقتربت الشمس من رمال الأرض بشكل مذهل ومخيف، فزاد لهيبها المخبوء في طيات جسدها الناري. لم يمنع الظلام استمرار التعذيب، أنيرت الساحة بالكهرباء. خمسة آخرون ترعفوا وسبعة انسدحوا على الأرض. توقف السجناء عن الجري يللمون جراحهم. السياط تفرقع في الجو وعلى أجسادهم، زحف عمر هرباً من الضرب أمامه ثلاثة ينزفون، ابتعد عنهم ثم عاد إليهم وأخ يقودهم واحداً واحداً إلى صنوبر الماء. التهب جسده

من وقع السياط، رفض تركهم كما طلبوا إليه، تظاهر بالإغماء تركوه، حاول أن ينتهي بأقصى سرعة من إسعافهم، طلب آخرون الماء يرفعون أيديهم، فقرر المضي بعمله مهما كان النتيجة، الضرب ينتهي، يترك أثره، وماذا أكثر من ذلك، إنقاذ رفيق واحد يساوي حياته. طاردهم الكلمات المنتفاه من أفواه قادة السجن ،

- يا أولاد القحبات كيف تفكرون في الوقوف في وجه إسرائيل الجبارة، حكوماتكم انهارت خلال ساعات أمام قوتنا. أنتم ما الذي تستطعون فعله أيها الأرناب المذعورة !

نظر إلى الأعلى زوج حمام يرفرف فوق رأسه، ابتسم وتذكر روح صديقه المرحة لحظة سمع كلمة الأرناب، قال له مرة :

" هرب أرناب فسألوه عن السبب، فقال يمسون الإبل ويوردونها للذبح .  
- وما علاقتك ؟

أجاب: - يكون وقت مضى حيث يتأكدون بأنني لا أنتمي إلى الفصيلة المطلوب القبض عليها، وحده الله وربما رسوله أيضاً يعلمان، إن كان جلدي سيظل فوق جسدي، بعد أن يطلبوا ويدريكوا عليه، ويزفوا عروسهم على صوت تمزقه ."

ضحك سليم الدوري حين أخبرته بأن هذا الأرناب مثقف، قرأ التوراة وفهم ما قالته حين ساوت بينهما واعتبرت الأرناب كالجمل من المجترات .

بعد ثلاثة ساعات من العذاب والشتائم، طلب عمرا إلى السجناء خلع ملابسهم، وعندما تأكد من تعريتهم تحدث مع نائبه رحيم وتوجه إلى مكتبه. كان فرحاً بمنظرهم، سعيداً إلى أقصى حدود السعادة فهقه وهو في طريقه إلى مكتبه. جمع اثنان الملابس وكوماها بعيداً، حضر من يلبس معطفاً أبيض بيده مبيد للحشرات. رش ملابسهم، ثم رش السجناء من رأسهم إلى القدمين بمادتي الغوثيك والكبريت .

رش الممرض " كويا" السجناء ثلاث مرات حسب أوامر رحيم، ارتفعت غيوم بيضاء ورمادية وانتشرت في الجو ترافق ذلك مع روائح بترولية وكيميائية. مما جعلهم يتحرقصون ويهرشون أجسادهم، ازدادت حاجتهم للحك مع شعور بالخطر والنتميل. ظهرت بقع ظهرت بقع حمراء وزرقاء في مكاني الحك والضرب.

أشبه ما تكون ببقع التحسس أو التهاب الكبد .

ضحك نائب المدير وطاقم السجن من حركات السجناء الراعشة، طلبوا إليهم الوقوف في صف طويل. اقترب رحيم من الصف وتفرس في وجوه السجناء، فالذي يبادل النظر يضعه في الزنزانة، ثم أمر السجناء بتوزيع عهدة السجن، لكل سجين صرة ملابس فيها بنطلونان وقميصان برتقاليان، فتأكد الجميع أن هذا هو اللباس الرسمي للسجين. عند الساعة الحادية عشرة تم توزيع السجناء على الغرف. كان نصيب عمر الغرفة الأولى، غرفة متطاولة ككل الغرف ستة أمتار طولها وعرضها أقل من أربعة أمتار بحيث تكون مساحتها الإجمالية عشرين متراً مربعاً، غير بعيد عن السقف نافذة مستطيلة بعرض فتر وطول ستين سنتماً. الباب مصفح ثخنه بحدود ستة ميليمترات في نصفه العلوي طاقة صغيرة تفتح وتغلق من الخارج. فيها خمس خزائن بلاستيكية مقسومة إلى نصفين .

اتخذ عمر مكانه القريب من الباب، وكل واحد من التسعة الباقين اختار مكانه. أخذ كل واحد ينظر إلى وجه الآخر ليكتشف إن كان يعرفه أم لا. بعد دقائق بدأ التعارف الذي لا يبد منه. قدم كل واحد نفسه. علي الجعفري، إسحاق مراغة، الشيخ عباس، حسان فياض.. اكتشف القاسم أن الجميع يعرفونه مباشرة أو من خلال ماسمعه عنه، أحس بعنق المأساة المترتبة في صدر كل منهم. في داخل كل سجين غصة وقصة وحديث مع الذات لا ينتهي. قبل لحظات سألت نفسه، ماذا فعل الرفاق من أجله، أما زالوا مؤمنين بأن التحرير يأتي عبر الحدود والبلاغات أم من الداخل. إنه يعرف الإجابة وما فعلوه إلا أنه مازال مضطراً للظهور قوياً متماسكاً .

" التاريخ أشبه بالكذوبة على الطلاب أن يصدقوها، يدرسون عظمة أمتهم ويلمسون تفاهتها، يعيشون على الأمجاد الغابرة، وأمجاد اللحظة تتلاشى، فالقاموس عجز عن ضمها بين دفتيه. ما فائدة قولنا الحضارة ابتدأت من هنا، والتاريخ كتبنا أبجديته، أعطيناها للعالم، هنا أم الحضارات. نظرة واحدة من مدرس التاريخ تشعرك أن المعادلة مقلوبة، نرفع شعارات ونطلب تحقيقها فوراً، بعضهم يعتقد أنها تحققت بمجرد رفعها، قلائل يدركون أنها الطريق إلى السلطة. يناضلون لتحقيقها فلا يحصدون سوى الهواء، إن تحقيق الشعارات أشبه بحراثة البحر. الوحدة ليست اجتماع زعيمين يوقعان عليها فتصير نافذة، الوحدة نتيجة وليست مقدمة " .

اعترض أحد الطلبة وذكر عمر بأن درسه هو لغة إنكليزية وليس درس تاريخ، لكنه سيجيب عن سؤال حول الأحزاب ثم يبدأ الدرس .



سأل علي الجعفري أربعة أسئلة ودخل في نقاش حول مفهوم الحزب والحركة والموقف من الدول العربية، وعندما علق أحدهم بقوله " كيف يتصرف إخوانك في حركة فتح خلف الحدود " .

- لن أذاع عن فتح مع أنني مسؤولها أقول بأن الآخرين ليسوا سوى نسخ. كربون عنا، هم ناضلوا الزعامة احزابهم ونحن ناضلنا من أجل فلسطين.

علق إسحاق مراغة وردد مقولة السجن للرجال، والذين خلف خطوط ثرثرة النار يتمتعون بنعم لها أول وليس لها آخر .

تجادل حسان والشيخ وكادا يتعاركان، الشيخ يرى أن الجهاد فرض عين على كل مسلم قادر على حمل السلاح وتحرير المسجد الأقصى أول مهمة على المسلمين تنفيذها. في حين لم يكن حسان جاداً في نقاشه فعلق :

- رحم الله أجدادك أيها الشيخ، أي جهاد تقول، دعنا من الكلام الخيالي الذي لا ينفذ ولا تستطيع أن تجمع أحداً حوله، حدثنا عن الواقع ولا تدخلنا في جدل أوله كلام غير حقيقي وآخره كلام بكلام .

- أنت تنتقص من كلامي أيها الفاسق، ألم تسمع قول الله تعالى " وأعدوا لهم ... "

- سمعته وحفظته، لكننا لم نعد شيئاً لمجابهة عدونا، لاتظن ياشيخ أنك أكثر مني إيماناً .

- النقاش معك يوجع الرأس، الليلة سأناقشك في كل شيء، فإما أن تقنعني أو أن أقنعك .

- لن يقنع أحدنا الآخر.

الماضي يتوحد ويتداخل مع الحاضر وهو الأب الشرعي، قبل ساعات مع سليم الدوري ومع شيخ البركس، يمرحون وكأنهم في قهوة أبي جابر الكائنة في وسط القدس، زایلهم شعورهم بأنهم سجناء، أحسوا بمتعة الألفة، إنهم أقوى من إدارة السجن، مدير السجن اختصرها ولم يستطع المواجهة.. الآن هو غريب على الرغم من الألفة التي يبديها السجناء تجاهه، فإذا كان إحساسه هكذا، فكيف بقية السجناء! كان واضحاً من المفردات البسيطة وتعابير المجاملة التي تعاملوا بها، وهذا يوحي بأن على كل واحد أن يعرف من جديد طباع الآخرين، ويتصرف بشكل مقبول. إنه في معتقل جديد. تطلع إلى رفاقه السجناء، قعد على الأرض، مسح وجوههم بابتسامة، ثم عاد إلى ذاته يفكر في مواجهة حملة الإهانة المتعمدة،

سيطر الغضب عليه فبدأ كقنبلة نزع صمام أمانها، ومع ذلك ظل صامتاً، إنه يشبه طفلاً يحاول بين فترة وأخرى أن يسيطر على انفعالاته ويبدو متمسكاً. قال :  
- السنابل التي تحني هامتها أمام العاصفة، تفعل ذلك لتحافظ على ذاتها وتعود منتصباً من جديد وتبدأ دورة حياتها وعطائها .

الأيام التي تنتظرهم صعبة، وعليه من الآن أن يختار أصلب المناضلين، ليعتمد عليهم في المسيرة الطويلة داخل السجن. اليد وحدهما لا تصفق. أسند رأسه إلى الحائط أغمض عينيه، شعر بارتياح، الجميع يوجهون نظراتهم إليه، تجاهل ذلك عندما التقت عيناه بهم، تلقى ابتسامات كلها غصات عينيه، شعر هرب من الإجابة عن السؤال الموجه إليه، مالعمل ؟

انفرد بذاته، شعر بالذنب تجاه المقاتلين، كان عليه أن يرسم خطة الثورة في الداخل ويزج بالقيادة قبل أن يزج بنفسه، عندها سيهز الجبال الراسيات ويتحقق حلم الثورة .

ابنة الرغوة تركض أمامه، يلحق بها، يضمها إلى صدره، تلحق به، تضرب عرض الحائط بنصائح أمها، ستصل شجرة ابن سفيان أو تقطعها، أفضل ألف مرة من العذاب الذي تعيشه، فقدته،

لم تتوقع أن يبقى معها في الشارع وفي الفراش وفي ذاكرتها المتعبة وعلى المائدة، غير قادرة على التخلص من خياله، جاهدت والدتها ل تمنعها من السفر إلى القدس، لكنها كانت قد قررت المغامرة، فإذا لم تسافر فقد تصاب بمرض أو يصيبها مس من الجنون، عيناها متورمتان كل صباح وخداها ذابلان تكاد قوتها لا تساعد على النهوض ،

القدس جميلة بكل ما فيها من آثار وأناس ظن عاشت أربعة أيام دارت فيها ولفتها بصحبة عمر، وخلا كنيسة القيامة من باب صغير غير بعيد عن خان الزيت ومياحة الدباغة، تملأ ساحتها وأعمدتها اللاتي ترفع ناظريها لخالقها، انطلقاً إلى باب الساهرة الذي يقع ضمن برج مربع، وإلى الباب الذهبي الذي يقع جنوبي باب الأسباط، وفي المسجد الأقصى صلت ركعتين طلبت من الله أن يبارك حبها. عادت عصرًا، رمت نفسها على الفراش متعبة وهكذا في كل يوم.. ضحكت كما لم تضحك من قبل، شدت على يده خوفاً من ضياعه، الوجه المبتسمة التي قابلتها ارتاحت إليها. أحبت أم عدنان وقضت معها ساعات طويلة تستمع إليها خاصة عندما تحدثها عن عمر وهن في الفراش.. اشتاقت لدمشق وأخذت تتحدث

عنها شوارعها وساحاتها وأبوابها فهي بالنسبة لها وللشاميات شيء آخر؟، جنة لا تجدها لا في عدن ولا في القاهرة، ولا في أي مدينة في العالم حيث النهر والجبل والغوطة وجمال النفس والروح، في آخر يوم طلبت إليه أن يعود إلى دمشق، رفض بعناد وقال :

- منذ متى يترك الإنسان وطنه ليعيش في وطن من يحب

- إنها العروبة التي تتادي بها ما الفرق إن كنا هنا أو هناك، لا تتس أن دمشق أعطت لبنها وأرضعت كل العرب من قيس وعدنان .

- هذا الكلام يصح لو لم يكن وطني محتلاً، مصير الوطن لا يكتبه إلا الشرفاء ..

ظلت تحاوره خائفه عليه من نفسه ومن بنات القدس ومن الأردن ومن قادته ومن اسرائيل .لكن رفضه كان نهائياً لا عودة فيه. سكبت دموعها وهي تنظر إلى وجهه وعينيه الزرقاوين، صعدت إلى السيارة، جلس إلى جانبها حتى قبيل تحركها، وضع يدها في يديه، وقال لها :

- أنت أنشودة وتاريخ وجرح وفرح، سأظل أحبك، وداعاً .

نزل من السيارة ولوح لها ثم اتجه إلى بيته، دفن نفسه في الفراش أياماً عدة قبل أن يتمائل للشفاء .

في أول مساء لسفرها ظل القمر راقداً يحلم بعشاق حدد يرافقونه طوال الليل، لم يجد سواه يسهر معه الليل الطويل وليالٍ آخر، يتجول في الزمن يستعيد شيئاً من حيويته، ويللم كلمات العشق التي قرأها والتي اسمعها لحبيبتة، الآن تأكد أن الجرح الذي حاول أن يرتقه قد فتح فاه، وأن الصدر الذي تحترق فيه النيران ستظل مشتعله فأنشد: في القلوب تشتعل النيران، فيولد الحب وتتمو الحرية، لكن النيران تظل متقدة،

فيهرب الحب وتحترق الحرية، ويسافران إلى بلاد تعرف الحب وتقديس الحرية.

في الليالي التالية توشحت السماء بالغيوم، وهبت رياح السموم، في النهار بكت الشمس واحتجبت، تفرقت الغيوم تاركة لونها الرمادي الذي أخذ بالتبدد، بينما فقد القلب توجهه، وتدنثر بالسحب، في حين بدأت الرياح ترتوي من نبضاته، فهدأت في الخارج .



الوخيمة، أصح لنفسك وأعرف من حولك، أي تطرف تعيشه!

في الصباح رافقها إلى أريد ومن هناك عادت إلى دمشق دامعة العينين،  
منكسة الرأس، خاوية، قررت أن تصلي كل يوم لينقذه الله. لقد أدركت أن  
أفكاره ستجره إلى الهاوية، ولاشيء أمامه سوى الموت.

لاشيء يجعله يحس بإنسانيته سوى الذكريات، سيعيش على شذا الماضي،  
سينسى أنه قام بعملية وقبض عليه ومازال في السجن، اثنتا عشرة سنة عد أيامها  
وساعاتها ودقائقها لحظة بلحظة، ولاشيء سوى التعاسة، ما زال يحتفظ بأدق  
التفاصيل. العذاب الذي تعرض له. تساءل عن الإنسانية والحرية والعدالة وأفكاره  
حول ذلك. الثورة الفرنسية وما طرحته.

هل هو إنسان؟ هل في الدنيا من يتحمل العذاب؟ فكيف إذا كان مسلطاً  
عليه! السياسي متقف واع يرسم حدود ذاته وتطلعاته، يخط بيده على جدار الزمن،  
يسجل اسمه، يحلم بالحاضر والمستقبل، لم يتخلى يوماً عن أحلامه، وهو القائل:

- أذا توقفت أحلام الإنسان توقفت حياته .

حاولوا أن يقنعوه بأنه يعيش بلا خيال ولا أحلام، تذكر قسمات الذين عذبوه،  
وجوههم وأنوفهم، أيديهم القاسية وأصابعهم الغليظة، أكفهم التي تشبه خف الجمل،  
ملامحهم الخشنة وكأنهم قدوا من الصخر .

- أنت لا شيء، عليك أن تتسى اسمك وتاريخك وتكف عن الأحلام .

- تستطيعون فعل كل شيء إلا ذلك .

- هل يفارقني لحظة، حلمي هو حياتي .

الدم حار ومالح، خدر، تتميل، فقدان الألم والغيوبة. بدت قدماه وكأنهما  
محروقتان، لا يستطيع المشي، حتى إذا وضعهما على الأرض، أحس بالوجع  
والألم الفظيع الذي ينطلق إلى رأسه. يقف، يكشف عن أعلى قدمه، يمشي ويده  
على الجدار، بضع خطوات ثم يجلس على الأرض، ليعيدهما إلى دلو الماء البارد

كان شعاره من أفشى بسر، سهل عليه الإفشاء بغيره. اصمد، تحمّل للضرب  
والعذاب نهاية. الصمود وشرف المقاومة وإثبات الذات، العرق يتصبب من جبين  
معذبه، يداه تؤلمانه لكثرة الضرب. عيناه لا يظهر سوى بياضهما. النظرات  
تتحدى، تراقب. عيون الجلادين تشتعل حقدًا، عيناه لا ترمشان .

ليل مرعب دامس، أوقات حزينة تمر في الذاكرة كل دقيقة، سجلت خلال أيام قليلة عذابات لا يستطيع البشر تحملها، عذابات تمارس ليلاً ونهاراً، الشمس ترسل أشعتها لتكون شاهدة، تلف دورة كاملة من جديد، تجدد لهيبها. الألم ينتقل وينتقل في جسده، عبر دروب تزرعها الضربات والركلات، فما من بقعة في بدنه إلا وصافحت جارتها معلنة خجلها وضيق تنفسها وإزراقها وتحجرها أو انفتاحها ساكبة أرجوانها. دفعته هذه الأيام لتجديد حياته واستعادة ماضية، لديه ألف سبب للصمود، خاطب ذاته وهو في قمة ألمه، لا بد من الابتسامة وخلق السعادة وإلا فالحياة تفلت دون رجعة، واليوم الذي يمضي لا يرجع. يكفيه من السعادة أنه مازال صامداً، وأنه قادر على الحركة ومغازلة الشمس واستحضار الزمن، قهقه وهو ينظر إلى معذبيه، ويرثي لحالهم ومستقبلهم. لو عاملوه بشكل جيد واحترموا، لأعاد النظر في المقولات التي تعلمها، لو طبقوا المبادئ التي يتلفظون بها من الحرية والديمقراطية لكان حزينا! لأن من يتصرف بمثل هذه الثقة يكون واثقاً من ذاته ومبادئه.

أمضى أيامه في مركز الاعتقال بعزلة تامة، لا يسمع خيراً ولا يقرأ صحيفة ولا يعرف مالذي حل برفاقه، ولا مع الذي ظلوا وراء النهر، ينتظرون أن يبيّن تنظيمياً أن يحقق شعار حرب الشعب، تساءل، ترى هل سيعملون على طريقه، أم إنهم يخنقون. هذه الكلمات عذبتة أكثر من سياط الجلادين، لا يجد لها أي جواب، مع أنه قادر على التخمين، إلا أنه لن يترك العنان لفكره يشطح .

ردد بينه وبين ذاته بأن الأيام القادمة ستجيب عن هذا السؤال. بصق على الأرض فاذا بقع من الدم تختلط مع لعابه، الجروح لم تلتئم بعد، جسده يئن .

أوثقوه إلى الشجرة ثلاثة أيام وهو يراقب ما يحدث، ويسمع صيحات الألم، وتحرشات الجنود، يضربونه على خده، يشمتونه، يبولون. نظرة واحدة تجعلهم يختصرون ما جاؤوا من أجله. ترى أيهما أشد إيلاً أن يتعذب مباشرة أم يعذبوا غيره أمامه ؟

تأكد أنه غير قادر على فعل شيء، لأن الأيام التي مرت من القساوة بحيث يحني الموت رأسه ذليلاً. الشيء الذي لن يقدر عليه هزيمة مبادئه وروحه .

احتضن الشجرة لتكون شاهدة على ممارساتهم ولترسل مع الريح زفراته وغضبه، عليها تصل بصوته إلى البعيد، ربما يسمع بعضها الذين شرقي النهر، لينقموا لتعذيبه .

الذين يتلذذون بالتعذيب يضحكون وهم ينفذون أوامر أسيادهم، هل يمكن أن تكون في نفس أي منهم كرامة؟ هؤلاء باعوا أعلى ما عندهم، وهم ليسوا أكثر من بغال تجيد الضرب والرفس وكل صنوف التعذيب.

تذكر كل لحظة من لحظات الفرح حتى أدق التفاصيل. نقاشه مع وصال وكيف صرخ في وجهها حين قالت له، تستطيع أن تصير غنياً وصاحب أملاك، أنسييت أنك قائد !

- سأدفع ذلك من كرامتي

- لا كرامة لفقير .

البقاء في قيادة الثورة شرقي النهر يهبه مزايبا، لا أحد يشك بأقواله وأفعاله، المؤيدون له يشعرونه بأنهم تحت الأوامر، يرون ما يراه، يدافعون عنه ومستعدون لخوض المعارك لأجله والتضحية بأرواحهم. لكنه رفض هذا حين احتدمت النقاشات والمهاترات حول أولويات الصراع وساحته الرئيسية، والتحرير الذي هو ابن صيحة في وادٍ، شعار افترعوه، صار كبنات الهوى .

قدم نفسه إلى الموت حين رُفرف في سمائه ورافعه مشواره غربي النهر، لكن الموت رفضه، خاف منه وعفا عنه مرات، حين فشل في الهائه ليقوم. بمهمته. هز رأسه وتمتم بضع كلمات قبل أن يضع رأسه بين يديه ويمسح دمعة تسلت دون إرادته. تململ أحد السجناء بسمل ثم تعوذ من الشيطان الرجيم، توضأ وهو يردد " ربنا آتتا في الدنيا حسنة وفي ..... " ثم صلى صلاة الصبح، ودعا الله أن يهزم بني اسرائيل ويذلهم ويفك أسر السجناء. دعا في سره دعوات لم يسمعها لأحد، شفتاه تتحركان، وبعد طول دعاء مسح بيديه على وجهه. ابتسم عمر ودارى ضحكة، تذكر سليم الدوري و" مقالبه " يعلق على شيخ البركس سبعة بقوله " بركاتك يا شيخنا " يقترب منه، يمسح بيده على كتفه وظهره، ويمسد على ثيابه، يضح البركس بالضحك. في البداية تماسكا وكادا يتضاربان، لكنهما عدلا عن ذلك في آخر لحظة. أنذره الشيخ بنار جهنم وبئس المصير. تدخل الرفاق وانهوا حالة الخصام.

لكن سلمياً لم يتركه، ظل يمازحه ويمسكه حتى أقنعه ذات يوم بأن الإيمان في القلب والدين المعاملة، وهو صلة الوصل بين العبد وربيه، فتحول ذلك الشيخ عن التدين، فلم يعد قادراً لا سليم ولا غيره على النيل منه. أما شيخ نفحة فإنه أطل في الصلاة، ظل أكثر من ثلث ساعة وهو يدعو إلى الله كلما مرت إصبعه

على حبة من حبات السبحة الطويلة، ينتهي من طوافها فيردد بصوت مسموع " الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور.. اللهم أجعل أول النهار صلاحاً، وأوسطه نجاحاً، وآخره فلاحاً يا أرحم الراحمين .."

انكفأت النجوم باهته، وهرب الظلام مقدمه لطلوع الفجر، تناول الشيخ القرآن وأخذ يتلو سورة الفجر والشمس والليل والضحى والنجم والقمر.. ارتفعت الشمس مقدار رمحين، فتقلص الظل شيئاً فشيئاً، سكبت أشعتها على الرمال، الشيء الذي لم تستطع إيقافه أوردعه الريح الصفراء الباهتة، حلقت الطيور وارتفعت زقزقتها في الفضاء. كانت كلما اقتربت من السجن تغرد أكثر، تهبط جماعات على الأرض، ثم تطير أسراباً إلى البعيد تتموج في طيرانها محاكية التضاريس، أصغى لتغريدها فتناهى إلى سمعه شبابة الراعي، أصغى ثانية، لاشيء يأتي سوى صفير الرياح، شبابته وريد يضخ دمه. تراقص فؤاده مع أول خيوط النهار. في نفحة شعر بحاجة إلى البكاء والغناء معاً. الغناء لا شيء يمنعه من ذلك أما البكاء فقد فاضت دموعه تسقي شرايينه، لتصير أكثر نداوة. دمدم بصوت خافت يردد:

O, My darling  
O. My darling climling time  
you have gone and lost for ever .

آه يا ابنة الرغبة، لماذا حكمت عليّ أن أظل بلا زواج؟ الآن فقط أدركت خطورة ذلك، أن يكون الإنسان بلا زوجة ولا ولد. تحسس بيده جروحه، شعر باللذة وهو يمرر يده على فخذها وصدورها والآه تتطلق من ضجرتها ... انتبه إلى رفاقه فكف عن الحلم .

في ألامس ناموا جائعين، وها هي الشمس ترتفع خميسن رماً ولم يحضروا الإفطار ولا الغداء، عندما فتح الباب توقعوا ذلك، لكن العسكري جاء يحمل أمراً بالنزول إلى الباحة. تعالى الصوت في المكبر يعلن ذلك ويطلب إلى جميع السجناء الاصطفاف مرة حسب سجونهم السابقة، ومرة حسب غرفهم في سجن نفحة وثالثة حسب الطول. في كل مرة يصدر الشاويش إلياهو تعليماته، الجميع ينصت. وقفوا ساعتين تحت الحرارة، استلم كل منهم فرشاة إسفنجة رقيقة وبطانيتين .

الشمس مالت إلى الغروب تناول رواية زوايا اليوناني لكانتزاكي، تأمل الغلاف وملاح وجه بطل الرواية، الفتاة التي تحاول تغطية نهديها، بينما صدرها عار وأعلى فستانها نازل عن كتفيها. من عادته القراءة في مثل هذا الوقت حتى يقتل الفراغ، تساءل إن كانت هذه الرواية ستفيده في اكتشاف الحياة واكتشاف



زورباله، فأيهما زوريا الفيلسوف البسيط أم صاحب المنجم. وهل المنجم في الأغوار أم في الضفة؟ ناقش هذه النقطة مع ذاته، فاكتشف أن المنجم مازال مستوراً. افترض مجموعة افتراضات، شعر بغصة في حلقه وحزن دفين وهو يقلب صفحات الرواية، وخلص إلى أن زوريا متهم، والمتهم ستثبت التهمة عليه وينال عقابه حتى لو كان بريئاً. صحيح مثل هذا الافتراض، لكن ماذا يعني ظلم عشرة أو ألف أو حتى مليون أو ملايين.

فتحت الطاقة بعد الغروب. ناداهم العسكري لتناول طعام العشاء، تناول عمر الطنجرة الأولى، وسكب لكل واحدة كمية من الشورية، أعاد الكمية إلى الوعاء وصبها ثانية في محاولة لتحريك الرز أو العدس أو البقول المستخدم. لكن بحثه راح سدى، إذا اكتشف أن الشورية مياه ملونة، لا يستطيع أعظم غواص التقاط حبة أرز أو عدس. أما الخبر فإنه قدير له قساوة الحجر. الطنجرة الثانية وزعها الشيخ عباس، ومع أنه صب بركاته، فلم يسجل حالة غوص واحدة داخل بحيرتها. إذ ادرك أن المياه الملونة لا تصلح سوى فتة، فطلب إلى الجميع الاحتذاء به، وصبّ المرققة فوق القديد. فعل ذلك وهو يهز رأسه وكأنه طرب. أكل وشكر الله على نعمه التي لا تحصى .

حسان فياض الذي ولد في عكا المدينة الهادئة، ونزح عنها مع أهله إلى الضفة الغربية تنقل في مدنها ثم استقر قبل سنتين في رام الله. راقب كل حركة قام بها الشيخ عباس فعلق بكلمات فيها الكثير من الهزل والمناكفة ومنها قوله:

- وهل السجن نعمة ياشيخى ؟

- وحد الله ياولد ولا تدخل الهزل بالجد .

كانت لهجة الشيخ حاسمة، نظر إليه بعينين تقدحان غضباً، تدخل بقية الرفاق ومنعوا حسان من الرد، فبلع ريقه واقتدى بالشيخ. فت قطعة الخبز بالشورية، ثم شرع في الأكل وهو يتطلع إليه .

الجميع فتّوا الخبز وبلوا ريقهم، ثم حمدوا الله وشكروه مرددين الكلمات التي سمعوها " الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواه " وضعوا الأواني جانباً، جمعها حسان ووضعها قرب الباب ثم مسح بيده وردد قولهم: " الحمد لله "

نظر إلى الشيخ بعين القلق والغضب، توقع الجميع من الشيخ تعليقاً يزيد النار اشتعالاً، لكنه صب الماء على الجمرات .

لم يكن حسان والشيخ عباس الوحيديين اللذين تخاصما، فقد انقسم الذي في

الغرفة إلى فئات وظهرت المشاحنات، إذ نقلت سلطات السجون إلى نفحة سجناء مختلفي الأمزجة، قامت بدراساتهم وصنفتهم إلى ثلاثة أقسام. عصبوا المزاج وآخرون هادئون ومفكرون، فكانت كل غرفة مسرحاً فوضوياً لفعاليات غير متجانسة. انقسم بعض الذين في الغرفة إلى مؤيدين للشيخ أو لحسان.

تدخل علي الجعفري وإسحاق مراغة وعمر القاسم لإنهاء الخلاف وبتره.

ظاهرة الخلاف موزعة على الغرف بالتساوي، تخطى عمر عن برنامجه التثقيفي والرياضي في سبيل الوصول إلى حل. راقب وسجل التصرفات والحلول المقترحة، انفرد كل يوم مع واحد، أشعره بأنه يعتمد عليه في حل المشاكل، لم يمض الأسبوع الثاني، إلا وبدأت هذه الظاهرة بالتلاشي من الغرفة رقم واحد، وتلاشت نهائياً من السجن بعد شهر ونصف.

كانت إدارة السجن بالمرصاد تراقب مايجري ولا تحرك ساكناً. بعد شهرين تأكدت أن ظاهرة الشغب والعنف بين السجناء قد زالت نهائياً. تدخلت إدارة السجن لتخلق مشكلة من نوع جديد، فقد أخذت تستدعي كل يوم واحداً، تطلبه مرة وقد تطلبه مرات ومرات، مما خلق جواً من عدم الثقة. قال علي الجعفري:

- نحن نثق بكم ولن نستطيع سلطات السجن زرع الشكوك .

كان هذا رأي عمر الذي طالب بإعادة الثقة إلى نفوسهم، وعدم زرع الفراق وتفسير الأمور على هواهم. ثم شرح الأهداف المتوخاة من وراء ذلك، واستطاع أن يعيد الثقة لكل الذين استدعتهم سلطات السجن .....

بدأت تُفقد بعض النقود ثم فقدت بعض الملابس أثناء الفورة، تساءل الجميع ترى من الذي يفعل ذلك وقيل أن يجيبوا عن السؤال، اتفقوا على وضع حراس للغرفة، فعينت كل غرفة اثنين للمراقبة، وذات يوم بينما الشيخ عباس مرابط قرب الباب، شاهد الشرطي يدخل، لوح بيده إلى حسان الذي جاءه راكضاً، راقباه وهو يأخذ الملابس، وتركاه حتى خرج من الغرفة فأمسكا به، وبدأت الزفة.

اجتمع كل من في الفورة. وهتفوا بصوت واحد " هذا الحرامي، تعال وشوف يا سلام على اللص السارق " وعندما سئل الشيخ عن حكمه قال: " السارق تقطع يده". بغفلة من إدارة السجن حصل ما حصل في الباحة، وعندما وصل الأمر إلى نائب المدير. كان السارق يصفع ويشتم مما خلق حالة بليلة وفوضى. ترك رحيم مكتبه وأطلق بوق الخطر فاجتمع السجناء في الباحة. أعطى أوامره باختصار الوقت المخصص للفورة وإعادة السجناء إلى غرفهم. راحت أوامره مع هواء نفحة

وكأن أحداً لم يسمعها. واصلوا البقاء في الباحة حتى انتهاء وقت الفورة.

لم تكن ربع الساعة الأخيرة التي أمر باختصارها هي المهمة. بل حالة التمرد والموقف الموحد للسجناء، وعندما أدرك صعوبة ضبط الأمر ترك كل شيء على حاله حتى انتهاء وقت التنفس .

باشر التحقيق فاستدعى الشيخ عباس وحسان وعلي الجعفري وعمر القاسم.

- أيها الشيخ ألا تخجل من شيبتك، تقاد بشعره كما يقود الاعرابي البعير .

- البئر ينضح بمافيه .

- اخرس يا حقيير خذوه ..وأنت من الذي دهى بعقلك للتمرد ؟

أجاب حسان: هذا ليس سؤالاً بل إهانة.

- لم فعلتم ما فعلتموه مع الشرطي ... اخرس لا تقل ذلك أنتم السارقون خذوه. أما أنت فأنس أنك عضو لجنة مركزية في " منظمة تخريبية "، ستسى هنا ماضيك ومستقبلك .

- أنتم تستطيعون فعل كل شيء سيء .

- خذوه عشرة أيام في المنفردة .

لم يبقوا سوى ساعات. مساءً رفض السجناء طعام العشاء وأعادوه. كان هذا التطور غير موضوع في الحسبان. إنه عصيان وإنذار بموقف صلب ومقدمة لإضراب. تراجعت الإدارة إذ لم يكن في نيتها التصعيد، طلبهم رحيم وتفاوض معهم حاول الحصول على اعتذار، ولكنهم رفضوا ومع ذلك أعادهم إلى الغرفة .

بعد نجاح السجناء في فرض إرادتهم، بدأ التخطيط لإضراب طويل الأمد لا يقتصر على نفحة، ومن أجل هذا شكلت لجنة ثلاثية ضمت كلاً من راسم حلاوة مسؤول قوات التحرير الشعبية في غزة وعلي الجعفري وعمر القاسم. درست عملية القيام بإضراب للسجون. اتفقت على صيغة رسالة توجه إلى السجون الأخرى خلال الأيام القادمة واتخاذ الترتيبات المناسبة. نصت الرسالة على إعداد مشترك للسجون، وطلبوا الآراء والمقترحات لبدء الإضراب. في أسفل الرسالة دونت عبارة لجنة إضراب سجن نفحة .

انتقلت صيغة الرسالة إلى سجون بئر السبع وعسقلان وبيت ليد وجنيد وطولكرم ورام الله وغزة المركزي وجنين والشطة خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من حزيران الثمانين. تألفت على أثرها لجنة مسؤولة عن الإضراب في كل سجن لا

تريد عن خمسة أشخاص .

ولّى أيار برياحه الخماسينية، وأقبل حزينان بشمسه الساطعة ونهاره الطويل، والّت درجات الحرارة ارتفاعها حتى وصلت الخمسين، فاخفتت المناظر المألوفة لقطعان الإبل التي ترعى وتحوم حول التل . أنتقل البدو مع قطعانهم شمالاً أو غرباً حيث الحرارة أقلّ والماء أوفر في مكان قريب من الريف والمدينة، إذ على بعد كيلو مترات تبدو كل من مدينتي غزة ورفح. هناك يقضون الصيف داخل خيامهم السود.

مع اقتراب الخامس من حزيران استعدت إدارة سجن نفحة للاحتفال بالانتصار الساحق على ثلاث دول قبل سنوات خلت. منذ الصباح لم تتوقف حركة السيارات القادمة. حضر المدعوون الذين عرف منهم حيوت وهايمن مدير سجن عسقلان ونائبه، لفي جونسون مدير سجن الرملة وعاموس مدير قسم فتح في الرملة، مردخاي مدير سجن بئر السبع، مع طاقم سجن نفحة عمرام ورحميم. مساءً حضرت فرقة موسيقية فبدأت الحفلة التي استمرت حتى الثانية صباحاً. قدمت فيها مختلف أنواع المشروبات والمأكولات، وغنت لإسرائيل الكبرى ومجدت السجون. كان من بين المدعوات زوجات المسؤولين وصديقات مدراء السجون. فيرا التي ترددت على سجن بئر السبع فتاة نحيلة شقراء تسكن تل أبيب ، لبيبة اليمينية ذات القوام الحنطي عشيقة حيوت المراكشي، وغراسيا التي زارت سجن عسقلان غير مرة، وانجيلا التي جاءت مرة إلى نفحة، وأخريات غير معروفات للإدارة يلبسن الثياب الهفافة الرقيقة، صدورهن دالعة وشعورهن مرتبة إما على شكل قصة حديثة أو تسريحة مطبقة على شكل هرم، وبعضهن نقشنه وأرخينه على راحتهم ومنهن من عقصنه على شكل ذنب أو جعدنه كالعبيد.. الغناء يتردد في غرف السجن، تابع السجناء السهرة، الضحكات والنكات المقدمة ضد الجنود العرب، ففي فقرة احزر، قال المذيع من يعرف كيف قبضنا على الجنود الفارين على الرغم من ارتدائهم الثياب المدنية وتخلصهم من سلاحهم؟ تعالت أصوات وارتفعت أيد بقصد السماح بشرح هذا اللغز، فاختر المذيع مردخاي مدير سجن بئر السبع، تعالى التصفيق، قال:

" شالوم " ... رفع يديه محيياً ثم واصل حديثه :

" كنت مكلفاً بمواصلة الخرق، تجاوزت قواتنا المظلية المنطقة التي لم نحتلها بعد انعدام قوة الخصم وسحبه لجيوشه، هبطت خمس طائرات مروحية، واستلمت الطريق العام، سمحنا للمدنيين بالمرور، في حين كنت أدقق على الحلاقة وأثر

البوط العسكري والمطاطية على رجليه، كان منظرًا رائعاً لن أنساه"

عاد المذيع ثانية فوجه سؤالاً آخر :

- من يحزر كيف ألقينا القبض على " المخربين " .

ساد جو من الامتعاض لدى النطق بهذه الكلمة، تخللته ضحكات ماجنة وتعليقات لاذعة عن الإرهاب، فعاد المذيع ليخفف من وقع جملته وليطمئنهم بأنهم هناك في الأقفاس كالأرانب، وإن شئتم التفرج عليهم فابقوا معنا حتى الصباح، لتروا ذلهم، رفعت فيرايدها واقترحت متابعة الغناء والرقص لأنها جاءت لتفرح وتضحك وتبعد الهموم عنها، أعطت بحركة من يدها إشارة البدء للفرقة الموسيقية لتبدأ عزف الحانها الصاخبة التي رافقتها نقرات الأكعاب وأغان مثل:

" سنتحقق حلم العودة، حلم يهوه الجبار، ونسحق الرعاع وتسور المياه دولتنا " خيم الحزن على السجناء وصعدت دموعهم إلى رؤوسهم عصية ولنتوقف هناك راسمة مجموعة غيوم وحزن لا ينتهي. في صباح الخامس من حزيران جاء الشاويش المناوب في السادسة، وعند فتحة الباب صاح " اسفيرا" أخذ التقفد اليومي كعادته، وعد السجناء بطعام لذيذ وطلب إليهم أن يبتهلوا بالبقاء لإسرائيل. صاح السجناء " الفناء لإسرائيل " .

في السابعة أحضروا طعام الافطار، لم يكن محسناً كما وعد. الشيء الوحيد الجيد كون الخبز طرياً وملفوفاً بأكياس نايلون كتب عليها بالعبري " البقاء لإسرائيل، مع تحيات جيش الدفاع في يوم الخامس من حزيران " لاشك في أن الخبز جيد وطازج كأنه أحضر للتو من الفرن.. بعد الأكل استمر العمل، فذهب ثلاثة سجناء للخدمة الذاتية، بينما خرجت الدفعة الأولى للتنفس.

لاشيء حي في هذه الصحراء الواسعة سوى الصرار وبعض أنواع الفراش الصحراوي، وأسراب قليلة من الطيور تمر من هناك متجهة غرباً، وتلك الأرض المزروعة جانب السجن، والتي يسمونها " جنة عدن" زرعوا فيها أشجار متنوعة بداية بالحمضيات وحتى البلح. الثمار فيها طوال العام. في الشتاء الليمون وفي الربيع الموز وفي الصيف التفاح والإجاص والعنب والتين وفي الخريف الزيتون، مسيجة بصفين من أشجار السرو والصنوبر. أما المطار فهو كخلية النخل. إنه أكثر حيوية من أي شيء آخر يقع غربي السجن. تقلع منه في كل مرة طائرتان " ف 16" لا تتركان الجو لحظة واحدة. تلفان حول النقب ثم تحطان في ريمون بعد إقلاع اثنتين أخريين وتلقي إشارة العودة. تساءل السجناء عن جدوى وجود

معسكر في الصحراء ما بين الحدود الأردنية والمصرية والسعودية! والتدريب المستمر وعدم ترك الجو فارغاً من الطيران. وكأنها مهددة بغارة جوية بين لحظة وأخرى، وليس هذا الذي يثير الفضول، بل وجود ضباط أمريكيين يعملون في المراقبة الجوية طوال اليوم. بقيت هذه التساؤلات دون إجابة محددة، كل واحد أجاب بطريقته الخاصة .

كان هواء النقب ثقيلًا في ذلك اليوم محملاً بالحرارة الشديدة الخانقة. العرق يتصبب كدموع كانون. كمية الهواء في الغرفة لا تكفي لتنفس عشرة. الطاقة القريبة من السقف تلعب دوراً هاماً في تجديده، ولولاها لا نحبس الهواء تماماً وماتوا، لهيب جهنم يندفع من هذه الغرف، درجة الحرارة نهاراً لا تطاق، الشمس تضرب الحيطان والسقف، تحول الغرف إلى فرن والسجناء إلى أدوات تهوية تحاول التخفيف من عبق الجو وحرارته، ملابسهم كلها عرق يعصرونها، ترتفع الروائح وتنتشر في الغرفة، روائح هي مزيج من رائحة البول والعرق واخزة لدرجة لا تطاق، أما الأكل فكميته لا تكفي إذا استثنينا بعض الأيام كيوم الخامس من حزيران وعيد الفصح وعيد العرش ويوم الغفران. الإثارة غير كافية خاصة في الليل، في كل مهجع مصباح كهربائي يضاء حتى العاشرة وبقيّة السهرة على الشمعة أو العتمة، النظافة معروفة أدواتها يحتفظ بها المدير، فيتكاثر الذباب وينتشر القمل ويكون عوناً للإسرائيليين. ليس هذا كل ما هو سيء. الأوامر العسكرية يجب أن تطبق بحذافيرها دون تردد أو تذمر، وهذا جعل السجناء يعيشون حالة قلق. يستدعي الضابط أي واحد منهم في أية لحظة دون تبرير، وأحياناً يطلب إليه الانتظار خمس دقائق ثم يعيده إلى غرفته. حتى التجمع لأكثر من ثلاثة ممنوع، وممنوع الاقتراب من الغرف، حتى الزيارة التي يحلم بها السجناء ويعيش أيامه على أمل لقاء ذويه واقتناص واقتناص لحظات السعادة معهم، اختصرها، فبعد انقضاء ثلث ساعة يترك الزوار سجينهم ويعودون وفي عيونهم دموع لا ينشفها إلا الزمن. هذا بعض ما يلاقونه، الحنظل طعم حياتهم .

أعلى عمرام أوامره عبر جهاز الإرسال من مكتبه، ولم يدخله بل بدأ يراقب، في أثناء الفورة يظل ماداً بصره إلى الباحة، يراقبهم كيف يمشون، وكيف يتحدثون معاً، وإذا صادف أن ألقى أحد السجناء نكتة أحضره إلى مكتبه نبيه لأنه تجاوز العرف بقوله :

- الضحك للنساء، هل أنت امرأة لأسمح لك؟! إنه لا يليق بسجين قدم روحه فداءً لما يؤمن به من أهداف. إذ رأيتك مبتسماً ثانية سأقتلع أسنانك وأقص

لسانك!

أصدر أوامره مباشرة إلى الضابط المناوب وإلى شاويش الساحة والعسكري المناوب ليحضروا أي سجين يتطلع إلى " جنة عدن" أو يحاول إدخال السرور إلى قلب رفاقه، وكذلك المشاغبين، لتبدأ حفلة الإهانة والضرب والتعذيب، كل من في الخدمة مستنفرون حتى الحارس والشرطي عيونهم باتجاه باحة التنفس وتصرفات السجناء وقت الفورة، كان عمرام يراهن على إذلالهم وتحطيم معنوياتهم، لا يخرجون إلا جثثاً هامدة أو عاهات بحاجة إلى خدمة وهو القاتل:

- سيحتاج كل واحد إلى اثنين لخدمته .

كان الحل ما اقترحه القاسم على رفاقه الذين ناقشهم بالعمل المفيد داخل الغرف وفي فترة التنفس، وقتل الفراغ الذي يجعل الجسد والروح ذاويين، فيشعر الإنسان بأنه رقم زائد في هذه الدنيا فتهون عليه كرامته، الأيام الثقيلة لاشيء يعيدها إلى حيويتها ومرحها إلا بالمطالعة والعمل؟

أطفئت الإنارة في تلك الليلة بعد العاشرة، استمروا بسهرتهم، خمسة أحاطوا بالقاسم يسألونه ويناقشونه، وأربعة يلعبون الورق، أصواتهم تنتشر في الجو، أربع ساعات يقضونها بألعاب " الطرنيب، الكونكان، الباصرة ..."

يصيح صاحب الدور :

- فت الورق أنا طرنبيي ديناري .

بنظرة من عيني رفيقه يفهم قوة ورقه عندها إما أن يصمت وإما أن يزيد ثانية، عند إعلان النتيجة يشارك الجميع في الضحك والاستهزاء من المغلوبين الذي يتلقون شروط الغالبين بصدر رحب ويطبقونها، وهي في العادة أشياء بسيطة يقومون بها هدفها التسلية مثل، هيا حكوا مؤخرتكم بالحائط أو انبخوا كالكلاب، وانهبوا كالحمير، يفعلون ذلك وهم في مرح عارم، أما الثأر ورد الاعتبار ففي الليلة نفسها أو الليلة القادمة.

الورق جنية تقتل الرؤوس، تريحهم من كل شيء إلا من ذاك الداء، ينسون كل شيء مهماتهم وأعمالهم ومطالعاتهم، يقتل الوقت وهم خاملون .

عندما قرر الجميع النوم تناول عمر الشمعة، غداً يوم زيارة، كتب رسالتين إحداها على ملابسه الداخلية مباشرة والأخرى صغيرة بحجم حبة الفول. قرر أن يضعها في فمه مكان ضررس مخلوع، سيجد اللحظة المناسبة لا يصلها، طوال الشهر الماضي حرم من الزيارة ومن مصروفه اليومي والشراء " الكانتينا "

والرسائل، ضبطوا واحدة من الرسائل التي ألقاها داخل الغرف المجاورة أثناء فترة التنفس. سلمت إلى الضابط المناوب، الذي طلبه وسأله حول الرموز الموجودة فيها وطلب تفسيراً منطقياً للجمل غير المفهومة، مازال يذكر كلمات الضابط: " أحمل بطانياتك وإلى المنفردة، ستجد على جدرانها لوحات تزينها الرموز، لا تنسى الإكثار من نجمة داود ".

بعد سنوات الاعتقال الطويلة، يدفعونه للمنفردة لأتفه الأسباب، الزنزانة شيء فظيع، باب مغلق وجدران تقترب من بعضها حتى تكاد تحطم جسده، لا يستطيع الوقوف، عليه أن يحني رأسه، وغير قادر على التمدد فعرضها أقل من متر وطولها متر، حتى إذا قعد أو قرفص يشعر بالبلل وكأن أرضها تنز ماء، ينسى نفسه ليلاً فتصطم قدماه بالحائط ويضرب رأسه بالجدار، عاش فيها أياماً طويلة، لكنها الآن نسي كل آلامه، يعيش وكله أمل، يعلم رفاقه الذين يحيطون به ويقول لهم صراحة:

- من أجلكم أحتمل عذاب السجن!

في الزنزانة يُحرم من المطالعة ومن أي حق آخر، وينتظر تبدل الزمن الذي قرر أن يوقف مسيرة الأيام التي لم ترضخ، فها هي الأرض تدور، وهاهو بأحسن حال ينتظر الزيارة.

منذ الصباح ظهر بملابسه النظيفة وقامته الفارعة، وحلق ذقنه ولطف شاربيه، وقرر أن لا يحدث أحداً ولا يجيب عن أي سؤال أو يدخل في نقاش سياسي قبل رؤية أمه، التي تحدثه طوال الزيارة فلا تترك شاردة ولا واردة إلا وتخبره إياها. الذين في الغرفة يعرفونه، عندما يكون مشغولاً بشيء لا يتكلم أي كلمة خارج الموضوع الأساس. الزيادة والرياضة والمطالعة والتنقيف والحوار مع الآخرين مواضيع مقدسة لها أوقاتها، لا يسمع لأحد أن ينال منها.

تناول طعامه الصباحي نصف بيضة وقطعة خبز بقدر الكف وكأس شاي، إنه إفطار مقبول إذا قورن مع بقية الأيام، مع أن جسمه بحاجة إلى خمسة أضعاف ذلك. الشيء الذي يفكر به ذلك الشاب الفكاوي الذي تغير بسرعة، أشياء كثيرة تتبدل في الكون دون جواب شاف، إلا أن تبدل حسان شغل فكره. منذ أيام وهو يعيش حالة انطوائية، جدي هجر الهزل، يعيش عالمه الخاص بعيداً عن رفاقه، لا شيء يثيره، دائم الصمت والتأمل، ظهر عليه الهم، ازدادت شكوته من وجع رأسه وقلة نومه، ينسج من أحزانه سمغونية يلحنها وحده، تضاعف هذا الشعور يوم الزيارة بالذات، إذ أحس بانقباض شديد، وكأن أمراً مخيفاً يطارده. كل



من في الغرفة يتحدثون عنه، شعر بذلك، ماذا يقول لرفاقه؟ تردد، وازن موضوعه فقرر أنه لا يستحق التصريح. انكش على ذاته أكثر فأخفى كل شيء جواه. إذا سئل أيكذب أم يعترف بأنه يفكر بفتاة، خجل من نفسه، فمثل هذا الكلام يبقى في القلب، ومع ذلك ظلت الفكرة تطارده حتى عند النوم، ولم يتخلص منها بقية الأيام لافي الفورة ولاداخل الغرفة وأثناء الطعام .

حسان فياض الذي ملأ الغرفة بهجة طوال الشهر الماضي يتحول إلى شاب صامت. ذهبت الظنون بهم كل مذهب، فمنهم من ربط ذلك بطول مدته في السجن وسوء المعاملة. لكن الفريقين لم يحزرا فهو وعباس كالعسل كل عرف طباع الآخر فأبعد الخلافات، وصارا صديقين اشتركا في القبض على العسكري ودخلا المنفردة. الشيخ عباس لم يجد تفسيراً، بدأ يتودد إليه ويدعو له بعد كل صلاة، وعندما لم يجد دعاؤه نفعاً طلب إلى عمر القاسم التدخل، قال له: " إذا كان حسان يحمل في قلبه شيئاً، سأذهب وأعتذر منه وأقبل رأسه، كلنا يد واحدة، أم أنا غلطان؟"

- حاشاك من الغلط يا شيخنا، بارك الله في همتك، سأحدثه وأعرف قصته وأخبرك .

ناداه وهما في الفورة، تحدثا في البداية في أمور شتى، وعند انتهاء فترة التنفس دخلا الغرفة وتابعا حديثهما، جميع من في الغرفة ينتظرون النتيجة، تجادلوا حول موضوعه وحول قدرة عمر الوصول إلى حقيقة الأمر. تولدت لدى حسان ثقة لا حدود لها من خلال ما سمعه في الفورة والآن، فتح قلبه ونطق بأول جملة طلب فيها أن يكون هذا الأمر سراً داخل صدريهما، لأنه يعاني من ثقافته وعدم علاقته بالسجن، هذا الذي جعله يعاني الوحدة، ويدفن أحزانه في فؤاده المنكسر. عندما قبض على طرف الموضوع، ربت على كتفه وقال له:

- اعتبرني أماً أكبر .

انفجرت شفتاه عن ابتسامة اغتصبها إغتصاباً، ثم حدثه بكل دواخل نفسه ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وحكاها. شكره عمر على ثقته وأوضح أنه لو كان عنده مثل ذلك لما حدث به الجميع. " الحب والجنس الآخر مسألة طبيعية يجب أن تفهم ضمن هذا السياق. إنه موضوع طبيعي لشاب لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد، والمدة الباقية لسجنه سنتان، سنتان وتكون خارج السجن، تتزوج وتكون أسرة. عليك يا حسان أن تصنع قصة حب وأنت هنا، ألا تعرف بنات قبل أن تسجن؟ ألم تتحدث ولو مرة مع إحداهن؟ ألم تتحرش بواحدة ونفرت. ألا يستطيع خيالك

الخصب استحضار واحدة؟ إن استطعت فاخبرني لنكمل الطريق".

سرح بفكره، اقترب منه، التعابير والخرائط المرتسمة على وجهه تفضحه، هناك مايمكن أن يفضي به، أخرج لفاقة وأشعلها، أخذ نفسين متلاحقين، وضعها فوق إناء قصديري خصص لهذا الغرض، نفض بالشاهد على السجارة فسقط ما احترق، تناولها من جديد، يحتاج إلى وقت لجمع أطراف صورتها وليلمم الموضوع في فكره.

تراجع ومسحة حزن تملو جبينه .

لم يقل عمر شيئاً، راقبه، لحق به، حثه على الكلام. وبعد جهد قال حسان:  
- لا أعرف كيف أبدأ، إنها ليست قصة، كل ما في الأمر أنها تمر يومياً من أمام بيتنا، أعجبت بها. هذا كل شيء، فهل هذا الموضوع يستحق اطلعك عليه؟

- عظيم يارفيق، أنت مرهف الإحساس، علينا إذا لم نجد الحب أن نخلقه.  
تذكر كيف كانت تنظر إليه وتمضي، على وجهها ابتسامة ذابلة، لحق بها، قفزت وهربت وعندما دخلت المدرسة أشارت بيدها، في المرة الثانية نظرت بغضب وقالت :

- لماذا تحدثني؟ هل تعرفني وهل بيننا علاقة؟ امش في طريقك والزم أدبك وإلا ... كادت تهوي بمحفظتها على رأسي. بعد أيام أشارت إلي وهي تحدث رفيقاتها، خجلت وابتعدت، وكأن دورية لحقتني وعندما ابتعدت قليلاً هرولت .

بعد شهر واحد اعتقلت، لم تفارق صورتها خيالي، ربما الوحيدة التي أثارت اهتمامي وحاولت بناء علاقة حب معها، تطاردني في اليقظة والنوم، تملأ أفكارني وحواسي، هل هذا هو الحب أم أنها حالة مرضية ؟

" لم أفهم ما حدث معي، هل تتذكر فتاة شاباً مشى خلفها مرات، ولم يستطع أن يغتصب منها كلمة جميلة واحدة. وفي كل يوم يمشي خلفها العشرات وتسمع كلمات أحلى، لكن لم يذوب قلبي كقطعة من الزبدة؟"

رأسه طاحونة دورانها بطيء لكنه لا يهدأ، المفاصل نابض تخلي عن مقاومته. يحاول جسده السيطرة على قواه. تقياً ما في معدته ثم تمدد على فراشه، في اليوم الثاني ناداه عمر وقال له:

إنها هي ولا أحد سواها .

كانت هدى شعبان في الإعدادية طفلة، أما عندما نجحت إلى الصف العاشر وغادرتها براءة الأطفال، انتفض جسدها وثار من الداخل. بدت شابة أنيقة، فكر كيف تتحول الأنثى إلى ثمرة، رفعت رأسها مزهوة وعيناها تسيران الطريق وتدفقان في القادمين. غيرت بعض طباعها ومشيتها بعد اهتمامه، اعتنت بهندامها ووضعت قليلاً من المساحيق والأصبغة، أشار عليه:

- أرسل لها تحية .

- تصدني كما فعلت ولن تسمع تحياتي .

- يا عزيزي المرأة لا تفكر بطريقتك. إنها عالم سحري يبهرك كلما اقتربت منه، ابتعد تره على حقيقته، صدقني ستكون مسرورة إذا بعثت بتحياتك، ستبني مجدها الوطني بالتقرب إليك. إياك أن تفعل مثلي، تتجاهل نداء قلب المحب بحجة العمل الوطني، فالوطنية تبدأ وتنتهي بأكذوبة أمام الحشد .

شجعت هذه الكلمات، عاد إلى مرجه، انتظر قدوم الزيارة كمن ينتظر حبيبته، بدأ يعد الأيام والساعات، عندما جاء اليوم الموعود لبس أفضل ما عنده من ثياب استعداداً، وخلق ذقنه فبدت عليه الأناقة. ظل طوال فترة انتظاره متوتراً. نادره قفز كالأرنب باتجاه الباب، كما توقع أمه ترفع ناظريها وتحقق إلى الساحة، وقد بدا عليها التعب والارهاق. تغيرت تعبيرات وجهها فقد غزا المرح محياها مجرد رؤيته، تقدم وقبل يديها وسألها عن الجيران، ثم حار وطفح الحزن على محياها، توقف عن الكلام، نظر إلى عينيها وابتسم، خمنت أمه أن لديه ما يقوله فتوقفت عن الأسئلة،؟ انصتت وعندما لم يبح قالت :

- أراك غريباً، شيء ما يشغلك حدثني يافلذة كبدي وادخل السرور إلى

قلبي.

أجاب بخجل وغنج مصطنعين :

- ما أخبار هدى.. هدى جارتنا ابنة إبراهيم شعبان ألا تعرفينها .

ضحكت أمه وبان على وجهها الانشراح وبلهجة العارف قالت :

- ماذا تريد منها، ولماذا تسألتي عنها ؟

- هدى يا أمي ..

لم يستطع أن يكمل، التفت جانباً وحنى رأسه إلى الأمام. كانت عيناها تفضحانه، تشعان ببريق، وشفاه تتراقصان وتقرنان عن ابتسامة خجلي، عند هذا

الحد فهمت أمه ما لم يستطع قوله فعلمت :

- آه مثل يا ولدي، قل بأنك تحبها وأنا آتي بها، لم لم تخبرني من الزيارة الماضية؟ هدى وغيرها تتمنى هذا الموقف، أن يسأل عنها من وهب حياته للوطن. اعتمد عليّ وداعاً .

ضمته قبلته وصارت تشمه، حاولت أن تشرك حواسها في لحظة كهذه.

أمينة خليل أم حسان محبوبة من الجيران، لطيفة ودود تمازحهم، دائماً ضحكته شبر كما يقول العامة. نادى على هدى وطلبت إليها أن تقترب وتغلق الباب، وأشارت إلى المكان الذي ستجلس عليه. قبلتها وداعبت شعرها وأخذت تسمعها بعض الكلمات الجميلة. وبعد مداعبة أخبرتها أن حسان يسأل عنها .

خجلت تورد وجهها ثم اصفر وصار كالزعفران، أسبلت جفניה ونظرت إلى الأرض غير قادرة على المواجهة، الكلمات خانتها، فلم تستطع النطق، اقتربت من أم حسان أكثر وقبلتها. بعد فترة هدوء شعرت أن قلبها يقفز ككرة اليد ويلزمها مرمى لتدفعها إليه. تخيلته يلاحقها، تخبئ وجهها خجولة، ترن في أذنها، أنت أجمل فتاة.. أحبك، لم تتم تلك الليلة.. في صباح اليوم الثاني قرعت الباب فأخذتها أم حسان بالأحضان،

هيا ادخلي فقهوة الصباح جاهزة .

أحضرت الركوة وصبت في فنجانها، ظهر عليها الخجل، شربته على عجل ثم ناولت أم حسان ورقة وانصرفت :

" حسان تحياتي، أنا سعيدة لاهتمامك، سأسأل والدتك عن أخبارك، اهتم بنفسك ولا تشغل تفكيرك، فنحن بخير طالما أنت صامد ..."

فتح حديثه مع حسان جرح في القلب، وقفت أمامه الايام الخوالي بقامتها المديدة، تذكر حبيبته دفعة واحدة، كانت علة تراقب شيئاً ما، شددت السماء اهتمامها ونظرها، حدقت بعمقها ورحابتها ونظرت إلى عينيه. تابعت مراقبتها لطائر صغير يتنقل من غصن إلى آخر، يتأمل الفن الأول جيداً قبل أن يحط على الثاني. أوحى إليها هذه الصور بفكرة عن جمال الطبيعة وروعته، التي تشدها كما تشد كل الفتيات، وكيف تصير الأرض بستاناً بوجودهما، تساءلت، لم لا يكون هو ذاك العصفور أو الفراشة وهي وردة حمراء أو ثمرة شهية، قادر على قطف الثمار والأزهار؟ غطت مسحة من الحزن ملامحها وقبل أن يقرأ أفكارها، شدته إلى داخل البستان، كان مبتسماً ومحدثاً بارعاً، كل كلمة وإشارة تدل على

التوافق العاطفي التام بينهما. ما معنى قوله إن الحياة دون ابتسامة مقبلة، نسيت ذاتها ضمته إلى صدرها وقالت له:

ابتعد عني، أنفاسك تحرقني، وشفطاك تدمرني كيربائي .

في حين كانت وصال الرغوة ذات أنوثة صارخة. جسدها يرقص مع مشيتها مع كل حركة من حركاتها، يرقص وهو داخل ثيابها، يشعر برقصتها عند وضع يدها في يده، ورشاقتها أثناء السير في الشارع، وانحناءات جسدها حين صعودها السيارة أو الصعود إلى قاعة المحاضرات، أما حديثه في كافتريا الجامعة فيشعره بروحها المرحية التي تجعله يخلق في دنيا الخيال. شيء ما يشعره بأنوثتها وجسدها اللدن، عند مرور يده التي تكتشف النعومة اللامتناهية تتملص كالسمكة بحركة بسيطة من جسدها. تفلت منه وهو يحاول إمساكها. ملابسها الناعمة المشدودة تتحني وتتكسر مع مشيتها. تعذبه بغنجها، تلتفت إليه وتقول:

- أنت تقتلني برجولتك.

لم تهتم لما يقوله عنها، بل اعتبرته غزلاً، ماذا يهمها إذا قال عن حركاتها الراقصة إنها حركات جنسية، فليكن، فهي تتعمد أن يبدي جسدها باللباس الشفاف صفاءه وعريه. يطهو عجينته على نار هادئة، وكلما أحب أن يتأكد من مفعول الخميرة ونضج العجين يشد على يدها، تبتسم دون أن تظهر أسنانها، خطر له أن يسميها ممثلة، ففي دمشق قليلات.

وصال لو دخلت مجال الفن لأبدعت وكتبت عنها الصحف. فتنقل هذه العجينة إلى يد وزير أوضاع. تمتلك بأسبوع واحد سيارة وبيتاً مستقلاً عن أمها ويكون لها كلمة في السياسة العليا للدولة ... مدت يدها وقرصته من فخذ، وضحكت. بينما استمر يراقب حديثها وحركة جسدها وهي تتمايل على أنغام الموسيقى الهادئة. راقب الحركة الناعمة لانحناءاتها، تصورها بجرأ هادئاً وثنيات ثوبها أمواجاً .

للمما كتبهما سيخرجان إلى الطبيعة، أشارت أن يذهبا إلى الغوطة، لأن مرتفعات قدسيا والهامة ودمر ذكرته بالخشونة، سترى إن كان كلامه سيتوافق مع الطبيعة ويعطيها أوصافاً تليق بها وبالغوطة، لكنه قدم عذره قبل الخروج .

أنا لست كاتباً كل ما في الأمر أن لغتي الانجليزية قوية.

تذكرت كلماته الرقيقة ونظراته الوادعة في حين كانت يده تمر فوق جسدها الغض.

حدق إلى عينيها جيداً فرأى طيف قطرة تتحدر .

بدأت زيارة ذلك اليوم من الصباح. عمر في الباحة يمارس هوايته المفضلة ويشرف على تدريب فريق لكرة السلة. وبينما كان يدخل الكرة في المرمى ويصيح فرحاً سمع من يناديه مع عبارة هيا إلى الزيارة. غسل وجهه ونشفه على عجل، ثم ارتدى ملابسه بشكل يليق بهذا اليوم، مشد على شعره وعدا إلى مكان الزيارة .

لم تتشف أم عدنان الدمعة، تركتها تجري كوديان أواخر الشتاء. لا تعرف لم قلبها منقبض هذه المرة أكثر من أي مرة أخرى؟ مع معرفتها التامة أن ولدها رجل لا يخشى عليه، لكن قلب الأم يهجم بأشياء لها وجود وأشياء يبتدعها تفكيرها خوفاً على ابنها. وعند ذلك لا تستطيع أن تحبس دمعها أو تداري حزنها. حلم البارحة خير والصلاة على النبي مجرد تهيؤات، هل يعقل أن يكون في بئر عميقة يناديها " انقذيني " تصرخ. أبو عدنان أين أنت يا زوجي، هرع إليها، أفاقت من النوم وهي ترفع يديها في الهواء ولسانها قطعة جافة. تعوذت من الشيطان وأخبرت زوجها بالحلم، أجابها :

اغسلي وجهك وصلي على النبي هل نسيت أنك قرأت سورة يوسف قبل نومك، واشفقت عليه، قلت إنك حزينة وتمنيت وجود حبل لإنقاذه .

قامت وغسلت وجهها وصلت ركعتين دعت " اللهم أعطنا خير هذا الحلم إن كان خيراً، وأبعد شره عنا إن كان شراً، وامح المقدر باللطف " .

لم تتم بل ظلت مستيقظة، استعصى عليها النوم في تلك الليلة على الرغم من محاولاتها سهرت حتى الصباح تسبح بحمد ربها وهي تمرر حبات السبحة بين أصابعها، أبو عدنان كذلك لم ينام، هون عليها ولحظة فاضت دموعها نشفها.

كم مرة نشف دموعها وضمها إلى صدره، خاصة في الأيام الأولى لاعتقاله. إذ تعود مساء مرهقة بعد بحث طويل لتقول لزوجها بأنها لم تجده، فكلما ذهبت إلى سجن وسجلت اسمه تنتظر حتى العصر، ثم يقولون بأنه ليس عندهم، فإذا كان هذا صحيحاً فلماذا لا يخبرونها ساعة وصولها !؟

يا زوجتي الذي بيده السلطة يفعل ما يشاء .

سكنت أم عدنان قليلاً ثم عادت إلى البكاء ثانية. حاولت أن تبدو طبيعية وأن لا يرى غير زوجها دموعها. إنه مجرد حلم، وكم من الأحلام مرت عليها! وكم من الكوابيس أصابتها. لكن أبا عدنان الذي يراقبها ودموعها تنهمر، اقترب منها وحاول التخفيف من أوهامها .

منذ يومين وأنت مهووسة، انكلي على الله، لو عرف ابنك ذلك ماذا سيقول،  
عمر شجاع تحدى سجونهم، لو أراد الخروج والتنازل عن مطالب المضربين لفعل،  
أنسيت يوم حاولوا مساومته على دماء أبطال عملية ترشيحا "معالوت" ولدي لا  
يخون جماعته زغردت لصموده، الآن سأعمل له حلويات وكبة وفتاير وغداً  
صباحاً سأذهب لزيارته.

لا تتعبي نفسك يا أم عدنان إن ما تفعلينه لن يصله، ألم تشاهدهم كيف  
يخبون الأكل والحلويات بحثاً عن رسالة أو قصاصة ورق.

قررت أم عدنان أن لا تسمع نصيحة زوجها، إنه لا يعرف قلبها كيف ينط  
ويقفز، أهون عليها أن تشتغل وتتعب على أمل وصول الأكل من أن تقعد بلا  
عمل وتقول هذا يصل وذلك لا يصل يكفيها شعور النشوة وهي ترق وتقطع  
العجين وتحشوه. تتصوره كيف يمد يده ليأكل وليوزع على رفاقه وهو يقول لهم "  
هذا من يد أمي "

سيقبل الحلويات التي ستأخذها وهناك ستخبره بأنها سهرت الليل وهي تعد  
لزيارته، وسيكون جوابه: " لا تتعبي نفسك يمًا"

يكفيها كلمات الحنان وهو يستقبلها ويودعها، ويكفيها رؤية عينيها الزرقاوين  
مشعطين ضوءاً وحياءاً .

أفاقت بينما أبو عدنان يتابع نومه، طوال يومين وهي مشغولة، جاراتها يأتيين  
ويحضرن من المأكولات والحلويات ما تعجز سيارة عن حمله. غداً عليها الذهاب  
إلى بئر السبع، وتسجيل اسمها في الصليب الأحمر، ومن هناك ستسير ضمن  
قافلة حتى السحن. تظل خارجه تنتظر دورها حتى يناديها. اقتربت من العسكري  
سألته، صرخ في وجهها وطالبها بالابتعاد، وصاح آخر بكلمات غير مهذبة وببده  
أبعدها. تحسست جيوبها وعدت المبلغ الذي ستدفعه " للكانتينا " غير مرة .

تأخر دورها وازدادت دقات قلبها. شعرت بوجع في معدتها ودوار شديد،  
وضعت يدها على الناحية اليسرى ثم جلست على الأرض. اقتربت لتسأل عن  
موعد زيارتها. أجابها بأن ابنها انتقل إلى سجن آخر، وعليها أن تتصل بمندوب  
الصليب الأحمر. ركضت تجاه المندوب وأخبرته، فدخل إلى السجن وقابل مسؤول  
الإدارة وخرج ليبلغها أنه انتقل إلى سجن نفحة. نظرت إلى الزيارة التي أحضرتها،  
تحاشت الوقوع إثر دوخة ألمت بها، قعدت على الأرض ونادت النسوة، وزعت  
الهدية عليهن وهي تصرخ وتبكي :

- خذوا كل شيء، إنها للسجناء، عمر قال الهدايا التي تصلنا ملك لكل سجين.

ابتعدت عن البوابة. أسندت رأسها إلى الحائط، وبعد وقت غير قصير عادت وعيناها حمراوان كالجمر، سوت ثيابها وشعرها ورسمت على شفتيها ابتسامة. ستراجع الصليب الأحمر الدولي لتعرف موعد زيارة ابنها، ستفعل كل ذلك وستعد لزيارة جديدة منذ الليلة .

عادت وهي تحمل كومة عذاب وألم، من يستطيع تقدير مدى حزنها. الأمهات هن الوحيدات القادرات على تخمين مدى ألمها، على الرغم من ابتسامتها الجافة وحديثها، ومع أن كل الناس يتألمون إذا حل بهم موقف مشابه، إلا أن حزن أم عدنان الداخلي من الصعب قياسه أو معرفة ما فعلته عودتها دون زيارة .

نساء حارة " الشيخ جراح " استقبلنها وهي عائدة. لم تتكلم مع إحداهن، خفن وتجمعن في بيتها، سألن، هل حدث مكروه لعمر ؟

- بُعد الشر، عمر بخير ويسلم على الجميع. سنعد لزيارة جديدة، هل أنتن جاهزات لمساعدتي ؟

- وزيارة اليوم!

- إنها للسجناء، عمر نقلوه إلى نفحة .

ابتسمن علامة الرضا، عدن مساء لبيباشرن عمل الحلويات والفطائر والكبة. لكنهن لم يبدأن. أم عدنان طريحة الفراش. قال الطبيب الذي أُحضر لمعالجتها، بأنها تحتاج لاستراحة طويلة.



## - الفصل الثالث -

عجاج نفحة يلتصق بالجسد، ويحوّل الملابس التي ارتوت عرقاً حتى الثمالة إلى شلال أثري. لم ير الماء إلا من فم جاروشة طحنت قمح بلدة ومازالت في بداية علمها .

ثلاثة أسابيع والرياح تهب وفي داخل كل سجين معدة ضمرت حتى كادت تتوقف عن العمل. الكلاب في الخارج لم تتعود هذا الجو القاتل. فنبحت وبعوت حتى وصل صوتها إلى متسفي جنوباً وإلى المطار غرباً.

ابتعد البدو عن هذا المكان منذ عام حين جاء ضابط كبير ومعه عشرة جنود مدججين بالسلاح، أخبرهم بأن عليهم عدم الاقتراب من نفحة، فصاروا ينظرون إلى التل من بعيد يذكرون الأيام الجميلة حوله شتاء وربيعاً. ومع ذلك لم ينقطع مرورهم واقترابهم منه. خاصة بعد أن سمعوا الكثير عن السجن في تلك التلة، صاروا يمرّون مزودين بروح التحدي. كيف يهجرون طرقهم القديمة التي ورثوها عن أجدادهم والتي يصعب تغييرها. قال أحد البدو ملوحاً بعصاه:

- ليفعل اليهود ماشاؤوا ولترسل كلابهم نباحها المتوحش الذي يفتت صمت الصحراء، فهذا لن يثني عزمنا على ارتيادها والمرور بها وإن لزم الأمر الإقامة فيها.

ثلاثة أسابيع خنقت الأمل والحياة، تحول السجناء إلى أشباه رجال، مرضى يسعلون ويصبقون اللعاب والغبار والدم. تحولت الجيوب الصغيرة في أجسادهم إلى قروح يزداد عددها وانتشارها مع كشط الأظافر، مولدة لديهم عادة الحك التي تجعل ثيابهم تبلى .

الترم السجناء الهدوء، لا يريدون الإقدام على عمل دون تخطيط مسبق. عانوا من شح المياه وهي وفيرة في صنابير الإدارة وحنة عدن المخصصة لرفاه الضباط... ذات عصر تدفقت المياه دون سابق إنذار، قيل إن عاملاً فتحها دون قصد،

ومنهم من أكد أن أبا الشوق الذي عمل بالتمديدات الصحية قبل سجنه هو الذي فعل ذلك. كل ذلك وإدارة السجن لا تعلم شيئاً عن ذلك .

في ذلك المساء الوردى الضاحك، شطفت الغرف وغسل السجناء ملابسهم ونشروها على خيوط معدة داخل الغرف . كمية المياه المتدفقة عبر الأنابيب والحفريات غزيرة، وكان الأردن فاض على نفحة. استحموا فاخفتت الروائح الواخزة، كما اختفى الذباب والحشرات، بينما انتشرت في الغرف روائح طيبة هي مزيج من رائحة النظافة وأنفاسهم .

ظلت المياه بهذا التدفق أربعة أيام وفي اليوم الخامس استنفرت الإدارة، وأمرت بإعادة برمجة توزيعها. بررت ذلك بهبوط مستواها في البئر الأرتوازي وخوفها من نصوبه. استمر التقنين كاشفاً معركة بين السجناء والإدارة، كل فريق يترصّد الآخر ويتحين الفرص. أصرت الإدارة على رأيها بضرورة التقنين وقطع المياه ليلاً. أبو الشوق عرف تفرعات تمديدات المياه، يتسلل للوصول إليها وإدارة المعسكر قبل أن يراه أحد من طاقم السجن. لكن الإدارة المصرية على التقنين عينت حارساً على الشبكة طوال فترة التنفس .

مشكلة المياه ظلت تقلقهم خاصة في أشهر الصيف، تخف قليلاً في فصلي الخريف والربيع وتختفي تماماً في الشتاء، حيث يقل الاستحمام وطلب المياه. صيت نفحة السيء وصل إلى سجون فلسطين المحتلة عام ثمانية وأربعين، كعتليت جنوبي حيفا وسجن عكا. هددوا السجناء بالنفي إلى هناك، فصار اسمه سيفاً مسلطاً على رقابهم دون استثناء. جاءت بعد أيام من افتتاحه بعثة صحفية، ومع أن مدير السجن أعطى المحررين فكرة كافية، إلا أن محرر " هارتس " أصر أن يقابل السجناء دون وسيط، فكانت هذه فرصتهم لشرح وضعهم، وحالتهم في السجون. لم يدع عمر الفرصة تقوت دون تبين ظروفهم. تحدث عن نوعية الطعام السيئة والحرمان من " الكانتينا " و " الفورة " لأتفه الأسباب، الضرب أحياناً والحجز بالمنفردة دون مبرر، وربط ذلك بالتمييز المتبع ليس فقط داخل السجون بل داخل المجتمع الإسرائيلي، وهذا ما دفعه إلى اعتبار كيانهم أكثر عنصرية من " جنوب أفريقيا ". هناك يكفي إذا تغير نظام الحكم، أما في فلسطين فإن المهاجرين طردوا السكان الأصليين، فأى النظامين أكثر عنصرية وهمجية !؟

همس عرام في أذن المراسل، لكن الأخير سره أن يسمع نقاشاً ساخناً، ليكون مادة غنية حول موضوعه. قال مدير السجن :

- هؤلاء عنصريون وهمجيون دخلوا بلادنا لقتل أطفالنا، فهذا الذي تحدث

إليكم إرهابي دخل على رأس مجموعة مسلحة، أصيب في المعركة ونحن عالجناه في مستشفياتنا، أسأله لماذا تجاوز الحدود وأطلق النار!؟

نظر عمر إليه بعينين ملؤهما الغضب، لم يتمالك نفسه فقال :

- من حق الإنسان العودة إلى وطنه متى شاء، وأنا لم أفعل أكثر من ذلك.

- كذاب.. كنت تحمل " كلاشن " .

- وهل تطلب مني أن أرشكم بالعطر والملح لأنكم احتلتم مدينتي وبلدي .

- هل هناك أي مطالب ؟

تقدم علي الجعفري ولخصها بعبارة واحدة " عاملونا كما تعاملون السجناء الاسرائيليين ". استدرك توقفه عن المتابعة عند مشاهدته المراسل يستحثه على الكلام، وكذلك زملاؤه فتابع حديثه:

- الإسرائيلي الذي يرتكب أبشع الجنايات تعامل منا بمئة مرة، يحق له امتلاك مذياع وتلفاز وأجهزة تكييف، يخرج إلى ذويه كل ستة أشهر إذا أنهى نصف مدة سجنه ثم كل ثلاثة أشهر. أثناء الزيارة يجلس مع أهله وكأنه في بيته. إدارة السجن مكرسة لخدمته، فلا يحق لها حرمانه من " الكانتينا " أو حجرة بالمنفردة دون قرار محكمة يستند إلى وقائع وجلسات. أما نحن فكل شيء جائز.

بعد أن أنهى مراسل " هارتس " مقابله بتوجيه مجموعة أسئلة أجيب عنها، وعدم نشرها وإرسال نسخة إليهم وذلك في أقرب فرصة ... لم تنتشر خلال أسبوع فتأكدوا أنها أهملت، لأن نشرها كما هي سابقة خطيرة في الصحافة الإسرائيلية، لن تقدم هارتس ولا غيرها من الصحف على نشر النص كاملاً دون تدخل. لمس السجناء حيرة الصحفي والردود والنقاشات التي سمعها. هذه الإجابات تخضع لدراسة محللين نفسيين وسياسيين، ولرئيس التحرير رأيه الذي ينفذ أن كل الآراء أو ضدها، مع النشر دون تدخل أو بتدخل. وهذا ما حدث فبعد ثلاثة أسابيع نشرت الجريدة على صفحتها الرابعة نص المقابلة تحت عناوين عريضة:

المخربون نمور كاسرة يصعب ترويضها إلا ضمن أقفاص حديدية.

مدير سجن نفحة يتهم السجناء بالإساءة إلى سمعة إسرائيل .

سجن نفحة يقدم للسجناء طلباتهم، يقدم مالم يحلموا به في أي سجن عربي .

وفي نهاية المقابلة كتب المراسل العبارة التالية: هذا حديثهم فاحكم أيها القارئ. في الأيام الأولى من شهر حزيران احتدم النقاش بين سجناء نفحة حول

الطريقة المثلى لمواجهة ظلم إدارة السجن. برزت أثناء النقاش مجموعة وجهات نظر. أهمها مشروعية الإضراب في الاسلام، كاد النقاش الحاد يفسد ما اتفقوا عليه، كاد يتحول إلى ضرب بالأيدي وشتائم لها أول وليس لها آخر، اتسمت النقاشات بالتهكم والمزاح حيناً والعودة إلى الموقف الجدي خوفاً من تقادم الأمور. قال الشيخ عباس: الطعام نعمة من الله والإضراب عنه نقمة. فكروا بطريقة أخرى لمواجهة أو هاتوا نصاً دينياً يبيحه وأنا التزم به .

علق حسان :يا سلام! هل نحن في دار إفتاء وليس بيننا من هو خريج الأزهر؟

يا أخي الإسلام دين عزة للنفس والإنسان، عدونا بذلنا وليس في اليد حيلة، لا نستطيع مواجهته إلا بالإضراب. وضعنا مهان ولا بد من إيقاف تصرفات إدارة السجن والطريقة الوحيدة لإسماع صوتنا ما اتفقنا عليه، بعيداً عن الفتاوي والنصوص الدينية .

رد الشيخ عباس:

المسلم لا يضع قدمه في موطئ إذا لم يعرفه، وأنا كعابد لله ومصلٍ لا أمانع، أطلب نصاً حتى لا أخالف روح الشرع، هذا النص الذي لا يهملك، يهيني القوة والاندفاع في هذا الاتجاه .

حسان: عدت تتحدث عن العبادة، ما فائدتها يا شيخي إ ذا لم تحول صاحبها إلى ممارس للأخلاق وقدوة حسنة .

أنت ولد غير مهذب تتمنى في وطنيتي يا بن التي ...

لم يكمل الشيخ كلامه، وحد ربه واستغفره، نادى أبو الشوق بقية الرفاق للانضمام إلى النقاش الدائر، قال :

في التمديدات نضع أكرة أو شد وصل لماسورتين، هنا أي شد وصل يلزم للمقارنة بين الآراء!

تدخل عمر طالب بالاتفاق على حد أدنى من العمل الوطني، بعيداً عن التهكم والاتهامات الجاهزة، وبعيداً عن التلويح باستخدام القوة أو المفردات النابية. فالذي يستخدم هذه الأساليب ضد رفاقه كمن يقتل ابنه فلذة كبده أو يطعن ذاته بالسكين. نحن نتشاور ونتحاور من أجل المصلحة العامة. نختلف لنتفق من جديد.. أنت يا شيخ تبحث عن نص ديني، ألم تسمع قوله تعالى " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ..... " الإضراب ليس قوة بل موقف ضعف .

الضعف يا شيخي لا يواجه، أنت تظن أن قضية الإضراب عن الطعام سهلة، ويمكن أن تمر بسلام، لا يا صديقي، سنرى!

استغفر ربه وقرر أن يكون مع الجماعة فقال كلمته المشهورة:

" والله لن أحيّد عن كلمة انفقتم عليها ولو على قطع رأسي " وبهذه الطريقة تمت مواجهة مواقف متناقضة، موقف يدعو إلى التريث بانتظار أوامر القيادة في الخارج. ونقيضه الذي يطالب البدء بالإضراب وفرض الأمر الواقع .

قال علي الجعفري :

لنكن بقدر المسؤوليات الملقاة على عاتقنا، نحن سنقرر ولن نطلب المشورة من أحد. الذين في الخارج قنوات اتصالنا بهم تكاد تكون مقطوعة.

لن ننظر الأوامر، دعونا من قضية الداخل في خدمة الخارج، وهي قضية مغلوبة وواقفة على رأسها .

كان هذا رأي إسحاق مراغة، أما أبو الشوق فقد علق على ذلك:

من المفيد إعطاء القيادة علماً والاستئناس برأيها .

تدخل عمر وقد ظهر الانفعال على تقاطيعه، قال:

ناقشوا أوضاعكم ولا تزجوا القيادات في أمر لا تفهمه، وليس مهماً لها، أنتم أصحاب المصلحة الحقيقية بالإضراب وغيره، ونحن جميعاً قادته. إن ما قاله أخي اسحاق في قضية خدمة الخارج صحيحة وثقوا بأن ما حك جلدك غير ظفرك، هيا قولوا اتفقنا وعلى بركة الله، مدوا أيديكم .

قبل السجناء بعضهم بعضاً ووضعوا أيديهم في يد عمر، فتعالت الفرحة، خلد مع ذاته، تذكر يوم وضع سجناء عسقلان أيديهم في يده، حلق في عالم من الذكرى، أنته تلك الأيام طازجة. الإضراب فرض لسوء المعاملة .

مسد الشيخ عباس بيديه على وجهه بعد أن أنهى قراءة الفاتحة وردد على بركة الله. ثلاثة قرؤوا الفاتحة وفعلوا ما فعله الشيخ .

الذكرى تدق زلزلة رأسه، نسيج نصفه هي والآخر ميت، تقبع في دائرة محكمة الإغلاق تسبل عينيها الناعستين، فلا تعرف متى تبرقان، تتوقد جمرة الأيام الخالية لحظة وتتبخر كالدخان الأبيض الذي يتلاشى بسرعة على الرغم من كمية تصاعده. السجن موسم كالجني والحصاد، له طقسه الخاص بعيداً عن مساحات الزمن الرحبة. تدق جدران الشرايين في حركة عكسية، تدفع إلى العيش معها

ساعات طويلة من ليل نفحة الحزيراني، حاول أن يبعد شبح السجن، أن يعيش للحظات مع ماضيه البعيد.

رأى خضرة الحياة في كل شيء، فذاك بردى يغرد متجاوباً مع الطيور وزقزقتها المرحية، وخفقان الأفنان وكأنها تبحث عن عشيقها، وحركة الوريقات الراقصة المتلاعببة مع النسمة الوداعة. قرر أن يمضي يومه في السيران على الطريقة الدمشقية مع ابنة أبي رمانه، كان على درجة عالية من الفرح والحبور. أخذها من يدها قرب شفتيه من أذنها وقال:

هيا في بلاد الله الواسعة نمضي هذا اليوم.

والجامعة ؟

أنا سأعطيك الدرس .

نظرت إلى عينيه وقالت :

ما شاء الله لم أعرفك بمثل هذه الجرأة، ماذا تخبي من أسرار.

نحن أصدقاء ولا أسرار بيننا، إن لم نفعل ذلك ستقلت الأيام منا، ستضيع أجمل أيام حياتنا، ألا ترين أن اليوم غير عادي.. يكفي أن تكوني معي لأقول كلاماً نثرياً.

نظرت إلى بحر عينيه ومضت، مازال يذكر قول رفيقه الشامي عنها:

اسمع يا عمر العثور على مثلها أمر " صعب " وفي قاموس الشاميات مستحيل. استطعت أن تعيد تكوين شخصيتها حتى بدت متمردة على مفاهيمنا، يجدر بل المبادرة وخطوبتها أو إفهامها وضعك حتى لاتتعلق أكثر، وعليك في هذا أن تعطيها الفرصة لتتساک .

ومع ذلك تظل ابنة أبي رمانه رابحة، مرات عدة قالت لأمها عمر يفيدني يا ماما، أنا ضعيفة في مادة تخصصي. وعندما أبدت أمها استعدادها لإحضار مدرس قالت، " اعتبريه كذلك " .

وعلاقتك هل ستضعين حداً لها ؟

هل تظنين أنني قادرة بهذه البساطة !

الأمواج المتجعدة تتراقص، لقد صفت شعرها بطريقة عجيبة، كيف استغنت عن نعومته واسترساله وفضلت الخشونة؟ ارتدت فستاناً ناعماً لدرجة أنه يشف عن

جسدها، خاصة إذا سلط عليه نور، أشعلت الأضواء ومشت أمامه فظهرت تفاصيل ملكات أنوثتها كما خلقها الله شهية طازجة. في ذلك المساء أشعرته بأنها مازالت تفكر بالبيت والمستقبل والأسرة. تحاول جره إلى طريق واحد، هو درب الحب وإبعاده عن النضال، لكنها لم تفلح. أجاب عمر صديقه الشامي :

-نحن لا يصلح أحداً للآخر، سأعذبها في حياتها، نمط حياتنا مختلف، صحيح هي في تنظيمي، قناعها فيّ، أنا متأكد بأنها سنتتهي علاقتها بالحركة، أنا بالنسبة لها التنظيم والزميل والصديق والحبیب.

- تخل عنها إذن قولاً وعملاً.. ربما غيرك مستعد أن يدخل حياتها ويدفع ثروته لتكون أميرة في بيتها ...

- افعل ذلك إن استطعت !

قال ذلك وقد غطت مساحات من السحاب محياه، بدا وجهه ثقيلاً وتعابيره خشنة، ردد بينه وبين نفسه حتى أنت أيها الصديق ساعة تحدثني اتضحتمصلحتك. أظن أنها ستجد من يحني هامته أكثر ويدفع أمواله فداء لجسدها وأنوثتها الرائعة .

جاءته الفرصة المناسبة للتجوال في بستان الماضي، الجميع غارقون في نقاش، بينما حسان يبث نكته.. الحب امرأة تدفع محبتها للجنون، وعندما تجده تعلق بحبالها تقول له :

" لماذا لا تخاطبني؟ رفضت لأجلك عشرة، أنا أريدك " تذكر عبلة التي صارحته بهذه العبارات وغيرها، همست في أذنه بأنها لن تتزوج غيره، ولم تكتم بذلك بل تغزلت به:

- كل شيء يذكرني بك. البحر الذي يغار من عينيك اللتين تغازلني بهما، لهما من الدفء والحنان ما لم أره في غيرهما، الثمار التي لها طعم شفقتك الرطبتين، وتلك الوهاد التي تذكرني بقامتك، له جسم يتبادر إلى الذهن لأول وهله بأنه من أولئك الجبابرة، الذين قاتلوا اليهود، لم يكن جده سوى واحد منهم، طويل عريض المنكبين، رياضي مرح، إنه من العماليق، يكره التكبر متواضع لدرجة أنك تظنه خادماً، لكن عندما يتحدث تتأكد أنه سيد الجميع، قال له أبو الشوق ذات مرة:

- معيب أن نجعلك تخدم مثلنا، دع ذلك وأخرج للفورة.

- عيب أن لا أكون مثلكم، نعيش حياتنا بين هذه الجدران، بأي حق استثنى،

راحتي أحسها عندما أؤدي ما عليّ وأخدمكم جميعاً، إن السجن إذا افتقد التعاون والمساواة يغيّب نهاره، مصيرنا واحد، فلم لا نتوزع الأعمال!؟

عادوا إلى مناقشة إجراءات الإضراب، الماضي يقف على رجل واحدة، تأتيه الذكرى فتجعله قلقاً، جهل الإنسان بما حدث يجعل الانتظار مملاً. تغزوه الذكريات وكأنها حصلت البارحة، ذكريات مؤلمه، تورمت قدماه، مشى داخل الغرفة ليحافظ على بقايا قوته ورشاقتة اللتين افتقدتهما، إنه يجر نفسه جراً، زحف على مؤخرته. حبا على يديه. ازدادت رشاقتة عندما توالى الركلات، التصق بالأرض، جروه ووضعوه في الزنزانة. صبحا بعد ساعات الآلام لم تفارقه، تورمت أجزاء من جسده، بدا محطماً، بنطاله تمزق. لم يعد هناك ما يستتره. بعض الجروح تنز، الخدر. سمع اسم صرفند فعرف أنه التحقيق الذي مازال مستمراً منذ عشرة أيام.

ذاكرته المشتتة غير قادرة على العمل. الصورة تذهب بعيداً، يستحضر التفاصيل الصغيرة، لم يدعوا شتية إلا أسمعوه إياها،.. أمك.... لو كان فيها شرف ما انجبت بغلاً، بالتأكيد هي عاهرة، وإلا لما ارتضت واحداً مثلك ابناً لها.

نظر إليهم بعينين ذابلتين، فتحهما على وسعهما، ليشعرهما بنظرة التحدي الثاقبة .

كالوا له الركلات وبدوا مستعدين لقتله، واصل تحديهم كجبل، حاولوا دفع حجارته وتسويته بالأرض واستلاب كبريائه. تهامسوا، أدرك أنهم باتوا على قناعة بأن السد الواقف في وجههم مازال قوياً، مازال محتفظاً بكبريائه. ابتسم لأن قطع الجلادين والمحققين قد وصلوا إلى حافة الياس.

حاول النهوض، تكوم على الأرض، السجنان يراقبه دفعه إلى المنفردة وتركه. تحسس ظهره الذي يؤلمه، رفع ليروا آثار التعذيب، مدّ حسان يده وقال:

أترون خط بارليف!

عقب الشيخ عباس بقوله، بل أنه خندق المدينة المنورة!

اقترب السجناء ونظروا، مازال هناك خط يميل إلى السواد من أعلى الكتف الأيمن إلى وسط الظهر. منذ عشر سنوات وفي عسقلان وقع في الساحة كما ينوخ الجمل. غاب عن وعيه. ضربه بأسلاك كهربائية مجدولة وبهراوات بلاستيكية في رأسها دبابيس. تمدد على بطنه وشخب الدم، لقد حفرت الضربة مكاناً أشبه ما يكون بخندق دفاع، إضافة إلى كسر ضلعين. تحول السجناء في الفورة إلى الشغب والتظاهر، استدعوا الممرض " يودا " حضر بعد ربع ساعة بعد أن أفاق،



الجريح، لم يفعل شيئاً قالوا بتهكم:

- هو أنت أيها الرياضي، جاء اليوم الذي أراك فيه ضعيفاً، قم يكفيك دلالاً،  
أنصحك البقاء في الغرفة وعدم الخروج عشرة أيام، وإنهاء الإضراب .

نظر إليه شزراً وأجاب :

لم تعالجني وهذا شأنك أما أن تمنعني من الخروج إلى الفورة والتعرض  
للشمس، فهذا شأني، اغرب إن وجهي أيها الممرض القذر .

اصفر وجه عمر ومال إلى الزرقة، عليه أن ينسى آلامه، أن يتجاوز التفكير  
بالذات ويشارك الجميع في الإعداد للإضراب. قال والحزن يسكنه ويبدو على  
ملامحه:

لم يبق أماناً إلا الإضراب، ما الذي نخسره. إن كان علينا أن نضحى فجزء  
من عبوديتنا، فلتذهب إلى الجحيم.. مطالبنا بسيطه أن يعاملونا كبشر. أن يوقفوا  
عمليات الضرب والتعذيب. لا عمل إجباري بعد اليوم، كلنا يجب أن يتوقف عنه.

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## الفصل الرابع

لبست عبلة ثوباً كثوب أم عدنان فبدت واحة فيها الأشجار والورود والخطوط الهندسية، وقف يتأملها من رأسها إلى أسفل قدميها، نظر إلى زخارفه ولمس بيده القماش، طلب إليها أن تمشي أمامه ليرى جماله ومدى ملاءمته لجسدها وليتأمل التطريزات الجميلة.

مشيت بتمهل ودلال وجدتها فرصة لتبدي رشاقة جسدها، دارت حوله دورات عدة، في حين أضاءت أشعة الشمس التطريزات، فبدت كتموجات الطبيعة، تفحص الخطوط المطرزة بالطول، ثلاثة خطوط من الأبط إلى الشليل، والزخارف التي تتراقص على صدرها مربع تطريزاته تمثل التقاطع واشكال شبيهة بالطيور والزهور. ربما طائر البشارة! الكمان عليهما عروق عليه طائر ... قالت :

- هل كثير عليّ أن أرثدي ثوباً كثوب أمك !

- إنه عظيم! شيء رائع! الثوب يا صديقي يصير أكثر روعة وجمالاً عندما ترتدينه، إن جسديك الملفوف وقوامك الممشوق يناسبه هذا الثوب.

ابتسمت مدت يدها ووضعته في يده. كان مهموماً لم ينم الليل، ظهرت عليه آثاء التعب والسهرة، أحداث الأيام الماضية خطيرة جداً، لقد سحبت الأمم المتحدة قواتها عن الحدود المصرية، وياتت الحرب مؤكدة سألته عبلة وهي تحديق عليها تكتشف سر الغمام الذي ظهر على محياها:

- أحس أن شيئاً يشغلك

- الحرب واقعة .

- أنعود إلى فلسطين؟

- لا يا عزيزي الظروف الدولية والمحلية لا تساعدنا، منطقتنا مازالت منطقة نفوذ قرارات دولية، ذلك منذ محمد علي باشا.. تطلبين توضيح ذلك، هذا حقك

باختصار الدول التي انتصرت في الحرب الكونية لا تسمح لبلادنا أن يكون لها فعل، لوعدت بذهنك إلى انتصار الجيوش المصرية بقيادة ابراهيم باشا ووصوله الأناضول، لادركت لم تدخلت أوروبا وانسحبت الجيوش الجرارة التي أولها في كوتاهية وآخرها في مصر إلى الحدود الدولية؟

ودعها وقال نلتقي عند الشجرة، لم يكن يعلم أن الغد قد يفرقه ويأتي بجديد، وأن الصباح الذي زحف مرتدياً وجهاً غربياً مغبراً، لن يكون كبقية الأيام، مازالت الظلمة والعتمة على الرغم من صفاء الجو، الصباح زاحف على قدم واحدة غير قادرة على تثبيت نوره، الأشعة الباهتة تتسلق التلال ببطء تتعثر في مشيتها وتندحرج فتقع على رأسها فاقدة وعيها .

قرر أن يفتش عنها رغم ما حدث، سيقول لها كلمة خبأها بين جوانحه منذ فترة طويلة، سار وركض لم ينتبه بأن قدميه تجرحنا وبلي حذاؤه، الأشواك دمت قدميه، تنز أزهاراً تاركة خلفه سكة، عاد يبحث عن مداس نمرته أربع وأربعون، جاب المناطق التي أرتادها مع عبلة السمراء ذات القوام الأهيف والتي ارتدت ثوباً يصل إلى قدميها، دائمة الابتسامة، مرحة تسأل عن الماضي والمستقبل، وتتلقى أجوبة، تهز رأسها ... اليوم تأكد أن ما فعله وقاله غير صحيح، وأن كلمات عبد الناصر مجردة من الفعل، ليس فقط غير قادر على التحرير، بل غير قادر على حماية حدوده والدفاع عن أرضه، هذا الصوت الذي ملأ الشرق والغرب ضجيجاً، يسكت اليوم إلى الأبد.

واصل بحثه آملاً العثور على حبيبته، لم ينس كلماتها الدافئة، وهي لم تنس ما قاله في غفلة. مازالت تذكرها كلمة كلمة ... لاذت واختبأت وربما انتحرت، لكن ما هون عليه أن أمه أكدت رؤيتها في السوق.

كانا يلتقيان عند الشجرة في أوقات معينة ، ومع الأيام شعرا أنها صارت جزءاً منهما، لاحظا جو الألفة والبهجة، الأطيوار تستقلهما مزققة ، الأرض تطرح عشبا بركة، أحبا ذلك المكان وعشقا أكثر حين اكتشفا أن قطرات العرق التي تهرب منهما خلسه تروي خضرة الأرض. في المكان ذاته اختطلت نقطتان، سمعا همهمة، تكورت الأرض وكأن خطراً قد دهمها، بعد قليل شقت الأرض نبتة، بدأت تطول وتكبر، راقباها، في آخر مرة وقفا قبالتها، فاقتربت عبلة منه فتسلل عطرها إلى روحه، قرب شفثيه واختمس قبلة منهما، شدها فتمايلت تركها فعدت الشجرة إلى حالتها:

- الشجرة تبارك حينا! .... ماذا نسميها ؟

ابتسمت وحركت رأسها بالايجاب

- شجرة الحب!

- ألا ترين أنها سنديانة، أوراقها لا معة مسننة وثمرتها قاسية، وتحتاج إلى نار هادئة ليصير مذاقها مقبولاً، إنها شجرة الحياة، خريشاتنا صمدت أمام الرياح والأمطار، لم تكن إلا لرعشيتينا، لكلماتك، وضحكك، أيدينا قلادة وأناملك ممهورة فوق ساقها، ألا ترين أفنانها وارفة وممتدة كاتساع حبنا .

صممت للحظة وتساءلت :

- كيف للسنديانة هذه الرقة والليونة تتمايل كأنها تقوم بحركات بهلوانية، لم أر في حياتي سنديانه تتخلى عن صلابتها!

مدت يدها واحتضنتها، قبلاها فشعر كل منهما بلذة لم يشعرا بها حتى في عناقهما. وضعت يدها بيده وتعاهدا، مساء غادرت مهرولة فرحة، تغني وهي في طريقها إلى بيتها، لوحت بيدها وقالت مع النسيمات عبارات فهم منها:

" أيها الحبيب اتبعني.. إن لم أر النور في عينيك، فأني شمس تهني إياه، وجهك صباحي، إن لم يدلني إلى الطريق فكل الطرق مسدودة.. أيتها السنديانة كوني قوية كحبنا، واشهدي كم أحببتك "

تحسس أذنيه فتوقف الإنشاد، اختلط الأمر عليه، هل هذه كلماتها أم نشيد قلبه، أم نشيد قيل منذ آلاف السنين عند هذه الشجرة أو في المكان ذاته ؟

سمع تأوهات نظر إلى الشجرة أصابته الدهشة. بطن الشجرة ينتفخ.. مسح عينيه غير مرة، شيء غير عادي يحدث، نادى بصوته على عبلة ودعاها للعودة، لكنها ابتعدت لدرجة أن صوته لن يصل إلى ريع المسافة.

مازال يسمع لحناً قادماً من جهتها يحكي قصة عشق، غنى بعض أغاني دلعونة وظريف الطول ثم دمدم بكلمات عشق:

" اجتمعت الريح والغيوم والبروق في جسدها

فغنى أغنيته ومضى

لأول مرة يسافر جسدها مختضناً أغنيته

تاركاً بقية اللحن في عينيها "

أغمض عينيه وهو ينكمس جذعها، غفا على جذعها، سمع أصواتاً عذبة،

فتح عينيه وشفن أذنيه، نظر إلى الأعلى، الأوراق تكبر، حاول أن يهزها فلم يقدر، عبله مرمية مكان وقوفهما، تناولها وفتحها، فيها بعض النقود وهويتها، جرى خلفها، تاه. قرر العودة إلى بيته، طوال الطريق فكر بما حدث، الحقيبة التي معه تثبت أنها كانت معه. إنه الجنون، ابتلع غصته، استعاد ما حدث، أيعقل أن شخصاً مثله يصدق ذلك! لكن لم لا يصدق شيء عايشه! لف حول الشجرة، تأملها، حاول كتابة اسمه واسمها، شاهدهما منقوشين بعناية ويخط أنيق، إضافة إلى أسماء لا حصر لها مكتوبة على الجذع والساق والأغصان والأوراق .

أفاق باكراً، نظر إلى حيث وضع المحفظة، لم يجدها، فنش عنها، قلب الأغراض، نبش، في هذه اللحظة دخلت أمه :

- ما بك يا ولدي عم تبحث ؟

- وضعت حقيبة نسائية هنا ولم أجدها!

- لا، لم تترك شيئاً هنا .

وضعت يدها على جيبه ومضت إلى المطبخ ... انتظر قدوم عبله، شوقه إليها كشوقه لمعرفة الحقيقة، لكنها لم تأت. كل شيء يتغير بسرعة حزن كثيراً فالأخبار التي نقلها المذيع لا تسر، لم يغادر غرفته وظل السؤال يلاحقه، أيعقل أن يفقد حبيبته وأمله في اليوم ذاته؟

لم يستطع الاستمرار في النوم، فرك عينيه، فإذا كل شيء على حاله لا شيء سوى الشخير، الشريط يعيد الصور المشوهة، يمر كدائرة حول الذاكرة والفؤاد ينقل بقايا رائحة مخزونة في قشور السديانة المزروعة في مقلتيه. وضع يده على جيبه، لم ينس ما سمع من أخبار. أيعقل أن لدى إسرائيل كل القوة. البارحة حُطمت الطائرات ونهبت بيادقها عرض الشمس، ظلت تمشي حتى واجهها بحر حاولت ابتلاعه فتبين أن ماءه مر أجاج، دقت الأوتار هناك ثم طارت إلى الشمال، تسلفت جبلاً وهضاباً كلها عيون ماء ومرع، فيها دور وزرع وخلق كثيرون، الناس فروا يطلبون السلامة، اتجهت القوات شرقاً في حين صلى الجنود للرب ألف ركعة.

أثناء بحث عمر قاداته قدماه إلى معسكر للجيش، استوقفه الجند وطلبوا هويته، ناولهم جواز سفره فقاده رئيس الحرس لمقابلة المسؤول. الجيش مستتفر، الوجوه كالحة أضناها التعب من حفر الخنادق والسهرة، أبصارهم معلقة بالسماء. عند كل جماعة مذياع صغير، طائرات في الجو تزوح ذهاباً وإياباً، يلتصق الجنود

بحفرهم، يعفر التراب وجوهم، قلوبهم تسقط هلعاً وعند عودة الطيران غرباً يستردون شيئاً من أنفاسهم، لا شيء في أيديهم سوى البنادق الأتوماتيكية. كان أثناء سيره يراقب حالة الجنود والقلق المرتسم في عيونهم. دخل غرفة القيادة. رأى فيها مقدماً في حالة ذهول، سلم عليه وقال:

- أنا عمر القاسم ممثلاً عن المقاومة الشعبية جئت أطلب إمدادنا بال سلاح والذخيرة أجب المقدم عايد :

- من الذي حولك. وهل أنت مزود بكتاب يحدد نوع السلاح وكميته ؟

- إن حرصنا على سلامة الوطن هو الدافع لذلك !

- اذهب يا سيد عمر ودع ما لقيصر لقيصر وادع لنا بالنصر، إنه سميع مجيب الدعوات .

- الدعوات لن تنفع، الكلمة الآن للسلاح .

- هذه مهمتنا سندافع عن الوطن، لسنا وحدنا معنا تجمعات الطلبة القريبة منا في معسكرات الحسين .

- ونحن أنجلس في بيوتنا ونقول لكم قاتلوا أنتم وريكم إنا ها هنا قاعدون. لا أيها المقدم باسمي وباسم التنظيمات السياسية نطلب السلاح لندافع عن أنفسنا.. لن أخرج من هنا إلا ومعني كمية كافية .

- أنتَ عنيد يا سيد عمر، سأعطيك السلاح، ولكن ثق تماماً إذا انكسر الجيش لا سمح الله فسيكون عبئاً عليكم .

بلغ المقدم عايد ريقه، تخلص من الجفاف الذي في حلقه، نادى الملازم حازم وأعطاه أمراً بصرف وتسليم أربعين بندقية إنكليزية لقاء وصل نظامي، أما الذخيرة فحوالي عشرة صناديق .

- سيدي مخزن الذخيرة مغلق وأمين المستودع غير موجود، أما السلاح فسيكون جاهزاً خلال ربع ساعة .

- ما شاء الله المستودع مقفل ونحن في حرب، هل ينتظر عدونا حتى نفتح ونلقم بنادقنا ورشاشاتنا، منذ اللحظة تمنع الإجازات أو مغادرة أي عنصر، ارفع درجة الاستنفار إلى الحالة القصوى.

أدى التحية وانصرف هو وعمر، مر على الشاويش فأمره الملازم أن يحضر أربعين بندقية إنكليزية ويسلمها لعمر .

قبل أن يمضي الملازم همس في أذن عمر، إن كان مقتنعاً بدور الجماهير .

لم يتلق جواباً، تريث قليلاً وأجاب بنفسه عن سؤاله الذي طرحه، استفاض في الحديث، ومع أن عمر مقتنع بما قاله وما سمعه من الملازم ومن المقدم، إلا أنه لا يستطيع الوقوف مكتوف اليدين، قال بينه وبين نفسه " إنها حقيقة يراد بها الباطل، إن الجماهير لن تفعل شيئاً، ليس لأنها لا تريد ذلك، بل لأنها مهمشة طوال الماضي... العسكر هم الأساس، هؤلاء الذين يفكرون يوماً بأنهم سيشتبكون مع العدو " .

من جولته الصغيرة في المعسكر شاهد الارتباك في كل شيء، في أخذ المواقع وتجهيزها وفي السلاح. هناك نقص في الدبابات والمضادات الأرضية، أما الطيران فيكاد يكون معدوماً، إذ لا يجرؤ على التحليق في الجو .

تلقت قيادة القوات المحمولة على الإبل برقية تنص على وجوب تدخلهم في الضفة الغربية وإقرار النظام والأمن خلال ساعات. كان عمر على رأس التظاهرة، جاء من يخبره بضرورة التتكر، عيون قوات البادية ترصده، ومعها أوامر بإطلاق النار، ولديها قائمة ولن تتسحب قبل اعتقال المطلوبين. استأخر سيارة غير لباسه ولف رأسه بكوفية حمراء، تفنن في لباسها، مشى خلف المظاهرة، اقترب منه أحد عساكر الهجانة:

- من أين الأخ ؟

أجاب عمر بلهجة بدوية متقنة:

- من عرب حويطات الطفيلة وأسكن في القدس لأسباب قد لا تجهلها .

ابتسم في وجهه وتابع حديثه بقوله، أي خدمة .

عانقه السائل وعرف بنفسه :

- أنا جاسم علائين ملازم من بني صخر مأدبا، أسكن في عمان قرب دوار مكسيم، أسأل عني من شئت هناك، ستجد من يدلك على البيت. الآن ويعد هذا التعارف أريد خدمة بسيطة، سأطلعك على قائمة المطلوبين أحياءً أو أمواتاً، اقرأها وإذا عرفت واحداً ومنهم دلني عليه، وأنا لن أنسى فضلك .

أخرج من جيبه قائمة ناوله إياها، أبطأ في السير، قرأ الأسماء فكان من بينها الدكتور جورج حبش، عصام عبد اللطيف، عمر محمود القاسم، سمير غوشة، أبو اصطيف، نبيل قبلاني .....



ابتسم وقال: نعم سأدلك على بعضهم، من أشير عليه فهو منهم لاتدعوه  
يفلت من أيديكم حتى ولو ادعى أنه من الأمن وأبرز ما يثبت ذلك، هؤلاء جميعاً  
لديهم هويات مزورة زدودوا بها لمثل هذه المواقف.

أشار إلى تسعة من كبار المخبرين بينهم ضابط كبير، أبقى القائمة معه،  
ابتعد إلى الوراء واتخذ مكاناً يسمح له بمراقبة ما يحدث. وضع يده على فمه خوفاً  
من سماع ضحكاته. حدث شيء مخيف وفظيع إذ تبادل أمن مدينة القدس مع  
رجال البادية إطلاق النار. استطاعت القوات المحمولة أن تعتقل ما يزيد عن  
عشرين من أبرز رجال الأمن في حين أصيب أربعة من الهجانة بجراح خطيرة،  
نقلوا على أثرها إلى المستشفى.

وقع عمر وصل استلام أربعين بندقية نصف آلية يتسع مخزن الواحدة لخمس  
طلقات، ذكره هذا الموقف بيوم استلمت مصر الذخيرة الفاسدة، حين كان  
الفلسطينيون في عام ثمانية وأربعين بحاجة إلى طلقة، استخدموا بواريد الصيد  
والعصي والمقاليع والبنادق التي تسخن وتتعتل بعد كل طلقة، ينسحب المقاتل إلى  
الظل يفك الأقسام ويركبها .

وضع البنادق في سيارة جيب عسكرية وقال للسائق إلى منطقة " الشيخ جراح  
" شاهد الجيران السلاح، فهرعوا وخلال دقائق اجتمع أناس كثيرون يستطلعون  
الأمر، شاهدوا الأسلحة فدبكوا، زغرديت النسوة وسمع صوت الطبله و " المجوز "  
في الطرف الآخر من المدينة.

يا بو عدنان ويا شعري على ظهري  
يا دارنا الواسعة يابرجنا المبني  
وإن ردت يا عزنا تنزل عالوغي  
ملي قلوب العدا بارود مع القهري

وضعت النسوة أبهامهن في مجرى السمع، وانطلق اللسان مرتعشاً أشبه  
بصوت رشاش سريع الطلقات، عبله ترقز فرحة مشغولة تحدث أم عدنان وبقية  
النسوة وتعطي أوامرهما. علمت أن الشحم الملتصق بالسلاح من الصعب إزالته دون  
تسخين ماء. وكما تولم الولائم في الأفراح أوقدت النار تحت القدر، ضحكات  
النساء وبياض أسنانهن يلمع على وهج الألسنة المتصاعدة، ارتفعت النيران،  
وصار كل شيء واضحاً، ثياب النسوة المطرزة بعناية فائقة، جدائلهن المرخاة  
وذلك الإشعاع المنطلق من عيونهن، شاهدت نساء الشيخ جراح النار فحضرن  
مسرعات، وبدأن الغناء والزغاريد، غردن فرحات ورقصن بمرح كما يفعلن أمام  
العروس .

وصل الخبر إلى الحارات القريبة التي شاهدت أسنة النيران المتقدة، قالوا إنها توهجت في المدن والقرى المجاورة وكان لها ما يشبه لمعان البرق، قيل إنه بريق البنادق حين وضعت في الماء المغلي، ومنهم من قال إنه لسان نار وحد الأرض مع السماء، البارقة التي انطلقت من الشيخ جراح، شاهدها كل مبصر على بعد كيلومترات. منهم من التزم الصمت يراقب البنادق باندهاش وهي ترسل لمعانها. استمر توافد الناس إلى الفرح وكأنهم جاؤوا للمشاركة بالحناء والليالي التي تسبق يوم الزفاف، حضروا جماعات يرددون الأهازيج والأغاني، رحب أبو عدنان بضيوفه، عمل القهوة أولم الذبائح، كان وجهه متهالاً صبب القهوة، ودار كعادته من اليمين ثم صب للنساء. سمع كلمة بالأفراح ودايمه وغيرها من مئة شخص وربما أكثر. أكل الموجودون ومسحوا أيديهم بذقونهم دعوا " إن شاء الله بهزيمة الصهاينة الخنازير " ومنهم من قال " نأتيك بالأفراح (وعقبال) زواج أولادك " .

التقت عيناها وخوفاً من أن تفضحها نظراتها اختبأت وراء أم عدنان، فأطلقت الفتيات الزغاريد والمهااة، فازدادت خجلاً، شاهدتها أم عدنان تنظر إلى عيني ابنها، فراق لها ذلك، فتحت كفيها وقرأت الفاتحة، ثم نظرت إلى الأعلى، وأبعدت وجهها عنهما.

في ذاك النهار أشرق عيناها، بدتا قنديلين يشعان بهجة وألفة، يلتقي نورهما بالبريق الساطع من القدر تومضان " كانتا جميلتين في المساء الأرجواني، أبحرتا في زرقته وغاصتا في أعماقه، سمعت في داخلها كل الكلام غير المباح فانتعشت فرحة .

وقفا خارج الدار، نسمة الهواء تشتبك مع شعرها، السماء قناديل مضاءة، القمر ثمرة شاحبة طارت من الشجرة والتصقت في طرف القبة، سارا ببطء حول الدار، خطواتهما مضطربة يفكران بالأيام القادمة وما ستفعله الحرب، أدخل يدها في يده، نظرت إلى وجهه، حارت في نظراته، ابتسمت بخجل وقالت: لنعد .

كانا على مقربة من الدار، شعر أن بعض العيون تحوم حولهما، قال: بل لنبتعد قليلاً فلدي ما أقوله .

شدها من يدها، مانعت قليلاً وقالت :

لنؤجل الكلام للغد ولنعد .

لا تهربي أيتها الجبانة، اسمعيني ولا تدعي الكلام يضيع .

انتبه إليها مترددة، وقع خطأها، شد على يدها، مازالت باردة كقطعة ثلج،

فركها فبدأ الدفء يتسلل إليها .

تأكدت من أنه لن يطاوعها ولن يعود بسرعة إلى البيت، فقد يكون لديه ما يقوله كما صرح!

مشت إلى جانبه، وصلا إلى أرض محروثة، قفزت كراعية ماعز وأخذت تمشي خبيباً، أسرعرت لتجتاز وعورتها، سبقته، أسرع خطواته، كاد يهرول، انتبه إلى ثدييها اللذين يرتفعان وينخفضان بحرية، يمارسان طقوس الرقص بعفوية تامة، أغلب الظن أنها لم توطرهما بحمالة الثديين، فكانت رياضتهما أشبه ما تكون بحركة عجرية راعشة .

ارتدت ثوبها على عجل حين دب الخبر في القدس، النيران متصاعدة عند بيت أبي عدنان، سألت عن سر توافد الناس إلى " الشيخ جراح " وبالتحديد إلى بيت أبي عدنان، خافت، الناس لا يأتون إلا في حالتين الفرح أو الترح، وبما أن الفرح قد غادر القدس وكل المدن العربية بعد إجراءات الحرب، فالشيء الذي فكرت فيه جعلها تركض. قبل أيام أفرج عن عمر بكفالة نقدية، وقع والده تعهداً، نص على أنه المسؤول عن أي تصرف لأبنه يخل بالأمن والنظام .

تجاوزا الأرض المحروثة، حيث الأشجار والبساتين تمتد على مساحة واسعة، وقفا إلى جانب شجرة خضراء سامقة كالنخلة، النسمة تبعث في أغصانها الموسيقى ، حفيفها نغم أشبه ما يكون بصوت كناري، عليها طيور لا تبدو ألوانها بسبب العتمة، تخيل حفيف أوراقها وزقزقة عصافيرها، ابتعدت عبله عنه، ناداها، ركض خلفها، ابتعدت، أعادها إلى الشجرة، دارا دورات حولها ثم ركضا في أرجاء الغابة .

مالت الشمس إلى المغيب قبل ساعة، وأخذت بقايا الألوان الأرجوانية بالانسحاب، بينما أخذت النجوم تركض لتشعل قناديلها، أما القمر فقد بدأ يثبت في محاولة لأخذ مكانة الشمس .

أمران يشغلان فكره، الحرب وعبلة، الحرب لن يكون له الكلمة الأولى فيها ولا حتى الأخيرة. الدول تتصارع، وربما تقع بين لحظة وأخرى أنا عبله فعلى الرغم من تجاهله لنداءات قلبه المنكررة، فقد وصل إلى درجة لا يستطيع معها البقاء بعيداً عنها. لقد صارت كل حياته، يخرجان قبيل الظهر ولا يعودان إلا مساء. تذهب إلى بيتها وهو يلف على أصدقائه .

لم تعد قصة حبه خافية، القدس المدينة الكبيرة، توزع أسرار أبنائها فتصير

صغيرة كقرية يعرف سكانها بعضهم بعضاً، لاشيء يخفى، تناقلوا قصة حيه من شخص لآخر، وعندما وصلت إلى أمها لن تفاجأ ولم تعلق. سألت ابنتها عرفت أنها مولعة به فدعت من كل قلبها:

" الله يبعث الخير، عمر جيد وكل الفتيات يتمنين الارتباط به، تكونين صاحبة حظ يفلق الصخر إذا تقدم لخطوبتك " .

حاول أن يلمس غصناً قريباً، فإذا مجموعة كتب تهوي إلى الأرض ومن بينها رواية " وداع للسلاح " تأمل الرواية ووضعها تحت المخذة، لكنه لم يستطع مواصلة نومه. أفاق يبحث عن الطيور البيض والحر والصفير، يبحث عن الشجرة السامقة والأرض المحروثة.

قعد في سريره، وضع يده على قلبه، ظن أنه قادر على الهرب، قادر على العيش وحيداً، منذ زمن وهو يكابر، الوطنية دم يجري في عروقه تغذي عقله، يحلم بأمة حدودها الماء ورجالها أشداء على الأعداء يحلم بالقومية العربية وفلسطين والتحرير. الآن أدرك أن كل شيء يصير جميلاً، يمكنه أن يقرب الأحلام ويجعلها وردية سعيدة. ناداها اقترب من الشجرة أخبرها :

سنجعل أحلامنا حقيقة. سنكون سعداء، سعداء جداً. أنت جزء مني، قلبي يدق باسمك، لا أتصور حياتي دونك، حياتي خاوية ولا معنى لها، ولم أشعر بأهميتها إلا عندما دهمني هذا الإحساس، سنعيش معاً ونناضل معاً، وتكونين اليد التي تدفعني إلى الأمام، فالرجل يبقى في مكانه حتى تأتي امرأة وتشدده. تسير معه وتسير له الدرب. فكرت كثيراً قبل أن أقول هذا الكلام. قبل أن أصارك بحقيقة مشاعري التي تحسني بها، تحسني بكل لحظة.

أحبك يا عبلة، لقد ملأت حياتي فرحاً، قلبي ينبض، تأكدت بأن حياتي ناقصة وأنت القادرة على إكمالها، تحدثي إنها حياتك. الخجل في مثل هذه المواقف غير وارد، قلبي رأيتك بصراحة، رأيتك أحترمه مهما يكن.

تسلل الخجل إليها، أحست بأن حديها توردا، لم يلاحظ الفرحة التي ارتسمت على محياها،

انهالت عليه أمواج العتمة، غيمة سوداء تتحرك خلفه، تلفه، تهرب عبله منها.

الوقت يمر بسرعة، طلب عمر إلى أخيه مصطفى أن يركب دراجته ويبلغ رفاقه في حركة القوميين العرب وأصدقاءه المقربين بضرورة حضور اجتماع

استثنائي قبيل منتصف الليلة، وصل عدد الحاضرين حوالي الثلاثين، افتتح الاجتماع كعادته " باسم العروبة " ثم ردد شعار "

دمنا حديد و نار

فرددوا خلفه

وحدة تحرر ثأر

تحدث عن الأوضاع العسكرية وأخبرهم بضرورة تنظيم المقاومة الشعبية، سندهب غداً ويحضر ذخيرة كافية للأربعين بندقية. مابين هرج ومرج ومزاح ونكات، مضت الساعات الأخيرة من الليل وتسللوا إلى بيوتهم بعد الثالثة صباحاً على أمل اللقاء عصراً، أما عيلة، فبعد أن تركت عمر في العاشرة ليلاً، دارت على عدد من بيوت رفيقاتها وصديقاتها وطلبت منهن الاجتماع في بيتها غداً، قالت إحداهن: أنت تتعيبين نفسك يا عيلة !

أجابت: الحرب وقعت وعلينا أن نفكر بما نفعله .

وماذا نفعل إذا انهزم الجيش لا سمح الله ؟

نعمل الكثير، هل نسيت أن الواجبات الإنسانية تحتم علينا أن نعالج جرحانا ونقدم لهم العناية حتى ولو كنا نساء عاديات غير ملتزمات بأي حركة سياسية، فكيف ونحن رائدات المجتمع المقدسي. لو كل واحدة تحدثت بطريقتك لماتت الشهامة والنخوة من رؤوسنا .

صباحاً أحضر عمر صناديق الذخيرة وعند الظهر توافد الرفاق إلى بيته، قبيل العصر قرر الاجتماع. بعد مناقشة بنود الاجتماع بند بنداً، وزع السلاح والذخيرة ثم قسمهم إلى مجموعات كل واحدة مؤلفة من خمسة. حدد مهمتها والمنطقة المسؤولة عنها، لم يبق في بيته سوى بندقيتين واحدة له والأخرى لأخيه مصطفى الصغير. وفي هذا الوقت بدأت الإذاعة الأردنية تصدر بياناتها حول القتال، إذ قررت حكومة الأردن القتال إلى جانب سورية ومصر .

في اليومين التاليين تقدم المتطوعون والرفاق يرمون السلاح مع كامل الذخيرة أمام بيته، ينادونه ويطلبون منه أن يستلم البنادق التي وصل عدد المسلم منها أربع عشرة ومسدسين صادرهما شقيقه من شرطيين هاربين .

كان عمر مشغولاً بجمع عدد من الرفاق حوله وتأطيرهم فيما يسمى المقاومة الشعبية، تنقل من حارة إلى حارة ومن مدينة إلى أخرى، زار لهذا الغرض بيت لحم

والبيرة ورام الله ونابلس وطولكرم وجنين وفي طريق عودته مر على طوباس وأريحا. أعاد للتنظيم شبابه فعمدت الاجتماعات، وعادت الخلايا للعمل السري والعمل في أوساط الجماهير. عند وصوله القدس كانت جيوش الاحتلال تزحف لتلتهم المدينة. أخبر أخاه مصطفى بضرورة لف البنادق والذخيرة بالنايلون ودفنها بعيداً عن البيت. أما باقي البنادق غير المسلمة فلكل واحد حرية التصرف، إما الاحتفاظ بها وإما دفنها وإما تسليمها على أنها من بقايا الجيش الأردني .

أعلنت مكبرات الصوت استكمال جيش الدفاع الإسرائيلي " احتلاله للقدس " على كل من لديه أي سلاح أو ذخيرة أن يضعها أمام بيته ويغلق الباب " دارت الدوريات في الشوارع تعلن ذلك:

" إلى أهالي القدس " أورشليم " سلموا السلاح الذي بحوزتكم، إنها فرصتكم الأخيرة التي لن تعاقبوا عليها، ضعوا السلاح والذخيرة أمام بيوتكم وأغلقوا الأبواب، جيش الدفاع سيقوم بالتفتيش، من لا يمثل لهذه الأوامر نفسه لعقوبة اقتناء السلاح وسيعاقب وفق الأحكام العسكرية النافذة الآن "

بقي بعض الرفاق يترددون على بيت أبي عدنان، قرر عمر وبعض رفاقه مداومة إدارة المخابرات الأردنية في القدس وإتلاف الأرشيف المركزي. تسلل مع اثنين من رفاقه إلى المبنى. على الباب الخارجي مدنيان يبدو عليهما الخوف والهلع، تقدم من أحدهم وهمس في أذنه بأن لديه موعداً مع السيد حنا جلحم. أجاب بأنه غير موجود، لكن لأبأس من انتظاره .

لفوا في أقسام المبنى الخالي إلا من المناوبين، ثم توجهوا إلى قسم الأرشيف وهناك عبثوا بمحتوياته، قلبوا بعض الملفات كإضبارة الدكتور جورج حبش وتيسير قبة ومحمد الناييف.. وملفه الذي يحتوي ما يزيد على ألف ورقة، منذ كان عمره ثلاث عشرة سنة حتى قبل يومين، حيث وردت إلى الأرشيف ثلاثة تقارير إحداها يتحدث عن استلامه لأربعين بندقية دون الرجوع إلى السلطات المركزية أو أخذ موافقة المخابرات وإقامة حفل تنظيفها والثاني يتحدث بأسهاب عن علاقته مع عبلة، والتقارير الثالث يتضمن عمل اجتماع لثلاثين شاباً في بيته، قلب الأوراق والتقارير المرفوعة، استعاد شهادة دراسته الثانوية وصورة عن إجازته الجامعية، وصور شخصية بمناسبة مختلفة تزيد عن أربعين صورة. ابتسم وقال:

- تنفع أن تكون سيرة ذاتية، وأظن أنني غير قادر على الإلمام بمحتوياتها، لكن لا وقت لدي لتسجيلها، لاشيء ينفعها سوى عود الثقاب .

أضرم رفيقاه النار في غرف الأرشيف الأخرى، فتصاعدت ألسنة اللهب، أما حناجلحم فقد تأخرت هو وبعض العناصر لمدة يومين لشحن الأرشيف أو التخلص منه، يقال بأنه فرح لحرقه وصار يرقص للنيران المنطلقة. في اليوم الثاني جمع ماتبقى من رجال المخابرات وغادر سراً إلى عمان.

بدأت الدوريات الإسرائيلية البحث عن عمر القاسم، استدلت على بيته، وكلفت سيارة دورية فيها ثلاثة عناصر لمراقبته. ذات مرة التقى أخوه بإحداها مواجهة، سأله عن أخيه فأجابهم :

- الذي تسألون عنه لم أراه منذ ستة أيام، وأغلب الظن أنه غادر إلى عمان.

أكد الضابط بأنهم سيقفون القبض عليه. ظلت الدورية مكانها تراقب وتستطلع، لفت حول المكان ثم غابت عن نظره، عادت مساء تسأل عنه ثانية، إذ أبلغ مسؤول الدورية أم عدنان بأن ابنها يمارس نشاطه في القدس ويعمل اجتماعات يومية في داره .

- ولماذا لم تقبضوا عليه ما دمتم تملكون هذه المعلومات ؟

- سنقبض عليه .

قال ذلك وأعطى الأمر لعناصره بالتفتيش، تحدث باللاسلكي فتقدمت سيارتان وطوقتا المنزل، فتحوا الخزانة، رموا الأثاث والفرش أرضاً، فتشوا حتى خزان الماء، وعندما لم يجدوه عادوا أدراجهم، بينما رابطت دورية قريباً من بيته .

علم وهو عائد إلى منزله بذلك، فقرر المبيت في إحدى مغاور جبال القدس، أرسل من يخبر أخاه مصطفى بمكان وجوده، وبنيتة التسلل إلى مكان قريب لأخذ ما يحتاجه.

في الحادية عشرة ليلاً حمل ثلاث بطانيات وعدة أكل وإبريق شاي حملها على دفتين، ساعده في المرة الثانية أخوه، قصدا مغارة السلطان، التي كانت وكراً للصوص في عصور خلت، ونسبة تسميتها تعود إلى اختطافهم أحد الأمراء الذي مكث فيها شهوراً عدة ينسج سجادة، قدمها للسلطان، عرفت زوجة ابنه أن السجادة هي من صنع الأمير.. المغارة واسعة رطبة وكأنها مجرى لهواء بارد، لا يشعر الداخل إليها بأية حرارة، وصلها اشعلا القنديل، سترها بابها ببطانية، فرشها البطانيتين ورتبا بقية الحاجيات التي حملها. جلسا داخلها حتى الفجر. في الصباح عاد مصطفى ليحضر لشقيقه الإفطار وبعض الخضار ودبة ماء. في اليوم الثالث قرر أن يستدعي بعض رفاقه للإقامة مع أسلحتهم وذخائرهم، ورسم

خطة لتصير مغارة السلطان أول قاعدة في جبل الزيتون ستكون شرارة المقاومة الشعبية طويلة الأمد، التي ستتطلق في صراع طويل مع العدو الصهيوني.

كان مصطفى على رأس مجموعة شبان، قامت بذفن البنادق، ودفن شهداء الجيش الأردني، ومنهم الضابط الذي مات على السفح، نظروا في هويته إنه خالد الخطيب، بعد دفنه هناك صعد ثلاثة ودحرجوا صخرة كبيرة استقرت على مقربة منه، كتبوا عليها هنا يرقد النقيب خالد، بعد أيام دهنوا الصخرة بطلاء وزرعوا حولها الأزهار والورود التي يسقونها الماء كل يوم.

لم يستطع المقاومة الشعبية أن تقول للاحتلال كلمة واحدة، احتلال الضفة الغربية كاملة وبأيام قليلة أضاع فرصة المقاومة. عاد عمر إلى بيته، ألقى البندقية جانباً فقد انتهى دورها قبل أن يبدأ. وليس أمامه سوى العمل السياسي، يخرج من بيته صباحاً ويعود مساءً يسهر حتى منتصف الليل وهو يعد بعض التقارير ... ذات مساء نادى أخاه وطلب إليه أن يؤمن آلة كاتبة. سأله مصطفى:

- لِمَ الآلة الكاتبة ومن أين سأحضرها .

- إن كنت لا تريد إحضارها فلك ذلك، وإن شئت فمن مدرسة من مدارس وكالة الغوث ضعها في أي مكان تختاره، والأفضل هناك في مسيل الماء واترك البقية عليّ .

فرح مصطفى لأمرين، ثقة أخيه فيه تتزايد يوماً بعد يوم، ولأن طلبه هذا يعني أنه سيستخدمها لطبع البيانات والمنشورات، ابتسم في سره، فكر من يصطحب، قال بينه وبين نفسه الذي يصلح لمثل هذه المهمة هو صديقه محمود جاد الله، الذي يسكن في حارة السعدية. ماذا يقول له؟ قد لا يوافق على السرقة، عندها لا بد من توضيح الأمر .

انطلق إلى محمود عصرًا، رفض في البداية المساهمة، لكنه عاد ووافق كما توقع، وقع اختيارهما على مدرسة خليل سكاكيني، استطلعاها وقررا تنفيذ العملية، سورها الواطئ وزجاج نوافذها المكسور يساعدان على ذلك .

قفزا من فوق السور، واجهتهما شجرة كينا عالية، أغصانها وأوراقها تسدّ النافذة. تسلقاها وعلى المستوى المطلوب، انحدر من غصن أعلى بقليل، انزلق محمود وكاد ينزل دفعة واحدة من الشجرة إلى داخل الغرفة. تمسك بالنافذة، أحدث صوتاً قطع السكون. قعد على أرض الغرفة، راقب الطريق ونظر إلى البعيد من النافذة المفتوحة ... تأكدا بعد فترة ترقب، أن هذا الصوت لم يثر أحداً، سيقولون،



ربما هو صوت إطلاق أو انفجار. الناس لا يجروون على الخروج. عندما اطمأنا إلى تحليلهما وأيقنا من خلو المنطقة. استعدنا لتنفيذ القسم الأهم من هذه العملية وهو إنزال الآلتين ووضعهما في المكان المتفق عليه، تعاوننا على إنزال أول واحدة. بعد أن صارت خارج النافذة، قفز مصطفى إلى السور وتناولها، قفز محمود إلى السور ثم أرضا وتناولها ووضعها في مكان مستور من المسيل. أعادا المحاولة بثقة أكبر وأنزلا الآلة الثانية بالطريقة ذاتها، ووضعها في حفرة إلى جانب أختها. قعد مصطفى إلى جانبها بينما عاد محمود إلى السور تسلق وأغلق النافذة، نفضا ملابسهما، أسرعا بالعودة للتخلص من رائحة مسيل المجارير. افترقا قبل أن يصلا إلى حي الشيخ جراح.

في صباح اليوم الثاني غير عمر ملابسه، أحضر عربة خضار دفعها أمامه، ذهب إلى السوق، اشترى بعض الخضار والفواكه، وبدأ ينادي كبقية البائعين المتجولين. قصد مدرسة خليل سكاكيني، أوصل العربة قريباً من هناك، فتح الدرج الأسفل ووضع الآلتين، وتابع نداءه على الخضار والفواكه. غاب طوال النهار وقبيل منتصف الليل عاد دون العربة ودون الآلتين. سأله مصطفى فلم يتلقَ منه جواباً مقنعاً. فهم أن الأمور تجري على ما يرام، عمر دائم الحركة يغيب عن المنزل أياماً عدة، ليال يبيت خارج غرفته .

توالت الاجتماعات السرية مع رفاقه واصدقائه الذين يخططون لإقامة جبهة نضال شعبي ضد الاسرائيليين، تتألف من بقايا التنظيمات السياسية، من هؤلاء صبحي غوشة وفايز حمدان وتيسير قبعة ومحمد النايف وأبو اصطيف ووليم وكمال...

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## - الفصل الخامس -

انفتح باب الغرفة رقم تسعة، ظهر وجه الحارس، تقدم خطوتين، خاطبه بكلمات عبرية فيها الكثير من الفكاهة والدماثة، وألقى ورقة عبر الكوة الصغيرة. من بعيد شاهد إياهو ذلك فصاح بالحارس :

- يا أبله استغفلك وألقى رسالة داخل الغرفة، عقوبتك ستحددها الإدارة .

انتفض العسكري وتغير لون وجهه.. تقدم الشاويش وأمسك بعمر وجره للتفتيش .

" اشلح ملابسك أيها المشاغب ... اخلع حتى ملابسك الداخلية، هيا بسرعة ليس لدينا وقت " نفذ العسكري ماطلب إليه وفتش كل قطعة من الملابس، ثم ألقاها بوجهه ورفع سماعة الهاتف وأبلغ نائب المدير، الذي أمره بوضع عمر في المنفردة عشرة أيام .

جدران الزنزانة وحوش ضارية، تتشب مخالبتها في جسده، في عقله الذي يكاد يتوقف عن العمل، في هذا الوقت الذي هو بأمس الحاجة إلى الرفاق، ليرعى خطواتهم خطوة خطوة، يبتعد عنهم، نظر إلى حيطان الزنزانة، تأملها، شاهد جدرانها تتصارع، وعليه مصارعة النوم والوقوف ساعات طويلة، عقوبته أن ينام واقفاً بلا فراش ولا غطاء. طلب تنشيف أرضية الزنزانة من الماء، كما طلب فرشاة وغطاء، أجابه الشاويش بالرفض. جاد له حول الرطوبة والمرض وسوء وضع الزنزانة، ضحك إياهو ضحكة صفراوية وأجاب:

- كيف تكون العقوبة مجدية إذا لم تكن كذلك، ومثلك كالحديد لا شيء يؤثر به، حتى المرض يبتعد عنك، افترض إنك مرضت، فالمرض " كوبا " وغيره موجود لخدمتك، كل شيء له علاج عندنا، جرب أن تمرض بالروماتيزم أو الشلل أو فقدان العقل، ستجدنا بخدمتك، وستجد لدينا ما يسرك، وسنكون مسرورين منك، وقد نفكر بإطلاق سراحك. أليست هذه مغريات تستحق التجريب!؟

هز عمر رأسه، بدأ شريط التعذيب يرسم صوراً تتحرك أمام مقلتيه، وبين الرؤى والرؤيا تنفتت الأغنية إلى نتف حزينة، ترنم بأهازيج أعطته دفعاً للمقاومة، تذكر كيف يعذبونه، وعندما يمرض يقولون بأنهم في خدمته، نظر إلى إليا هو نظرة فيها الكثير من القوة، مما دفع الشاويش إلى الانسحاب. لقد قرر أن لا يكون ضعيفاً حتى لو أشرف على الموت، لن يظهر ضعفه، بل سيظل يدندن ويسمع شبابة أبي القاسم الشابي التي تعطيه القوة والحياة والتحدي .

عاش طوال حياته يحب المغامرات والتصدي. وقف في وجه المعلم الذي منع الطلاب من الخروج والتظاهر " مالك ومالهم، هل ستتصب نفسك رجل شرطة " ابتعد المعلم عن البوابة الخارجية وسمح لهم. خرج الطلاب إلى الشارع نظموا أنفسهم وساروا صفوفاً، هتف عمر بهم، داروا وفي نهاية التظاهرة عادوا إلى المدرسة. في اليوم الثاني أصدرت الإدارة قرار طرده أسبوعاً،

كما طلبت إليه الاعتذار، جاء عمر في اليوم الثامن يعتمر كوفية. اعتذر فهز المدرس رأسه قائلاً:

- كنت اتمنى الخروج معكم، لكن الواجب الوظيفي يفرض عليّ أن أتصرف بعيداً عن قناعاتي.

أما المدير فقد دس عدداً من الطلاب لينقلوا أخباره أولاً بأول، ظل يلاحقه، يحاول الهزء منه ... كان محبوباً يتحلق زملاؤه حوله، بعضهم يعطيه قصاصات فيها أخبار تهمه، مجتهد ومحبوب من المعلمين، الأول في صفه، وهذا مامنعه أن يكون عرضة للسخرية.

مضت الأيام بطيئة، التحضير للإضراب هو ما يخطط له ويشغل باله، بعده عن الرفاق قد يوقعهم في الخطأ. المحاولات السابقة لها نجاحاتها وإخفاقاتها، أهم نقطة تعلمها عدم تمكن سلطات السجن الاستفراد بالسجناء والتعتم على الإضراب ومطالبهم .

سمع عمر جملة وهو في الفورة لها مغزى كبير عنده. توقف عن اللعب، نظر يمينه ويسرة، حاول أن يعرف مصدرها فلم يتمكن، شاهد عسكرياً من غير المكلفين بمراقبتهم، راقبه حتى اختفى، ترك اللعب وجلس على الأرض، أحاط اللاعبون به وسألوه عن سبب تركه اللعب. فعلل ذلك بأن مزاجه مضطرب، دعاهم إلى متابعة الرياضة، أما هو فلن يتابعها منذ هذه اللحظة، الكلمات بعد أن سمع جملة والمياه تجري في مجاريها" مرتين لا أحد يعرف ما تعنيه هذه إلا علي

الجعفري وإسحاق مراغة. وقد لا يعرف العسكري الذي قالها معناها.

بعد انتهاء فترة التنفس أخبر زميليه علي وإسحاق باستلامه الإشارة التي تعني وصول الرسائل إلى السجون وإلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

عقدوا اجتماعاً مطولاً بحثوا فيه الأمور الإجرائية وغير ذلك من الترتيبات، قبل أن يعرضوا الأمر على رفاقهم في المهجع ثم في السجن. خمنوا ما ستقبله قيادة منظمة التحرير من أجل انجاح الإضراب. استدفع ببعض الصحفيين الغربيين والامريكيين بالسفر إلى " إسرائيل " وطلب مقابلة السجناء وغير ذلك من الأساليب. كما سريت رسالة إلى مجلة " التايم الأمريكية " فبادرت إلى نشر خبر عن الاضراب، مما أدى إلى تنبيه إدارة السجون، وأخذ احتياطاتها من استنفار ومراقبة وتتصت والغاء الإجازات استعداداً لأي طارئ. ليلاً دارت نقاشات حول الإضراب وأهميته وكيفية البدء فيه، انتهت باتفاق سجناء نفحة أن يشاركوا فيه، حتى المرضى الذين لا تحتمل أجسادهم وصحتهم الامتناع عن الطعام، رفضوا أن تكون حالتهم الصحية سبباً في عدم المشاركة، مع أن رفاقهم حاولوا إقناع بعضهم بعدم تعريض حياتهم للخطر، قال راسم حلاوة رداً على محاولاتهم:

- إذا كانت حياة الذل أفضل من الشهادة فبئس الحياة، علينا أن لا نتخلف عن أداء واجبنا الوطني، فيد الله فوق يد الجماعة.

وقال إسحاق مراغة الذي يشكو من آلام معدته:

- كيف أكون في اللجنة العليا للإضراب وتطالبونني الامتناع عنه، إنكم بذلك تحكمون علي بالموت.

أبلغت إدارة السجون المركزية ببرقية مستعجلة موجهة إلى إدارتها ضرورة التشديد على السجناء ومنع الإضراب مهما كلف ذلك. فطلب إلى طاقم السجن أن يناوب ليل نهار، ومنعت العناصر من الذهاب إلى بيوتها وأي نوع من الإجازات .

تساور عمر مع راسم والجعفري والشيخ عباس وبقية الرفاق في أمر الإضراب، بعد أن تم تحديد التوقيت مع بقية السجون، عليهم أن يحسموا قضية مشاركة المرضى في الإضراب، فهناك أكثر من ستة حالتهم الصحية لا تسمح، بينما حسم راسم حلاوة وإسحاق مراغة موقفهما بالمشاركة مهما كانت النتائج، إلا أن هناك أربعة آخرين يجب مناقشتهم ووضعهم أمام تأثير عدم تناول الطعام على صحتهم. مثلاً في الغرفة الأولى خالد بزوي المريض بالقلب والذي أغمي عليه

غير مرة، يشكو ضيق التنفس، يخرج صوتاً كاللهات ثم يتكوم مكانه، مضاعفاً لهاته، الغرفة تتحول إلى دائرة، تبتعد وتقترب منه، الجميع يحركون أيديهم والمناشف ليعيدوه إلى حالته الطبيعية. الشيخ عباس يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويدعو الله أن يشفيه.. أما الممرض كوبا فإنه يصل دائماً في الوقت غير المناسب. بعد أن يفيق من غيبوبته وإغماءته. يحرك يديه ويدلك صدره، لا يفعل أكثر من ذلك. مرة قال له عباس:

- خاف الله ياكوبا خالد بحاجة إلى علاج وطبيب يراه ليحوله إلى المستشفى

- اسكت أيها الشيخ " العاهر"، هذا الأمر نحن نقرره ولسنا بحاجة لمن يذكرنا بواجبنا الإنساني، قم صل أربع ركعات ولا تتدخل مرة ثانية بما لايعنيك.

- واضح ياسيد كوبا أن أمر زميلي ورفيقي لا يعنيني، أتعرف لماذا لأنكم كلكم إنسانية !

ضحك الموجودون وعلقوا تعليقات سافرة نالت من كرامة كوبا، فتطلع بعين الحقد والغضب وهو يتمتم بكلمات عبرية: " ستقع في يدي ذات يوم أيها الوقح، وسأعلمك كيف تنفوه بكلام كهذا "

بعد يومين أغمي عليه ثانية، لم يطلبوا هذه المرة الممرض الذي جاء وحده يركض فقد أبلغه الحارس بذلك، دخل الغرفة وحاول أن يتجه إلى خالد، وقف عباس سداً أمامه ومنعه من الوصول إلى المريض .

أبلغه أن ما فعلوه، عندها احتد وشتهم ثم قال بأن ليده سحراً عجيباً ولا يجوز لهم فعل ذلك، وإلا ما فائدة وجوده.

حاول أن يمدده ليفحصه، تظاهر بأنه سيفحص ضغطه ويكتب له دواء، أخرج السماعة وميزان حرارة. راقب الجميع ما سيفعله الممرض. مديده ليتناول يد خالد فلم يتمكن، ناوله ميزان الحرارة فلم يتناوله، وعندما حاول أن يكشف عن صدره رفض المريض ذلك.

هذا وضع خالد بزواوي أما فادي حسين فيشكو من آلام في الكولون، ولديه آلام وحرقة وقت التبول، حزين لا يكثرث بأحد، مازال يذكر أمه العجوز التي تركها نهياً للمرض والقلق، قال لها وقت وداعه:

- سأعود بعد يومين .

أجابته :

- وإذا لم تعد ؟!

صمت ولم يجب، سقطت من عينه دمعة جفها دون تشعر بذلك، نظرت إليه وتابعت حديثها: نحن لا أحد لنا في هذه الدنيا. إذا لم تعد يا ولدي سأموت، وصيترك أختك ابتسام وهذا الصغير الذي ستكون أباه وأمه.

إشارات إلى باسم ابن السنوات الأربع، انزوى في الغرفة، ثم خرج بعد مدة وهو يمسح عينيه. يوم قام بالعملية مع رفاقه لم يلق القبض إلا عليه، قالوا بأن مسؤول الدورية نجا بنفسه وهو نائبه، وإن صديقه محمود قتل في أرض المعركة. أما هو فقد أصيب، الخامس احتفى لا أحد يعرف عنه شيئاً. أثناء التحقيق واجهوه بحقائق يجهل بعضها قالوا له :

- نحن نعرف كل شيء.

- ولماذا تسألونني؟

- لنعرف مدى صدقك.

توالت أسئلتهم عن اسم المسؤول وموقع القاعدة ونوع السلاح الذي تدرب عليه، ثم انتقلوا إلى أسئلة حول وضعه الاقتصادي والاجتماعي، وأسئلة أخرى عن حارته وشبابها، ثم عن القواعد الأخرى التي يعرفها لمنظمتهم، وأخيراً الدولة التي انطلق منها.

بعد انتهاء التحقيق، ندم على إجاباته، لقد أعطاهم معلومات معظمها صحيحة، لأنه لم يستطع تضليلهم في أسئلة لا تحتمل إلا إجابة محددة ودقيقة... الشيء الذي لم يبارحه وضع أمه المريضة وشقيقته وشقيقه الصغير. ذات مرة حدث عمر بكل شيء، قال له والدموع تبلل خديه وثيابه:

- لقد أعطيتهم كل ما أعرفه ليتني مت ولم أفعل ذلك، أنا نادم .

- هل بإمكانك أن تقول غير ذلك ولم تفعل ؟!

- كلا فهم يعرفون عنا كل شيء!

- الذنب ليس ذنبك، البيت من الداخل ليس نظيفاً .

وضع عمر يده على جبينه، تذكر كيف بيني مسؤولوا القواعد أمجادهم على مثل هؤلاء. كيف يبعثونه لتنفيذ عملية وهو لم يتجاوز السادسة عشرة، كان الأجر

بمسؤول قاعدته أن يقودها بنفسه ولكنهم يفكرون بالطريقة ذاتها. هؤلاء ليسوا قادة، لأسباب عدة منها ما ذكرته .

نظر إلى عيني فادي وخديه المبللين. عيناه حمراوان، ناداه تعال يا أخي اقترب مني، مسح دموعه، ولكي يخفف عنه أبلغه أنه سيسأل عن أحوال أمه وسيتلقى جواباً بعد أسبوعين على أبعد تقدير .

ارتسمت ابتسامة على ثغر فادي، صرح بأنها أول ابتسامة منذ سنين، ومع ذلك ظل قلقاً حتى جاء الجواب المطمئن عن وضعها، حمد الله وقال لعمر رداً على ما فعله:

دعني أيها الرفيق أنضم إلى تنظيمك

سنفعل ذلك إذا اقتنعت .

يحمل عقدة الذنب، يصرح علانية أن موته أفضل من حياته كلها أثام وذنوب وخداع، وعندما سمع قرار الإضراب، وطلب إليه أن لا يضرب نظراً لحالته الصحية المتدهورة أجاب: " بأنه لن يحيد عن درب الجماعة " .

ردد كل من في الغرفة قول الشيخ عباس:

يد الله فوق يد الجماعة .

في الغرف الأخرى حاولوا معالجة قضية اشتراك المرضى من الإضراب، فوجدوا الإصرار على المشاركة من المرضى أكثر من الأصحاء، بعد ذلك أعلن أن سجناء نفحة سيشترون بالإضراب وصار تعبير يد الله .... " هو المتداول عند المرضى والأصحاء، الفرحة تشع في العيون، غداً صباحاً سيردون طعام الإفطار ليبدووا الإضراب الذي لا عودة عنه.

بعد أيام من الإجراءات المشددة التي منعت وقوف أكثر من اثنين أثناء الفورة، اعتقدت إدارة سجن نفحة أنها كسرت قوة السجناء وأن الحديث عن الإضراب أصبح غير وارد، لذلك أمر عمрам تخفيف حالة الاستنفار الكاملة، ليذهب إلى تل أبيب ويعيش حياته، حدث عشيقته انجيلا كيف قضى على إضراب كان سيحدث في السجن المسؤول عنه، عندها قبلته قائلة، ليحي جنود الحق والعدل. مم حقه الفخار بذاته. كلمات انجيلا تحببه وتعيد إليه ليالي العشق حيث يقضي إلى جوارها ساعات وربما ليلة بكاملها. ألهمت كلماتها ذهنه المشتت. عليه أن يلغي أي تفكير بالسجن والسجناء وهو في حضرتها، لكنه هل يستطيع ذلك، شيء ما ذكره أن السجناء عربوا الأطوار، قادرون على التكيف مع الظروف



المستجدة. تساءل مالذي يجعله يطمئن إلى هذه الدرجة، ربما يخططون للإضراب .  
غاب في عالم الزنزانات ورفض الطعام والمناوبة وعدم النزول إلى تل أبيب.

كانت انجيلا رقيقة ودودة، قبلته ومازحته، ضحكا معاً، ولكنها عندما رأته  
شارداً عن عالمها، يفكر بما سيحدث وما يخطط السجناء. تحول جسده اللاهيب  
خلال لحظات إلى لوح تلج، داعبته بقولها: نحن هنا، بماذا تفكر ؟

تغير لون وجهه، ألحت عليه بالإجابة وكأن لكلماتها الشفافة قوة تأثير عليه،  
قال في نفسه: "لماذا لا يشرکہا في تفكيره ويقول لها كل عذاباتہ ومعاناتہ من  
السجناء. سيدعها تفكر نيابة عنه" ؟

تردد قبل أن يصرح بأن السجناء يلاحقونه في كل مكان، ينغصون حياته.  
سألته ماذا سيفعل إن عادوا وقرروا الإضراب، أو إذا جاءه من يبلغه بأنهم عازمون  
على تنفيذه، تناولت ملابسها وارتمتها قطعة قطعة. تجهم وجهها ومسحت  
المساحيق الموضوعة عليه، حزن لتصرفها، حاول ملاحظتها، حاول أن يشرح لها  
ظروفه، أن يتوب فلا يذكر أمامها أي شيء من ذلك، لكنها كانت قد ارتدت  
كامل ملابسها، نظرت إليه باحتقار، فتحت الباب وقالت:

عد إليهم لا أريد أن أرى وجهك ثانية .

مد رأسه ليقبل يديها، ليعتذر، أعادت قولها:

اخرج الآن، إن كنت تنوي الحفاظ على خيط يربطنا .

غطت وجهها بيديها وأجهشت، حاول أن يرفعها عن وجهها المنورد والمنفعل  
ويعتذر .

صوت نشيجها يتصاعد، وقبل أن يخرج تحين الفرصة وقبل يديها. كاد  
يضمها إلى صدره لولا تراجعها وإصرارها على موقفها. أخبرته بما لا يقبل الشك  
بأنها لن تمضي الليلة معه وعليه أن يبحث عن غيرها ويدعها مرتاحة. كانت تلك  
الليلة ثقيلة، أمضاها وهو يلوم نفسه على تصرفه الأرعن، أيعقل أن يكون معها  
 ويفكر بالأوباش، في آخر الليل وقبل أن يغفو قرر أن ينتقم منهم، هم سبب  
تعاسته وسبب انزعاج عشيقته .

حضر في الصباح الباكر، وصل في السابعة صباحاً على غير عادته.  
وجهه أشبه بالأتافي، لم يسلم على أحد، طلب حضور الشاويش الياهو، الذي جاء  
على عجل، قرع الباب وأدى التحية، وعندما لم يسمع شيئاً قال :

نعم سيدي .

ما الأخبار أيها الشاويش .

أضرب السجناء ردوا الطعام أرسلوه مذكرة بالمطالب .

تناول مذكرتهم وقال له، اخرج وعد ثانية بعد نصف ساعة. عند حضور رحيم أخبرني، قل له: بأنني طلبته ليمر إلى مكتبي قبل أن يفعل أي شيء .

شيء فظيع ما حدث، أراد الانتقام فانتقموا منه " تغدوا به قبل أن يتعشى بهم " قال بينه وبين نفسه " هؤلاء الحقراء أين يظنون أنفسهم، إنهم وسط الصحراء، لو قتلناهم جميعاً من يطالبنا بدمهم، وهب أن أحداً فعلها، هل يستطيع مواجهتنا؟ إننا نملك قوة ضاربة تجعل الجميع بلا أسنة يتفرجون علينا أو يباركون ما نفعل، هؤلاء لو كانوا في سجون عربية لما حصلوا على المميزات التي حصلوا عليها. زيارات الأهل والكانتينا والفورة. في المعتقلات العربية يبقى المعتقل سنوات عدة، لا يعرف أهله عنه شيئاً، ولا يسمع له أن يدلي بكلمة واحدة. التقارير التي تصلنا تقول بأن بعض السجناء أمضوا عشر سنوات دون أن يروا الشمس أو يسمعو شيئاً عن أهلهم. سجانوينا يردون الطعام، يتهموننا بالظلم، ما هذه المعاملة " .

تناول مذكرتهم وقرأ ما فيها من مطالب " يا سلام المساواة بالجنايين اليهود والغاء التمييز في المعاملة " رمى المذكرة جانباً وبدأ يستعيد أمجاد اليهودي الإنسان العظيم الذي أعطى الإنسانية الحضارة والتعاليم. ورأى أن لا أحد يستطيع الوصول إليه أو التشبه به. دخل في هذا الوقت الشاويش الياهو ليلبغه بأن الصحافيين اتصلوا منذ الصباح يستفسرون عن الإضراب، كأنهم يعلمون مواعده بأعلى صوته :

كفى لا أريد أن أسمع المزيد.

تراجع الشاويش وأصيب بالذهول، تمالك نفسه وتشجع فقال:

- مابك سيدي !؟

- لاشيء .

نظر إلى الشاويش وحدق به ثم أردف:

- إنهم يشتغلون بدقة على الرغم من وجودهم داخل أربعة جدران! وهذا عكس ما توقعته شخصياً، والشيء الأمر أن الإضراب في السجون كافة وفي وقت واحد! كيف اتصلوا ونسقوا ؟

هذا أمر مذهل !

كان ذاك اليوم هو الخامس عشر من تموز، الشمس أرسلت أشعتها إلى العالم كافة، ومع تصاعدها إلى أعلى أرسلت خيوطاً دقيقة تسللت إلى داخل الغرف. هذا اليوم مميز في كل ما حملته الجو الرمادي والرياح الخماسينية التي لا ينقطع هبوبها، تراجعت، فبدت النقب أليفة، حملت ساعات النهار الأولى الندى الذي عطر الجو وألقى بعض حمولته وطرأوته على السجن، في حين شعر السجانون أنه يوم أعبر. يوم سيدوقون فيه الأمرين، سَيُصَبُّ الغضب عليهم، وصمود أول يوم معجزة. أمر غريب أن يكون الشعور باليوم مختلفاً. الأشعة تصل إلى صدر كل سجين وقلبه، تنير وجوههم وتترك البسمة على شفاههم. حيطان الغرف السمكية تحولت إلى زرقاة أشبه بزرقاة البحر أو السماء. زرقاة تهب عصفير القلب لغة الكلام، فيسمع التغريد الذي يجاوب في الغرف مع صوت " الله أكبر" الذي انطلق من حنجرة عباس وردده الجعفري ثم رده الجميع. قال بصوت مسموع " نويت الإضراب لوجه الله والوطن " ثم صلى أربع ركعات وقعد ماداً يديه على ركبتيه، استغرق في الدعاء، فرددوا خلفه أمين، شعر عباس بأنه أشبه ما يكون بقائد وطني، استعد لأي طارئ، وقال بينه وبين نفسه " الإضراب عمل جبار نثاب عليه، وهو يشبه العبادة إلى حد كبير، فالصوم لأجل الوطن تضحية ما بعدها تضحية "

تذكر آراء القديمة، ابتسم في سره وأقر بأن الإنسان يتعلم. كانت أحاسيس السجناء متباينة، أفاقوا باكراً، دخل الشاويش ومعه عسكري صاح بصوت مرتفع " اسفيرا " بعد العد الصباحي، قاما بتفتيش الغرفة، قلبوا كل شيء رموا الأغذية جانباً والأمتعة، ثم ألقوا شتيمة وخرجوا إلى الغرفة الثانية وهكذا حتى أنهوا الغرف. لم يترك عمرام انجيلا دون أن يطيب خاطرها، وعدّها بسهرة حمراء قبل أن يغادر مخدعها .

ذاك الحقل الذي حرثه غير مرة ولم يرتو، المرأة الأنيقة التي لوجهها جمال الشمس ولفخذيها لهيب الجمر، ولصدرها رحابة الصحراء ودقوها، خصرها هفهاف وقواها مترنح، يزداد ترنحاً إذا سمعت كلمات غزلية، مسكونة بوجع اللذة ولهفتها . لشعرها رهافة العشب، أما شفاتها فلهما ذاك المزيج الغريب من الطعمة التي أشبه ما تكون بفوران الأرض البكر التي تستقبل شلالاً. عيناها تقول فتظهران التكحل ونعوسة الأنثى التي تنتظر على أحر من الموقد، في سهرتها دمتة.. أما الليلة الماضية فكانت غير ذلك. قبل قدميها وشد بأسنانه كعبيها، قالت، أخ وظلت

تتهنه بالغنج مرة وبالبكاء أخرى، ما الذي جعله يستحضر صورة أولئك الهمج أمام ملاك الرحمة.

في مكتبه وضع رأسه بين يديه، فقد القدرة على التصرف، أدار قرص الهاتف ... انجيلا لقد فعلها الأوغاد وأضربوا حرموني من رؤيتك هذه الليلة أيضاً. تقولين بأنني أعكر مزاجك مرتين ... لا لست أقصد ذلك، أقسم سأنتقم منهم، تطلبين مني أن لا آتي على ذكرهم.. أمرك سيدتي وداعاً وكلي شوق .

استحضر جسدها، فرك نهديتها ودغدغهما، دفء رقيق يسري في كيانها، أحس بلذة نهديتها المندفعين، شعر باختلاجهما. عيناها مجنونتان، عندما تذبلان تبدوان أكثر وداعة. الجرح الذي لم يندمل سبب فوضى في حياته، جاء مساعده رحيم الذي رأى احتقان عينيه وغضبه. ذاك الرعب الذي يعبر عن خوف ووجل، شعر عمرام بوجود نائبه وليصرفه أعطى أوامره:

- الجميع إلى الساحة، لن تغرب شمس هذا اليوم قبل أن ينهوا إضرابهم .

تجمعت إدارة السجن والحراس في الساحة. خرج من مكتبه وكلمات انجيلا ترن في سمعه، صفوا حسب ما أمرهم، ثم وقفوا باستعداد. أعطاهم الأوامر الجديدة التي تقضي باختصار الفورة، ومراقبتهم، التفتيش اليومي للمهاجع، منع الإجازات والزيارات وإجبار المضربين على تناول الطعام، صرخ بصوت لم يعهده وحثهم على العمل.

اقترب من نائبه وأشار عليه أن يقوم بجولة إلى الغرف قبل أن يتصل بإدارة السجن. امتدح رحيم هذا الرأي وسار إلى جانبه وخلفهما الشاويش إلباهو. توقفوا مدة طويلة عند الغرفة الأولى، أراد عمرام التحدث إلى السجناء وسماع شكواهم مباشرة، نبههم في بداية حديثه بأن عليهم إذا أرادوا الإضراب أن يبلغوا الإدارة بمذكرة تحدد مواعده، ليتقدموا إذا بطلب ذلك، ثم يعرضوا مطالبهم برسالة عادية وينتظروا الرد ثلاثة أسابيع، وبما أنهم لم يفعلوا ذلك فإن ما قاموا به غير قانوني. طالبهم بتحديد موعد آخر ووعدهم بدراسة طلباتهم والرد عليها في أقل من المهلة التي حددها.

اقترب عمر منه وقال :

- أنت تتغنى بشيء تفقده، قرار الإضراب نابع من وضعنا وليس من أوامركم. لو كان ماقلتموه صحيحاً لما وقفنا هذا الموقف، على كل نحن تقدمنا بمطالبنا إن شئتم بحثها والرد فهذا يعود إليكم. ننتظر جوابكم، أما الإضراب فلا

عودة عنه.

أصدر عمرا م أوامره إلى الياهو ليمنعهم من الفورة ويغلق عليهم الأبواب، حتى يموتوا جوعاً وعطشاً لأنهم لا يقدرّون نعمة وجودهم في سجون إسرائيل، هؤلاء لو قرؤوا ما كتبتّه منظمة العفو الدولية عن السجون العربية لعادوا عن قرارهم، ولاشتغلوا عندنا خدماً، علينا منذ الآن أن نؤمن وصول هذه التقارير إليهم. من بعيد عسكري يهرول، يتوقف، يؤدي التحية ثم يخبره بأن وفداً صحافياً ينتظر الدخول. عندها همس في أذن رحيم بأن " المصائب لا تأتي مفردة، هيا لاستقبالهم وإعطائهم فكرة جيدة عن السجن والسجناء، الصحافيون إذا لم نحسن معاملتهم يلوثون سمعتنا ويعملون من الحبة قبة تابع عمك في الغرف الأخرى وأشرح لهم عن الحرية عندنا وبأننا مستعدون لتنفيذ مطالبهم، ولكنها تحتاج إلى مهلة كافية. أظهروا لهم هذا الجانب وإياكم أن تحدثوهم بلهجة قاسية، دعوهم حتى يذهب هؤلاء الصحافيون، يحلها الرب معهم، سأريهم ليس فقط نجوم السماء بل عورات أمهاتهم، سيصرخون طالبين العفو، لن يجدوا في قلوبنا إلا الشماتة، آه لو كان هذا السجن غير مسجل عند المنظمات الدولية لمنعت عنهم الطعام والماء ".

نظر إليه رحيم وكأنه يريد أن يذكره بأنه منع عنهم المياه وجعلها شحيحة، لكنه بدل ذلك طلب المشورة بقوله :

- هل نقي المياه مقطوعة عن الغرف.

- خلال وجود الصحافيين دعوهم على حريتهم، يفعلون ويتصرفون ما شاؤوا، افتحوا السكر حتى تتدفق المياه ويراهها المراسلون، ويتحدثون عنا بكل خير، اركض أيها العسكري وافعل ذلك، سترون بأن للحديث بقية.

عاد عمرا م إلى الغرفة واحد ومعه الشاويش إلياهو، تحدث عن العدالة في إسرائيل ثم عن الديمقراطية وحرية التعبير والرأي والانتماء. أخبرهم بأنهم يتمتعون بحرية القرار. بعد ربع ساعة من الحديث والمحاضرة بدا ودياً إلى أبعد الحدود. وقف الشيخ عباس وقال :

- غريب كيف تغيرون رأيكم خلال دقائق! إنكم تتمتعون بقدرة فائقة، مرة تلجؤون إلى التهديد والقسوة ومرة إلى اللين والحديث بالمثاليات التي تتغنون بها فقط .

- شيخ ماذا تعني مثاليات تتغنون وكلام غير مضبوط!

- أنها فقط كلمات تعني أكثر من ذلك، لن تصل إلى درجة التطبيق، ألم

تسمع المثل " اسمع كلامك يعجبني أشوف أفعالك اتعجب !"

- أيها الشيخ، اسمع جيداً، أنت مشاغب، الحمار ياشيخى هو الذي لا يغير رأيه، نحن إذا وجدنا رأينا يضر بالصحة العامة ومصلحة السجناء نتخلى عنه. أنا قادر على فعل ذلك كما أغير لباسي وربطة عنقي، كل ذلك ضمن المصلحة العليا للدولة.

توصلت إدارة السجن إلى أن كل ما فعلته لن يجدي. السجناء مصممون على مواصلة الإضراب، والتحدي، الأمر لم يعد مزحة. ما على مدير السجن إلا إبلاغ إدارة السجون العامة، والاستفسار عن إضراب السجون الأخرى وتلقي الأوامر. كان هذا أول ما قام به بعدها انطلق إلى مقابلة الصحفيين. بعد أن أعطى أوامره بالاستتفار ومنع الإجازات والبقاء مع السجناء، كما أمر أن يظل الطعام طوال النهار عند باب الغرفة الداخلي، لا يعيدونه إلى المطبخ إلا مساءً، وذلك لتحقيق هدفين أولهما التفكير المستمر بالطعام من قبل المضربين واحتمال تراجع بعضهم لرؤية الطعام التي تنثر فيهم غرائز بدائية، إن تناول بعضهم لشيء منه إسكاتاً لجوعهم يحدث بليلة، تدفع الآخرين للاحتذاء بهم، أما الهدف الثاني فهو إعطاء انطباع حسن للزائر مفاده أن الإدارة تقوم بواجبها الإنساني، وهي بالتالي غير مسؤولة عن النتائج.

أعاد السجناء الطعام إلى داخل الغرف بكمية كبيرة، كما وضعوا أصنافاً لا تتكرر كثيراً ككميات كبيرة من أنواع الجبن والزيتون والحلاوة والمربيات: ومع ذلك لم تمتد يد إليه. لم يشعروا في اليوم الأول بالجوع، ظلت حركتهم عادية، يمزحون ويلعبون والفرحة مرتسمة على وجوههم، وخاصة عندما علموا أن التصميم يزداد، إذ انتهى اليوم ولم تسجل أية حالة تراجع. حسان يزداد مرحاً. تذكر أمه كيف تعد الزيارة وكيف تشاركها هدى، وقالت له في آخر زيارة بأنها سترسل له أكلة، وأبلغته ما حدث بينهما و تفرقت الدموع في عينيه وتماسك، لن يستطيع رؤيتها، لقد أوقفت الإدارة الزيارات. مازالت ابنة شعبان في رأسه، توطنت شرايينه، لم يعد دماغه قادراً على العمل، فكر في الثمرة الناضجة، ابتسم وقال في نفسه بأن عالم الأنثى غريب عجيب لا يعرفه إلا الذي يقترب منه! أيعقل أن يتبدل شعورها تجاهه، لأنه سأل عنها؟

ألم تكن تفكر به؟ من أين له معرفة ذلك، وهو الذي لم يحظ منها بكلمة واحدة. لقد كان عمر صادقاً عندما أخبره بأنها ستبني أمجادها وسترى نفسها بين زميلاتهما، حين تحدثن عن حبها وتصف لهن الأعمال البطولية التي قام بها

وتضيف أشياء كثيرة لا تخطر بالبال إلى تلك الأعمال بحيث يصير فتى أحلام البنات.

الشيخ عباس عرف طيبة قلب حسان فأخذ تعليقاته ونكته بصدر رجب على عكس الأيام الأولى في نفحة. بل أكثر من ذلك صار يشاركه إلقاء النكات وأحياناً يتفوق عليه بالفكاهة التي تمس الشيخ. يبادر إلى الحديث عنهم، ينسى أنه شيخ، فيضحك الجميع من قصصه. ذات مرة مازحه حسان بقوله :

- عندما أتذكر بأنك جدي ابتسم لأنها لا تتوفر إلا في طيب القلب. الآن أريد أن أراك متبرم الوجه مرة واحدة، لتذكرني كيف كنت تتصرف في أول أيامك هنا.

عبس الشيخ عباس ورد بمرح :

- أنت تعتقد بأننا نختلف عن الآخرين، ثق بأن ما يفرحك يفرحني، الصلاة تميزني منكم لأفتح لكم طريق الجنة ... تبسم، الأفضل أن تصلي ليكون كلانا قدّ تغيير.

- على جبل عرفات

- دعك الآن من عرفات وجورج ونايف وجبريل وحدثني عن القصص التي تحكي عن الشيخ لأخبرك إن كانت صحيحة أم لا .

- في البداية أرجو ياشيخ أن تدعو الله لغفولي.

- ماذا فعلت أيها الشيطان لتطلب ذلك !

- ما فعلته كثير. ذات مرة كنت ماراً قرب جامع، كان الوقت ظهراً، المصلون خاشعون يؤدون صلاة الجمعة، الأحذية الجديدة تلمع. وقفت طويلاً أفكر ماذا أفعل؟ لم يطل جمعت عشرين زوجاً وعدت إلى البيت

- ماذا فعلت بها؟

- هذه قصة تطول ....

- استغفر الله وتب توبة نصوحاً، إنه القائل " ادعوني استجب لكم " الآن هيا توضأ وقف خلفي .

- التوبة حصلت، لكن من يضمن غفران الله !

- اسكت يا ولد، أنا أعرف أن قلبك أبيض كالقطن، فقط عليك أن تغير

بعض طباعك، ألم تسمع مدير السجن وهو يقول من لا ....

لم يكمل جملته حسان قاطعه وطالبه بعدم المشيخة.

- دعني اكمل كلامي، قبل مدير السجن قالها آخرون، هل أنت من الذين يثبتون على الكلمة والموقف. آه منك فقط لو تحبب ... لا تمد يدك النجسة إلى ذقني، ابعداها ياولد، إنها مقدسة. ألم تسمع كلام كوبا وهو يقول عن يده بأن لها مفعولاً سحرياً .

حسان اسم على مسمى وجوده يبعث على الفكاهاة والأمل، لكنه عندما رأى الجميع يتطلعون إليه بمتدحون قوله أردف عباس:

- في البداية توقعت أنك عبثي لا يهكم سوى النيل من الآخرين، كنت مخطئاً في هذا التصور، أنت شعلة أيها الأخ تضيء ضحكاتك ظلام قلوبنا، فبقدر ذلك تتوهج. أدامك الله لنا لنطرد الكرب والحزن .

في اليوم الثاني كان الصباح باهتاً، استيقظوا على صوت العسكري وهو يصيح "اسفيرا " ويضع الطعام عند الباب. النعاس يملأ الجفون، الوحيد الذي صحا مبكراً حسب عادته الشيخ عباس صلى ودعا الله أن يعينهم على التحمل. تابع دعاءه للسجين الذي طلب أن يعيده الله إلى أهله سالماً والمسافر إلى بلده والحبیب إلى محبوبته، كاد يغفو وهو يردد الجملة الأخيرة التي لها وقع الصاعقة على نفسه، صحا، فتح عينيه، تذكر الماضي الذي أتاه كما جاء الصباح مشرقاً. تظاهر بالنعاس، ليحتفظ بذلك الوهج الآتي مع الذكرى، شفتاه تتحركان، تتمتان بكلمات غير مسموعة ولا مفهومة، قلبه يقفز، رأسه يؤلمه، أصابعه تمرر حبات السبحة وعقله يستحضر لحظات المتعة مع خطيبته التي أودعها حبه. تغيب عن فكره وتأتيه بكامل عنفوانها وزينتها، تذكر دفء أصابعها وهو يسبح.

قال حسان :

- مابك ياشيخى ؟

- استغفر الله العظيم !

- وهل كفرنا بالعظيم، إذا كنت تفكر في أمر ففي صدري مستودعك .

- دعك من ذلك أيها المتطفل .

في اليوم الثالث بدؤوا يشعرون بفراغ المعدة من الطعام وفراغ في رؤوسهم، ساد شعور بالخواء ورائحة كريهة، تبين أنها رائحة الفم، خفف دخان التبغ قليلاً من



انتشارها، الرأس يكاد ينفجر والمعدة تتقلص مع ألم شديد في الأمعاء، وارتخاء في الجسد وعدم قدرة على الحركة أو عمل أي شيء. زاغت الأبصار، الأرض والناس والأبنية كلها تدور، منهم من شعر بغباشة تغطي عينيه، فركهما فشعر بألم داخلهما، يعود ثانية إلى الاستلقاء، لم يتركه حسان طالبه بأن يصارحه، ما في قلبه. ذات مرة ناداه الشيخ عباس وقال له: " إن الحمل الذي في قلبي يكاد يقتلني، تهللت أساريره. حدثه بصوت منخفض، اقتربا حين بدأ الشيخ يقص حكايته مع زوجته فواحه خالد.

أنهى قصته بقوله :

- تصور يا صديقي كم أنا تعيس بعد أشهر من زواجي قبضوا عليّ، وها أنا هنا بعيداً عنها .

- آه يا شيخي أنت لم تدوخني فقط، بل جعلتني أذوب وجداً وأتحرق.. ألم تدخ من الإضراب ومن تفكيرك الذي يسير عكس عقارب الساعة

وضع يده على خده ولم يجب. ساءت حالتهم كثيراً يوماً عن يوم. مع اليوم السادس ازدادت الدوخة وكادت تتحول إلى نوبات خمول وخمود وإغماء. وعدم القدرة على الوقوف والسير، والجلوس على الأرض منعاً من الوقوع، القعود يساعدهم على التماسك والصمود. كانوا يلجؤون إلى الماء يعبون منه ويخرجونه بولاً له رائحة حمض واخزة. مع نهاية الأسبوع الأول بدأ الدوار يلف الرأس والجسد، بدأ دوره، الدنيا تدور أشبه بأرجوحة لفها غير متوازن. ازداد الضعف ولكن ظلت هناك قدرة على الحركة لمسافة بسيطة، إما مشياً أو حبواً حسب حالة الشخص. غاب حسان عن الوعي، اختفت من ذهنه الصور، عادت ثانية وهي أكثر تشوهاً، خبأ كمية من الملح حرص على تناول القليل منه للمحافظة على المعدة والأمعاء من التعفن.. الشيخ عباس هبط وتشبث بالأرض، أزيز الدوخة أشبه بأزيز الرصاص. الرأس كرة جوفاء منقوبة يدخلها الهواء. حواسه تالفة لا تسعفه، الرؤية أشبه ما تكون بعلامات متأرجحة تظهر وتغيب دون قدرة على ضب المشهد ورؤيته. استهلك جسده طاقته وبدأ يطحن ذاته. ومع ازدياد الإقبال على شرب الماء فإن ذلك لم يغير شيئاً من الحالة، الوضع الجسدي يزداد سوءاً .

إسحاق مراغة استلقى على الأرض، لم يعد قادراً على القيام بأي نشاط، حتى تناول الماء يحتاج إلى قوة كبيرة، ذوى جسده، ارتدى بعده علي الجعفري وراسم حلاوة، ولم يأت اليوم الثامن إلا وكان الجميع أشبه بحالة موت جماعي،

كل استند على كتف رفيقة ثم هوى إلى الأرض. من كان قادراً نصح رفاقه باستنشاق الهواء وشرب الماء ومحاولة السيطرة على الذات، وعدم الانهيار أو الإذعان لمطالب كسر الإضراب .

الذين فقدوا وعيهم استعادوه بعد سكب الماء على وجوههم وتناول قليل منه. ومع ذلك ظلت حالة الدوخان والزوغان هي المسيطرة، مساءً استقرت حالتهم عند هذا الحد المخيف.

إدارة السجون المركزية والإدارات المحلية مستتفة. بدأت إدارة نفحة إعطاء الذين غابوا عن الوعي في اليوم السادس غذاء سائلاً، بواسطة أنبوب مطاطي أوبلاستيكي يدخل إلى المعدة، يصب الحليب في قمع، أما الذي فيه نفس وحركة يجبرونه على تناول كأس حليب.

أعلنت أقصى حالات الطوارئ. السجناء قطعان مرمية، الغثيان والإقياء والهلوسة والغيبوبة.

بعض الأجساد انهارت تماماً. انسدحت على الأرض وغطت في حالة أشبه ما تكون بحالة تحلل كالحبة التي تتلاشى وهي تغذي الساق والأوراق. إنه ذوبان كامل في لجة السجن. طاقم السجن ومعهم الممرض كوبا يشد المغمی من خصلات شعره ليتأكد من غيبوبته، وعندما لا يجد أي تجاوب يدعه، فيضرب رأسه بالأرض يأتي أحياناً على وجهه، يتزعف أو ينكسر سنه. عمرام علق على هذا المشهد بتمنياته لو أن الأمر بيده، لتركهم هكذا حتى الموت المحقق، ثم يطلب طائرة مروحية لتلقي جثثهم في غياهب النقب طعماً للوحوش .

تلقى مدير السجن أمراً بتحويل قسم من المضرين إلى سجن الرملية، طلب رحيم إلى الشاويش إلياهو إعداد قائمة بأبرز السجناء الذين إذا تم تحويلهم، يفقد السجناء قادتهم مما يمكنهم من السيطرة على الباقين. حدد العدد بما لا يزيد عن الثلاثين ولا ينقص عن العشرين. خلال ساعة واحدة أعد قائمة احتوت ستة وعشرين، وقعها رحيم نائب مدير السجن وحولها إلى عمرام ليأمر بتنفيذها. لكنه بدل توقيعتها أجل تنفيذها إلى صباح اليوم التالي .

أعلنت إذاعة السجن في الساعة صباحاً، بأن على السجناء كافة الخروج إلى باحة السجن لأمر هام يتعلق بمصيرهم. لم يخرج أحد. بدأ طاقم السجن يخرج المضرين واحداً واحداً إلى الباحة حتى تم إخراجهم بعد ساعة، عندها قرأ عمرام أسماء ستة وعشرون منهم، عمر القاسم، علي الجعفري، إسحاق مراغة، راسم

حلاوة، حسان فياض، الشيخ عباس، خالد بزوي ... بعد أن تأكد من العدد وحالة كل مضرب، سلم القائمة إلى نائبه، الذي حاول مفاوضتهم، لكن حالة السجناء لا تسمح لا بالتفاوض ولا بالحديث عن أي شيء. أمر الشاويش أن يستلم ملابس السجن وأن يسلمهم ملابسهم المدنية، ظهراً أعيد السجناء الباقون إلى غرفهم، بينما استمرت عملية الاستلام والتسليم وحالات الإغماء والغيبوبة حتى الثالثة بعد الظهر. صعد السجناء القادرون إلى سيارة " البوكس " مقيدين بالسلاسل، يد تحمل الأمتعة وأخرى موثوقة مع يد سجين آخر، أما غير القادرين فقد حملوا إلى السيارات وجرى تقييدهم داخلها .

قبل انطلاق السيارات أعطوا وحنة غذاء إجبارية مكونة من خليط الحليب والبيض والسكر والملح ....بواسطة أنبوب يدخل عن طريق الفم إلى المريء فالمعدة، ينتهي في الأعلى بقمع لصب كمية من الغذاء فيه يحرك الأنبوب للإسراع بنزول الطعام، ثم يسحب بسرعة وكأنه يسحب دلواً من بئر. يسرع العسكري لغسيل الأنبوب قبل وضعه في فم ثانٍ، لكن الممرض يمنعه بقوله :

- لا حاجة إلى تضييع الوقت، هؤلاء كالقطط بسبع أرواح. أنا لا أخاف عليهم بل أخاف منهم.

الجندي يحرق بكوبا ثم يقول :

- هؤلاء لا يخيفون أحداً، حالتهم مأساوية وعلينا مساعدتهم .

- جندي في جيب الدفاع وتقول ذلك طيب سترى ما سأفعل.

نادى الممرض على الشاويش، وأبلغه برأي العسكري، طلب إليه عقوبة عشرة أيام الشاويش إياهو نظر إلى وجه العسكري وكأنه يراه لأول مرة. هل يعقل أن يكون لدينا جندي يفكر بمثل ذلك. أشار إليه أن ينتظره هناك ناعثاً إياه بالوقح وعده بعقوبة لا تقل عن شهر. خاف العسكري من العقوبة ركض على وجهه علائم البله، دون الشاويش الحادثة بتقرير، وانتظر رد مدير السجن الذي أمر بنقل العسكري إلى مصح للمعالجة .

استمر إعطاء المرشحين كمية من الطعام ساعة كاملة قبيل الساعة الخامسة، تحركت سيارتا الزنزانة المكلفتين بنقلهم مع سيارتي الشرطة العسكرية. الحرارة التي عانوا منها داخل السيارة أخذت تتلاشى مع الانطلاق. الهواء يدخل من فتحة بعرض عشرين سنتيمتراً وطول سبعين. دبت روح الحياة من جديد وتنفسوا الهواء بعمق. السيارتان اتجهتا شمالاً كانتا بطيئتين لا تتجاوز سرعتها أربعين

كيلو متراً وعند المطبات تخف، فيشعرون بقلوبهم تقفز إلى حلوهم ثم تنخفض إلى ركبتهم ترافق ذلك مع ألم شديد في رؤوسهم ووجع في معدهم، إن تخفيف السرعة بشكل مفاجئ واستخدام المكابح باستمرار جعل السجناء يشكون بأن هذا العمل متعمد وهو من نوع العقوبة.

السيارات البطينية بمشيتها تشبه قافلة جرارات عائدة من العمل بعد شغل يوم كامل في أرض وعرة، وهي بارتفاعها وانخفاضها توحى بأنها مجموعة مطبات أو كأرض زراعية محروثة أو سائرة على الرصيف الترابي أو فوق طريق محفر، إذ لم تترك السيارات حفرة صغيرة أو كبيرة إلا ونزلت بها، علماً أن السائق يستطيع تجنبها، فلوا أسرع قليلاً ومشى على الشارع العام بعيداً عن الرصيف الترابي لأمكنه ذلك بسهولة، كل ذلك يمكن تبريره، أما الوقوف المفاجئ وتفحص عجلات السيارات وفتح غطاء المحرك مرات عدة، فأى مسوِّغ له في طريق تتعدم فيه السيارات والمارة. سيارة الشرطة العسكرية الأولى هي التي تحدد السرعة وعلى السيارات الأخرى السير خلفها دون ابداء ملاحظات أو انزعاج. الباب الخلفي المغلق يظهر وجود حارسين يطلان من خلف الشبك الحديدي وعند السائق العسكري، يتفقدون السجناء كل نصف ساعة، ويحملون بنادق أمريكية ويرتدون زي الحرب. استغرقت الرحلة حوالي ست ساعات ونصف كانت أشبه برحلة إلى عالم الجحيم، لولا الطبيعة الرائعة التي تجود بنسائنها الحريرية.

نسيمات الهواء المتسلل إلى سيارة النزلة تصير أكثر طراوة، رائحة التربة تملأ خياشيمهم. بعض السجناء يعرف الأرض وطبيعتها من كمية الهواء المندفع ومن طبيعة الهدوء والصخب، إضافة إلى نور القمر الذي يكشف تضاريس المنطقة التي يمرون بها .

الليل البهيمي دق جدران السيارة وفرض عتمته على الطرق، انزلق إلى الداخل عبر القضبان الحديدية، وعندما حاول الهرب إلى الخارج اصطدم بنور القمر الضعيف. فارتد وتصلح مع حوله فأفسح المجال كل منهما للآخر. يتناوبان الحراسة حتى مدينة الرملة، هنالك ظهرت عليه الشخوخة فبددت الكهراء بأنوارها البقية الباقية منه، هارياً إلى الجنوب متتبِعاً الطريق نفسه، أبطأت السيارة قبل وصولها إلى السجن، وظلت كذلك حتى دخلت باحته وهناك توقفت في قسم منه يسمى " بيت معتار " أو " المعبار ". نزل السجناء إلى ساحة السجن التي حولها مديره إلى ساحة حرب، لإنهاء الإضراب بالقوة أو الموت. كان بانتظارهم مدير السجن ليفي جونسون ومسؤول الصحة ركلبويم والمرضى رافي وعدد من

الضباط وحوالي خمسين عسكرياً. أحاط الجنود بالسجناء كما تحيط الكلاب بغريب وتنبح عليه، طلب المدير من الجنود صف المضربين إلى جوانب الحائط رافعي الأيدي.

قال ليفي:

- السجنين غير المضرب أو المتخلي عنه يدير وجهه تجاهي .

ظل السجناء على وضعهم، لم يتحرك أحد منهم، عاد وكرر الطلب على الشكل التالي:

- السجن غير المضرب أو المتخلي عنه، يمنح نفسه فرصة أخيرة لإعادة محاكمته التي قد تؤدي إلى إخلاء سبيله.

أشار إلى وسط الساحة مكاناً لتجمع المتخلين، لم يخرج أحد، غضب ونظر بحقد إلى السجناء، ثم أشار بيده إلى الجنود بقوله " هيا".

اندفع الجنود يرفسون السجناء ويضربوهم، مما أدى إلى تساقطهم واحداً إثر الآخر. بدت الساحة مكان وغي دارت فيه المعارك، كان المنظر مؤلماً .

الحالة الأكثر مأساوية الوضع الصحي لراسم حلاوة، الذي بدا وجهه أصفر منذ الصباح، فقد أغمي عليه قبل التعذيب، لم يسمع سوى بضع كلمات من نصائح مدير السجن، وعندما اندفع الجنود تجاهه، كان يحاول السيطرة على ذاته وعدم الرضوخ للإغماءات المتوالية، قام بمجهود قبل أن يتلقى ضرباتهم على رأسه، فأنسده على الأرض والدماء تختلط بالعرق البارد الذي يتصبب منه، فتح عينيه شاهدهم حوله، فابتسم وقرر أن يندفع تجاه صنوبر الماء، نظر إلى أشعة الشمس، ثم صاح بصوت ظنه عالياً، الصمود ...

نظر ليفي إلى الطبيب الذي يحاول إسعافهم والقيام بواجبه شزراً، ثم اقترب منه وهمس في أذنه جملتين، حاول تركه ليراقب تصرفاته من الإدارة. " عليك بتعذيبهم وإبعادهم عن الماء " شدد على استعمال منتهى العنف، وإخباره بأية حالة تمرد أو موت.

استغرب الطبيب كلام مدير السجن، حذق إلى وجهه وقال: " لم أفهم قصدك سيدي!"

- قصدي واضح، انسى أنك طبيب لبضع ساعات، تصرف كعسكري ونفذ الأوامر على هذا الأساس، تذكر أنهم هددونا وما زالوا، هؤلاء وحوش يصعب

تحويلهم إلى بشر إلا إذا أذلوا بضعة مشاغبيين أفلقوا أمن المعتقلات، هل هذا معقول؟! ترأف بهم، ما الذي يحدث لومات واحد أو عشرة؟ أريد رؤيتهم راكعين  
....

مشى خطوتين ثم التفت وقال:

- من يجرؤ على سؤالنا.. إنك تحزنتني عندما تقول ذلك، سأبول فوق رأس أكبر زعيم فيهم، أما الرأي العام فالعالم يعرف أننا بلد ديمقراطي ولنا أصدقاء مستعدون للدفاع عنا في كل مكان، أمريكا وحدها قادرة على فعل الكثير.

هز الطبيب رأسه وقصد الساحة العامة، نادى على رافي وطلب إليه تنفيذ تعليمات، مدير السجن، ونقل ما قاله وكرر قوله، عليك أن تنس مهمتك الإنسانية، المهمة الأولى إجبارهم على إنهاء إضرابهم .

في البداية تمت تعرية السجناء في الباحة واستلام ملابسهم المدنية، وتسليمهم ملابس السجن البنية، استمرت هذه العملية ثلاث ساعات، غطى عمر عينيه، عبله أمامه كما خلقها الله بجسدها الخضراوي وشفتيها المرتجفتين وتماوج بصرها، ووقوفها إلى جانب الشجرة ودورانها حولها. غاب عن الوعي معظمهم. لم يبق متماسكاً إلا القليل الذين لا يتجاوزن أصابع اليد الواحدة، وهم غير قادرين لا على إسعاف غيرهم ولا منع أنفسهم من التدهور، الدوار طاحونة في رؤوسهم. الأرض تلف دورات متتالية، وعندما يشعرون بعدم التوازن يسقطون على الأرض ويفردون أيديهم كجناحين قادرين على التشبث بالساحة وعدم الركون للزوغان،

نظر عمر إلى الأجساد الممددة، شعر بالظماً، زحف إلى الصنبور، ركله أحدهم، تظاهر بالإغماء، يراقب وعندما تسنح الفرصة يتابع الزحف على يديه ورجليه ليصل إلى صنبور الماء ويغسل وجهه ويشرب، تلقى دفعتين بمقدمة حذاء أحد السجناء، حاول أن يتابع سيره وزحفه فسمع أحدهم يعلق " الغيبوبة جماعية"، خاف من دفعة حذاء عسكري آخر، راقب الساحة، وعندما تأكد من أنه غير مراقب، أسرع إلى صنبور الماء فتحة على آخزه، شرب وعب الماء، غسل وتخلص من عبق الرطوبة والحرارة ومن ذاك السيل المتدفق من العرق، غسل وجهه ورأسه، شعر بالانتعاش ثم عاد إلى مكانه منبطحاً، تجول الممرض رافي بينهم، فلم يجد غيره قادراً على التحدث، فسأله:

- من أي شيء تشكو؟

نظر إليه وتأمل مريوله الأبيض النظيف، وجهاز الضغط الذي بيده، وبعد

طول تردد أجابه:

- أشكو من الرفاه الذي نعيش فيه، ألم تسمع مدير سجن نفحة يقول ذلك على مسامعنا. هل هناك رفاهية أكثر؟ وهل هناك ديمقراطية أفضل؟ يكفي وجودك إلى جانبي وأنت تحمل الأجهزة الطبية لأشفي!

- هل تنهي إضرابك وأقدم لك ما شئت من علاج وطعام؟

حرك شاهد يده ففهم رافي إصراره ورفضه، تقدم منه ورفسه بحذائه قائلاً بعبرية مكسرة، اذهب إلى الجحيم ستموت عطشاً أيها الإرهابي، أقسم بأن جهازنا الطبي لن يقدم لكم شيئاً قبل تراجعكم.

ذهب رافي على رأس ثلاثة جنود يفاوضهم لإنهاء الإضراب. لم ينجح، فقرر الانتقام، لكن الذي جعله يتريث وصول وفد صحفي في بريطاني. عمم مدير السجن تعليماته الجديدة التي طلب فيها مراعاة وجود وفد صحفي. عليهم السماح للمضربين بشرب الماء وغسل وجوههم. بدأ السجناء ينقلونهم إلى غرفة التمريض. يطلبون إلى كل واحد أن يأكل طعاماً مكوناً من بطاطا مهروسة وبعض الخضار. كان تحريك الأيدي دلالة الرفض. عندها يبدؤون بضربهم وإجبارهم على تناول الغذاء عن طريق أنبوب التغذية، الذي له مهمتان إدخال الطعام ولفه على يده فيصير كالسوط لجلدهم. تتوالى الإغماءات، كل شيء باهت ما عدا شعلة الرفض المنقذة في رؤوس السجناء وقلوبهم. المضربون أشبه بالخرق في مهب الريح، يتقاذفهم السجناء، يطالبونهم فك الإضراب، يفتحون أفواههم بالقوة، يضعون الأنبوب ثم يسكبون في القمع ماء مالحاً. قال عمر: " لا لن أنهي الإضراب ". قالها بعده كل من راسم والجعفري وكراغة والشيخ وحسان فياض .... الجميع قالوا، لا لن ينهوا الإضراب.

راسم حلاوة أدخلوا الأنبوب بفمه ومنه إلى القصبة الهوائية فالرئتين، صاح بأعلى صوته " قتلوني " لكن صوته لم يسعفه، خرج كالفحيح. حاول بيده أن يثنيهم عن عملهم أن يقول بأنهم قتلوه، لكنه لم يستطع، ابتموا بتشف للمحاولات اليائسة التي بذلها، قال له الممرض:

- نحن نعرف أنك ميت إذا عانددت، أمامك فرصة للعودة عن الإضراب حتى نسعفك .

أما مدير السجن فقد عرض عليه العلاج مقابل إنهاء الإضراب وحدته بأن حالته لا تحتتمل الانتظار، لا شيء ينتظره سوى الموت أو فك الإضراب، وعليه

القرار . حرك يديه وتشجع ويعنفوان أجاب:

- تساومني وأنا بهذه الحالة، أفعل ما شئت ودعني أمت.

شعر بقوة إضافية يحتاجها ليودع رفاقه وأخوته. انتفض لحظة، فاجتمعوا حوله، ابتسم وقال: اصمدوا أيها الرفاق، فلا حياة مع الذل، لا تساوموا على المبادئ.

كانت هذه رسالة الوداع التي لم ينطق بعدها بحرف واحد، إذ خفت صوته وهو يحدق إلى عمر، افتر فمه عن ابتسامة ثم لوى رأسه إلى الوراء، نظروا إليه عينا مفتوحتان، الابتسامة نامت على شفثيه، وتصلب جسده " أيعقل أنه مات ! " قالها حسان بدهشة وألم عظيمين، نادى وصوته متهدج:

- مات راسم أيها الرفاق!

لم يستطع قول أكثر من ذلك، أجهش وانهاالت دموعه تغسل وجنتيه ملتحمة مع قطرات العرق، التي ملحت جلده ووجهه، لكنها لم تطمس تجعدات الألم والقهر وعذابات الزنازين ووحشية السجانين . تأمله عمر، تسمرت عينا على الجسد، ركع إلى جانبه، أسبل جفنيه، مسد مقلتيه، عصرهما، فخرجت دمعتان حارقتان، رسم قبلة الوداع لثم وجهه وجبينه، ثم قرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه وقال:

- أيها الرفاق لقد استشهد حلاوة، وآخر كلمة قالها لا تساوموا، احفظوها جيداً، إنها وصيته الغالية، أيها الرفيق أنت السابق ونحن اللاحقون، لن يمضي زمن طويل بين موتينا ... إنها القافلة التي تفقد أثناء حركتها أعلى قادتها، أقسم أن نحمل الأمانة ولن نساوم.

صاح الجميع: الله أكبر، الله أكبر، الشهيد حبيب الله، يا جنة أفتحي أبوابك وحلاوة من زوارك ...

تعالت صيحات تندد بسياسة إدارة السجن، وتحدث على الصمود وشعارات متنوعة في الوقت الذي صاح فيه الشيخ عباس: " الله أكبر والنصر لنا " .

فاضت عينا بالدموع، لم يستطع حبسها في مقلتيه، الدموع كما قال الشيخ تعبر عن المحبة والعاطفة الأخوية، ولهذا طلب إلى رفاقه أن يخرجوا ما بمحاجر أعينهم.

مازال الشيخ عباس واقفاً كالصخرة إلى جانبه، فتح يديه وطلب إلى الرفاق أن يسامحوه ويقرؤوا الفاتحة على روحه، مسح بيديه على وجهه وهو يقول آمين.



الوجوه الصفراء التي لوحها الإضراب وجعلها زاوية، توهجت للحظات وأنارت بارقة الأمل عيونهم. دمعت فسقطت بعض القطرات الحارقة على الخدين. تضايق علي الجعفري من الضعف الذي بدا على رفاقه، قال:

- إياكم والدموع، إنها تعبر عن ذل وخنوع، لييكه كل واحد بقلبه وعقله، وليخزن عليه بطريقته الخاصة. علينا أن لا نشعرهم بضعفنا، لو كانت الدموع تعيده لفاضت الأنهر على السهول وتحول الكثير منها إلى بحار ومحيطات .

دقائق ثقيلة مرت قبل حضور الطبيب، الذي فحصه وأعلن وفاته، لفوه ببطانية بينما سيارة الإسعاف تعوي كالذئب، حملوا الجثة إليها ، وقف رفاقه على الرغم من الألم والدوار دقائق أدوا التحية العسكرية وأنشدوا:

بلادي بلادي لك حبي وفؤادي .

حقن كل واحد الدموع في عينيه، ينتظر الفرصة يختلي بنفسه لمسحها. أطلقت سيارة الإسعاف تباحها ثانية وغادرت. قعدوا على الأرض ينظرون إلى وجوه بعضهم بعضاً، تردد صوت راسم لا تساوموا.. لا تساوموا. الوقت يتمدد، تفقد الساعة عقاربها، يتوقف الزمن، ينطفئ كعقب سيجارة ويرمى على قارعة الطريق. حشود الجنود وحركتهم غير الطبيعية تفرض جواً خاصاً من الترقب، وتزيد في خيبتهم وألمهم وكراهيتهم. ينهش الذعر أوصالهم يدب في اللسان، يصير قطعة كبيرة عضلة متحجرة تفقد مرونتها.

أما عمر فإن الحزن نسج حوله كتلة من الغيوم الدخانية حجبت الرؤية. في حين انحدرت حبات كبيرة كدموع النكالي مزاريب على خديه. شعر بقشعريرة، رأسه يكاد يتفجر، لا شيء يزيل وجعه، معدته الخاوية تتقلص بسرعة محدثة احتكاكاً بجدرانها ونوبات تشنج، جسده خائر القوى، العرق البارد يتصبب، عادت الشمس إلى فتوتها كتلة جمر تلهب الجسد، تجعله يحترق، يسرع الخطأ، يصب الماء على رأسه ويغسل وجهه، تعود القشعريرة إليه، يأخذ نفساً عميقاً يشعر بالحيوية. يتذكر كلمات رافي إلى حلاوة " لن نعالجك وأنت مضرب، من يتحدانا فإلى الموت والمزيلة ".

راسم حلاوة ابن غزة، لوحته شمسها وبحرها ورمالها حتى بات عجينة برونزية تميل إلى السمرة، بنى قوات التحرير الشعبية على المحبة والتفاني والبطولة. قاوم الاحتلال، وعندما اعتقل غطت غيمة القطاع، هبت ريح السموم التي لم تتوقف طوال الأسبوعين. بعد اعتقاله خبأت جماعته أسلحتها وعناصرها بانتظار خروجه

لتبدأ وتتابع الثورة. ماذا تفعل إذا سمعت باستشهاده ستتحول غزة إلى برميل بارود.

عاد الطاقم الطبي بقيادة الطبيب ركليويم والممرض رافي لممارسة دورهما، طالبهما المدير بإصلاح الأمر ما أمكن، السجن مقبل على فضيحة بعد تدخل بعض المحامين لدى القضاء. السجناء ينفذون ما يطلب إليهم وكذلك الجنود الاحتياط الذين عززوا بهم أمن السجن. أمر الطبيب بنقل المضرين واحداً بعد آخر إلى غرفة التمريض، وهناك أوكل الممرض بإعطائهم كمية من الطعام عن طريق الأنبوب المطاطي الذي ينتهي بقمع يصب فيه الحليب لينزل عبره إلى المعدة. احتد على علي الجعفري هدهد بقوله:

- أنا أعرف شغلي معاك.

صاح علي الجعفري بأنه لا يريد الحليب ولا أي شيء عن طريق الأنبوب المطاطي. لم تساعده قوته على الممانعة، فتح الممرض فمه، أدخله في الفتحة الثانية الخاصة بالتنفس كما فعل مع راسم، حاول تنبيهه إلى ذلك ولكنهم قيدوا يديه ورجليه إلى الحماله. صب كمية كبيرة من الحليب. تركوه كالشاة المذبوحة يحرك يديه ورجليه يطلب النجدة، انبطح على الأرض، صاح من الألم " لقد فعلوها أولاد الحرام أدخلوا الطعام إلى رئتي " .

قال ذلك وهو يلفظ أنفاسه، قبل أن يتركه الممرض قال له " قل تحيا إسرائيل، ولن تموت " .

عندما رفض قولها فعل ما فعله، تركه فريسة للموت. أطلق السجناء صوتاً واحداً :

- الله أكبر، الله أكبر، القاتل عدو الله ولا إله إلا الله .

حضر مدير السجن ومعه بعض الصحافيين ومحامية كبيرة بدا عليها التأثر والانعراج. قال عمر القاسم مخاطباً المحامية :

- إنهم يقتلوننا لقد أدخلوا الحليب إلى رئتي علي الجعفري، لا بد من إسعافه الآن، وإلا فإنه سيموت، كما مات قبل قليل راسم حلاوة، أدخلوا الحليب أيضاً إلى رئتيه طلبنا الإسعاف فطالبونا بفك الإضراب، مات وهو ينتظر من يسعفه.

اقترب الطبيب من الجعفري، بينما رافي يصطنع ابتسامة ويتمتم بضع كلمات:

- جعفري بخير، لن يموت، عمره لم ينته بعد .

أمر الطبيب بنقله إلى سيارة الإسعاف. حاول الممانعة في نقله قال:

- لقد نفذ سهم الله، أنا ميت ولو نقلتموني إلى الجامعة الأمريكية، صارت الموت وطلب إسعافي، الآن لا شيء إلا التسليم لقضاء الله .

بعد انطلاق السيارة بدقائق قليلة وصل نبأ وفاته: مات علي الجعفري.

بعد ذهاب المحامية والصحافيين جاء مدير السجن يبلغهم نبأ الوفاة الذي تلقاه، هددهم باستمرار الوفيات بسبب الجوع، عليهم المحافظة على حياتهم والتفكير، نحن بلد ديمقراطي لا يمنع المضرب من استمرار إضرابه، إنها حرية الرأي وعليكم أن تختاروا.

نظر السجناء باحتقار إليه، شتموا الديمقراطية التي يتمسك ويتغنى بها. فاضت دموعهم صلوا عليه صلاة الغائب.. سيء فظيع أن تكون حصيلة الإضراب لهذا اليوم استشهاد اثنين، تساءل عمر مع رفاقه، ما العمل لوقف المجزرة ومنع إدخال الحليب إلى الرئة. تداولوا في مجموعة آراء. ثم تركوا كل شيء يجري على حاله .

في صباح اليوم التالي أفاقوا على صوت الممرض يدعوهم لتناول الحليب وإلا فإنه مضطر لاستخدام الأنبوب القاتل. أمضى اسحاق مراغة ليله يصارع سكرات الموت. من رآه وسمع توجعه لم يصدق أن النهار سيطلع وبه بقية.. الألم داخل الغرف، الباب الخارجي للسجن مغلق، ولا أحد يعلم ما يحدث داخله. السجن أسوار عالية، حراسات طوال الصرفان .

تصميم إدارة السجن على قهر المضربين والتعقيم على إضرابهم وعدم تحقيق مطالبهم. أمامهم حلان الاستمرار أو التوقف. طرح الشيخ عباس الرابين، فرغ الجميع أيديهم مؤيدين الإضراب عن الطعام حتى نهاية الحياة. في هذه اللحظة تواردت إلى ذاكرة عمر روايات كنفاني، ابتسم وطلب إلى رفاقه أن يقتربوا منه أكثر، سألهم:

- أتعرفون لماذا اعتالت "اسرائيل" غسان كنفاني ؟

وردت إجابات عدة حول الإجابة الصحيحة، فمثلاً أكد الشيخ عباس بأن السبب يعود لكونه مسلماً ومؤمناً بقضيته. بينما علل حسان ذلك، لأنه وطني. وقال آخرون كلاماً قريباً من ذلك، عند اكتمال الإجابات والنقاش قال عمر:

- اثنان إذا قضى عليهما العدو انتصر، روح التحدي والمواجهة والثقافة،  
فبعد القائه القبض علينا، خطط لقتل الطرف الآخر الذي نما في الخارج، لأنه بدأ  
يصنع حياة شعب، ويقرع جدار الخزن مؤكداً أن الإنسان في نهاية الأمر قضية  
... غسان عين وهبت نفسها لمقاومة المخرز، عين دلتنا على الطريق.  
فتح الشيخ عباس يديه وبدأ يبسم طالباً إلى رفاقه أن يقرؤوا الفاتحة على  
روح غسان كنفاني رحمه الله.

## - الفصل السادس -

الثاني والعشرون من تموز يوم مشهود ليس فقط بحرارته إنما بما حدث للسجناء في " المعبار ". في ذلك اليوم الحار أخذت فيه الحرارة حقها من الحجر. التجأ الناس إلى الظل، قصدوا محلات المرطبات، ومنهم من سافر إلى البحر، فوران الأشعة جعلت المياه تسخن، أما رمال الشاطئ فجمرات تبادل الشمس ذلك الوهج. وعند الرملة سلطت نارها ظانة أن عشرات الخراف ستقدم قرباناً لنورها.

كان مشهد السجناء وهم مستلقون مرة على ظهورهم ومرة على بطونهم، بينما الأشعة تحيل ألوان أجسادهم إلى لون داكن، هو المنظر المألوف في باحة السجن. السجناء تمددوا وفقدوا قوتهم، ساقية تبلل البلاط لكنها قبل أن تأخذ طريقها للجريان تدغدها الحرارة وتجذبها إلى الأعلى. الجنود يهربون من الحر ويلوذون بالظلال، السماء تبدو أقل زرقة وأكثر بعداً، الوهج يتوزع سراباً لا تتركه العين.

سكبت الشمس ما عندها من حرارة، فلم يبق من حرارة كرتها إلا القليل من الرطوبة التي وفرتها حتى لا تشوي ذاتها وتفقد نورها .

في الوقت الذي حمت الشمس ذاتها من لهيبها المستعر، ارتفعت أصوات في سجن الرملة وقررت الصمود. خجلت السماء من فعلتها، استحمت الشمس على عجل بمياه غيمة مسافرة غرباً تكفر عن ذنوبها، وتستعد للصلاة، دعت الله أن يمحو عنها آثام هذا اليوم. بعد لحظات تغير الجو هبت رياح رطبة في الجهات كافة، ونزل المطر غزيراً، لكنه تبخر وهو في طريقة إلى الثرى، شكل غيمة جديدة في حركة سفرلولبية لاتنتهي .

راقب السجناء ذلك، هتف عباس : " إنها المعجزة، يانار كوني برداً وسلاماً علينا، الله معنا، أقسم إنه معنا " .

نهص وهو يهتف " الله أكبر " ركض عشرون عسكرياً وتناوبوا ضربه حتى أغمي عليه، شعر أن جسده أكثر فتوة وأن المطر يغسله. قرر الاحتفاظ بالرؤيا

التي أحس بها، زحف باتجاه عمر مديره فإذا الندى يبيلله، صاح " الله الأكبر" في وقت كان الجنود ينشفون عرقهم، ويحاولون تحريك الهواء بأيديهم .

الطبيب ركلبويم والممرض رافي على خلاف دائم. أعطى الطبيب أوامره بالكف عن إيذاء المضربين .أما رافي فإنه تصرف كمن لم يسمع شيئاً، تعمد إدخال أنبوب الطعام إلى مجرى التنفس لعمر القاسم ولولا وجود الطبيب لقتله. يتلذذ بفعلته يضحك ملء شذقيه ويصرح لطبيبه بما يود فعله، لكنه عندما عرف أنه لا يوافق على أفعاله، تصرف دون العودة إلى أحد، وأخذ يعتمد القيام بما يريده بمعاونة العسكريين. مر ليفي جونسون فوق السجانين احتراماً، طالبهم جمع السجناء. بعد جولة له على أقسام السجن، عاد ليخاطب المضربين، قال:

- اطلبوا ما شئتم، سنفاوض على إنهاء الإضراب وسنقدم لكم جزءاً من مطالبكم ووجبات دسمةً .

أجابه الشيخ عباس:

- الوجبات الدسمة إذا قدمت بعد الإضراب تضر ... ما الأشياء التي وافقتم عليها وما نسبة ما تحقق من مطالبنا حتى نتفاوض .

صاح في وجهه قائلاً :

- ما قلة الأدب هذه، إن ما سألته من اختصاص لجنة السجن في الوزارة. الآن المطلوب إنهاء الإضراب مع وعد منا ببحث كافة طلباتكم، دعوا ما لقيصر لقيصر، ولا تخلطوا الأمور حتى لا تضيعوا بين الأرجل، أقدم نصيحتي وأترك لكم الخيار !

صمت الجميع ولم يردوا عليه، أخذ كل واحد منهم ينظر إلى وجه رفيقه، لم يجرؤ أحد منهم على قول كلمة قد تسيء إلى تصميمهم على المواصلة .

صاح : " ما الجواب؟"

لم يتلق أي رد فتأكد أنهم مصممون على المضي في الإضراب حتى نهايته، تتم ببضع كلمات فهم منها أن عليهم أن يتحملوا النتيجة، عند خروجه أشار بيده إلى رافي للعودة إلى التعذيب ...بدأ فريق من السجانين والممرضين عملهم. تعاونوا في نقل المضربين فوق نقالة ورميهم إلى رافي الذي يجبرهم على فتح أفواههم ووضع كمية من الطعام والشراب... معظمهم في غيبوبة، العرق البارد يتصبب من جبينهم، نبضهم يخف أو يكاد يتلاشى. الوحيد الذي حافظ على اتزانة عمر ، سمع كلماتهم وتعليقاتهم واستهتارهم وفرحتهم حين يسمعون الأئين والتوجع.

رأهم يركلون راسم حلاوة وغيره، وعندما علموا بموت الجعفري، نقلوا عن مدير السجن قوله:

- " أنها البداية ليتم هؤلاء الكلاب ولنرمهم إلى الوحوش المفترسة"

رأى رافي والسجانون يلطمون خد أحد السجناء كما لو كانوا يصارعونه. يضحكون لكن عندما تبدو عليه شبه إفاقة تدل على أنه لم يمّ بعد، يصابون بخيبة أمل ويبدو الشحوب على وجوههم، حتى هو لم من اللطم فظهرت الكدمات والجروح في جسده وحين رموه إلى الطبيب علق رافي:

- مازال هذا الغول ومحتفظاً بتوازنه؟! يحتاج إلى ألف ضربة على رأسه وجسده ليصير مثل زملائه .

بجمع يده بادره بلدمات على رأسه وبطنه، غاب على أثرها وعيه، أما بقية المضربين فكانوا في حالة غيبوبة شبه دائمة، أجسادهم تيبست أصيب الجلد بالجفاف، بدا مجعداً وخشناً ومترهلاً قليلاً، جلد وعظم على حد تعبير حسان. الأجساد خرائط فيها ارخييلات ورؤوس وهضاب ووديان شبيهة بأرض وعرة، إضافة إلى تلوينات التعذيب التي صارت شامات ثابتة. غارت العروق وأصيب الجلد بقساوة وكأنه مفصول عن العظم .

المضربون خرق مرمية لا شيء سوى تنفسهم الوحيد الذي يدل على استمرار حياتهم. الضعف باد على الجميع، سحتهم تميل إلى السواد والإصفرار، الفم جمرة موقدة حافظ على توهجها وصلابتها على الرغم من المياه التي تصلها. تتبخر قبل أن تلامسها، يظل جافاً يطلب المزيد من ماء الصنبور المندفَع إلى الجوف. الثياب المبتلة بالعرق والبول تفوح منها رائحة واخزة، تبعد الجنود عنهم. نار المعدة الموقدة تجعل القلب يقفز وينبض مرة على شكل ضربات متوالية ذات ضغط عال، ومرات يكاد يتوقف عن العمل.

صباح يوم الثاني والعشرين نظر إليهم الطبيب. أدار وجهه قليلاً وأخبرهم أن أجسادهم لا تقاوم، وعليهم أن يفكروا. الإدارة قررت تجاهل مطالبهم. قال بصوت واهن كلمته المشهورة.

- أيها الرب هؤلاء جبابرة ينحني الإنسان تواضعاً لقوتهم وصلابتهم، اللهم أشهد إنني قمت بواجبي وأديت الأمانة، فلا تؤاخذني على ما نفذته بحقهم أدوناي موسى أنا عبدك المأمور فاشفع للمستجير بك!

انسحب ركلبويم وذهب إلى غرفته وقرر عدم مغادرتها، فهو لا يستطيع عمل

شيء، الإدارة مصممة على قتل المضربين، وهذا يتنافى مع مهنته. قرر أن يظل بعيداً، يسمع أخبار المضربين وموتهم أفضل ألف مرة من أن ينفذها، يكفي أنه لا يرى الصور المؤذية التي تجعل القلب ينفطر. استغرب كيف تفكر إدارة السجن، وكيف تستطيع أن ترى منظر السجناء وموت أحدهم ولا تتحرك أفئدتهم. ترى لو كانوا قطيع غنم افترسته الذئاب ألا يحزنون ؟

الصور التي تجعل شعر الرأس يقف، تثير الضحك والتندر لدى الطاقم الطبي و السجنائين، وتكرس أكثر فأكثر حالة العداة المستحكمة بينهما. عمر بمقدرته أن يدفع الأذى ليس فقط عن نفسه بل عن عشرة من زملائه. حادثان تدقان جدار زنازنته، وصل الدم نقياً إلى رأسه يوم كان في " قهوة الحسين " في مدينة القدس.

شخص يكنى بالعتال، فارح الطول قوي لدرجة أنه قادر على مسح الكتابة عن العملة المعدنية، يأتي إلى القهوة يشرب ويأخذ خرجيته من صاحبها وبعض الموجودين. ومن لا يروق له يضربه أو يطرده. ذات مرة كان جالساً إلى الطاولة المجاورة لعمر، وضع قدمه اليمنى ولفها فوق اليسرى، خلع حذاءه ففاحت رائحة نتنة كريهة جداً. طلب من صاحب القهوة ماء ليغسل قدميه. تأخر العامل فناداه ثانية وعندما حضر صفعه وأراده أرضاً، عندها لم يتمالك عمر أعصابه، نادى على صاحب القهوة وقال له :

- إياك أن تلبى طلبات الزبائن الوقحين !

- من تعني يا أستاذ ؟

- أنت أيها الوقح الذي نسي أهلك أن يربوك، تماديت ونسيت أنني جالس هنا، لن أسمح لك ولا لغيرك بمثل هذه التصرفات .

صاح العتال على صاحب القهوة يهدده بحرقها إن لم يخرج الشخص الذي تطاول عليه.

حار في أمره فلم يجب، بينما هجم بكرسيّ على عمر، رده بلطف بعد أن خلص الكرسي من بين يديه، وهدده بالخروج بقوله:

- كفى أيها العتال أنت لا تعرفني، غادر قبل أن أهينك، لقد فعلت ما فعلته، يكفيك وقاحة، الحل الوحيد الآن مغادرتك .

جن جنونه ثانية فتقدم بكرسي تلقاه عمر بيده، ثم دفعه بكلمة من يده الأخرى، وقع بين الكراسي، ارتفع التصفيق ووقف كل من في القهوة ينظرون إلى



ذاك المشهد الغريب وهم غير مصدقي من بأن العتال قد اندحر، لأول مرة يتجرأ أحد رواد القهوة ويمنعه من ممارسة جنونه وغلاظته ولأول مرة يقع بين الكراسي. تناوله من ياقة قميصه وشده إليه ثم دفعه إلى الخلف وتكوم هذه المرة فوقه، وهو يكيل له الضربات. وعندما حاول الوقوف على قدميه ورد الضربات عاجله بوحدة من يده اليسرى على بطنه، ثم لوى ذراعه ودفعه إلى خارج القهوة. من يومها لم يدخلها العتال، ويقال إنه غادر على إثرها مدينة القدس إلى الخليل .

أغمي عليه قبل أن يتذكر تفاصيل الحادثة الثانية التي جرت في قهوة الحجاز في مدينة دمشق وهي مشابهة لتلك.

نشرت مقالات في صحف أوروبية وأمريكية حول الإضراب، وجاءت بعثات صحفية إلى سجن الرملة رأت حالة المضربين، والتقى بعض المراسلين وجه لوجه مع عدد من المضربين، في حين تدخل مدير السجن وأمر بنقل إسحاق مراغة إلى المستشفى .

دارت معارك بين السجناء والسجانين، فقد الشيخ عباس أحد أسنانه الأمامية. وصف قول أحد السجانين " السجناء مدللون لدينا، عليهم فك الإضراب والتفاوض مع إدارة السجن " بالكذب، وقال :

- عندما يتساوى الموت والحياة، على الإنسان اختيار طريق العزة والإباء.

همس أحد الصحافيين في أذن الشيخ: " استمروا في الطريق الذي ترونه مناسباً، إن ما تفعلونه منتهى العطاء.. أن يستمر السجنين ممتعاً عن الطعام وهو سائر إلى حتفه، تضحية رائعة، لن ندعكم بعد اليوم بين أنياب الوحوش، سنغطي كل شيء وسنقيم الدنيا ومنظمة حقوق الإنسان على السفلة "

تظاهرت إدارة السجن بالانزعاج لموت اثنين من المضربين ونقل الثالث إلى المستشفى. حاولوا تهدئة الجو العام خاصة عندما علموا بخروج مظاهرة نسائية في القدس، تقودها أم عدنان، تندد بالسجون وتطالب بتحسين معاملة السجناء، نصت اللافتات المحمولة على ذلك أيضاً .

مدير السجن يمثل السلطة، يتحمل مسؤولية الفضائح التي تسربت من سجنه، تساءل لم لا يحاول استرضاء هذه البعثة وغيرها، يعرف أن التعليمات المشددة ضد السجناء تنص على ذلك، الوزراء شهدوا بحنكته. ذات مرة قال له وزير الداخلية " اعمل ماشئت دون ضجة، دون أن يعلم أحد، إياك أن تفعل شيئاً يكشفه الآخرون، عندها لن أرحمك "

وقال وزير الدفاع " أي شكوى ضدكم تعرضكم لعقوبة شديدة، عليكم أن تنفذوا الديمقراطية التي نتفق في تفسيرها، أقسم بالرب لن اسمح لأحد أن يشوهنا، صورتنا في الغرب يجب أن لا تهتز، إن من يفعل ذلك لا ينتظر منا سوى لفظه، اعملوا كل شيء بالسر".

إن ما حصل عند باب السجن معركة رهيبة بين البعثة الصحفية والحراس والإدارة، الممرض رافي وبعض العناصر حاولوا تأجيل اللقاء إلى الغد ليكون منظماً، ليشكلوا انطباعاتاً جيداً عن المعاملة داخل السجن، وليصلحوا ما أفسدوه. سأل أحد الصحفيين اليهود مدير السجن على انفراد عن حقيقة المعاملة، فأجاب:

- أيها الصحفي أنت يهودي تؤمن بالتوراة التي أعطتنا التفوق، خصنا الرب بحمل المهام الجسيمة للعالم كافة، أيمنك لليهودي أن يظلم الآخرين!؟

احتدّ النقاش بينهما وفند الصحفي بعض المقولات ووقف إلى جانب إدارة السجن في بعضها الآخر.

اخذت مظاهر العنف واختلفت لغة التخاطب. استدعى لي في طاقماً إضافياً وأدوية. حدث الممرضين حديثاً ودياً. أخبرهم بأنه أمر بعقوبة السجانين، وإنهم منذ الآن يستطيعون الإخلاد للراحة. في هذا الوقت وزع ركلبيوم الأدوية كل حسب حالته، أما رافي فلم يظهر بسبب منعه من الإشراف على المرضى، استبدل الطبيب به أهارون الذي دعاه السجناء بأبي هارون. ليلاً استحم الممرضون وبدلوا ملابسهم الداخلية، شعروا بشيء من الحيوية. كانت هذه أول ليلة هادئة ينامون فيها نوماً عميقاً. لا أحد دخل غرفهم سوى الطبيب ومساعدته الجديد.

الضعف الجسدي شل حركتهم. غطوا في النوم بعد الحمام مباشرة. اختلفت المعاملة، اختلفت مظاهر العنف والإزعاج، كانوا لا يدعونهم ينامون، يمضون الليل وهم ينقلونهم من وإلى غرفة التمريض، أصوات الأئين هي التي تسمع في الليل وبعض الشتائم. حتى فرصتهم الأخيرة في النوم قبيل شروق الشمس حرّموا منها، إذ يأتيهم الحارس في الوقت الذي يستسلمون فيه لإغفاءة. يدق الباب، تتوالى الطرقات على الحديد، وبصوته الخشن يأمرهم بالنهوض، فيحاول كل واحد أن يستمر في إغفائه ولو لثوان قليلة. فلذة النوم في هذا الوقت لا تعادلها لذة.

لا أحد يستطيع التلكؤ، لأن عدم الامتثال للأوامر جريمة يعاقب عليها السجين. كان للمدير رهبة وسطوة حتى على السجناء والمجرمين اليهود. لا يوفر أحداً. الجميع يرتعدون خوفاً ويتحينون الفرصة للانتقام. إذ أقسم أكثر من عشرة

جنائين يهود على قتله، والذي يقتله أولاً يخبر زملاءه، ترصدوه على الطريق  
الواصل بين الرملة وتل أبيب، أطلق أحدهم النار عليه فأرداه قتيلاً، لم يدعه بل  
اقترب منه ليتأكد من موته، فألقت الشرطة القبض عليه، ولدى الكشف عن سوابقه  
وجدوه أحد الجنائين الذين سجنوا في الرملة. استغربوا عمله. حققوا معه حول  
الأسباب التي دفعته إلى القتل فأجاب القاتل بنيامين :

- تعاهدنا عشرة على قتله، أنا كنت السباق، لم أقتل إنساناً بل خنزيراً. إن  
ليفي جونسون مدير سجنى السابق لا يعرف شيئاً من الرحمة بل العنف و القسوة.

بدا أن الإدارة ستعود إلى لعبتها ثانية، أخرجوا إلى الساحة. أعطيت للطبيب  
ومساعده أهارون إجازة، كما غاب بعض المسؤولين مدة أربع ساعات، لكن  
الطبيب رفض مغادرة السجن هو ومساعده اعتكفا الساعات، ثم عاد لممارسة  
عملهما.

كانت حرارة ذلك اليوم تجعل الماء يغلي في القدور، غلت شرابين رؤوسهم.  
لاشيء يتقون به الحرارة. العرق يسيل سواقي وقبل أن يجري مشكلاً نهراً صغيراً  
يجف وتبتلعه الحرارة. احتملوا هذا الموقف لمدة ساعتين. بعدها بدؤوا ينسدحون  
لايشعرون بشيء من عذاب الكون، يغطون في إغماء فيهرب منهم الإحساس  
بالحياة. عادت أحذية الجند إلى ركلهم. كان خوفهم من الإصابة بضربة الشمس  
يدفعهم إلى الهرب إلى الظل، فكانوا كمن يهرب من الرمضاء إلى النار .

لطح الغبار وجوههم وملابسهم والتصقت بعض الأتربة على أطراف فمهم،  
وتجدد خليط من الطعام في كل مكان من ثيابهم، فبدت ذات ألوان وعلامات وبقع  
مقرفة، تصيب العرق قناة على الخدين ونزل الأرض، تبخر بعضه وهو في

طريقه إلى الباحة، فنتج عن ذلك بعض الرطوبة واللزوجة والملوحة ورغبة في  
حك أجسادهم، تمنى الكثيرون أن تصل يدهم إلى منتصف ظهرهم لحك أضلاعه  
ويدغدغ الوثاب والكتفين، لكنهم لا يستطيعون تحقيق أي شيء من ذلك، فيحاول  
بعضهم حك ظهورهم بالحائط أو التمرغ على الأرض مرة على ظهره ومرة على  
بطنه .

مرت المدة الماضية كشبح، سأل الشيخ عباس عمر عن موقفه من اليهود،  
أجاب :

- لن أتحدث عن اليهود المنزريين في أوطانهم الأصلية، بل عن القادمين،  
إن كل يهودي قادم للاستيطان عدواني، ينتزع حق الحرية والحياة من غيره، فكيف

بعد هذا نسميه حراً وديمقراطياً ؟

كيف سيضمن حقوق غيره؟ إنها مسألة خاطئة حريتهم مقابل عبوديتنا وديمقراطيتهم مقابل طردنا من أرضنا وسجننا! أربع ساعات مرت احتضنت عذاب سنين، لاشيء سوى الأنين والجلد، فتتالت حالات الإغماء وفقدان الوعي التي تجعلهم غير قادرين على التركيز. شعروا بألم فظيع وجروح وفقدان للذاكرة، ولأن ساعات الألم طويلة، خمن حسان بأنهم في هذا المكان منذ أسبوع، وبعضهم قال أكثر، تحسس الشيخ عباس سنه المكسورة، بل نحن هنا منذ خلق الله الأرض، تلقينا عذاب العالم في الأيام الماضية ؟

قال عمر: لا أيها الرفاق مازلنا في بداية المشوار: إننا هنا فقط منذ ثلاثة أيام.

عقب الشيخ عباس :

- لا أظن ذلك، أيعقل أن كل هذا العذاب الذي يساوي عذاب العمر بكامله، قضيناه في المدة القصيرة التي حددتها بثلاثة أيام! ترى ما الذي يحدث بعد ثلاثة أيام آخر؟ الله يقف معنا، وإلا فإننا سنهلك!

بعد العصر انبطح الجميع على الأرض، يتضورون جوعاً وعطشاً. التعب تسلل إلى كل قطرة دم، الأقدام تركلهم دون إحساس بذلك. مازالوا مابين الإغماء والموت. عاد رافي إلى ممارسة دوره، أشهر الأنبوب المطاطي في حين عادت حالة السبات مما جعلهم لا يفرقون بين الأوقات والجهات، إذ عندما يتطلع أحدهم إلى السماء لا يستطيع التفريق أن كان الضوء المنبعث والذي ينير المكان من الشمس أم القمر أم ضوء كهرباء، لا يميزون الليل من النهار خاصة في يلك الأيام، القمر بدر، والكهرباء مضيئة ليل نهار، والتعذيب مستمر، فكيف سيعرفون الأوقات!؟

علق حسان على ذلك بقوله :

- ماذا يهمننا إذا كان الوقت ظهراً أو ليلاً، صباحاً أو عصرًا، لم تعد تهمننا الأوقات شيء واحد ننتظره أن يطلع الفجر ونصلي له.

صاح الشيخ عباس: الله أكبر، ماذا أسمع!؟

اقترب عمر من حسان، ابتسم في وجهه واستحسن كلامه الجميل، الذي يومي بموهبة شعرية أو بعاشق " المواهب تفصح عن ذاتها بمثل هذه الإشارات " هذا ما قاله عمر .

ظن حسان أن حديث رفاقه عن شعره، رفع يده لتصل إلى شعره، ليبرهن لهم عن فهمه لقصدتهم، خائنه يدها وارتدتا أمامه، تمت بكلمات غير مفهومة وعاد إلى حالة السكون واللاوعي .

لم يكن ثمة مجال للتدقيق في الوقت، مادامت المعاناة لم تتوقف. صحيح أن الإنسان يفضل الصباح ونور الشمس، حتى عند موته لو خير الموت في النور أم في العتمة، لاختاره مع بواكير الإشعاع الصباحي، وبعضهم سيختار ذلك وقت الظهيرة. أما الذي لا هو مع الأحياء ولا مع الأموات فإنه لا يفكر بذلك، كما لا يخطر بباله إن أشرقت الشمس أم غابت أو أن الذي يرفسه مجند ممرض أم ضابط! المضرب نفسه الذي يتقلب على الأرض قد لا يعلم شيئاً مما يفعله الآخرون، ولا يعلم إن كان صيت إضرابه قد وصل إلى آخر الدنيا وكتبت عنه الصحافة أم أن أحداً لا يعلم به .

المضربون فكروا بذلك قبل هذه الحالة التي يتنازعهم فيها الموت من ثغر الحياة، مازالوا مطروحين على وجوههم، يصافحون التراب ويلثمونه. استند عمر إلى الجدار، الغبش على عينيه، فركهما وحاول التحديق ليرى ما يحدث حوله. شعر بضعف في التركيز ومع ذلك رأى رفاقه بلا حركة. أفرعه هاجس الموت. أنصت لسمع ما يقال من قبل مسؤولي السجن، سمع أن السجون كافة مضرية وأن الصحافة العالمية في أوروبا وأمريكا غطت هذا الخبر. مازال يذكر ما عدده الطبيب ركلويم عن السجون المضرية، فبدأ بعسقلان وصفه أخطر سجن بعد نفحة، سجن البنات في الرملة، نفي ترتيا، بئر السبع، جنيد، طولكرم، الشاطئ ... عند سماع المضربين بذلك، شعروا أن قوة خفية جعلتهم أقوياء قادرين على تحريك الجبال. نقل كل من سمع الخبر إلى زميله الذي بجانبه، شيء واحد تمناه حسان أن ينقلوا هذه الأخبار إلى الرفاق في عمان ودمشق. لمس مدير السجن تعاطف الطبيب، فهمس في أذنه كلمات منها:

- أنسى عواطفك الإنسانية، لا أحد يمنعك القيام بها في عيادتك .

تحفر الذكرى مداً في رأسه، كيف ينسى ذلك المشهد لحظة اندفع أحد السجنائين وهو يهيء نفسه لملاكمة المضربين، في حين كانوا منهكين أشبه بأوراق الخريف الصفراء، هرول باتجاههم وبدأ يلاكمهم واحداً واحداً، وعندما انتصر عليهم جميعاً رفع رقيقه يده إلى الأعلى وصفق السجنائون عندما نظر باحتقار إلى السجناء المضربين وقال:

- ليق الله القوة فينا، فهي التي تحمينا وتردعكم .

كان المنظر باهتاً حين تقدم مدير السجن وربت على كتفه، تعالى التصفيق. عندما لم يتمالك الطبيب دموعه، انصرف بهدوء دون أن يزعج أحداً أو يبدي رأياً، وعندما سألوه عنه ليشاركهم فرحة نصر عسكري واحد على "مجموعة المخربين"، رد بقسوة .

أدار وجهه وحدق إلى الحيطان وتأملها جيداً، ثم غادر الغرفة. مازالت الغرفة تلف الجميع في الباحة .

شبك كل اثنين أيديهما وبدأ حركات تقديم وتأخير، أمر المدير تشغيل الإذاعة ووضع شريط راقص احتفاءً بنصر عسكري واحد على ستة وعشرين. انطلق الممرض رافي ووضع شريطاً راقصاً وفي يده الأنبوب المطاطي الذي استخدمه كسوط. ضرب الجميع به، رفع يده هو الآخر وقال: "أرأيتم لا أحد استطاع قول كلمة واحدة أوشد السوط من يدي، هؤلاء كلما دسنا عليهم، يصيرون أكثر طواعية، هؤلاء لا يعرفون الحرية ولا الديمقراطية "

صاح بأعلى صوته عاشت القوة والديمقراطية رمز دولتنا وعنوان وجودنا ظل طوال ساعات يرقص ويحرك الأنبوب المطاطي، ويجلد به كل الذين أمامه.

تدخل ضابط وقال: أتعرفون ما معنى الحرية والديمقراطية عند هؤلاء العرب وعند غيرهم من الحكام، إنها شيء واحد وحيد، أن تحكموا الشعب ويمارسوا الجنس والدعارة ويفرغوا كتبهم.

وضعت جوقة السجن المضربين في الوسط وبدؤوا يبصقون عليهم، ثم داروا حولهم دورات عدة، في حين كان الطبيب ركلبوم يبصق على كل من في المكان. قرر المغادرة وعدم المشاركة في الاحتفال التاريخي مهما كلفه ذلك من ثمن، طلب إذناً بالخروج، ألح في ذلك حتى تحقق، خرج من السجن مديديه يصافح الهواء والرياح والشمس، في حين كان كل شيء هادئاً تماماً، مسح عرقه ونظر صوب الغرب. الكون صغير جداً، كاد يختنق، ركض صوب الشرق والشمال والجنوب. بعيداً عن السجن وتحت ظلال شجيرات الحمضيات، جلس يتذكر أهله، فقرر كتابة رسالة، فتش جيوبه فلم يعثر على أي شيء. كانت جيوبه خالية، طارت الكلمات من ذاكرته، فقرر الانطلاق إلى بيته .

في صبيحة اليوم الرابع لوجودهم في الرملة، أرسلت السماء رياحها وغيومها. هبت رياح حارة تحمل معها بعض الرمال المسحوبة من النقب وجنوبي

غزة. الحرارة تكاد تميمع الرمال، ومع ذلك هطل مطر لخمس دقائق أو أقل. اقتربت غيوم داكنة متفرقة آتية من الغرب، التقت مع المرتفع الجوي فالقت حملتها وغابت الشيء الذي بقي هو العجاج والرمل الناعمة والطقس الخماسيني الذي عاد للظهور فجأة. الشمس راعها ماحدث زادت حرارتها، فبحرت خلال ثوان حبات المطر الفضية لتعود فرحة بقوتها .

لم ير السجناء ركلبويم ولا أهارون. رافي هو الموجود دائماً ينط أمامهم ويقفز ويلوح بالأنبوب المطاطي يعلن بأن الذي لا ينهي إضرابه سينتهي من الحياة. تبين إنه بلا شفقة ولا رحمة وتقبل إن وجوده في المعبار عقوبة له، لقد ضبط وهو يعطي عن طريق الوريد بعض الأبر المخدرة، وتعامل ببيع مسحوق أبيض يشبه بودرة الأطفال للاستنشاق، منهم من قال إنه الهيروين ومنهم من قال، لأبل إنه نوع أشد فتكاً. سجن في الرملة ثلاث سنوات، أفرج عنه ليمارس عمله داخل السجون. قيل إنه شاذ في ممارسة الجنس مع الممرضات الإسرائيليات. قبض عليه مرة يمارس الدعارة بهذه الطريقة دافع عن نفسه بقوله:

- إن ما ترونه شذوذاً في الممارسة، هو طبيعي أمارسه وأتلذذ به، لا يوجد نص في القانون يمنعني من ذلك.

بعد إطلاق سراحه، صرح علانية بأن لديه بيتاً، يجتمع فيه فتیان وفتيات، يطلقون العنان لحریاتهم ورغباتهم، حتى ليفي يتردد كثيراً، وهو صديق حميم له، وصديق للكثيرات، يعتمد عليه في كل شيء وهو مطمئن لتصرفاته، خاصة عندما يمنع المضربين من شرب الماء، ويقرن هذا مع تناول قليل من الطعام وفك الإضراب.

الطبيب ركلبويم حضهم على غب الماء وشرب ستة لترات يومياً حتى يتجنبوا الإصابة بالجفاف القاتل. ومن يقدر على شرب أكثر من ذلك فليفعل. الماء يحرك الدم ويجعله أكثر سرعة ويمنع تخثره، ويقي من الإصابة بالجلطة، ويساعد في إدرار البول ومنع تشكل الرمال والحصى في الكلية.

في الأيام الأخيرة للإضراب عانى المضربون من أمراض شتى، كل أصيب بمرض أو أكثر. أمراض المعدة، الأمعاء، الكبد، الظهر، الكلى، الجلد، الرأس. ولم ينج من ذلك أحد، حتى عمر الرياضي الذي لم ير المرض طريفاً إلى جسده، عانى من التهاب المجاري البولية، طلب الطبيب لمعالجته، لكن رافي رفض إخباره بذلك، قال:

- تعلن أسفك وندمك لـننظر في أمر مداواتك ونحضر لك من تريد من أطباء  
قادرين على معالجتك بالسرعة القصوى، وإذا استدعى الأمر نبعثك إلى  
المستشفى، وهناك تشفى وتعود صحتك، هل أكلم مدير السجن بشأنك؟  
تذكر كلمات رفيقه، لا تساوم، نظر إلى الممرض ولم يجبه!



## -الفصل السابع -

بعد أربعة شهور من التوقيف حوّل عمر القاسم إلى سجن رام الله الواقع على طرف المدينة الشمالي الغربي بانتظار المحاكمة. شعر ببرودة الجو مقارنة مع الرملة التي أمضي فيها أشهر التوقيف، والتي لا تبعد عن البحر سوى كيلومترات عدة، يهبها الدفء في عز الشتاء، ومع ذلك فإن مناخها هو وسط بين الساحل والداخل. أخذت نداوة البحر وبرودة الجبال وحرارة الصحراء، أما رام الله وسجنها فهما بعيدان عن التيارات البحرية وتأثيراتها ولا يصلها دفء البادية أما سجنها فيقع على ريو " العمارة " مما زاد البرودة التي تتسلل إلى العظام، بردها شبيه ببرد الصحراء أو برد دمشق في كوانين، في حين كانت ملابسه الخريفية التي دخل فيها العملية لا ترد عنه برد السجن القاسي.

مع قدوم آذار الذي يسمونه في رام الله " أبو الزلازل والأمطار فيه سبع شتوات " لكل واحدة طقسها، السماء تومض فاغرة فاها قاذحة زنادها، السحب تعربد في الأفق الشبيه بوجه أصابه الجدي. توالى الرعود والبروق، في هذا الوقت وقبيل الظهر، تحركت السيارة التي ستنقله إلى سجن رام الله يوم الثاني من آذار. المطر الهاطل دافئ. شعر بكل ذلك على الرغم من العصابة السوداء الموضوعة على عينيه والوثاق المقيد لحركته، يده استقبلتا الماء المنسكب فأخذ هطول القطرات على الصغد المسور ليديه، ضربات شبيهة بدقات القلب عند الفرح. تبلل شعر رأسه وهو متجه إلى السيارة. تمنى لو كانت يده حرتين لمسح شعر رأسه، ولو كانت عيناه بلا عصابة لشاهد المنظر الجميل للمطر. تصور كيف تنزل الحبة على الشارع وعلى الرصيف، فتحدث صوت تكّ خفيف وتترك أثراً دائرياً، يظل يتجدد طوال الهطول.

شيء واحد يسمعه بدقة الرعد. تخيل السماء وكمية الغيوم السابحة، وقع أقدامه على الطريق تتبّه بغزارة المطر والمدة التي قضتها في الإمطار. النقاط تأخذ مجراها في الأرض وعلى جسده. صدره يتحول إلى نبع ماء، تنزل النقاط

على كتفيه، تتسلل من كتفه الأيمن وتواصل انحدارها. لا أحد يستطيع منعها من مواصلة سيرها. يده التي ستلعب دوراً ما في مصيرها أو كتابة تاريخها مقيدة. نقاط أخرى أكثر قوة تواصل اندفاعها، تبدو أكثر حراً، تأخذ طريقها في المجرى ذاته الذي اختطته القطرة الأولى .

سمع صوت جندي يدعو إلى رفع رجله للصعود، مديره تحسس جسم السيارة، أمسك بيده اليمنى باب السيارة ووضع قدمه على درجة الصعود، تمسك جيداً قبل أن يدفع جسده إلى الأمام والأعلى. الصوت يلاحق حركته ويرشده إلى الطريق. يد من خارج السيارة تدفعه وتطالبه بالجلوس. شعر بحركة العسكري ثم دفعه للباب ووضع قفل فيه. سمع أمراً يدعو السائق إلى التحرك، هدير المحرك يتعالى قبل أن تتطلق السيارة، صوت دراجة نارية ترافقها تسبقها تارة ثم تتأخر عنها. لم يشعر بشيء آخر، لكنه يعرف أن نقل أي سجين يتم تحت إجراءات أمن مشددة، وفي مثل هذه الحالة تكون أمام السيارة أو خلفها سيارة شرطة عسكرية. في هذه المرة لم يتأكد من مرافقة هذه السيارة للزنازة التي ستقله. الشيء الوحيد المتيقن منه أن الانطلاق لا يتم دون حراسة مشددة. صوت الدراجة النارية واللغط الذي حصل قبل تلقي الأمر دليلان على ذلك يجهل المكان المنقول إليه، لفتج خمّن أن الاتجاه الذي تسلكه شرقاً بانياً افتراضه هذا على الجهة التي تدخل منها الشمس إلى السيارة، ولأنه توقع خضوعه لمحاكمة، هذه لا يتم إلا في الضفة الغربية .

وضع يده على خده، مازال يذكر الاحتياطات التي اتخذت لحظة دخوله العملية، الآن تأكد أنها غير كافية، وأنه والقيادة ينظرون إلى العمليات التي لا تعدو سوى توضيحية بعدد من العناصر وإصدار بيان حول ذلك. " أنت يا عمر لست أكثر من بيان، صارت الرياح ومن يصارعها خاسر، لأنه لا يملك القدرة لا على إيقافها ولا على تهيجها أكثر، تبحث عن إبرة سقطت في بحيرة طبريا.

رجل لا يعرف الدهاء، يعيش على فطرته، تكذب عليه القيادة ويستغل العناصر عواطفه النبيلة، أنت يا عمر لا تعرف في حياتك إلا الصدق والإخلاص مع قيادة همها ترقيم البيانات ."

صباح العملية نظر غرباً حيث الأردن يبدو كولد مؤدب، مياهه رقراقة، انخفض مستواها إلى النصف حتى بات الوصول إلى الضفة الأخرى أمراً سهلاً. خلفه تقبع مجموعة من المدن والقرى التي بنى فيها تنظيمه. هاجس العودة وبناء قواعد عسكرية في جبال الضفة الغربية لا يفارقه، قال له المحقق " شروط العودة

نحن نحددها، وكذلك جمع الشمل يتم إن كان لك أهل أو لتصفية أملاكك وهذا يتطلب تسليم نفسك إلى سلطات الأمن، تسليم نفسك إلى أقرب مخفر تمر به وأنت رافع اليدين .

تجاهل عمر أقواله، فصاح في وجهه مكرراً عبارة، هل عرفت شروطنا للعودة  
!؟

أجابه عمر: لكنك لا تعرف شروطنا!

عنفه المحقق وقال: اخرس أيها الحقير من أنت ليكون لك شروط؟

توقفت السيارة وتلقى الأمر بالنزول، لم يمض وقت طويل ما بين الانطلاق والوصول، المسافة قريبة قد لا تتجاوز ثلاثين كيلو متراً، وحسب معرفته لا يوجد سجن بهذا القرب والاتجاه إلا سجن رام الله. صدق ظنه إذ سمع هذه العبارة من الحارس الذي يجلس خلف الباب ويمسك بيده بندقية ملقمة للإطلاق .

نزل فشعر بالبرودة، توجه كما طلبوا إليه، فكوا العصابة عن عينيه، نظر فإذا به فوق تلة، السجن أمامه، وغير بعيد عنه مدينة رام الله وقراها، ألقى نظرة، دفعوه إلى داخل السجن وهناك استلموا ملبسه المدينة وسلموه لباس السجن، إلى الغرفة رقم خمسة أدخل بانتظار محاكمته. قريباً من السجن المحكمة العسكرية التي ستحاكمه وتصدر قرارها وحكمها.

جاء في لائحة الاتهام الموجهة ضده. إن " المخرب " عمر محمد محمود قاسم المكنى بأبي عباية والدته فاطمة الشلبي تولد مدينة القدس عام 1941 تسلك ليلة الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف، اجتاز نهر الأردن ليتمركز قريباً من هنا في الجبال والمغاور لبناء خلايا مسلحة، وقبلها دخل " يهوذا والسامرة " للغرض ذاته. اليوم المشار إليه اجتاز النهر على رأس دورية من ثمانية أشخاص تحمل أسلحة وذخيرة ومتفجرات، تابعة لمنظمة " تتخريبية " يقودها " اراهبيون "، له نشاط في المجالين السياسي والعسكري، يحمل إجازة جامعية، اشتبك مع دورية لجيش الدفاع الإسرائيلي قرب قرية كفر مالك. لم يسم نفسه إلا بعد أن نفذت ذخيرته وجرح، ولدى التحقيق معه تبين أنه عضو لجنة مركزية في منظمته، هذه أول مرة تدخل قيادات على رأس عمليات عسكرية، جاءه وزير الدفاع موشي ديان، الذي أمر بنقله إلى المستشفى، واستدعاه مدير الشرطة حايم بارليف مد يده لمصافحته، لكن " الإرهابي " عمر رفض مصافحته علماً أنه قدم له جميع المغريات كالإفراج ودفع جميع رواتبه

والسماح له بالعودة إلى الأردن أو الهجرة إلى أمريكا أو استمراره في التدريس مقابل تصريحه بالقول إن العمل الفدائي لا يجدي في تحرير فلسطين وإن الأعمال التي يقومون بها أعمال تخريبية.

إن هذا الموقف بما يسببه من تهديد لأمن إسرائيل، وإهانة لبعض قادتها، وعدم تخليه عن الأعمال التخريبية، لذا توصي المحكمة بالحكم عليه بالسجن المؤبد لتجاوز المادة سبعين الخاصة بالأمن في " يهودا و السامرة "، كونها منطقة غير مسموح دخولها ... بحكم القوانين المرعية نطالب تجريم المتهم لكونه :

- يعمل في منظمة تخريبية غير مصرح لها.
- التسلل دون إذن من السلطات العسكرية لبناء تنظيم معاد.
- حمل سلاح وذخيرة غير مرخصة وتهديد الأمن والاشتباك مع دورية مما أدى إلى قتل جندي وجرح أربعة .
- عدم إظهار ندمه وإهانته لبعض قادة إسرائيل، واستمراره العمل في منظمته التخريبية .
- إن أي واحدة من الأربع يحكم بسببها حكماً مؤبداً، فكيف إذا اجتمعت كلها في شخص يصرح علانية بأنه دخل يقاتل ويبني خلايا إرهابية.
- بعد قراءة لائحة الاتهام وقبل صدور الحكم، سئل إن كان يطلب الرأفة من المحكمة،

أجابهم: أطلب الرحمة ممن احتلوا بيتي وأرضي، من محكمة تجرمني لأنني عائد إلى مدينتي القدس! ... من حقي حمل السلاح، شرائع الأمم المتحدة لم تعترف بالاحتلال وتطالبكم بالانسحاب. إذا كان العالم ينظر إليكم على هذا الأساس، فكيف تطلبون مني أن أقر بما تفعلون !

تدخل القاضي وطلب إليه أن يسكت، فالمحكمة درست القضية وأجلت إصدار الحكم ثلاث جلسات، سمعت أقواله وإفادة الشهود ومرافعة النيابة و مرافعة المحامية وهي ليست بحاجة إلى محاضرة.

طلبت المحامية فليسيا لانغر الإذن بالكلام، كما طلبت الرأفة بموكلها. أجاب القاضي بصلف :

- إذا كان موكلك غير معترف بصلاحيه المحكمة، وغير مقر بذنبه ولا

يطلب الشفقة، فأى كلام تقولينه غير معترف به من وجهة نظره. أنت أيتها الزميلة تدافعين عن مجرم خارج عن القانون، يحمل لواء إفناء دولة إسرائيل، ويستطيع عمل الكثير ضدنا من موقعه القيادي وفكره المادي الجدلي وقدرته على الإقناع. ليعترف أنه مذنب وأنا أعيد محاكمته.

أجابت بجرأة: أنت تكرر وجهة نظره، هل تأخذون بها.. إذا فعلتم ذلك سأوقف دفاعي.

- أنت تتلاعبين بالألفاظ ... إن كان لديك ما تقولينه فنحن آذان صاغية.

- أنا أرى بأن موكلي لم يفعل شيئاً يستحق عليه العقاب، بيته في القدس، أهله مازلوا يعيشون فيه، وكما خرج يحق له العودة بالطريقة التي تراها مناسبة ودون العودة للسلطات العسكرية.

- ولكنه لم يدخل وهو يحمل ورود و أكاليل السلام، حمل سلاحاً بقصد قتل شعبنا، إنه قاتل جندياً وجرح أربعة

- ماذا تتوقع من قيادي مثله، هل يقول، بارك الله لكم في بيتي وأرضي. إذا كان مجلس الأمن لم يعطكم هذا الحق، فكيف سيمنحكم إياه، إن المواثيق الدولية تكفل لموكلي العودة إلى بيته، علماً أن شروط العودة وكيفية مرتبطان بقرار منه وبالوجود الفعلي على الأرض .

- أيتها المحامية أنت مواطنة يهودية صالحة، ذات سمعة جيدة، تدافعين عن المظلومين وليس " المخربين " كلامك هذا يضر بالمصلحة العامة للدولة، فهل هذا هو رأيك أم رأيه ؟

أحتج على صيغة السؤال فأنا لست في محضر استجواب .

دق القاضي بيده على الطاولة ثم رفع الجلسة ساعة كاملة للتداول والنطق بالحكم. ترك بعض الحضور القاعة ودخلوا إلى غرفة داخلية، صاروا قريبين من عمر القاسم، حيث تقدم منه بعض الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء، سألوه عن رأيه في المحاكمة وتصوره للحكم الذي سيصدر بحقه.

- الحكم معروف، إنه السجن المؤبد، فإذا كان هذا هو الحكم فلم المحاكمة؟! أنتم تعرفون الجواب، الهدف ليس أن ندافع عن أنفسنا أو إظهار الحق بل الظهور أمامكم وأمام دولكم بأنها الدولة الديمقراطية التي تقدر الحرية وتسمح لا عدائها بأن يدافعوا عن أنفسهم ويؤكلوا المحامين لهذا الغرض .

تتالت عليه الأسئلة بلغات مختلفة، فكان يجيب حسب لغة السؤال بالإنجليزية أو الفرنسية أو العبرية وأحياناً بالعربية، رد على أسئلتهم كافة، وطلب إلى أحد المراسلين الأجانب أن يكتب عن المعاملة السيئة داخل السجن وأساليب التعذيب في الصرفند وغيرها .

عاد القاضي بعد ساعة ليعلن حكمه الوجاهي بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، حكماً وجاهياً يعمل به ويطبق اعتباراً من تاريخ صدوره .

دخل ثلاثة جنود سحبوه وشدوا وثاقه، بينما عدسات المصورين تلاحقه وهو يرفع إصبعيه. رموه في السيارة الزنزانة بانتظار إعادته إلى السجن.. بعد أيام يكمل شهره الثاني في معتقل رام الله. بعد صدور الحكم برزت تساؤلات حول بقائه في هذا المعتقل أو نقله إلى سجن آخر، أبلغه السجناء الذين معه في الغرفة، بأنه سيرحل إلى سجن آخر، فهذه حال الذين تصدر بحقهم أحكام طويلة، لأن سجن رام الله مخصص للتوقيف والأحكام الخفيفة التي لا تتعدى عامين.

عاد عمر إلى الغرفة خمسة التي كان بها قبل ذهابه للمحاكمة، أبلغ رفاقه بالحكم الذي صدر بحقه، بلغت كل غرفة التي بجانبها، خمسة مهاجع هي غرف السجن، علم معتقلوها بتفاصيل المحاكمة. دفاع المحامية وقوله في عدم صلاحية المحكمة لمحاكمته، أثاروا حماساً وهياجاً لدى الموقوفين. أدى إلى قطع الكهرباء طوال الليل، ومع ذلك استمرت حالة من الهيجان حتى الصباح اليوم التالي .

في الصباح فتحت كوة الباب، صاح العسكري " عمر محمود القاسم الإدارة تطلبك جهز نفسك " عرف الجميع بأنه سينتقل. تمنوا أن يعيدوه إلى سجن " فتح " في الرملة أو أي سجن آخر عدا عسقلان، الذي افتتحوه قبل شهرين لسمعته السيئة جداً. له نظام خاص بمقتضاه يصير السجنين عبداً، لا ينطق سوى كلمة " أدوناي" سيدي، التي يخاطب بها حتى أصغر عسكري هناك.

السيارة الزنزانة جاهزة للتحرك بعد تسليمه ملابس السجن واستلامه لملايحه المدنية. اقتيد إليها دون عصابة على عينيه. لحظات الانتقال خارج المعتقل تساوي فرح أحلى وأجمل مغامرة! كيف لا وهو يكتشف أن الكرة الأرضية مازالت تدور ومازال فوقها بشر!

وأن الدنيا لم تتغير، تلك هي قرى رام الله ترتدي ثوبها الرائع، الشوارع، البيوت، الناس، " يا إلهي كل شيء على حاله! بل تبدو أكثر نضارة وكأنها قد غسلت للتو! هل لهذه اللحظة ثمن؟" في هذه اللحظات المعدودة شعر بنشوة

الحرية، نشوة الإفراج عن السجين، هذه النشوة التي أخذت تتلاشى مع دفع الجنود له، ينطفئ بريقها عند صعوده إلى السيارة وإغلاق الباب الخلفي وقفله. الآن عاد إليه الشعور بالقهر، فتذكر لحظة الحياة التي مرت به. وازن بينهما وأدرك أن هناك بقية قليلة قادرة على فعل الكثير، ابتسم ورفع رأسه عالياً، رأى السماء مسورة بلون أحمر ووجهاً مدوراً مصبوغاً بالأصفرار، وبيقع أرجوانية كوجه حبيبته، تطلّ من الشرق وترسم قوساً، يمتد على طول أفق الجهات الثلاث الأخرى. تطلع وروّد حمراً من الشرق وتمتد شمالاً ثم جنوباً وغرباً، لتشكل باقة دائرية لا أحد يدرك كبرها. افتر فمه عندما تصوّر أنها إكليل عروسه التي لم تبارح عيناها وجهه طوال مدة المحاكمة. عبلّة منذ الآن هي عروسه، رفعت يدها وشبكت كفيها علامة اتحادهما الروحي. منذ هذه اللحظة سيزورها ويقبلها، وعندما تفيق ستقبض يداها على بقية الحم، ستضمه إلى صدرها وتقبل أنفاسه التي لا تبارحها. نظر إلى الوراء إن كانت مكانها، فأراها مطراً يهطل دموعاً قرمزية، إنها دموع أمه التي ركضت إليه صاحت بأعلى صوتها :

- (لا تخاف يمّا)، الله أكبر، الله معك يا حبيبي .

عيناها الماطرتان بللتا خضرة وسهول وجنتيها، تسلت القطرات إلى عتمة جسدها، فاختلطت بملابسها، تمنى أن يصرخ " سامحيني يمّا " أن يتوقف الزمن وتلتصق روحه بها، أحس بأن رأسه قد ثقل وأن دموعه ستخونه فأشاح بوجهه .

والده الذي ابتسم ابتسامة لا تقهر، رفع قبضة يده ولوح لولده وصاح:

- السجن للرجال، ارفع رأسك عالياً يا ولدي !

هذه الكلمات الجياشة لم تفارق مسامعه، بقيت زاده في الليالي الحالكة، وظلت نديه ترطب روحه.

الغيوم الكثيفة تغطي الفضاء ... اختفت صورة السماء العميقة وبدت واطئة تلتصق بالطبيعة، ضغطت على صدره. المطر ينهمر خصباً كأنه امرأة، ينسكب حبلاً غزيرة كجدائل عبلّة. مازالت أذناه تتقلان صدى أصواته، ووقائع احتفاله الأنثوي.

من الشمال لمعت عينا وصال فاختلطتا بالبروق، مشيتها الدمشقية المتأنية وكلماتها المقتضية المؤثرة، تخلصت من رياح قاسيون، احتضن الأفق شعرها، برزت أنوثتها وهي تفتح قميصها للريح، نهذاها يندفعان ويتوحدان مع عصير الأشجار وثمارها، يصيران خمرة، صدر كالملاعب تهتم عليه الفراشات تطير

بالظلمة، تشرب من النبع، تدب النشوة في جسدها، تمتزج الخمرة بدمها، عيناها العميقتان تستظلان بأشجار الجوز الحور تشعان النور، فتسبح الورود والزنابق بجمالها، شفتاها نديتان على الرغم من الشمس المحرقة اللاهثة وراء نقطة ماء، حركت يدها، جددت الهواء وزفرت زفرات متواصلة وهي تسفح الدمع الغزير، إنه أمامها وهاهي تقف كالصنم تتأمله، تتذكر ما قالتها في آخر زيارة للأردن، تردده وكلها حسرة، هذا مصيره يقع في السياج، غيره يتفرج، لم يسمع كلامها يوم عرضت عليه الزواج، وأخبرته بأن جسدها قادر على إطفاء لهيب ثورته.

" آه يا إلهة الحب، كبر الطفل ولم يعد يسمع نصائحك، ملهوفاً يرتد إليك، مشتاقاً لحنانك، وما أحوجه الآن إليك، إلى صدرك، مازال طفلاً ومازال جسديك يزفرك للذكرى .

دعيني لثوان معك، أمارس الرياضة لعبتي المفضلة، وأنا أسمع أغنية تطهرني وتعيدني إلى عالم هجرته، عالم ينبض بالحياة، هيا إلى حياة الجامعة والعشق وبردى والحور المغناج الذي تلبى حركاته الراقصة تغريد البلابل، يتمايل طرباً كلما كنت معي !

آه أيتها الحورة، يانبج بردى، ياقبله مازال مذاقها رائعاً! صوتك الرنان يزفني للحياة، يزف لذاكرتي ما قلته عن مستقبلنا، لنتمتع بالحياة فالنضال كشراب سيجارة بلوى لا يستطيع المرء الفكاك منه، معك حقك أيتها المغردة في نخيل أبي رمانة الذي كتب الله عليه أن لا يثمر .

مع الذاكرة الداكنة يرشح الماضي، الذي يقذف بجمه! آه ما أجملك وأنت تقولين بأن للشهوة ثلاثة أوجه، رعبها وظلاميتها ونشوتها. أضيف إليها بعداً جديداً ذكراها! الماضي بيننا، يفرقنا، يجمعنا، الحنان الذي في صدرك دعيه يسافر جنوباً، عله يصطدم بجدار السجن، يتسلقه ويصلني؟! "

ظل المشهد ملتصقاً بذاكرته وبقي غارقاً في الأحلام، يفكر بها ويستعيد بعض كلماتها " المرأة تجعل الرجل يعود إلى وطنه، فإذا كانت بعيدة فكيف يعود؟ وكيف يشعرها بحنانها و أنوثتها؟ "

تحركت نسمات حركت ما أمامها، شعر الناس بالبرد، الشوارع مزدحمة بالمارة، منهم الذاهيون إلى أعمالهم اليومية، وآخرون جاؤوا لحضور محاكمة عمر القاسم وسماع دفاعه .

- كم تشبهين يارام الله دمشق! تلك الأبنية ألا تشبه حي القنوات ؟



وذاك الشارع ألا يشبه شارع النصر؟ وتلك القهوة أليست أخت قهوة الحجاز؟  
وذاك الوجه ألا يشبه وجه وصال؟

رن صوتها في أذنه، حركت فنجانها وقلبته على فمه ثم إعادته كما كان فوق  
صحنه لتقرأ بخته، جاءت نبوءتها التي طارده: " إذا لم تتزوجني، ستبقى طوال  
حياتك بلا زوجة و بلا حضن يضمك ."

عندما أغلق الشرطي باب السيارة، رفع عمر رأسه ليجد ذاته وحيداً موثق  
اليدين معصوب العينين جالساً على كرسي طويل من الخشب. اتجهت السيارة  
غرباً، تخلصت من التلة ثم من رام الله، السيارة بطيئة وأغلب الظن أنها ستصل  
الرملة بعد ساعة أو أكثر بقليل. استطاع أن يتخلص من العصابة، برفعها قليلاً  
عن عينه اليمنى. عاد يتأمل صورة الله في البساتين، فتنقله أفكاره إلى معالم  
وعوالم منسية .

توقفت السيارة وصعد الشرطي يتفحص الغطاء الذي على العينين، شده جيداً  
وحذره عدم محاولة رفعه ثانية، لطمه على وجهه وشمته وبعته بأوسخ الألقاب .

انقطعت المناظر، تخيلها وتخيل الطريق والسماء، لو لم يكن معصوباً لعرف  
كل المنطقة وتمتع بالمناظر الرائعة، لكنه ظل يتمتع بذلك على الرغم من الغطاء  
الأسود السميك، إنه الآن يرى بكل حواسه. يشعر بالأشجار من زقزقة عصافيرها،  
والتلال والمرتفعات نتيجة تعرج الطريق، لا أحد منعه من رسم أشجار الحمضيات  
وهي تلوح بأوراقها العريضة، ترد على تحية نسيمات البحر. أنفة ازدادت حاسة  
شمه، يشم كل شيء التراب والأزاهير والأشجار.

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## - الفصل الثامن -

خرجا من المحاضرة الساعة الحادية عشرة إلى حديقة الجامعة حيث الورود البكر التي نشرت رائحتها، بينما ورود أخرى تنتفس عطرها لتضمه إلى البرعم، فقررت حجب أريجها وإبقاء الباب مرتجاً. دارا دورتين. كانت فرصة نضرة مرتدية ثياباً صيفية، فبدت كالزنابق خلابة وجذابة. داعبها بقوله:

- فيك من الرقة والدمائة ما يجعلك أميرة الربيع

- أشكرك لهذا المديح، لا تنسى دعوتي للغداء في بيتنا .

- اتركي هذا لمرة أخرى، هيا نمضي يومنا بين أحضان الطبيعة، لعل أحد طيورها يقلدك تاجه، أو يرمي بريشة ملونة إكراماً لك

- أمعجب بي إلى هذا الحد ؟

- سامحك الله ألا تعرفين ذلك أيتها الأميرة؟ أقليل عليّ أن أكون معجباً بأرق فتاة كلها دماثة وأنوثة !

نظر إليها وقرأ المرح في عينيها فأضاف: وأكثر البنات شغباً !

قرصته بذراعه، وهي تردد بعض الكلمات ...ابتسمت ونظرت إلى الأفق تتأمل السماء الصافية والطيور المغردة التي تطير من فنن إلى آخر. قال :

- لم تردني على دعوتي أراك تشدينني تجاه الباب الخارجي!

اقتربا كثيراً من " كافتيريا" الجامعة، خلاها وتنازلا كوبين من الشاي، كانت مزدحمة فلم يستطع التحدث، صخب الطلبة وزاحهم وضحكاتهم ملأ الصالة، بطرف عينيه أعطاها إشارة، لبت طلبه وخرجا إلى الشارع وهما يضحكان. أوقف تكسي، انطلق بهما إلى الجمارك ومن هناك اتجه يمينا إلى دوار ساحة الأمويين، توقف قليلاً عند الدوار، إذ امتدت يد الشرطي ليفسح المجال للسيارات الذاهبة إلى شارع بيروت. غير الشرطي الإشارة فتابع السائق سيره إلى الربوة. سألهما عن

المكان الذي يقصدانه، فطلب منه أن يتوقف عند أول مقصف يصادفهما .

نزلا وقطعا الشارع إلى المكان الذي سيجلسان فيه، اختاروا طاولة تشرف على التلال وصفّ الأشجار التي تعانق الضفة اليمنى لبردى بعد دقائق جاء النادل ومعه قائمة بالمأكولات، وضعها أمامهما :

- لا حاجة لها، جننا لتناول الشواء، سمعت أنكم تجيدونه

- ستجد مايسرك، هل تطلب أي مشروب؟

نظر إلى وصال فأشارت بيدها بالنفي. انسحب الخادم وتركهما يتمتعان بالحديث ومنظر الطبيعة الأخاذة، الوادي يحمل على كتفيه مرتفعات تجعله يبدو منخفضاً، إنه وسط بين تلين، خلف كل منهما مجموعة تلال متصلة، الأشجار تتمايل وتتعانق لارتفاعها ولأقل نسمة هواء فتجدد هواء المنخفض الذي يتمتع بمناخ جيد في أوائل نيسان إذ يعتبر الوادي مجرى للهواء المنعش أكثر منه منطقة حارة، المرتفعات المجاورة من الرقة بحيث يسبح هواءها فيه، تبدو وكأنها انكسار حدث منذ آلاف السنين، خلف منطقة ضغط تستقدم الرياح التي تتحني تواضعاً وهي على اندفاعها، فيأتيه الهواء من جانبيه وخلفه.

بدت وصال أنيقة وجذابة بثوبها الزهري وشفيتها القرمزيتين، وبأكورة النهوض الذي يشهده صدرها، نظر إلى عينيها المشعنتين، فتاهت أمواج عينيه واختلطت في بحر عينيها، بحر من الألفة والمرح والمحبة. قرب كرسيه منها وضع يداً على كتفها وداعبت الأخرى نهايات شعرها برقة وهدوء، ثم أنزلها لتحتضن يدها، سرت الرغبة وحشاً في جسدها، نظرت حولها ثم غيرت كرسيها فصارت بمواجهته، قالت بهمس:

- أحجل

أنهى الخدم إحضار الصحون والشواء . تناول بعض المقبلات وهو يتأملها، حثها على الأكل، ناولها قطعة لحم وأخرى، وفعلت الشيء ذاته، كانت مرحلة لدرجة أنها فقدت السيطرة على كلماتها، حدقت بعينيها، شعرت بالنعاس. هدأت تقاسيمها الثائرة، روادها شعور غريب لا تعرف من أين جاءها، بدأت تتخيل ماضيه البعيد، انتفضت وبدت قلقة، تخلصت من هذا الهاجس بمراقبتها للطبيعة، لكن هذا الإحساس عاد إليها مجدداً ،

سألته :

- ألم تلفت انتباهك فتاة غيري

- ربما لفتُ انتباههن، مابك أراك قد غيرت الموضوع

ظهر عليها الانزعاج، أغمضت عينيها، حاولت التقليل من وقع كلماته والسيطرة على مشاعرها، لكنها لم تقدر، فطلبت أن يحدثها عنهن .

- عن أي شيء أحدثك؟ عرفت فتيات من خلال التنظيم والدارسة، أيتها المجنونة صدقيني أنت التي دق لها قلبي، أنت الحب الأول يا وصال

- لو شعرت بأنك تخذعني سيكون هذا حداً فاصلاً بيننا .

ارتاحت يدها التي لوحت بها وهي ترتجف، ولم تعد تقضم أظافرها بحركة راعشة، نظرت إلى أصابعها ووضعت كفها على الطاولة فتناغمت حركاتها مع عودتها إلى طبيعتها المرحّة.. صحيح أن الخوف ملأ قلبها، وأنه ربما كذب، لكنها كذبة بيضاء، ماذا لو قال لها عرفت الكثيرات وبدأ يعددن، لكانت صراحتة الحد الفاصل، مع أنها تصرح بأن الماضي لايعنيها. ما بها ترتد إلى العشائرية وهي ابنه أفضل حي في دمشق؟ هل هو الجنون؟

نسيت أفكارها السوداء، وتخلصت من عصبيتها التي جاءت في غير محلها، حين أيقنت أنه رجل .... تسع فتيات في القسم يتحدثن عنه، كل واحدة تطلب وده، دعونه لمرافقتهم، قدمن عروضاً مغرية ليدرّسهن، لكنه لم يكب دعوة واحدة، وهذا مازاد في إعجابها. نظر إلى عينيها الثائرتين، فتاة قلبه في سمائها، وضاعت نبضاته بين الغمامات البيض التي اكسبت شاطئ عينيها ذلك التألق. أما هي فكانت تُنقل بصرها بين وجه عمر والمناظر الخلابية، فاستهواها الحوار الذي يغذ سيره إلى الأعلى. تاهت في عمق الاخضرار والزرقة ما بين عينيه والطبيعة وأسراب الطيور التي تحوم فيهما مرحة، اقتربت من زجاج النافذة لتتأمل الانحدار الذي احتضن دفتي بردي، وترفع بصرها قليلاً قليلاً ليتعانق مع رؤوس الأشجار التي ترقص طرباً، تاهت في بحر الجمال، فتناغمت كلمات الحب مع رققة المياه وغنائها وهشاشة الصخور التي فتّتها الطبيعة.

الطبيعة في الخارج بهية وجميلة، العصافير تحط على الغصون ثم تطير مغردة فاردة أجنحتها، تغادر جماعات مزقزقة كأنها في عرس أمير، فتحت النافذة فدخلت النسمة حنونة وادعة نشرت عقب الربوة الندي والروائح الذكية. نهر بردي الذي استجمع مياهه صار أكثر تدفقاً وجرياناً، مياهه تكاد تكون صافية .

الربوة التي تبدل ثيابها حسب الفصول والأوقات بدت بهية لكل فصل ثوب جديد ولون، الأنوار المنسكبة على جسدها تتراقص، تتكسر الأشعة فوق الزبد

والصخور، فتهرب عبر الدروب الملتوية التي تضم إلى صدرها الأشجار، أعلاها الحور ذو الأوراق الراقصة والمتلعبة مع النسمة ثم الجوز الذي يبدو أكثر خشونة ورسانة، أما الصفصاف الغض فينحني ويتمايل كعجربة أمضت خياتها تبحث عن رزقها بنفسها ويهز جسدها، تذكر أنه قبلها قبل يومين عند شجرة جوز عالية، ونقش اسميهما على جذعها، ساعة كاملة وهو يتقن بكتابة اسمها، يومها شعر بمرح غريب فبثها أفراحه، قال:

- أشعر أن القبله بغفلة عن الناس وبمباركة الطبيعة شهية ولذيذة إلى درجة أن حلاوتها ونداوتها تغذيني بدفء وشعور عارم بالحب والحنان .

قرعت الطاولة بإصبعها وقدمت له الطعام بشوكتها، ابتسم وطلب المزيد، وعندما شعر أن عليه أن يفعل مثلها قرب كرسيه بحيث صارا متلاصقين .

- ابتعد، أنفاسك تحرقني، هذا مكان عام .

لم يدعن لحديثها وربما لم يسمعه، تغزل بها فقال:

- أنتِ جذابة !

- وكيف تسافر دوني !

- أنتِ في قلبي حتى ولو كنت بعيداً عنك آلاف الأميال .

بان حرجها فعاد إلى مكانه، شعر أن التقابل يجعل كل منهما في حضرة الآخر .

عيناه البراقتان تتلمسان مواطن الجمال والرفقة والأنوثة، يراقب مضغها للطعام، تعبيرات وجهها، ابتسامتها ونظراتها، شعرها الذي انحنى وتطاير مع النسمة، يستحم بندى الغيوم ورذاذ الماء المتطاير من بردى، شعرها منطاد فبقدر سروره لارتفاعه يخاف اختفائه، الشعر يتمايل ويتطاير على أنغام أغاني فيروز، تصوّر أن الرحباني ربما استلهم بعض ألحانه وهو يراقب شعر محبوبته الذي طيره ربح الموج .

بأطراف أصابعها تجمع له لتعيده إلى سيرته الأولى، لكن الريح لم تبارحه كخيمة بدوي واقعتها العواصف. أذهلته فوضويته وتمرده، دارت في ذهنه أفكار حول العلاقة بين الشعر والشعر وكيف تلحن القصيدة على أوتاره ... شعرها المعانق للأفق هو ما أشعل خياله، جعله يشكل لوحة سريالية، فيهيم في عالم روحي قلما يأتيه :

- بماذا تفكر يا حبيبي ؟
- بشعرك واللحن الجميل .
- مدت أطراف أناملها ضمته ثم قالت :
- وما علاقتهما ؟
- عندما تمشطين شعرك ماذا تغنين ؟
- لقد ذهبت أفكارك بعيداً .
- دعيني أخلق، لقد أوحى بصور جميلة، بقصيدة، هل نسمعها ؟
- ابتسمت وهي لا تصدق أذنيها، نظرت إلى عينيه ولم تقل شيئاً، أصابتها حالة وجد لم تشعر بها قبل الآن. أمالت رأسها وأراحتة على كفها وقالت: هيا " تولد القصيدة وتطلق ساقبها الريح، بعد أن تمشطي شعرك تصل بثوان إلى الشمس .
- تلثمها
- تردها مسرورة
- تكحل مقلتيها من نهايات شعرك الخصب، قبل أن تقول كلمة !"
- صفقت بقوة وكأنهما جالسان وحدهما، حدقت به وقالت:
- إنه شيء رائع، لكن هل هذا شعر ؟!
- سمه ما شئت فأنا لست شاعراً بل محباً !
- في هذا الوقت أراد أن يعبر عن صورة شعرها والريح، أن يقول بأن الريح تغزل من الأغصان أجمل الألحان، ومن شعرها أحلى الأوتار، لكنه سكت، تطلعت إليه وقالت :
- ما بعد ؟
- سأحتفظ بذاكرتي وبقلبي بباقي الصور، هل تريدني سلمي حتى آخر ما احتفظ به من صور للأفق المرسوم أمامي ؟
- هدأت النسمة، فعاد شعرها يرسم اكتمال صورة وجهها وجمال عينيها، نظر إليهما، أبحر، تاهت المراكب، النشوى تلبسته، ما به هذا اليوم يصرح بكل ما في قلبه. كم قعد معها! وكم مشياً! وكم ابتسمت له وغازلته! ما الذي جعله يمد يده

يداعبها ويسمعها أحلى الكلام ويهيم بشعرها! يتأمل مواطن إغرائها، حتى هي وجدتته غريباً، لم تستطع السكوت فعبرت عن ذلك .

- أنت رائع يا عمر! صدقتي إن في عينيك من الحب ما يكفي لبنات الجامعة، إياك أن تهبه لغيري، أغار منك وعليك! احفظ هذه الجملة ولا تدعني أندم على حبك يوماً.

- ستظل ذكرى هذا اليوم لسنوات، أنا سعيد فأنت شمسي وألقي وكل دنياي!  
بعد سنوات ذكرته بقعدة الربوة وبكل الأماكن التي ذهبا إليها معاً، ذكرته بالحب والإخلاص. ليست عقد الفضة الذي أهدها إياه زينت رقيبتها، ونظرت في المرأة، مازلت تحتفظ بالفستان الذي امتدحه. نبشت ماضيها عندما جاء يخطبها تاجر من " الحريقة " جلست في غرفتها خمسة أيام كاملة لا تأكل ولا تشرب، تقرأ رسائله، وتعيد كلماته. جاء يخطبها يوم علمت بأسره، لبست فستاناً أسود، بكت كما لم تبك من قبل ومن بعد، فسالت مياه بردى رقراقة، وغطت الغيوم السماء، تجمعت وتفرقت، ثم هبت ريح عاصفة، الجو الرمادي أعطاها حزناً فوق أحزانها، لم تسمع كلمة واحدة من كلام أمها، وضعت إصبعها في أذنيها، ودموعها تغذي ذلك النهر غير البعيد عن بيتها .

ألحت أمها فأجابتها والتحدي ظاهر على ملامحها :

- دعيني أبك سنة كاملة ثم أسأليني مابك، لقد فقدت أعلى إنسان في الدنيا.. إنه عمر القاسم تلك السنديانة التي نبتت بعيداً ... ألا تذكرينه، إنه من دأب على مناداتك في الأيام الأخيرة بكلمات شفافة رقيقة، ألم تسمعيه يناديك " ماما " .

- يا بنتي، فكري، أنت غلطانة هل هو أخوك أم عمك أم خالك حتى تلبسي ثياب الحداد، ماذا نقول للجيران ؟

- هذا شأني ومنذ الآن لن أكلم أحد وأرجوك أن تتسي هذا الموضوع، اتركيني، المصيبة كبيرة !

- أنت مجنونة، تضربي أنتِ وعمرك .

- أنت تهرب يا عمر، ما أتعس أفكارك !

- سامحك الله، إياك أن تتقمي عليّ !

سأل نفسه، ماذا حدث لو تزوجنا، أأنت قادرة على تخليصي من السياسة،



إنها في دمي؟! وهل أنتِ قادرة على السير بتاريخ العرب قدماً إلى الأمام؟ كيف أوفر القرش على القرش لشراء بيت؟ وكيف سأحني هامتي لمعلمي وأطيعه بلا حدود؟ أقبل العطاء، أنتِ تطلقين عليه اسماً آخر وأنا أسمىه الرشوة، ومن هذه المبالغ وتلك أحضر لك غداء وعشاء ونخرج ننفسح ونقولين لرفيقاتك، كم من المبالغ وفرت واشتركت في جمعيات! بعد سنة أو سنوات تقترحين أن نضع القرشين مع تاجر ليتضاعف المبلغ ويعدّها تبحثين عن شقة وأوقع الكمبياليات، تكتبين البيت باسمك وتدعين صديقاتك، وتقدميني على أنني المغفل الذي كتب لك كل ما يملك! بعد هذا ماذا بقي من الحب يا ابنة الرغوة! كنت ستقبضين عليّ كما تقبض الشرطة على لص .

فتح عمر عينيه فوجد نفسه مازال مقيداً والسيارة الزنزانة لم تصل بعد.

## - الفصل التاسع -

لم يكن عمر يفكر بامرأة يوماً، كان من النوع الذي رمى شبابه خلف ظهره، ومش للحياة بخطى مديدة، يقتص من الماضي ويشيد الحاضر لبنة لبنة، المستقبل شغله الشاغل، يسعى ليكون مفصلاً بمقاسات معينة، وعليه لهذا أن يشغل وقته، أن ينسى أن للحياة لذة التمتع، وأن للحياة دعابتها وللمرأة مكانتها، نسي الجنس ومتعته، نسي ذلك حتى جاء يوم قابلته وصال وأصرت على صداقته. قال في نفسه إذا انتظمت في حركة القوميين العرب فهي صديقة ورفيقة درب النضال. عرفت مفتاحه فسأيرته، عرفت كيف تذيب الثلج الذي تراكم على قلبه، أذا به قطرة قطرة وعندما تبخرت آخر نقطة عرف أن له قلباً. وجل وبدأ يفكر، لكن الدقات المتزايدة أوقفت ضخ الدم إلى الأعلى، ارتجف أمامها هرب من عينيها الواسعتين، من كلماتها، كان تصرفه غريباً. لم تدعه وحيداً، ركضت إليه، وقف أمامها مسلوب القوى تائهاً، تحاشى النظر إلى عينيها، إلى جسدها المعجون بالحليب، إلى شفثيها، وعندما حانت منه النقطة، أصفر وجهه، أخبرها أنه مريض. عرف أن شيئاً ما في داخله قد تغير، وهو لا يريد لهذا أن يأخذ مكانه، عرف أنه فقد جزءاً من رجولته. جاءت مساءً وعندما وجدته في فراشه، عادت وأحضرت الطبيب، ناداها فلم ترد، ترك الغرفة وذهب إلى الحديقة المجاورة. شعر بارتياح، لكن هذا لم يدم فقد طارده أثناء النوم، وكلما أراد التخلص من ذكراها، تذكر مواقف أخرى، فسهر طوال الليل. وفي الصباح كان رأسه بحجم بناء الجامعة يؤلمه فلم يستطيع الخروج، قبيل الظهر غط في النوم ولم يفق إلا منتصف الليل .

ظل بعيداً عنها أياماً، حاول الابتعاد حتى في قاعة الدرس، وأثناء الخروج وفي الحديقة الجامعة وحتى عند خروجه. بعد أربعة أيام تقدمت وسلمت عليه، سألته بشيء من العتب، عادت إليه الرجفة. في الطريق حاولت دفعه إلى الكلام لتفهم سبب بعده عنها، وعندما عجزت اضطرت إلى مصارحته :

- هناك حياة يعيشها الإنسان غير العمل السياسي !

- ما مبرر كلامك .

نظرت إليه وأجابت :

- إنها الدعابة .

ابتسم وقرر من تلك اللحظة أن لا يقاوم رغبته الداخلية في إقامة علاقة مع الدمشقية، التي أصابته شباكها. هروبه منها يجعله يفكر يقربه أكثر، إذ تمضي عليه أيام دون نوم ولا دراسة. إنها الحقيقة التي عليه الاعتراف بها. الوجه الأنثوي الدمشقي يطارده، جسدها النحيل يعطيها رشاقة تضاف إلى خفة دماغها، أغمض عينيه وبعد طول تفكير أقر بنوع من الهزيمة، لا بد مما ليس منه بد، سألتها بعد نقاش سياسي ساخن دار بينهما :

- أفكارنا متقاربة، لماذا لا يوحدنا عمل تنظيمي ؟

- أنا لم أرفض لك طلباً .

طار من الفرح، بدأ يشرح تاريخ تأسيس حركة القوميين العرب وتطلعاتها وشعاراتها وامتداداتها من الغرب حتى الخليج وجنوب اليمن مروراً بالأقطار العربية الأخرى، وإعلامها في الخارج، بعد أن أنهى حديثه قالت بدلال:

- أنا أفهم أن الحركة أنت، وأنا أقبل بها على هذا الأساس .

- بعد أسبوع سنتنضمين إلى خلية حزبية .

- خلية نحل!

ضحكا، وبدأت كلمات العشق تتدفق كمياه بردى ومواعيد الغرام تأخذ طريقها، وجلسات السمر في الربوة والغطوة ومشاورير الدروب ومذاق الكرز الذي أنساه همومه الصغيرة، قال فيها أحلى الكلام .

يا بردى لا تثرثر، لا تتناول، لن تخاصر جسدها

فما بين مياهاك وقدميها عناق .

قال عن شفيتها بأنهما ثمرتا عناب وعن عينيتها الحزینتین بأنهما بوابة " مندلوبوم " في القدس، هذه البوابة التي يقف خلفها الأحباب أو الأهل عندما يكون أحدهما داخل فلسطين المحتلة وبقية أهله خارجها .

بعد سنوات العشق، عندما تحول الحب إلى ماض، يوم أنهى دراسته الجامعية في دمشق، قرر أن لا يكرر التجربة وأن تبقى ابنة الرغوة الوردية الوحيدة في قلبه التي

تهب الشرايين والأوردة الأكسجين لتنقي الدم أثناء دورته العادية، شمعة تضيء الدرب المعتمة، المحبوبة التي لن تجرؤ أي فتاة أن تأخذ مكانها. لكنه لم يكن صادقاً، العواطف تنتشر دون استئذان وكذلك القلوب، فكما وقع في حب، الشامية البيضاء، استهوته عبلة ابنة التنظيم. فشر بعد سنوات من عمله أن قلبه يدق فجأة وعلى حين غرة الشرايين والأوردة الأكسجين لتنقي الدم أثناء دورته العادية، شمعة تضيء الدروب المعتمة، المحبوبة التي كما دق في دمشق، خاف قرع الطبول في داخله، صوت دقاته تجاوزت رصيف المشاة لسمعها عابر السبيل. وكما حاول مع وصال سد نوافذ العشق، حاول ثانية، لكن محاولته هذه المرة جاءت متأخرة، إذ لم يصح إلا بعد أن تسلل الحب إلى كل قطرة دم في جسده .

وحين صارحته : "بأن على النسوة إقامة منظماتهن الخاصة بهن، لِمَ دمج الجنسين مادمت لا تراعون مشاعر الأنوثة؟"

أشاحت بوجهها حتى لاتقرأ الانفعالات التي اختلجت داخلها، قال لها :

- انظري إليّ وحدثيني، " فالعين مغرفة الكلام " .

نظرت إليه وحدثته عيناها بكل الكلام الجميل الأسير في حنجرتها، وعندما أدركت أنه فهم قصدها لملت ذاتها، فضحتها تصرفاتها، وبدا عليها الحزن، ابتسمت ثم وارت وجهها ومضت .

قلبه ينط كرة قدم تتقاذفها الأرجل، استند إلى الجدار، أعاد الموقف في ذاكرته، بدأ يسأل " ماذا تريد؟ ولماذا انسحبت وكأنها مهزومة؟" حلل كل تصرف من أفعالها، وكل كلمة قالتها. ما المقصود بمشاعر الأنوثة، ولماذا التحديق إليه؟ مشت مرتبكة دون أن تودعه، ما معنى ذلك، ولماذا اهتمامها به واهتمامه بتصرفاتها ؟

عقارب الزمن تمشي إلى الخلف، تذكر كيف افتعلت وصال حوادث وهمية وخاصمته متبرمة لتبادره في اليوم التالي باشة وكأن شيئاً لم يكن، بل الأكثر من ذلك فضحتها كلماتها ومواقفها وأنوحتها. جالت في فكره هذه المواقف وغيرها، فاستخلص بأنها شيء وعبلة شيء آخر . تلك فتاة خلقت لتتمتع بالمشاوير وبالحياة ورهاقتها، أما عبلة خلقت للتنظيم والعمل، قلبها قطعة حجر . تراجع عندما أكمل كلمة حجر، تذكر خجلها وحياءها، وكيف تغير لونها ووقفت الكلمات في حلقها ثم انسحابها، هي كوصال هذا ما توصل إليه، لكن ذلك لم يصمد طويلاً، بدأ فكره يحلل ... عاد إلى ذاته، تذكر كيف تحدثوا أمامه عن الشامية بما فيه الكفاية، وهو ليس بحاجة إلى حديث آخر. إنها مهرة تركض في الميدان لتكسب الرهان والحب من أول جولة،

فتضمن بقية الجولات، قالوا له: " لا تنفك ابنة أبي رمانة، هل أنت قادر على المحافظة على مستوى معيشتها؟ وهل أنت قادر على التكيف مع مواقفها الغربية وبروتوكولاتها العجيبة؟".

وصال لم تسلم كل أسلحتها، عليها تتبين مدى صدقه، وأن لا تتعجل الأمور، كانت تناطح جبلاً، تكسرت على سفوحه طموحاتها، مادامت لم تستطع أن تجر الحصان إلى عربتها، تذكرت أقوال أمها: " المرأة التي تركض خلف الرجل تخسر حبها، عليها أن تكتم مشاعرها جواها، لا تقول أحبك إلا بعد الخطوبة، تعلمي يا بنتي، عمر تتمناه أي فتاة، لكنه من غير ثوبنا، همومه كبيرة، لا ينفك "

بكت وهي تسمع نصائح أمها. امتنعت عن الطعام مدة يومين. جاءت أمها ولاطفها ثم أقسمت أن تدعها تقرر ما تريده، ولن تقول ما يزعجها بعد اليوم .

اقتربت من أمها ضمتها وعانقتها ثم قالت :

- سامحيني إنه الحب .

لم ينفعها دخولها التنظيم، ظلت علاقة الصداقة والحب في حدود خريشات الشباب، ظل مستقبلهما غير مطروق، بعد التخرج وقبل سفره بأيام قالت بأنها مستعدة أن تذهب معه إلى آخر الدنيا، شريكة ارتباطهما بشكل رسمي .

تجاهل كلامها، خاف منها وعليها، على يديها الطريتين وعلى جسدها الناعم أن يخدش. خاف أن تسود الأيام في وجهها، الظلم بشع، تأمل تقاطيع وجهها وحدق بعينها، قال: " الليلة سهرتنا حتى الصباح ".

قَبِل كل موضع في جسدها، وعندما تسلل الصباح، شعر أنه لم يرتو، فأجل سفره يوماً كاملاً، وهي إلى جانبه لم تبارحه، وعندما ودعها أحس بشوق للبقاء معها، حدثها بأحاسيسه فأجابته :

- مر يومان كدقائق لا تتجاوز أصابع اليد، لن ترتوي يا عمر لو بقيت إلى جانبي العمر كله، فالذي يرتوي من المرأة لا يصلح أن يكون لا صديقاً ولا حبيباً ولا زوجاً .

عاد بخياله إلى ما قاله رفاقه بأن ماء دمشق لا يروي الضمآن، يغيب منه ويظل عطشاً، مياهها أنثى، نساؤها خفيفات الظل، لو حملتهن في قلبك العمر كله، فإن حملهن خفيف.

مع تباشير يوم جديد مازالت فيه الشمس تدفع برأسها إلى الأعلى، قال:

" أين أنت يا صبح، برودتك تزيد شفتيها نداوة "

ونورك يزيد عينيها اتساعاً "

بَعْدَ جسد وصال وتوسدت عيناها حافة الحزن، بينما روحها لم تبارحه لحظة واحدة، لن تجد أمواجه بجرأً أو شاطئاً تسكن إليه، الفرح الذي خبأه في طيات ثيابه وملاً به جيوبه يرحل إلى غيره، والنور الذي لازم ثغره يندحر، تكفهر سيماءه، من الصعب أن ينسى سفره في عينيها وتوحد خضرتة مع هالة الضياء. نوبات الحزن التي تأتيه لا يعرف سببها ولا مصدر عويل قلبه، ولا أمواج التيه والشroud التي تلازمه .

وصال رعت حقل الحب وسهرت حتى أوراق الشجر وأعطى الثمرة، ولم تستطع أن تقطف الكروم، مازالت العناقيد حامضة، وسيظل حصرماً، هذه الحقيقة أدركتها في وقت متأخر وبعد سفره. ظلت حياتها حالمة، بقيت آثار ارتعاشها للمساة يده وذكرياتها مع كلماته وحديثه عن حركة القوميين العرب، التي ستفتح عذرية المستقبل، لتصل إلى الفرح والغمامات الماطرة، ماثلة:

- عندما ترسم السماء أشكال الفرح وتدق نواقيس الحب، فاعلمي أن المستقبل في يدينا، نستطيع أن نتحدث عن الحب، وأن أعدك بما لم استطعه الآن، أما إذا امتدت الغيمة كالأخطبوط، اعلمي أنني هالك لا محالة، وأن الحياة هزمتنا .

- لا تقل ذلك، سأبحث عنك كما فعلت عشتار التي وجدت حبيبها، فأعادت الخضرة والحياة. سأسافر إلى الأردن إلى أي بلد يمكن أن أجدك فيه، يصعب علي أن أنساك أو أتزوج غيرك. ستظل جسدي أرضاً بوراً يستعصي حرثها، سأعيش بلا قلب وسأدفن ذاتي بين أربعة جدران أشبه بشامية تقصي عدتها بعد وفاة بعها .

بعد أيام الحب العارمة والأشواق الملتهية التي عاشها في دمشق، ظل يعيش على ذكراها رداً من الزمن، ما كان لواحدة عادية أن تعيد أمواجه الساكنة إلى سالف حركتها، الوحيدة التي لها قدرة الإعجاز " عبلة "، تلك المخلوقة العجيبة التي استحوذت على احترامه، رأى فيها سحابة ماطرة تحمل بين جناحيها المياه للبراري العطشى. مجدة مثابرة استطاعت تحريك أحاسيسه. في البداية قارن بين الوجه الأبيض والشعر الأشقر وحمرة الشفاه وكل أساليب التقنن والمكياج ووجه عبلة فرأى الأخير باهتاً. لكن هذا الرأي لم يصمد طويلاً، غزته من الداخل وتغللت في مسامات جسده. أبدى إعجابه بقدراتها السياسية والاجتماعية، كلفها بمهمات الاتصال حين كان مراقباً، تأتيه تخب كالفرس الأصيلة، عيناها ضاحكتان شاردتان، تمتلئان

خصوبة وندى. تقف أمامه تشرح له كل ما مر معها. ذات مرة كان متضامياً وحائراً، شعرت بذلك، قادته من يده. سار إلى جانبها كطفل وديع، ابتعدا عن مدينة القدس كثيراً. استحثته على الحديث ليعبر عن موقفه وآماله وخطه بعد حزيران سبعة وستين أجاب:

- أنتِ ما بقي لي بعد الهزيمة، وأرجو ألا أفقدك، تعرفين أنني مطارِد من سلطات الاحتلال! لن أحملك فوق طاقتك، أنا أفكر بالخروج والاتحاق بالمقاومة.  
أنشد :

"إن حب الأوطان عدل، وحلم، وثبات، وعزة، ووفاء .  
وأصطبار على الزمان، وتأليف قلوب، وغيره وإباء .  
وجهاد في كل فضل، وحرية قول، وأنفس شماء ."

رحمك الله أيها الأديب اللبناني الشيخ نجيب الحداد، هل تعرفين مطلع القصيدة.. إنه :

ليس حب الأوطان في لبس خز، واختيال تغار منه النساء

أسبلت جفنيها وضعت يدها في يده، دعتة للركض حتى الشارع المؤدي إلى بيتها ، قفزت أمامه قفزات عدة، شدته لتستحثه على الهرولة، ركضا مسافة طويلة، أخرج منديله وجفف عرقها. مسح وجهها ورقبتها وخلف أذنيها وصدرها ثم قبل شعرها الندي وقبلت خديه. شعر بشفتيها الرطبتين المكتنزتين. شعرت برشاقتها فشمرت عن ساقها وركضت أكثر. تعبت وتكومت على الأرض. قعد إلى جانبها. طلبت يده لم تستطع النهوض، أحست بألم بسيط يسري في قدمها اليمنى، حاولت النهوض ثانية، صرخت من الألم وقالت :

- دعني أرتح، قدمي لا تساعدني على المشي .

حاول دفعها إلى الوقوف والمشي ولكنها عادت وقعدت، قالت آخ ممطوطة وطويلة وكررتها مرات عدة ثم قبضت على قدمها :

- إنها تؤلمني، كاحلي التوى، شد قدمي قليلاً .

الألم يتضاعف وحبات العرق تتسرب إلى جسدها، نظر إليها وهي ملقاة على الأرض، مد يده وحاول إنهاضها فلم تقدر. حملها بين ذراعيه، شعر أنها خفيفة، تسلل إليه دفء جسدها ونعومتها، حرك يده فاكتشف أنها ترتدي فستانها على الجلد مباشرة. أحس بروحها و اختلاجاتها، إنه يحتضن جزءاً غالياً عليه، عاطفته الرقيقة

حاول إبعادها، الموقف الإنساني لا يسمح له بأكثر من حملها وإسعافها إن أمكن،  
قارن بين سمرة وجهها والأرض، رفع رأسه مزهواً، فتحت عينيها على سهول الحنطة  
التي تنبت في كل مكان، البحر يغمرها بأواجه ويهبها شعاعاً ودفناً، تحرك النسومات  
فستانها، ونغمات مفعمة بالموسيقى تأتيها، نظرت إلى وجهه فإذا الأفق يعطيها  
دفعة حياة وأمل .

كانت الصورة بالنسبة له مختلفة فتاة أمام عالم أسود شرس، السماء صفراء  
والنجوم زرقاء وسوداء أما الجبال فذات لغة بكماء، الأرض كتلة تراب متناثرة أو  
متحجرة، تخلص من هذه الصورة ومن هذا الهاجس، حرك رأسه، فإذا بها تحديق إليه .

أغمضت عينيها، هي الآن أقوى من أي وقت مضى، تمنيت أن يظل حاملها  
لتسعده طوال حياته، فتحت عينيها، الأفنان تتماثل بينما آخر خيط من نور الشمس  
يبتسم لهما. بدأت تتحسس جسدها، قدمها التي تؤلمها ستوصلها إلى أماكن بعيدة،  
ستنفذ مهمات خطيرة، ستسافر إلى الأردن كما طلب وتحمل رسالة إلى قيادة  
المقاومة وتأتيه بوحدة. ارتفعت يداها ثانية، لكن هذه المرة إلى صدرها، تحسست  
برتقالي يافا، توثب نهداها وصارا أكثر قساوة، ابتسمت. نظرت إلى وجهه فوجدته  
سارحاً، وحد المساء ما بين جسدها وغياب الشمس، تأمل انحناءته وتضاريسه،  
ذكرته بوصال والماضي، لكنه استبعد تداعياته لحظة كادت تسقط من يده. شدها  
أكثر إلى صدره. ف شعر بأنوثتها وحرارة ملابسها .

قعد على الأرض يتخلص من انفعالاته وهواجسه، ارتاح قليلاً، شبكت يديها  
وهمست في أذنه، أحبك!

أسند رأسه إلى شجرة قريبة، فتحركت غيوم الخصب في رأسه، وشعر أنه يقبل  
الأرض السمراء لحظة قبل شفيتها، هطل مطر غزير لحظة العناق وغرد عصفور،  
تمنت أن تظل الخضرة والزرقة تسورها وتحملها إلى فضاءات رحبة لا أعداء فيها،  
أحست أنها قريبة منه أكثر من أي وقت مضى، بعد مدة ليست طويلة شعرت أن  
ألمها يتلاشى. فقالت :

- دعني هنا سأعود وحدي .

- هل تخجلين ؟

- لا أريد أن أتعبك أكثر .

تركها تمشي فأشارت بيدها إليه، مازالت تتألم. لا بد من بقائه معها وإصالتها



إلى بيتها، تحسست قدمها فشعرت أنها كبرت وانتفخت، كما شعرت أن نهديها كبرا أيضاً، وأن حبها كبر .

دهمها شعور بالعزة تأملت الطبيعة وسرحت بفكرها في عالم خيالي، أحست باختلاجاتها وبدققة فرح أنتها مع الريح التي أخذت تداعب نسيماتها شعرها. ضغط على يدها ليعيدها إلى الواقع، رفعت رأسها وحدقت به وقالت :

- هل رأيت فرح الطيور وسمعت زقزقتها ؟

- ليس هذا بل زقزقة أشياء أخرى .

نظر إلى الأفق، لسمع ويرى حيور العصافير وشدو البلبال، أما في البعيد فقد استعد الفلاحون للعودة إلى بيوتهم فرحين، حركت النسائم التي اشتدت قليلاً أوراق الأغصان وجففت جبات العرق، كما ذكرتهم الشمس المختبئة بين الأغصان بالوقت.

- الطبيعة تضحك لنا، الآن عرفت أن لك قلباً !

- وهل هناك عاشق يعيش دونه ؟

- أنت قبل هذا المساء .

أصبت نصف الحقيقة، لقد غيرت رحلة العودة الكثير، رمقها بنظرة فضحت أسراره، رفعها عالياً قرب شفثيه وقبل شعرها الداكن. شعر أنه سيحملها بين أضلاعه، ستصير جزءاً منه، تتوحد به، وربما تنسيه قصة حبه مع وصال أو يتناساها، وربما يكملان بعضهما بعضاً. لقد زرعت له قلباً بصمامات جديدة وبدم جديد، قلباً يرفرف كالطائر ويخفق كالعلم، لكنه غير قادر على الطيران بدونها. سيحملها في فكره، رفعها بين يديه وتأمل وجهها الباش، تأمله وهو يقطر عرقاً، نشف عرقها هذه المرة بطرف كم قميصه ونشفت عرقه بمنديلها .

لحظة واحدة أدرك أنه يحمل الحياة، يحمل حبه وسعادته، وأن عبلة ملهمته وعشيقته وكل ما بقي له في هذه الدنيا، هي نصيبه من حواء، خمنت ما يدور بخلده، عرفت أنه حملها ليس بين ذراعيه فقط. بل في فكره ودمه. البسمة لا تفارقها على الرغم من ألم قدمها. ظلت طوال الطريق تدقق النظر إلى وجهه وعينييه، فاكتشفت أن فيهما حناناً ومحبة تكفيان بنات القدس، فكيف إذا كان ذلك لها وحدها، أفلتت الكلمات منه، قال :

- أحبك يا عبلة كما أحب هذه الأرض كما أحب النسمة التي تهب علينا، وكما

أحب آخر خيط من الشعاع، وكما أحب بيتي وأمي وأبي وأخوتي، أحبك لأنك  
الإنسانة التي استطاعت إعادة تكويني .

انطبقت شفته على شفتيها في قبلة طويلة، لم يعرفا كيف تخلصا منها، دهما  
حرج مسحت فمها بيدها اليمنى ولم تعلق شيئاً بل واصلت النظر إليه .

- تصورت أنك لن تحب أبداً وأنت قاس كالصخر، لاتقل شيئاً. دعني أر  
ابتسامتك، احملني كما تحمل الكتاب، كما تحمل الأفكار التي نناضل من أجلها،  
أحملني فأنا خفيفة كقشة، كم حلمت بلحظة كهذه! لو أعرف أن حادثة كهذه لها كل  
ذلك، لفعلتها منذ زمن، وكسرت قدمي .

كاد ينسحب، لولا أنها عجلت قرع الباب، فتحت أمها :

- هذا عمر القاسم " ياما " حدثك عنه، التوت قدمي وحملني مسافة طويلة، ولا  
يريد مما لحتنا!

- أهلاً يا ولدي. تفضل البيت بيتك .

دخلت تحجل على قدم واحدة وتكومت على الكرسي، قدمت الأم الشاي وسألته  
عن سكنه وعمله. تدخلت عبله وقالت :

- تصوري، سيرتك القدس ويذهب إلى الأردن للالتحاق بالعمل الفدائي!

- " يا شحاري "، ما عاد عرفنا الصحيح، شددنا ظهر بالعرب، طلعوا بعيد  
عك تنك!

- والله يا أم عبله إذا لم نحمل قضيتنا دائرة في أعناقنا، فلن يحملها أحد نيابة  
عنا، ادعى لنا بالتوفيق .

رفعت أم عبله يديها وتمتمت " الله يقدم الصحيح " .

عاد إلى بيته مشياً، لقد تملك تفكيره، صارت زاده وماءه وهواءه، حبها جعل  
قلبه ينهص من سباته، مواعيد الغرامية تعارضت مع اجتماعاته وعمله، تأخر مرات  
عن البيت وعن رفاقه، لم يسألوه عن السبب، فقد تذرع بأن ذلك حصل لأسباب  
خارجة عن إرادته. حاصره حبها وغيرتها. يدعوها أن لا تغادر حتى لا تفسد كل  
شيء، ناسياً أن المرأة تفارقها الحياة لحظة تتخلى عن غيرتها .

ذات يوم جاءته عابسة، نسيت ابتسامتها خلفها، بدت شاحبة الوجه، حاول  
ملاطفتها ففشل. وعندما هم لتركها نادته قائلة :

- مع من كنت البارحة ؟

تذكر أنه ذهب إلى المسجد الأقصى، وجد سياحاً، اصطحب بعضهم إلى بيته وهناك قدم لهم وجبة وشرح لهم شيئاً عن القضية الفلسطينية وأخذ عناوينهم. سألها:

- ماذا تقصدين ؟

- رأيتك مع فتاة شقراء، تقترب منك، تبتم كعصفورة تستظل بدوحك!

- كم حاولت أن تكوني مميزة... خطوات خطوات لكن مازلت الغيره المقاتلة تطاردك، هل هذه أول مرة آتي بالأجانب إلى بيتي؟ إنهم سفارؤنا في الخارج إذا اقتنعوا بشيء يدافعون عنه. في بلادهم كل شيء جائز، هناك الحرية الصحفية، يستطيع الإنسان التعبير عن رأيه والإدلاء بوجهة نظره.

- اطلب مني ماشئت، إلا أن أنسى أنني أنثى، والأنثى التي لا تغار بلغت الشيخوخة واليأس حتى ولو كانت في العشرين !

- إنها فلسفة التخلف. من لا يمد بصره إلى الأمام والأعلى، لن يعرف قيمة الفكر، المرأة التي لا تفكر إلا بجسدها رحمها الله .

مد ذراعه ليقربها إليه، أبعدت رأسها وقاومت. مسحت دموعها، فاقتصص الفرصة واغتصب قبلة لها مذاق السفرجل. أقلقه ما حصل قبل لحظات، فكر كيف سيقترن بوحدة تعد نبضات قلبه وتحاسبه. إنه لا يريد أن يدافع عن نفسه حتى لا يخضع لدائرة الاتهام. مازال في بداية الطريق. عيناها ترصدان الضوء لتأخذا كفايتهما من الدفاع والنور والحب .

كان عليه أن ينسى فعيلة إنسانة حتى لو أخطأت، أنها فضاؤه وأحلامه، الجبل الذي يحلم بالصعود إليه كما صعد قاسيون، الأرض الخصبة التي تنبت الورود والرياحين، البرعم الذي يولد الأمل ويجعل القلب يدق أكثر، حاول أن يكون صديقها، أن تكون كغيرها من الفتيات، لكنها تمردت على تفكيره، قرأ في عينيها سفر العذاب، هل يمكن أن تحمل فتاة مثلها آلام شعب على ظهرها ولا تتعب !؟

صبارها طعمها يعود كرمة، فتحولت إلى دالية يتلذذ بتذوق عنبها، سندیانة يعلق عليها مستقبله، زهرة تعطر حياته كنبته " الكالونيا " التي رآها في بيت وصال، يومها قالت له، بأن واحدة منها تكفي، تعطي رائحتها مع اقتراب المساء، هل تشم عبيرها .

في الأيام الأخيرة نزل وزنها ستة كيلو غرامات، فبدأ.. خصرها كالعنق، نهذاها تراجعا حتى بانا بيضتي حمام، تشققفت شفتاها واحمر أنفها أصيبت بالزكام وصامت

عن الطعام. مديده فهرت أزهار الكالونيا على الأرض، تطلع إلى الأزهار المتبقية التي تشبه العناقيد فرآها وقد أغلقت فمها، أنه يعرف سر ذلك، أبلغته بأنها تحجب عطرها في النهار. تعلم أن المحبين يسهرون ويتوجعون ومع السهد تهب عليهم نسائم تجعل أفئدتهم تشع. كانت إلى جانبها على الشرفة التي تستقبل نسائم قاسيون نبتة مليسا صغيرة مزهرة زهراً رباعي الأوراق، يأخذ اللونين النيلي أو الأبيض وما بينهما، لأغصانها تفرعات ثلاثية وعلى كل فرع أفنان أخرى، قارن بين أوراقهما فرأى أنهما متشابهتان في الشكل، وإن كانت ورقة الكالونيا أعرض قليلاً. في ذلك المساء المعطر قطفت وصال بعض أزهار الياسمين البيض، وضعتها بيده، تذكر أنه عمل عقداً من الياسمين وضعه في أحد كتب ساطع الحصري التي تحكي عن القومية العربية .

ذكرته عيلة بأيام دمشق حين حدثته عن الورود الشهرية والنباتات الشوكية ذات الأشعار والأوبار والإبر التي تقبع في أصص، كان على شرفة بيت أبي رمانة أربع نباتات موضوعات في أقصاها، لإحداهن نورة حمراء تتفتح في الأسابيع الأولى من شهر أيار، من يراها يظن أنها خارجة من الجنة، تظل ترسل أنوارها طوال الصيف بمعدل كل يوم ثلاث نواوير. النوع الثاني كروي مقسم إلى ثلاثة عشر قسماً خرج منها أربع زهرات مدت أعناقها إلى الأمام والأعلى أشبه بطائر يرتفع ليصل إلى الأشعة الدافئة. يومها علق عمر على ذلك :

- أزهار الشوكيات تمثل بروعتها أجمل منظر يراه الإنسان في عالم صحراوي قاحل من الأفكار.

أحضرت عيلة بعض الأصص لتزرع بها نباتات الزينة، طلبت مشورته حول النبات التي ستزرعها، فعدد الياسمين بنوعيه البلدي والعراتلي، الدادأ، الخباز، الشمعة، الشاشان، الوردة الدمشقية. نظرت إليه فاستمر يعدد أسماء النباتات التي عرفها في دمشق، الشمشير، قلب عبد الوهاب، حُسن يوسف،

- ما هذا لم أعرف أنك مثقف في الورود وأنواعها!

- الثقافة كل متكامل، لم تعرفي بعد حدود ثقافتي. إذا تركت الكتاب يتبلد فكري، الإنسان بلاتقافة كالمرأة بال زينة، إذا ظهرت شخصيتها على ما هي عليه تخجل وتفقد جاذبيتها .

أخبرها بأن أمامها مهمة إلى الأردن سيدئها بتفصيلاتها فيما بعد أم المهام الصعبة كم مرة سافرت وعادت وهي تحمل معها في الذهاب والإياب المحرمات

السياسية! إن لها قلب عنتره في مثل هذه الموقف، ولها قلب من الشمع يذوب لأقل كلمة عشق، ولعل سبب عدم اكتشافها على الحدود بقاء المهمة سراً بينهما، لم يصرح باسمها ليضمن سلامتها واستمرار ذهابها. يعلم بأن للدولة عيوناً وأذاناً لا تغفل، تراقب وتسمع وتندس، وفي اللحظة المناسبة تنقض .

بعد الاحتلال لم يجد بديلاً لسفرها عبر مخاضة نهر الأردن، أو الطريق العام حسب المهمة، لأنه لا يستطيع السفر براً. مطلوب على جانبي الحدود. دهمت السلطات العسكرية الإسرائيلية بيته ولم يجدوه، وعندما ملت التفنيس، أبلغوا أهله بأن عليه أن يسلم نفسه في أقرب وقت، ولأقرب مخفر، سألته عبلة مازحة:

- هل تنوي تسليم نفسك!؟

- هل هناك عاقل يدخل السجن بإرادته، لا شيء يمكن أن يقدمه سوى المعتقل، حتى لو تركوني سيحاولون إهانتني، بطلبهم كتابة تعهد عدم العمل في السياسة، وأنت تعرفين بأنني لا أستطيع فعل ذلك ولو على سبيل التكتيك .

عمر مشغول هاجسه بناء تنظيم مناهض للاحتلال، يستطيع تحريك الجماهير، التي دفنت أفرانها، وهي مشغولة معه اتصلت برفيقاتها والوجوه الوطنية للسبب ذاته. حقق الاتصال مع القوى الوطنية وحوارها قفزة نوعية بإعلان ولادة جبهة النضال الشعبي التي ضمت إلى جانب القوميين العرب كلاً من البعثيين والشبيوعيين.

مهامها بعد الاحتلال كبيرة وكثيرة، والأعمال التي تقوم بها لا تحصى. تتأخر عن بيتها، تتعرض لأسئلة أمها، أين ومتى وكيف؟ خائفة عليها من الشبان الذين لا يخافون الله، أكثر من مرة عبرت عن ذلك بكلمات مقتضبة خجولة :

- " ديري بالك خليك قد حالك "

وعندما صرحت في إحدى المرات علانية، أقامت الدنيا، بكت كثيراً، أما أمها فاضطرت إلى تهدئة انفعالاتها:

- أنا أم يا بنتي وعندما تصيرين مثلي، لن تسمح لي لابنتك بالتأخر، وإذا تأخرت ذوى قلبك وشغلت فكرك .

- لا يا أمي العظيمة، لست أنت التي تقولين هذا، اقلني الباب وخذي المفتاح، ودعيني أمت وحيدة .

عادت الثقة عندما صرحت لأمها بأنها أخت الرجال، ولم يمسهما أحد بسوء،

وإنها تحضّر لعمل ضد الاحتلال .

في ذاك المساء الذي سيسافر فيه، مر على بيت عبلة ووعد أمها أن يخطب ابنتها في أقرب فرصة. رافقته حتى نقطة الحدود وقريباً من المخاضة ودعها، قال لها :

- أنت إنسانة رائعة، صنوبرة، أوصيك بأمك وأمي .

بكت وطلبت منه أن يدعها تعبر معه، عبرت عن ذلك بقولها :

- خذني صديقة، حبيبة، زوجة إن شئت، لا تدعني، سأموت وأدوي كما تذوي الزنايق والأزهار البرية في أرض عطش. أنا نبتة بحاجة إلى الماء والهواء والترية، كيف تتركني وحيدة؟!

قبلها بعد أن تأكد من خلو المكان " هذه زادي، عودي أيتها الصديقة الحبيبة عودي وقولي لهم، لقد بدأنا النضال، سأعود لأبني القواعد، سأعود إليك، أنت روعي، عودي وقولي، لن نركع"

لوح لها بيده وعندما صار على الجانب الآخر من النهر، دعاها إلى العودة، قعدت على الأرض وبكت، فاضت عيناها بالدموع فرفدت الأردن. بعد ساعتين من البكاء المتواصل، شعرت بالدوخة وآلام الرأس. نهضت وهي تجفف دموعها الهائلة دون إرادتها.

## - الفصل العاشر -

السماء ترقص بما تحمل في جعبتها من كتل سميكة تتجه شرقاً، غيوم تتسج خلفها مجموعة مراع، أغلب سحب شباط تنقش بسرعة وبعضها يختلط بهبوب الصحراء، فتحمل معها إبريقين أحدهما تتصل فوهته بالبحر والآخر بالمد الرملي القادم من سيناء والنقب، هذه عسقلان التي تحتويها المدان، مدّ من الغيوم ترتفع حتى تتلاشى ومد من الرمال التي تستوعب ما أمهامها. تتوحد فيها متناقضات الطبيعة الماء والغبار، ويجتمع في هذا الشهر فصلا الشتاء والصيف، وكما تختصر المعادلة الرياضية بقسمة حديها على عدد واحد، فقد اختصرت المسافة ما بين البحر والرمل في جسدها. من بعيد تتجه السحب الرملية غرباً وشمالاً، مدّ لا نهائي من البحر الرمل الخالي من الارتفاعات والانخفاضات في ظل شروط سيئة، ترقص الرمال عطشى وهي تقترب من المتوسط، تفرد حباتها المكتوية بحرارة الشمس فراشاً ولحافاً، الشمس التي استيقظت قبل كل الناس، أخذت بعض أشعتها من تلك الرمال المتوهجة .

تلك كانت طبيعة المدينة البرمائية، طبيعة خلقت بشراً أخضعوا البحر والصحراء. ركبوا المدّ البحري حتى وصلوا إلى شواطئ أفريقية وأوروبية، وركبوا مدّ الصحراء حتى وصلوا إلى ايجبت. أشكلون تلة غازلتها الذكرى، كما غازلها البحر ملايين السنين، تقع بين قلبي أشدود وغزة، وفيها سجن كان مركزاً بريطانياً أيام الانتداب، مساحته الداخلية حوالي تسعمائة متر مربع، فيه ملعباً سلة وطائرة، وبداخله نحلة غير مثمرة يقال إن الانجليز قطعوا أحد جذورها القوية، فطار ثمرها منذ ذلك اليوم. ساحته المربعة مسورة بقناة ورصيف حيث توجد أقسام السجن، وهناك ساحة ثانية فيها غرفة للضباط وأخرى للحراسات والمخزن وغرفة العار، فيه ركن خاص بالتحقيق تحت إدارة المخابرات. سجنائوه من غزة والشريط الساحلي الجنوبي، باستثناء الدفعات الأولى من افتتاحه، التي أحضرت للتأديب. أفتتح في الثاني من شباط عام تسعة وستين وتسعمائة وألف بقرار من الكنيست. في الدفعة الثانية من العام ذاته حل عمر القاسم على عسقلان مقيماً.

انعطفت السيارة الزنزانة يساراً واستمرت سائرة، العصابة السوداء على عينيه إلا أنه خمن الطريق السائر عليها. لأن انعطافها وتحول الجهة التي تدخل الشمس منها يعني تخطيها لمدينة الرملة واقتربها من البحر، الرطوبة والحرارة تدهمه، والنسمات اللطيفة التي تتحرك بفعل سير السيارة تتسلل من النافذة الغربية، ضوء الشمس يدخل عبر القضبان، العرق يتصبب منه، إذا كانت هذه حرارة بدايات الربيع فكيف ستكون في تموز وآب! السيارة تتابع طريقها بطيئة لا تتجاوز سرعتها الأربعين، بعد أربع ساعات ونصف وربما أكثر توقفت الزنزانة المتحركة. لم يخطئ ظنه حين تخيل أنها تسير محاذية للبحر، فعلى الرغم من ثقل الشريطة العمياء، إلا أنه أحس برطوبة البحر وشدة الحرارة مترافقة بهبوب ريح غربية خفيفة وهدير الأمواج.

خلعوا العصابة عن عينيه، دنيا جديدة تتفتح أمامه، البحر بكامل جسده وفتوته وعظمته ورعونته، بكل ما فيه من حياة ومرح، الشمس تلقي بكل ثقلها، يستعد لضمها ومضاجعتها لتذوب فيه. شمس داخت من سفر السيارة والطويل، انهزمت إلا أن جاذبية الأرض هي التي أبقته ملتصقة ما بين الهواء والماء لحظة العناق. البحر جسد ينزف، يصبغ شفثيه بالأرجوان، شعره كتلة تتراخي على الشاطئ، ذرا نهوده زيد حارق، الرذاذ المتساقط دموع سحابة ولود، هبت ريح حاره، مسح عرقه بكتفيه وترك النقاط الهاربة تجد طريقها عبر خطين من الجبهة إلى الرقبة فالصدر مادة سكة قطار عبر بنطاله تاركة بقعة ماء عند كل قدم.

البحر نسيج أسطوري ملاً جيوبه ماء وفمه رغو، جدف بيديه ورجليه ليصل الشاطئ، وعند بلغ الرمال توسخت ثيابه، تراجع إلى الخلف ليسغلها، لم ير نفسه إلا وسط هديره، بينما الساحل بعيد عنه كيلو مترات. قرع دماغه فنبه قواه الحسية، التي جاهدت ثانية للوصول إلى الرمال. هناك تبلل وتوسخ ونسي ذاته فعادت دورة الزمن. أصابه الدوار، ومازال كذلك يشكو آلامه منذ ملايين السنين، تمدد على فرشة كبيرة تلف جسده بعد الغروب، ظل مستيقظاً يساهر القمر.

كان يمكن أن يقول شعراً، لو استمر ينظر إلى البحر ويستقرئه، أصوات تناديه، لم يرد، دفعه جنديان، تسمر مكانه، فكواقيده. مازال يعيش لحظة العشق، يراقب البحر وغياب الشمس والسماء وبعض الطيور الهادئة. ناداه الشاويش تريدانوا، تقدم منه ولطمه على خده، فما كان منه إلا ردها بقوة. فتكوم الشاويش عند قدميه. أدرك أنه اقترب غلطة سيدفع ثمنها غالياً، لم يتركوه إلا عندما وقع على الأرض. الدماء تنزف من أنفه وفمه، عندها تركوه ينام ليله في العراء مقيداً. صباحاً جاءه تريدانوا ومعه جنديان، لكزه ثم بطرف قدمه رفسه قائلاً :



- قم اخلع ملابسك أيها المجنون الذي تطاول على أسياده .

أشار عمر إلى القيد الذي في يده، تقدم جندي وفكه، نظر إليه تريدانوا وأردف:

- سنرى بطولتك الخرقاء إلى أين توصلك. ثلاثة أسابيع مع طلب الزيادة في المنفردة، مع ثلاث وجبات دسمه لجسدك. أنت أول من فعلها، سأقطع يدك التي امتدت حتى تصير عبرة. أعطاه العسكري ملابس السجن الصيفية ذات اللون البني الفاتح، مازالت آثار الضرب تؤلمه الكدمات تملأ جسده، عاد النزف ثانية، دفعوه إلى الزنزانة ثم أغلقوا الباب خلفه.

الزنزانة عرضها ثمانون سنتمترًا وطولها متر وستون سنتمترًا، جدرانها صفراء وارتفاعها متر وسبعون سنتمترًا، أقل من طوله بثمانية سنتمترات. لا يستطيع الوقوف فيها دون إحناء رأسه، ولا التمدد دون لف القدمين الواحدة على الأخرى. يمكن القرفصة أو القعود ومدّ رجليه، لكنه كان متألماً. انبطح على بطنه الذي كان أقل جروحاً من سائر جسده، راقب المارة وحركتهم من أسفل الباب حيث ترك سنتمتر أو أكثر بقليل ما بين أرض المنفردة وبابها، ظل كذلك مدة يجهلها بسبب نومه المتقطع. شعر بحاجته إلى التبول، دق على الباب:

- أريد أن أبول .

- خذ هذا " الكردل " و إبقه عندك لقضاء حاجتك .

قرع الباب ثانية، فتحه العسكري، فطلب ماء ليشرب. أجابه العسكري .

- أفتح فمك .

- أطلب ماء وأنت تقول افتح فمك، هل هناك طريقة جديدة للشرب!

- ستري!

أسرع إلى الحنفية فتحها ومن مسافة متر قذفه بالماء فدخل جزء منه في منخريه. عطس وكاد يختنق، مسح بيده الماء، فشعر بلذته على الرغم من عدم شربه، بعد ساعة أو أكثر قليلاً دق الباب من جديد وطلب الماء. أجابه العسكري:

- لقد شربت قبل ساعة. بعد ثلاث ساعات مسموح لك طلب الماء من جديد

- هل تسمي رشي بالماء شرباً ؟

- غير مسموح بالاحتجاج، إياك والرد ثانية. وظيفتك الإجابة بأدبوني .

ثلاثة وعشرون يوماً بالمنفردة، يغازل الشيطان، يتلمسها، يقرأ ما هو محفور عليها " ثورة حتى النصر. دمننا حديد ونار، وحدة تحرر ثار. بسم الله الرحمن الرحيم وباسم العروبة " في الأيام الثلاثة الأولى ضرب حتى أغمي عليه، وظل هذا المسلسل حتى نهاية الأسابيع الثلاثة.

عندما يذكر الأيام يتذكر شروط السجن القاسية. ثلاثة أسابيع ويومان معادلة لسجن ثلاث سنوات، غير مسموح له بالخروج ولا بالأكل والشرب إلا وقت يريدون، لم يستحم ولم يغسل وجهه ويديه، رائحة البول والبراز الواخزة تسدّ شرايين تفكيره، وعندما يذق على الباب للتخلص من القاذورات، يأتيه الجواب، نحن الذين نقرر عليك الطاعة العمياء. كانت كريات وفتائل العرق تتكور بمجرد مرور يده على جسده. حيوانات غريبة ترعى في هضاب جسده وتفرعاته، يضع يده على رأسه فتصبغ باللون الأحمر والرائحة الكريهة. أهو البق أم القمل أم البراغيث؟ أم كل هذه المخلوقات وغيرها، منها الزاحفة التي تنتشر في كل مكان تعشش في الشعر وتحت الأبط، ومنها صغيرة سريعة القفز، ونوع لا يهاجم إلا ليلاً كرية الرائحة. كان عليه أن يتسلي بقتلها، يفتش ملابسه يقصع ويلحق ويهرس ثم يفرك يديه، فتننتشر رائحة كالغائط، عند الأكل يفرك يديه ببعضهما ثم بملابسه، وعندما يتأكد من صلاحيتهما للأكل، يتناول طعامه خلال دقائق معدودة. بعد أن انتهت مدة السجن الانفرادي وأخذ يتمتع بحقوقه كسجين، يستعد لزيارة أهله بين لحظة وأخرى، فكل شهر يحق لأهله زيارته، وقد أمضى شهر ولم تأتي أمه، التي رآها آخر مرة تهتف في نهاية المحاكمة وتندفع تجاهه، ترفع إصبعيها وتصيح " فلسطين عربية "، تصورها وهي بكامل صحتها تبتسم وتقول له " يما عمر السجن للرجال وأنت أولهم"، يكفي أن يرها مبتسمة، أمه تهبه قوة وشجاعة، سيرها مدة عشر دقائق، هل تأتي عيلة معها، وإذا أنت فبأي اسم من أسماء شقيقاته، لم يرهق تفكيره، أمه قادرة على فعل الكثير. بعد أربعة أيام من الترقب جاءته للزيارة، طلب إلى غرفة الإدارة، خلع ملابسه كاملة. بعد تفقيشها عاد وارتدّها ثانية، ثم قاده اثنان إلى غرفة مستطيلة، كانت بانتظاره، وقتت عندما رأته داخلاً قبلته على الرغم من الطاولة التي تفصل بينهما. نظر إلى وجه أمه الملائكي، سألها عن أبيه وأخوته وعن عيلة. أجابت بأنها في الخارج الزيارة فقط للأهل. طلبوا هويتها وأبقوها عندهم، وعدته أن تسوي الأمر مستقبلاً. دقق النظر إلى عينيها فاكتشف حزنهما والماء الهاطل منهما، إلى ثغرها والابتسامة الميتة المحنطة عليه، إلى حزنها الدفين في قلبها وارتجاف جسدها. فجأة امتدت يد إليه واقتلعت من مكانه، بينما الشاويش زيتون يعلن انتهاء وقت الزيارة .

عاد إلى واقع السجن، يعيشه، يتكيف معه، يحطم المعتقل عنفوانهم ويذلهم،

يدفعهم لفقد عقولهم، ومن أجل ذلك هيأت إدارة السجون إدارة اختيرت كما أغاني ما يطلبه المستمعون من كل قطر أغنية .

مدير السجن حيوت مراكشي يعتبر اليهود متفوقين، لديه عقدة الأنا. عندما ترك المغرب لم يودع أحداً، وعندما طلبت إليه أمه أن يودع جيرانه وأصدقاءه وزملاءه الذين درس معهم، أجابها:

- أودع من يا أمي، هؤلاء العرب والبربر الذين لا يستحقون الحياة !

عند آخر درجة نظر حوله ثم أشاح ببصره بعيداً، بصق في الهواء، ووعده نفسه ألا يعود إلا فاتحاً .

نائبه هايمن من المانيا يجمع عقدي التفوق الألمانية واليهودية، يكره العرب ولا يطيق سماع لفظة عربية، وجهه أحمر، أصلع، عيناه مفترستان تظهران خلف نظارة سميكة. ضابط الإدارة موشي بن مؤام مصري يتكلم العربية بطلاقة طويل عريض المنكبين يلقبونه "حمار شغل" لبقائه في العمل وحبه له. أما طاقم الحرس والشرطة، فعلى رأسهما الشاويشان زيتون وتريدانوا اللذان أعطيا الأمر الدائم بإهانة السجناء وضربهم .

في السجن حالة سكون مخيفة، نظام يجعل كل سجين يللم ذاته، لا مجال للظهور بغير مظهر الذل والمهانة، في الفورة يخرجون وأيديهم خلف ظهورهم، كل اثنين يمشيان دون أن يحدث أحدهما الآخر، يمشيان خطوة خطوة يلفان الساحة، يعيدان الكرة مرات ومرات، البنادق مسلطة عليهم، السجناء والشركة يراقبون كل تصرف، أشبه بثيران الحراثة التي عليها أن تعمل بصمت. يرتدي السجناء اللباس البني الفاتح، الأزرار واضحة، حتى الزر العلوي الذي يكاد يخفق الرقبة، وزرار الأكمال .

لباسهم الموحد إن كانت له ميزة فهو إشعار الجميع أنهم في مرتبة ذل واحدة، أبناء أم وأب واحد، لا فرق بينهم لولا التباين في لون البشرة والعنق وطريقة الحديث، السجناء مفروض عليه أن يتكيف مع حياته الجديدة وأن يخلق نوعاً من العلاقة مع الحيطان المفروضة عليه ومنظرها الذي لا يتغير طوال سنوات، فعلى كل سجين أن يهيء نفسه ليعيش حياة طويلة مع موجودات المعتقل، حتى الحارس مضطر أن يتفاهم معه ويحاول أن يغيير نظرتة بالتعامل الجيد، فيجد لغة تفاهم. وعندما تسد الطرق أمامه يظل طريق لأبد منه، تعاضد السجناء وفرض احترامهم.

لكن هذا يكلف كثيراً، لاشيء يمكن انتزاعه بسهولة، إذا أراد أن يشرب ماء،

فإن الحصول عليه يكلفه جهداً كبيراً في الأيام الأولى. إذ يحاولون تخلص السجين من فتيل التمرد الذي في داخله، يخلصونه من كل شيء جميل ورائع. يروضونه لقبول الذل. يحولونه إلى آله، فلا يعود يفكر إلا بذاته يفكر بأنه رقم، والأرقام لا تتحدث إلا عن ذاتها حانية ظهرها مطيعة .

السجين أمامه وخلفه وجانبه أسوار عالية وغرف رطبة وموت يرقبه كل لحظة، وعلى الرغم من ذلك عليه أن يتفاعل. أن يخترق خياله سماكة الجدران وارتفاعها ويحلق عالياً وبعيداً، يخلق لنفسه حياة، وإذا لم يجدها ينبشها من مخزونه. غنوا :

ياظلام السجن تبدد إننا نهوى النهار

غنى عمر أغني شتى، منها أغانٍ وأشعارٌ بالانجليزية والفرنسية وبعض قصائد شكسبير، المقطع الذي حفظه رفاقه :

O. MY DARLING

والمقطع الذي بدايته:

I LOVE A SUN BURNT CONTRY

A LAND OF SWEEPING PLAINS

رفع رأسه مازال يدندن، توقف عن الغناء، تذكر الاحتفالات التي شهدتها في صغره لأيام الخميس من شهر نيسان، إنه الخميس الثالث خميس البنات حيث تخرج الفتيات يجمعن الأزاهير البرية ويضعنها في الماء حتى صباح اليوم التالي ليغسلن شعرهن. أمه كانت تفعل ذلك وهو صغير، تصحبه إلى الاحتفالات حيث ينضم ببيرق القدس إلى بيارق المدن الأخرى. تذكر كيف كان يلعب كسر البيض مع إخواته طوال شهر الخمسان، تسلق أمه البيض، تضيف له قشر البصل فيصير لونه أصفر وردياً. يحمل البيض المسلوق ويخرج إلى السوق يصيح من "يطاقش".

أنفاس نيسان هجرت الكرى، أيقظت النائمين، غنت الأطيوار، ودقت الموسيقى، سهر الناس، شهر الخمسان شهر حب وطيب وسمر. وزع أريجته ثم ضحك ملء فمه مودعاً البرد، فاتحاً صفحة جديدة في سجل الاحتفالات والمواسم. حيث تدب الحياة في الموجودات، ها هي السماء حضن عذراء، والأرض تاركة عريها وأنوئتها مسرحاً للناظرين. أما البحر فأحس بالدفء بحب الآخرين، بدا قطعة مستوية بلا خيول ولا معارك، رافعاً يديه والزيد في فمه علامة استسلام للحب والمرح، عرضت ابتسامته ليحتوي بحبه الساحل، بينما خفت تيارات المد والجزر وصارت أكثر حناناً ووداعة ورقة، الشمس كغيرها أحست بالحياة وشبقها للموجودات، فانسلت تمطر أشعتها الدافئة وجهه اليابسة. الربيع يمد بصره يوزع عطاءه. الحياة صدر ناهد نهض

على حين غرة ليتخطى مرحلة الطفولة. زهور برية بيضاء وصفراء ونارية وليلكية، أرخت جفونها وجنونها على الروابي والساحل، أزهير تعيش بضعة أيام ثم تختفي ضامة بين جناحيها جمال الأرض وفتنتها فتخبئها لسفر سنوات قادمة. من بين الطلائع البرية تلك التي يسمونها شقائق النعمان التي تحكي قصة حب خالدة و عشائر بكل ألوهيتها وأنوئتها بحثت كالبلهاء عن حبيبها، فتشت عنه، تجرحت قدماها، نزا نوراً لطح هذه الطلائع التي أخذت على عاتقها إنهاء حالة الموت .

مازالت أفكاره تدور، تهيم كالريح كالموجة السابحة التي تتاغيا السماء والكواكب والمياه، لا تعرف عن مصيرها شيئاً، ولأنها ظنت نفسها خالدة، فقد صارت رشيقة. الأفكار كالجسد تحتاج إلى السباحة وإلى حمام على البخار. أيوب الجد الذي أصيب بأعنف الأمراض الجلدية وأسوئها، رمى نفسه في البحر ليتخلص من قذارته. حملته شفاه الموج وقبيلت كل موضع في جسده، فخرج معافى من قذارته وأمراضه .

قال أبو عروبة: ما أسهل صنع النصر يا جدنا أيوب، لقد أرادوا رمي " اسرائيل" في البحر فخلصوها من كل آثامها وعبوبها .

تذكروا صدر البحر الرحب، فقرروا الاستحمام، قالوا للإدارة هذه تقاليدنا إن شئتم منعنا من الاستحمام، خذونا إلى البحر وارمونا فيه. الابتسامة تتحول إلى تجاعيد على الجبهة، يتذكر العشق وأيامه وسنواته، يتصوركم هو بحاجة إلى كل لحظة من الماضي ليبتسم ، فلا أحد مثله يعيش مع هواجسه وهمومه. الجدران مرتفعة، عيلة تزوره كل يوم مرات، وإذا غابت عنه ساعات تعود أكثر إشراقاً وفتوة، تتخطى الأسوار، ينطلق معها، يتذكر حديثها وحبها للمستقبل، تذكر جوابها يوم قال لها، المستقبل نحن نصنعه، لكن مادته ليست طبيعة. نحن نعيش ذلك المخزون الذي يمدنا بمعين لا ينضب من اليأس، بكث وصفت حبيبها بالمتشائم، وكادت تفضحها بعض الكلمات لولا قدرتها على التريث، قالت: - ألم تقل نحن نصنع المستقبل

- أمل أن أحقق الحلم الجميل لك ولفتيات الوطن بلا استثناء، المستقبل يا حبيبي ليس كلاماً، ما أسهل التنظير وما أصعب الحقيقة !

- أسمع منك كلاماً غريباً، لا أحد مثلك ضحى من أجل حركة القوميين العرب، الوحيد بين المعتقلين الذي لم يوقع صك التنازل. الوحيد الذي تأخر ستة أشهر دون أن يحني هامته، أنسيت أنهم انسحبوا من الحركة عام ستة وستين إلاك .

- الحقيقة مرة، سامحك الله يا عيلة، ستعرفين أنك مخطئة، لكن ما فائدة ذلك إذا كنت شهيداً أو في إحدى الجبلية أو ميتاً، أما الأسر فلن أمكنهم من نفسي!

بكت ورددت: " لا تقل هذا يا حبيبي "

الزمن قال كلمته ورسم خطوط الطول والعرض ودوائرهما حول عينيه وفي شعره، هذه الدوائر التي تنهي مرحلة لتبدأ واحدة أسوأ. الزمن في الأشكال اللاهندسية وفي الشرايين التي تصلبت، وفي القلب الذي بكى ولم يجد من يضمده. شريط الماضي يعرض صوراً كأنه مغناطيس، تزدحم فوقه وتلتصق به، يمتلئ خزان الذاكرة دفعة واحدة تأتي النظرات والكلمات، أمكنه مرسومة بطرقاتها وأشجارها وفرحها تسيطر على فكره، لا تصمد هذه السلسلة، تنقطع وتتناثر لحظة اقتراب أبو عروبة منه وهمس في أذنه:

-أراك اليوم منطوياً على ذلك !

- بل الفرح فهذا نيسان يحمل احتفالاته ويوزعها في كل مكان ....

- إذن أنت على استعداد لمباركة ما سأفعله ... غداً ستري، إنه كما قلت نيسان فصل الحب والربيع والتمرد. الفصل الذي يهربي القوة والصبر والفرح لتحدي هؤلاء الخنازير .

تذكر أبو عروبة أعراس الأكراد في السليمانية واستقبالهم لهذا الشهر .

الأشجار خضراء والطبيعة تنتفس روح الإله وتبثها في كل مكان ريحاناً ووروداً وأزاهير برية، قريته " كردمري " تخرج ذات صباح شامخة قبل شروق الشمس، فتنلقى الشعاع، يسرح الناس ويمرحون ساعات عدة وعند الظهيرة يتناولون الغداء، ثم يبدؤون عرس الربيع احتفالاً بالحداد " كاوا " الذي انتصر . " كاوا الذي شلح قميصه وأخذ نصيبه من الشمس. شعر بقوته فلين الحديد بين يديه وشعر بحريته فقاد الناس إلى النور. سافعل مثله وأخذ نصيبه من الشعاع، وإذا احتج أحدهم فليفعل ما يريد. أنت تعرف أن الكردي يفعل ما يقول، وليقولوا ما شاؤوا ."

- سلمت يدك يا حفيد صلاح الدين الأيوبي .

عانق أبو عروبة عمر وقال: " نحن وأنتم مصير واحد " .

وجاء الشاويش زيتون وأمره :

- أنت يا حمار البس ثيابك

- حمار بعينك، ماذا حدث حتى تقول كلامك البذيء !؟

- أنت لازم تلبس قميصك ؟

- لا، أنا لازم أخذ شمس .
- أنتَ سجين وممنوع حتى فك الأزرار أو طي الكم .
- أنا أعلم، لكن ماذا يحصل إذا أخذت شيئاً من حرارة الشمس؟!
- القانون لا يسمح.
- الله أعطانا الشمس، النور والحرارة للناس جميعاً، وهذا قانون الله، قانونكم غير إنساني، غيرهه !
- قانوننا إنساني أيها الكلب، إنساني لأن إسرائيل وضعت، أما الشمس والفلسفات الأخرى فنحن قادرون على تعويضك عنها .
- كيف؟
- بالحبوب والأدوية .... تجيب لا، هيا إلى الضابط هايمن.
- كان يستمع إلى نشرة الأخبار، عندما تقدم منه الشاويش زيتون وقدم له التحية، اعتدل في جلسته، أخفض صوت المذياع واستمع إلى ما قاله الشاويش، أغلقه ولم يتم سماع الأخبار. سأل أبا عروبة :
- ما القصة؟
- حدثه أبو عروبة عن جده " كاوا " وعن رأيه بالشمس وتطرق إلى فصل نيسان واحتفالات العراقيين في هذا الفصل ... تدارك هايمن ذلك بقوله :
- من أين أنت؟
- أنا من أكراد العراق .
- ما الذي دفعك إلى المصير البائس !
- قضيتنا واحدة.
- بل قل إنه الجوع والرعونة اللذان دفعاك إلى هذا المصير .
- دافع عن إيمانه بالكفاح المسلح والجهاد طريقاً للتحرير .
- طيب وخلعك قميصك أمن أجل التحرير؟ أنت كردي بحاجة إلينا، أنتم ونحن أقلية هل قاتلناكم لتقاتلنا، ستكتشف مستقبلاً بأننا أصدقاء، خذ من وجهي يكفيه أربع أيام بالمنفردة .
- جلس السجناء جميعاً على الأرض، تعروا من قمصانهم تضامناً مع أبي

عروبة، نظر الشاويش إليهم بعين الغضب. تحدث بالهاتف وطلب الإذن باختصار الفورة. فجاءه الرد أفعل ماتراه مناسباً لإنهاء حالة الشغب. لكن هذه الحالة استمرت يوماً. على الرغم من استمرار العقوبات والتعذيب لم يتم السيطرة عليها. فما كان من إدارة السجن إلا رفع توصية للسماح للسجناء بخلع بعض ملابسهم أثناء الفورة.

بعد عشرين يوماً جاء الجواب من إدارة السجن بمنح هذا الحق للسجناء كافة. احتفل في اليوم الذي تبلغوا فيه بهذه المناسبة قبل ثلاثة أيام من نهاية نيسان، وصار يحتفل فيها كل عام، فتحول الخمسان إلى شهر احتفالات ليس فقط خارج السجن بل وفي السجن وخاصة يومي الخميس والجمعة. والذي يعرف عن مواسم الاحتفالات شيئاً بدأ يتحدث به، وكأنه يكشف عن كنز.

كان لا بد لهذه التحولات من الاستمرار، بدأها أبو عروبة وسيتابعها رفاقه، فهذا هو عمر العسكري بتحد: " تعال "

نظر العسكري حوله كالأبله فلم يجد أحداً غيره، قال في نفسه " أيعقل أن أنادى بهذه الكلمة دون اللقب المتعارف عليه، الكلمة التي تتادى بها أي شخص غير يهودي، لا غير معقول، أنا الذي ينادونني " أدوناي "، سأدمره إن كان يقصدني، فقد صوابه إن كان يريدني " .

سمعتها للمرة الثالثة مع تأكيد لا لبس فيه:

- أنت أيها الشرطي أناديك، فلم لا تجيب!؟

شعر بالإهانة والاحتقار، فأراد أن يتأكد من القائل قبل أن يقدم على أي تصرف:

هل تقصدني؟

قال الشرطي وهو ينظر إلى عيني عمر الزرقاوين، فتلقى جواباً بالتأكيد. طار عقله، وأدخل يده بين القضبان ليفعل أي شيء، لينتقم لاهانته فيصفع القاسم. خاب ظنه فقد كان له بالمرصاد، أمسك يده ولواها حتى كادت تتكسر وشده أكثر حتى صار صدره على القضبان، ناوله ضربة على أنفه وكفاً على وجهه، صاح من الألم وراح يهرول وهو يولول. بعد دقائق عاد ومعه الشاويش تريدانوا.

نظر الشاويش إلى وجه الحارس وسأل بشيء من الاستغراب، إن كان سمع ذلك بأذنه أم تهيأ له ذلك فصدقه، فوجئ العسكري بهذه الشكوك، حتى كاد يشك في نفسه، فالذي حدث يصعب تصديقه. لكنه حدث معه قبل دقائق. مازال يذكر كيف ناداه ثم تلقيه لصفعة كادت تخترق طبلة أذنه، بعرفه جيداً طويل عريض المنكبين



أزرق العينين، كادت قبضته التي شده بها أن تطبق صدره على الباب، يقولون إنه دائم التحدث بالسياسة، يحب النقاش، يقرأ الكتب ويلتزمها. عند الباب أشار الحارس بيده، ابتسم تريدانوا ابتسامه صفاوية ونادى بقوله:

- أنت أيها المشاكس. تعال يا بعل ... أنت يا حمار .. يارياضي ... أنت أنت.  
أعادها مرات ولم يتلق أي جواب، مما اضطره إلى مناداته باسمه. اقترب عمر من الباب وقال:

- سمعتك تنادي حيوانات غير موجودة بيننا !

- أنت الحيوان وأنت تعرف من أقصد، ولا يخفى على بعل مثلك أن الذي ينادي العسكري باسمه أو بأية لفظة غير " أدوناي " يعرض نفسه لعقوبة شديدة .

- كيف أناديه بأدوناي وهو ليس أكثر من سجان يعتقل حرية الآخرين !

- إذن جهز نفسك لعقوبة المنفردة.

يعرف أن ذلك سيكلفه النقاء بالزنزانة مدة أسبوعين على الأقل. كان سعيداً بذلك، فقد فتح باب التمرد على تلك الكلمة وغيرها، هذا الباب الذي سيلغيها ويجعلها تختفي من قاموس السجن تماماً، إذ بعد هذا اليوم لم يناد السجان إلا باسمه.

مازال الكثير أمام السجناء لفعله، أول شيء فكر به عمر إلغاء حالة الخوف المفروضة من إدارة السجن قبل أن يفكر بأي تخطيط للإضراب، حالة الذل تمزقه من الداخل، تجعله يذوي، يقرأ ما يرتسم على وجوه رفاقه. تأمل وجوههم واحداً واحداً قبل أن ينطق بكلمة. ذاك حسان فياض ابن عكا الذي يهدر كبحرها، والذي رفض أن يقف باستعداد أمام العسكري الذي جاء ذات صباح يصيح " أخشيف " ... انتبه .... لم يرد وبدأ يشاغب ويناكفه، صفر واضعاً إصبعيه في فمه ثم جلس على الأرض. عُوقب خمسة أيام في بالمنفردة، هذه الظاهرة تكررت كل يوم حتى بات ضابطها أمراً صعباً. حسان مجبول من تراب عكا وبحرها، فيه ظرافة البحر ورحابته وفيه خصب الأرض وقوة الأسوار .

هزيل إلى أبعد حد، من يراه يظن أنه لم يذق طعاماً منذ عام، فكاه بارزان، فخور بمدينته، يصرح بأنه ابن التي هزمت نابليون وأفشلت مشروعه، هذا الذي حمل معه مجموعة مشاريع، بينها مشروع لليهود .

عكا روضته، ظل بحرها هادراً، وأهلها رافعي رؤوسهم، تواردت إلى ذهنه صورها صورة تلو الأخرى.

ينظر إلى وجوههم، يمسه ثم يبد أحدثه :

" في عام ثمانية وأربعين كان عمري سنوات، لكنني مازلت أذكر البحر والميناء وجامع الجرار المربع ومئذنته الطويلة المحيطة به والأشجار، اصطحبي أبي إليه للصلاة. النقوش المرسومة غاية في الفن والجمال، أعجبت بجوه وزخارفه سألته: لماذا لا تزين بيتنا مثله ؟

أجابني بلغة الواثق: إن شاء الله

من الأماكن التي قصدتها السوق الأبيض المسقوف الذي يتألف من صفين من الحوانيت، السوق الطويل الشبيه بسوق دمشق الطويل الموصل من باب الجابية إلى البزورية، محلات على الجانبين وطريق مرصوفة بالحجارة ومحلات سمانة وحلويات وبيع سمك طازج. أما المحاذي للبحر فهو شارع الفاخورة فيه عدد من الأبراج، مازلت أذكر جلسات والدي في قهوة البحر ساعات طويلة، أملاً فأعود إلى بيتنا القريب من الابراشية، الشيء الذي انطبع في ذاكرتي ومازال يسورها، السور القوي الشبيه بسور صور وبأبنيته ذات الطابع القريب من قلعة صيد أو بيوت جزيرة إرواد .

عكا عقدة طرق تتطلق شمالاً إلى بيروت والزيب وأم الفرج وترشيحا وشرقاً إلى صدف والشام وجنوباً إلى حيفا وصفورية، لقد عدد والدي غير مرة أكثر من ثلاثة عشر برجاً تحيطها، هي مجموعة أسواق وجوامع وأديرة وخانات. كنت أتمشى باتجاه الجمرک والميناء وباب البحر وصولاً إلى الرصيف القديم وخان العمران وقهوة البحر، أتابع شمالاً بمحاذاة البحر وبعدها شرقاً إلى حمام الباشا ومن هناك إلى جامع الزيتون ثم جامع الرمل. عندها يكون قد مضى من الوقت ثلاث ساعات أو أكثر، وتكون أمي في حالة هيجان وجنون، ترسل أخي ليوحي عني ويعيدني، فينطلق عكسي تجاهي إلى خان الشواردة ثم شمالاً إلى السوق الأبيض والسرايا القديمة، ويعود جنوباً قريباً من زاوية الشا ذلية، وهناك يقف تائهاً لا يعرف إلى أين يذهب ليجدني، فيتابع غرباً إلى البحر فيرج الحديد، حيث يلهو ويلعب أحياناً يسبح فأعود قبل رجوعه، فأجد أمي على نار، ولو لا خوفها من تأخري لبعثتني خلفه. تظل على غاية الشوق والترقب حتى يعود أخي الكبير. فإذا صادفت عودة أبي قبلنا حول حياتها إلى جحيم. تتتالي أسئلة دون كلمة إجابة منها؟ لا شيء سوى دموعها " ترقرت الدموع في عينيه توقف عن سرد قصته. نشف القطرات المتهاكلة على وجنتيه، الجميع منصت إليه، لا مجال أمامه سوى المتابعة، فتح جرح من الحنين للماضي :

" بحر عكا لا يتوقف هديره حتى في الصيف، يسمع صوت عبايه في أي وقت

ليل نهار، صيفاً وشتاء وما بينهما.

لم أنس طفولتي على شاطئه الرملي، أبني تلاً من الرمال، أبني بيوتاً يحولها  
المد إلى رمال مستوية .

كانت شوارعها مرصوفة بالحجارة وبعضها ترابي. الناس تأوي إلى بيوتها ساعة  
الغروب وقلّ من يتأخر حتى العشاء خاصة في الشتاء، أما الشباب فغالباً ما  
يسهرون في القهوة .

مازلت أذكر ذهابي للعرس، أمسكت طرف ثوب أمي، قصدن عصراً حارة  
أخرى إلى الشمال، لبست ثيابها ودهنت وجهها بالبودرة ورشت عطر الياسمين،  
ارتدت عباءة سوداء فوق ملابسها، وشدت أعلاها على وجهها، شدت يدي وأمسكت  
بيدها اليسرى أعلى العباءة التي تغطي الجزء الأكبر من وجهها. سارت حتى وصلت  
قريباً من برج الكومندار حيث بيت الفرح المدعوة إليه. الباب الخارجي يستقبل  
القادمات، أصوات الدف والغناء يتردد في فناءه، وفي باحته أمسكت عدة فتيات  
أيديهن ودبكن. قالت أم العروس بعد ترحيبها، كان الأفضل أن تأتي وحدك وتتركه  
عند أخيه الأكبر، أنت تعرفين بأننا سنرقص شبه عاريات!

أجابت أمي بخجل وكادت تتعثر بقدمها: جئت به لأنني سأتأخر .

عرفت الروائح العطرة في أنفي، مزيج عدة عطور، لم يكن طفل سواي، النسوة  
شلحن عباءتهن والثوب الخارجي، فتلاأت الصدور وتدافعت النهود، نهود مكورة،  
أفخاذ تتراقص ككهرباء الميناء. همست أمي تدعوني لعدم الشغب واللعب مع  
الأطفال خارج البيت. ألعب معهم وأعود أختلس النظرات لتلك الإلهة المسماة  
بالعروس فوق عرشها العائم على السجاد والحريز .

الفتيات والنسوة يتبارين في إظهار جمال أجسادهن ومفاتها ورشاقتها بتعرية  
الصدر والساقين .

بينما العروس مشغولة بتبديل ثيابها على أنغام أغنية " تمخطري " وعند انتهاء  
الأغنية ترتفع الزغاريد والتراويد وأغاني الصمدة، فتعود ثانية لخلع القديم واستبدال  
آخر به، معلنة عن جمالها وألوهيتها، فتبدو بعريها أشبه بحورية خارجة من البحر .  
تلف دورتين، بينما أم العروس ترش الملح والشعير قبل أن تعود ابنتها لعرشها تاركة  
جدائلها تسيح على ثوبها الحريزي، فتسمعها النسوة أغنية :

يا أم جديلة منثورة  
ميك دلال وغنדרه

تبادرها النسوة قرصاً بذراعها وفخذاها، ولثماً لخدّها أو الرقص معها .

قام حسان يغني ويرقص بينما رفاقه يردون خلفه، نظروا إلى وجهه ابتسموا وشكروه. إنهم يسمعون هذه المعلومات للمرة الأولى. لاحظ حبهم لمعرفة المزيد .

قال: سأحدثكم عن المشروع الفرنسي، هل تعرفون شيئاً عنه.

كان متأكداً أن لا أحد يعرفه إلا عمر بدأ كلامه عن ذلك الأشقر نابليون الذي جاء من الغرب حاملاً مشروع إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، حاول أن يحقق ذلك، لكن عكا أسمعتة هديرها، جفل ولم يطق سماعه فهرب، وقبل ذلك خاطب المصريين محاولاً استغفالهم:

" قولوا لأمتكم إن فرنساوية هم أيضاً مسلمون "

تساءل حسان: إذا كان فرنساوية مسلمين فماذا نكون؟ .... ابن الشقراء يريد أن يضحك علينا " فشر "، فقد وقفت له عكا بالمرصاد، عاد يمسح دموعه المتهاطلة .

تعالت الضحكات، عمر الذي كان أكثرهم ضحكاً أحب توضيح المشروع النابليوني اليهودي فقال:

- الذي عطل مشروع إقامة وطن قومي لليهود الهستدروت التي جاءت نتائج مجلسها معاكسة لطموحات نابليون. وكذلك عدم استجابة يهود آسيا وأفريقيا، لأن استيطان فلسطين لم يكن وارداً عندهم، أما في أوروبا فإن الحريات السياسية أدت إلى تحررهم. ولم تكن البوجوازية قد وصلت إلى الظروف الاقتصادية والسياسية التي دفعت إمبريالية القرن العشرين لتأييد قرار إقامة كيان لليهود .

في هذا الوقت الذي يتجادلون فيه حول دور نابليون. طلب عمر إلى الإدارة، أوصله الشاويش زيتون إلى مدير السجن، غرفة واسعة لها شباكان كبيران، جلس حيوت على كرسي خلف طاولة خشب جيدة وخلفه على الحائط شعار نجمة داوود. أدى الشاويش التحية ثم خرج :

قال حيوت :

- أليست هذه رسالتك، لقد أعيدت ولن نرسلها؟ إن شئت معرفة السبب فلأنك لم تكتب عليها العنوان بدقة !

- كل مرة ترسلونها، ما الخطأ في هذه الرسالة ؟

نظر إلى عمر وأشار بيده إلى مكان الذي سيكتب فيه اسم دولة " اسرائيل " ثم أردف :

- خذ اكتب ذلك، و إياك أن تنسى ذلك في المرات القادمة .

لم يجب بينما حيوت يتفحص التعابير التي ظهرت على وجه عمر، وقد بات واضحاً أن إلزام السجين المائل بين يديه ضروري، فإذا فعلها فلن يتجرأ آخر على ذلك، بعد أن سادت لحظات الدهشة والصمت. سأله سؤالاً ركيكاً بتركيبة عربية :

- لماذا لا تجيب، أنت لا تريد، رأسك ناشفة، أنا أفهمك، لازم تكتب اسم دولتنا، أنت تعيش من خيرها، وفي ظل حضارتها، وترفض كتابة اسم دولتنا أي ملعون أنت!

- لقد عثمت على هامش حضارتنا، ليست الحضارة في امتلاك السلاح وقهر الآخرين، بل عطاء. أي صرح حضاري تركتم؟ كل شيء بالإقناع، أنا أكتب كما أريد، لا كما تريدون، إن شئت قناعتي فسأكتبها .

تناول الرسالة وبدأ يخط حرف الفاء، أعاد المدير الرسالة وقال بتحدٍ :

- أليست اسرائيل دولة معترفاً بها وعضواً في هيئة الأمم المتحدة ولها سيادة على أرضها !

- السيادة على أرضنا والذين يعترف بكم يكتب ذلك .

- كفى.. كفى أنا هنا أطلب وأنت تجيب أدوناي، أطلب أن تكتب وبخطك اسم " إسرائيل " هنا، هيا أفل ذلك.. أنتم رؤوسكم يابسة، لا ينفع معكم إلا الضرب والإكراه .

- لاشيء يجبرني على كتابة ذلك .

- ستعاقب !

- وليكن .

- سنحرمك من " الفورة " .

- أفل ما شئت .

- ومن " الكانتينا " .

- لا يهم .

- سمنعك من التحدث إلى الآخرين .

- ليس السجين بحاجة إلى ذلك. نحن كالعاشقين الذين يتفاهمون بالنظرات والإشارات .

- تكلم باسمك ولا تقل نحن، ممنوع أي واحد يقول نحن، مسموح قولك أنا.
- إنها معادلة الكل والجزء، الجزء الذي يمثل رأي الكل ويتبناه .
- أنت لا تتفعلك سوى المنفردة، هيا أغرب عن وجهي، أنت تغيظني بطريقة فظة، أذهب إلى الجحيم .

حضر الشاويش زيتون الذي تلقى أمراً بإبقاء عمر في المنفردة عشرة أيام وحرمانه المراسلة ستة أشهر، ومنعه من الزيارة شهر آخر .

أجبا الشاويش: " أمرك سيدي "

قال في نفسه عشرة أيام مقابل أن لا أكتب اسم " اسرائيل " إنها عقوبة بسيطة والحرمان من الرسائل والكانتينا والفترة كلها أمور عادية، مقابل أن أثبت موقف الصمود في أذهان السجناء .

خطوة مهمة، والأهم أن تضطر سلطات السجن إلى الرضوخ. في المنفردة صمم أن يبدأ التحضير لإضراب يهز إدارة السجن. يجبرها على تقديم تنازلات. يحطم عنفوانها يجعلها تفاوض المضربين على إنهاء إضرابهم. صمم أن يكون عسقلان معتقلاً يدرس المبتدئين في العمل السياسي ليخرجهم قادة، ويعطي العدو دروساً لن ينساها. قرر أن يبدأ المشاورات في غرفته ثم في الفترة حول الوسيلة الأفضل للبدء .

بعد خروجه من المنفردة زف في الغرفة، أقيمت الأفراح وارتفع اسمه عالياً رددوا وهم على شكل عراضة :

يابنت يالي في القصر      طلي وشوفي فعالنا  
وانت غواك شعرك      واحنا غوانا سيوفنا

بعد ثلاث ساعات من الغناء والفرح، بدا الكون أكثر إشراقاً. قرروا أنهم إن لم يدفعوا ثمن فرحهم وعزتهم بإرادتهم، سيدفعونها أضعافاً على مذبح الذل. الأمر يتطلب الاتفاق بين السجناء على المطالب ثم إنذار إدارة السجن بالإضراب. الجميع رددوا بصوت واحد: الإضراب ... الإضراب ولايديل عنه، هيا فنحن جاهزون .

قال عبد العزيز شاهين :

- الإضراب يعني التحدي وإثبات الذات ونجاحه يستلزم التنظيم والإخلاص والجد، وهو يعني على المستوى الفردي توقف الهضم والإفراز وقد يؤدي إلى توقف

الحياة.

كان لابد من شرح كل شيء ليقرر الفرد ويمحض إرادته ذلك بدافع التوق إلى الحياة وتغييرها، وليكون كل شيء واضحاً. الإضراب في حال نجاحه سيدفع لتغييرات نوعية داخل السجن، دار الجدل في المهاجع وفي الفورة، كيف ومتى يعلن ومن هم الذين أقدر على تمثيل السجناء أمام الإدارة. كان لابد من اختيار ثلاثة يفضل أن يكونوا من مسؤولي التنظيمات، حتى لا تنعكس النتائج إن كانت سلباً أو إيجاباً على تنظيم واحد أو على الوحدة الوطنية. تم اختيار اللجنة من عمر القاسم وعبد الله العجرمي وعبد العزيز شاهين لتمثيل السجناء والتحدث باسمهم.

وضح عمر مفهومه للإضراب وشرح معانيه بنقاط عدة أبرز ما ركز عليه:

" الإضراب إلغاء للمشي ويداك خلف ظهرك، حتى ولو مشيت مع رفيقك، تسيران كأنكما في صف عسكري، دون أن يحدث أحدكم الآخر، حتى حركات الأرجل متوافقة، أليس هذا منتهى الذل؟

علينا أن لا ننسى أهمية أن يكون الإنسان نظيفاً، فدخل الحمام كل دفعة عشرة وخروجهم بالعد، وبعد دقائق قليلة من الدخول بحيث لا يستطيع أي واحد أن يستحم بشكل جيد.

المدة التي يقضيها العشرة في الاستحمام لا تكفي من أجل واحد.

النضال ضد العمل الإنتاجي، فهل يعقل أن شخصاً مثلنا، دخل السجن لأنه قاوم الاحتلال أو قام بعمليات بطولية يعمل في المصانع العسكرية أو شبه العسكرية، كصناعة شيكات تمويه للسيارات والدبابات، أو يخطط بدلات عسكرية ويكوئها، فوقف العمل يمثل هذه المعامل لعودة عنه.

تحطيم حاجز الخوف النفسي وإلغاء المعاملة القاسية وبعض التعابير وإطالة مدة الزيارة، والسماح بإدخال الفواكه، بدل دفع ثمنها للصليب الأحمر الدولي، الذي تعامل مع متعهد، يجلب أسوأ أنواعها ويحسبها كصنف أول.

في صباح الخامس من تموز عام سبعين أعلن الإضراب، أعيدت أواني الطعام، والتزم كل سجين مكانه، أوبرق الشاويشان المناوبان زيتون وتريدانوا إلى مدير السجن يخبرانه بالإضراب، ثم أخبرا هايمن.

بسرعة جمع الحراس ورجال الشرطة وأبلغهم بحالة الاستنفار القصوى في السجن، أمر بإغلاق الأبواب الخارجية، ومنع الخروج أو استقبال الزائرين، ممنوع

التحدث بالهاتف إلا بعد تقديم طلب إليه.

ارتدى الجميع البستهم، كما ارتدى السجناء لباسهم الرسمي. عند الساعة التاسعة صباحاً وصل المدير، استدعى نائبه وسمع منه تقريراً عن الإضراب. عندها أمر السجناء الموجودين في الغرف والممر وساحة التنفس الاصطفاف في الباحة حسب الغرف .

قال حيوت: المضرب يرفع يده .

رفع الجميع أيديهم.

- من يريد العودة عن الإضراب يرفع يده.

لم يرفع أحد يده.

- ستموتون من الجوع والعطش، سنغلق عليكم الأبواب، إنها آخر محاولة للعودة عنه. لم يردوا، ترك الباحة وعاد إلى مكتبة، استدعى الشاويش زينون وتريدانوا، وكلفهما بمهام إضافية وطلب إليهما السهر والمواظبة وعدم إعطاء أي إجازة مهما يكن السبب، ومراقبتهم وإجبارهم على فك الإضراب .

نظر حيوت إلى مكتبه فوجد قائمة بالمطالب مقدمة من السجناء دون توقيع، نادى على نائبه ثم على الشاويش زينون وسأله :

- من وضع هذه هنا ؟

- لا أعلم سيدي!

- من فتح باب الغرفة ؟

- الشرطي عما ينوييل.

- احضره فوراً.

- حضر الشرطي، أدى التحية وقال بصوت مرتجف نعم " أدوناي "

- من أحضر هذه القائمة بالمطالب ووضعها هنا ؟

- لا أعلم !

- من فتح الباب ؟

- أنا سيدي .

\_ ألم تلاحظ شيئاً على الطاولة .



لم تكن موجودة .

ناد زيتون بسرعة، كان المدير عصبياً وظل كذلك وهو يستجوب مرة زيتون ومرة الشرطي وآخرين حتى صارت الساعة الواحدة دون أن يستفيد شيئاً، مما أدى إلى حسم ربع راتبهما وتأخير ترفيعهما. ومع ذلك ظل المدير منزعجاً واستمر عصبياً .

تضمنت قائمة المطالبة تحسين المعاملة ونوعية الطعام وإلغاء العمل الإنتاجي والسماح بمذايح لكل مهجع والاعتراف بالفدائي كسجين سياسي ومساواته مع السجناء الإسرائيليين. لف على الغرف بصحبة نائبه والشاويش تريدانوا في محاولة للالتفاف على الإضراب أو تفاديه، وكما لم يجد أي تجازب هتف إلى إدارة السجن المركزية وأخبرها.

الوحيد الذي ساءت صحته منذ اليوم الثاني عبد القادر أبو الفحم، جسمه مصاب برصاصات ولم يعالج، مازالت إصاباته تنزف، ناشدوه عدم المشاركة، لم يستجب إذ تعامل مع الموضوع بعقليته العسكرية القيادية كان في طليعة قوات التحرير الشعبية في غزة. اليوم لا يستطيع البقاء إلا في المقدمة، حتى ولو كلفه ذلك حياته، نوى في اليوم الثالث ومع ذلك لم يذق طعاماً. تجاهلت سلطات السجن وضعه وحالته المتدهورة، وربطوا نقله إلى المستشفى بعودته عن الإضراب. كان واضحاً أنه لن يستطيع الاستمرار، ففي اليوم الخامس رفع رأسه ونظر إلى رفاقه، رفع يده اليمنى، ثم رفع الشاهدين وسلم روحه، فانطلق الأذان من كل الغرف. الله أكبر .. الله أكبر.. وظل الأذان ساعة كاملة وقفها السجناء حداداً على موته. استمرت صلاة الغائب على روحه ساعة في الليل وساعة في الصباح .

صمّت الأصوات أذنيه لا يريد أن يسمع الأذان الديني، أعطى أوامره ليسكتوا هذه الأصوات. تذكر أنه سمعها في المغرب مازال يكرهها، توقظه صباحاً، أمه تحاول تلطيف الجو فيزداد سباً وشتماً. اعتبر ارتفاعها وتردادها في السجن المسؤول عنه حدثاً كبيراً. لكنه عندما سمع بموت أحد السجناء، خرس ولم ينطق حرفاً. طلب إلى هايمن إبلاغ إدارة السجن ونقل الميت إلى مستشفى غزة. أما هو فلم ينته بعد من التقرير الذي طلب منه عن الإضراب .

## - الفصل الحادي عشر -

صار الجو أكثر طراوة، وبدا أن فصل الصيف يهرول بعيداً، خاصة بعد أن استضافت عسقلان أياماً من تشرين. بدت الطيور تتجمع وتتفرق جماعات، غيوم تتدفع من البحر تتألف وتتبدد كأسراب البجع. صباحاً أنفاس النهار ندية مع لسعات باردة لها لون الفرح وطعم الفواكه، الشعيرات التي تأثرت ببرودة الجو رفعت رأسها لتشم عبق الصباح. بعد العصر مالت السحابات إلى الانطفاء مع تضاؤل أشعة الشمس، هربت شرقاً حيث تلاشت. الابتسامة مزروعة على الشفاه مع تدفق أمواج البحر وعطوره. الليل فضي بعد أن أثبت السجناء قدرتهم على فرض إرادتهم. الظلمة تبتلع ليل البحر وتحوله إلى أنيس. الأمواج تعبر ثنايا الرأس ترسم صوراً مختلفة. لقد ذكرته هذه الأيام بالرحلة إلى اللاذقية وطرطوس وجزيرة أرواد وتلك القبلة الطويلة التي طبعها على شفتي وصال، حيث أمضت الرحلة واضعة نصب عينيها الفرح. أطلقت أسراب الحرية من مخبئها، ووضعت يدها في يده، رقصت مع زميلاتها وتمايلت صوبه بغنج، ثم أمسكت بيده وهو يدبك، ففرت فرحة وقالت:

- هذه أول مرة أدبك فيها .

يرد عليها: وهل تسمين حركاتك أثناء خبط الأرجل والقفز والمشي دبكة ؟

تضحك وتجيبه: إذن ماذا تسميها ؟

فيرد: أنا عاجز عن تسميتها وتسميتك !

يشدها ويدخلان سراديب آثار أرواد، تقترب منه وتهمس في أذنه: أحبك...  
أحبك!

تدفع جسدها للالتصاق به وارتشاف الرغبة في العشق. خميرة الشهوة فعلت فعلها منذ جلست حانة، جسدها يفوح أنوثة ورقة، أظهرت خفة دم ودمائة لم تظهرهما من قبل، حتى كادت تطير وتسابق الباخرة. كاد ثوبها لسرعة طيرانها أن

يحترق، فقد غلت المياه في المراجل ولا شيء يقف أمامها. أشعرتها أرواد بالحرية، بحر من الورود والأغاريد، أسراب النورس المحملة بأهات العشاق ورغباتهم. قال لها وعيناه تبحران في الأفق الذي ذاب مع الزرقة والمد اللامتناهي من الأمواج :

مابين البحر وشعرك لفتان

واحدة ذات نبض وأخرى تطلق ساقياها

ما الذي يحدث لوسبحت في البحر ؟

- ربما غرقت !

- أو ربما غرق البحر وفقد رشاقته وفنونه وجنونه، وربما هيجته، عندها سيبتعك ويدخل إحدى غرف " قصير عذراً "، ليتخلص من اللوثة التي سببتها لعقله، وربما أشعلت فتيل البرق فتتصاعد المياه، ويتحول المتوسط إلى حفرة انهدامية تتراكم فيها المياه والأملاح !

- في كل يوم اكتشف فيك جديداً !

قبلها فارتج النهدان وكادا يمزقان ثوبها الذي ارتفعت حرارته حتى أوشك أن يحترق ويشعل ذرات الأوكسجين، ولا يعلم إلا الله ما الذي سيحدث.

فهم كل لغة وإشارة، كل كلمة وما ترمي إليه، كلها أسئلة وإشارات استفهام وعلامات تعجب طويلة. نظراتها والأسئلة والألق والقلق في عينها العالق على رموشها. تمزقت من الداخل. تعبت، نامت في طريق العودة على ذراعه، فتحت أعلى فستانها حتى بان رأس الفرخين القابعين في دجى صدرها الثلجي الناري، سكنهما البرق فرسم لحظة تحفر الحلمتين أرادت كسر الصخرة التي تطبق على أنفاسه وما ينتظره من اجتماعات تنظيمية، أرادته كالخريف بلا ظلال ولا ورق ولا ثمر هائماً يغني ويرخي العنان لجنونه. طلبت منه أن يرقص معها أمام الجميع. كانا على الشاطئ كطائرين غريبين مهاجرين النقيا دون أن يعرفا الدروب الموصلة إلى النهاية.

ناداه الشاويش زيتون، لم يسمعه ناداه ثانية وجره إلى ضابط الإدارة المصري بن مؤام.

وقف موشي وسلم عليه. وطلب منه أن يجلس. لهجته واضحة وكأنه جاء البارحة من القاهرة، نظر إلى وجه عمر وقال:

- أنا أحترمك حتى ولو اختلفنا في الآراء، لقد أثبت أنك رجل وقائد، وأنا

حزين لأنك سترحل إلى سجن الرملة ... أنت محظوظ لأنك مولود في القدس. يمكنني القول بأنك مواطن، القوانين الإسرائيلية ستطبق عليك وستتعلم بالراحة، وإذا تخليت عن مزاعمك وأعلنت ندمك يمكنك أن تعيش مثلي وربما أفضل. سيكون لك شأن، لماذا لا تستغل مواهبك هذه وتشكل حزوب معارضة من العرب واليهود. إذا فكرت بذلك لا تتس دعوتي .

- لقد كلمتني بثقة ومودة، أشكرك على شعورك النبيل، لكن ما الداعي لمثل ذلك وأنت تعرف وضعي؟

- كلفوني أن أحدثك بأمرين تمتعك بحقوقك المدنية لأنك من مدينة القدس عاصمة دولة "إسرائيل"، وترحيلك إلى سجن آخر، سننظرون في أمر إطلاق سراحك إذا تعاونت معهم !

- مسكين سيد موشي لقد حكموا عليّ بثلاثة مؤبدات، هل تظن أنهم يفكرون بما قلته. حتى ولو كان هذا وارداً فلا تتس أنني قائد وطني وعضو في جبهة معادية، إنه الروتين الذي يجعلك تفكر بذلك أم هي الأحلام الوردية. أنا وهبت حياتي ومستقبلي من أجل فلسطين. ستظل ابتسامتك التي قابلتني بها زادي طوال الطريق الساحلي الرائع، سأذكرك كثيراً ولن أنساك .

عاد لينام ليلته، ارتفعت الحرارة في صدره، وتسلس العرق ليغطيها، شعر بضيق شديد، توجه إلى دورة المياه وسكب على جسده إبريقي ماء وارتدى ملابسه. شعر بالانتعاش، سهر مع رفاقه حتى ساعة متأخرة من الليل، وعند الصباح جهز نفسه للسفر. في العاشرة نادوه ليذهب إلى الشاويش زيتون، هناك لقنه درساً في الأخلاق والتعامل ، إذ كان وغيره من طاقم السجن مستائين من النتائج التي آلت لصالح المضربين. في الحادية عشرة انطلقت السيارة المغلقة، بعد أن فتشوا جسده وملابسه واستلموا ملابس السجن. أوثقوه ووضعوا العصابة على عينيه، تحركت السيارة الزنزانة واتجهت شمالاً. الشمس تأتي من النافذة اليمنى فتية. أغلب الظن أنها مرت بالمدن والبلدان التالية المجدل، أسدود، وبينه ومنها إلى الشرق ثم الشمال، وعلى الرغم من المسافة القريبة التي لا تتعدى ستين كيلومتراً، سارت مايزيد على المئة كيلو متر متجهة مرة شمالاً ومرات إلى الشرق حتى حطت بعد ساعتين ونصف في سجن الرملة .

شعر بالتواصل بينه وبين الرملة التي تهول إلى البحر مبتعدة عن بطن رام الله وسفوح جبالها، هذا المد المائي الذي يغازلها من الغرب. غازل أيضاً وعلى مر آلاف السنين السماء والنجوم والكواكب، وقيل مضاجعة الريح وعراكها، لتظل

حركته الأولية مستمرة، قريباً منه نهر روبين التي تسابق مياهه الشمس إلى البحر، يحتضن مياهه ويبتلعها، لكنه قادر على تجديد ذاته بدفقات ينابيعه الكائنة في خاصرة جبال القدس تعطيه دفعاً فينحدر مسافة ثلاث ساعات من مدينة الرمل والينابيع. تلك المدينة التي وهبها الله قلب فلسطين، فالمسافة بين الناقورة وأقصى نقطة في الجنوب تتوسطها هذه المدينة. في السبعة وستين دار عمر حولها دورتين، وكأنه اكتشف رغم معرفته بالجغرافية، بأنها المدينة الوحيدة في فلسطين التي تحدها ستة أفضية، قضاءان من الشمال، واثنان من الغرب، واثنان من الجنوب، وذات مرة تجرأ ودخلها ولف فيها. وقف معجباً ومبهوراً أمام الجامع الأبيض ومأذنته الشبيهة بأبراج بابل وحدائقها المعلقة، تصور أن علوها ربما يكون نصف علو الزقورات أو علوا ثلاثة أرباعها. شدة ذلك المنظر الجميل للطوابق الستة التي تمثلها. كان في تجواله هذا يستهدف دراسة المناطق من الناحية العسكرية. لكن عدم وجود سكان عرب فيها جعله يتراجع، ويضع أهميتها العسكرية في المرتبة الثامنة، إذ قرر أن أفضل منطقة للمقاومة تتمثل في الشريط المرتفع بداية من الخليل جنوباً ونهاية بنابلس، هذه المنطقة التي تمثل مرتفعاتها ومقاورها وأناسها الشروط المطلوبة لتحدي السلطات المعادية، إضافة إلى وجود عوامل مساعدة كالأنهار والوديان التي عرف عدداً منها، وادي السرار والوادي الكبير ووادي النطوف، وكذلك وجود عدد من الينابيع والأحراش وبعض الأشجار البرية المثمرة، وشجيرات القندول الشائكة والتي تشكل سياجاً ودرعاً يحصنها، هذه الشجيرات التي تمتلك ثلاث صفات. قوتها المتمثلة في جذورها والأشواك المخاطية التي تنبت على سوقها وأفنانها ورائحة زهرها الأصفر التي تملأ الجو عباقاً وطيباً. ابتم وهو يتذكر القندولة التي أحبها، إذ ظل هو وعبلة جالسين بجانبها والزهر الأصفر ماداً فمه ولسانه كالعصفور المغرد مرحباً بهما. وقدّر أن هذه المنطقة حتى تتحول إلى منطقة عمليات عسكرية تحتاج إلى ألف مقاتل ينزرون هناك، إضافة إلى ثورة شعبية تجعل العدو غير قادر على القضاء عليهم.

آماله انهارت الثورة لن ينقلها القادة إلى الداخل، هذا ما أصروا عليه بعد السبعة وستين، يوم تباينت وجهات النظر داخل حركته وكان هو من الفريق الذي تبني وثيقة آب، التي حلت نتائج حرب الأيام الستة وأسباب فشل الأنظمة. الآن يرى أن الوثيقة بحاجة إلى أخرى تؤكد فشل الأحزاب بعد هزيمة أيلول السبعين، فليس أمامها سوى تسمين ذاتها والابتعاد عن الداخل والهجرة إلى حوض بيروت الرائع والدافئ والمغري .

إدارة سجن عسقلان وعلى غير عاداتها، فتحت إذاعتها على نشرات الأخبار،

فكانت تنقلها كاملة من عمان ودمشق والقاهرة والقدس ولندن . طلبه مدير السجن بعد أيام من الأحداث، كان وضعه النفسي سيئاً وحزيناً لدرجة لا تطاق. طلب منه حيوت الجلوس، قدم له فنجان قهوة وسأله :

- ما رأيك بالأحداث الجارية في عمان ؟

- تريد أن تتشفى!

- لو كنت مكان أحد القادة ماذا تفعل؟

- مازلت مصراً على إزعاجي ... تريد الجواب، وقف القتال وعقد اتفاق تفاهم، ودفع الوجود الفدائي إلى هنا .

- أخرس " مخرب " سنتظل هنا ليستمر قتالكم مع العرب، وستقتلون كثيراً ليكون القرار بأيدينا. أبشرك بأن سنواتكم الذهبية انتهت، لدينا الكثير عن حياة قادتكم، لدينا وثائق هامة، حين تقرر الاطلاع عليها أخبرنا، فهي جاهزة ولا تحتاج إلا لإشارة منكم.

غطى وجهه بكفيته، مرت أمامه أفواج تمرکزت غير بعيدة عن النهر بشكل عشوائي، تم اختيار القادة العسكريين وربّهم، فرفعوا أصواتهم يطالبون رفاقهم بخدمتهم، وببقاء خطوط النار تترثر، غير حاسبين ما تجره من انتقام مزدوج، غضب العدو وعدم قدرة المواطنين على دفع الثمن والصمود .

وهذه بداية ضرب العرب بعضهم ببعضهم الآخر، من هذا المنطلق أكد على ضربه بومتين بحجر واحد، التوجه إلى الضفة الغربية وقطاع غزة وتحويلها إلى ساحتي صراع وإفشال مخططات التهويد والمستعمرات .

كان يشعر أنه يتحدث للهواء، القيادات اتفقت على تعزيز وجودها في الأغوار وشرقي الأردن، وربما استلام السلطة، طرحت شعارات طنانه:

- كل السلطة ...

- التحرير ينطلق من عمان، عمان هانوي العرب .

كبر حزنه، صار بحجم ورم الخد، كبر إلى ما لانهاية، بنوأت القتال مع الدول المجاورة ومع الحركات الوطنية ثم مع النفس. تقيض عيناه مرارة فيخرج الوجد آهات تلتهم صدره، وجعاً يطرق رأسه بينما الزنزاة تتابع سيرها البطيء. ماذا عساه يفعل أمام مد الهزيمة، هزيمة تفقد عقله كل ليونة أو تفكير، شعر بثقل في رأسه. سها ولم يعرف كم من الوقت غفا! ربما نام لثوان أو لدقائق. حاول أن

يفرك عينيه، لم تساعده يداه بينما العصابة مازالت تحجب الرؤية، غيوم الحزن تتسلل من نافذة السيارة، تتكوم ما بين جسده وملابسه، يشعر بثقلها ولونها الرمادي. حاول أن يتجاوز فترة ضعفه، لكنه غير قادر. الكلمات التي سمعها من حيوت جعلته يحتقر ذاته. فبعد كل ما فعل تراهن القيادة الإسرائيلية على يأسه. تساءل ماذا عن الأفراد الذين زجوا بعملية لا يعرفون عنها شيئاً، أسروا دون وعي لتصرفات العدو؟ حتى الكوادر لم يكونوا على علم بما سيواجهونه في حالة الأسر! وأي المعلومات عليهم أن يصرحوا بها وأيها يعتبر سرياً لايجوز التقريط به.

توقفت السيارة وتوقفت النسيمات العذبة عن الهبوب، شعر بالحرارة والضيق، طلبوا إليه النزول، أحد الجنود شده من قميصه وقاده إلى داخل السجن. شعر بفتح الأبواب ثم إغلاقها، سبعة أبواب اجتازها قبل أن يتلقى أمراً بالجلوس على مقعد خشبي طويل. تحسس المقعد وجلس، بقي معصوب العينين ومقيد اليدين. بعد حوالي ربع ساعة جاء من فك قيده ونزع العصابة عن عينيه. قاده عبر ممر طويل في نهايته غرفة المخزن. خلع ملابسه التي فتشت بدقة ووضعت في كيس كتب عليه اسمه بقلم تلوين أسود، ثم سلّم ملابس السجن بنطال وقميص وفرشة اسفنج وبطانيتان، سجل ذلك في دفتر خاص، أغلق الغرفة وأخذ مفتاحها وطلب إليه أن يتبعه. أعاده إلى الغرفة التي كان فيها .

غرفة مستطيلة طولها يكاد يكون ضعف عرضها، فيها مقعد خشبي، وعسكري دائم النظر إلى وجهه. سلم عمر عليه، لكنه لم يرد. سأله في أي قسم هما من سجن الرملة ؟

حدق إليه وأجاب باقتضاب شديد:

- أنا هنا لا أعرف شيئاً

حاول دفع العسكري للحديث، لكنه لم يفلح. كان كمن يحاول تجاوز رجم أو صيرة مبنية من الحجارة دون ملاط، كرر محاولته لكنه لم يرد بل ركز نظره إلى عيني عمر الذي جاهد لدفعه للحوار بقوله :

- لا أحد هنا ولا مبرر لخوفك!

- أسكت أيها " المخرب "

وضع في منفردة طولها يقرب من مترين وعرضها متر واحد، وارتفاعها يقل قليلاً عن طوله. فرش الاسفنجة ووضع البطانيتين بعد لفهما عند رأسه ليكونا مخدة. تمدد بعد أن أغلق باب الزنزانة. نام ولم يستيقظ إلا على صوت العسكري

وهو يدفع له طعام العشاء المكون من بطاطا مهروسة مع نصف رغيف. تناول عشاءه وأعاد الصحن فارغاً، طلب إلى الحارس أن يخرج إلى دور المياه، الدورة المقابلة للزنزانات المنفردة. قضى حاجته وشرب الماء، غسل وجهه ورأسه ثم عاد إلى الحيطان الضيقة لينام ليلته الأولى .

شعر بحبه للسهر خاصة إنه نام وقتاً كافياً بعد زجه بالزنزانة. أمه ستذهب إلى زيارته في عسقلان وهناك سيبلغونها بنقله بعد أن تنتظر حتى الساعة الثانية بعد الظهر .

في اليوم التالي ستذهب إلى مكتب الصليب الأحمر لترتيب أمر الزيارة، فيخبرونها بعد يومين من المراجعة، بأن عليها أن تنتظر شهراً كاملاً ثم تراجع ثانية، سترفع صوتها وتشتم ولكنها في نهاية الأمر ترسخ لذلك وقلبها على نار .

في اليوم الرابع قاده العسكري ناحوم إلى الشاويش يعكوب الذي أخبره بأنه سينقل إلى قسم فتح، ولهذا حذره من التحدث بالسياسة. قاطعه عمر مستهزئاً، عبس الشاويش ازرق وجهه وتقلصت جبهته إلى أدنى اتساع وبانت تغضناتها، قال بلهجة يمنية " ستجر اللوم على نفسك " .

يعكوب لا يحب أحداً عربياً كان أو غير عربي، يكره حتى اليهود لكنه تورط وخرج هو وأخيه لبيبة من صنعاء صيف خمسة وخمسين. سافر إلى عُمان ومنها إلى طهران ومن هناك نقل جواً إلى تل أبيب، وعد أسرته بأنه سيؤمن السكن والعمل ثم يجد طريقه لهجرتهم إلى إسرائيل، لكن أخبار أهله انقطعت ولم يعلم عن والديه وإخواته شيئاً. بعث مع أحد الأمريكيين الذاهبين إلى اليمن عام ثلاثة وستين، فأخبره هذا بأن أسرته تركت مكانها إلى جهة مجهولة، سأل في مديرية استيعاب المهاجرين، فلم يعثر على اسمهم. أرسل ثانية عن طريق السفارة الأمريكية، فجاءه الجواب بأن الموظف الكبير الذي ندبته السفارة لمتابعة قضيتهم، لم يجد ما يثبت بقاءهم، اسودت الدنيا في وجهه خاصة بعد أن كبرت شقيقته وصارت تتأخر مساءً، ثم لاتعود ليلاً. وعندما فاتحها بالموضوع نقل بعد أيام إلى سجن الرملة، ذهب لاستلام عمله الجديد بينما بقيت وحدها. بعد يومين عاد فلم يجدها، عاد بعد أسبوع، بعد عشرة أيام ... فلم يعثر عليها "قص ملح وذاب"، سأل عنها الجيران ثم الشرطة والمستشفيات، قال أحد الجيران بأن لبيبة تشتغل في ملهى ليلي، ظل يفتش عنها أربعة شهور، بعدها وضع عنوانه عند جيرانه ليعطوه إلى أخته إن عادت .

لبيبة عرفت النوادي الليلية، وتلذذت بلياليها مع بعض الرجال، تعرفت العديد



من الشخصيات السياسية والعسكرية، حتى عرفت حيوت. ذلك الوجه الحنطي المتشرب بمياه المتوسط والمحيط، فاتخذها خلية، تردد عليها ومنعها من العمل في النوادي، إذ خصص لها مصروفاً شهرياً، فصارت عشيقته المفضلة .

لبية حنطية لها عيان بنيتان واسعتان، فينانة، ضحكها ابتسامة كالفجر الذي قبض على حبات الندى في بدايات الربيع، ناعمة هيفاء ضامرة البطن، صدرها مكتنز ونهداها يتصاعد منهما البخار لحظة التحفز تفتح أزرة فستانها حتى أعلى السرة. حيوت مغرم بها، هزته من الداخل مارس معها لعبة السباحة والتزلج على الأثافي، يكلمها كثيراً، يتغزل بجسدها حتى بات لا يطيق البعد عنها. طلبت منه أن يتزوجها عندما أفصحت عن ذلك صراحة:

- تزوجني يا حيوت ما الذي ينقصني ؟

- أنتِ رائعة، لا شيء ينقصك، لكنني لم أفكر بعد !

- سأفكر، وهل أستطيع غير ذلك؟ دعيني الآن أطفئ لهيب جسدينا .

- هذا ما تريده، أسرتني فصرت سجينتك، أنت تمارس عمك كمدير للسجن ليس في عسقلان بل وعليّ، ما أبشع ذلك يا حبيبي !

- لا تقولي ذلك فكلانا سجين الآخر .

ابتسمت ابتسامة مليئة بالغصات، وقررت شيئاً ما في نفسها لم تفصح عنه .... أصرت بعد سنوات أن يفعل شيئاً، أن يتقدم ويخطبها ويتزوجا. تركها دون جواب، بدأت تمانعه وهو يماطلها حتى فرت ثانية إلى النوادي .

لم يُر يعكوب مرة واحدة مبتسماً، ينتقم من كل الذين يصادفهم في طريقه لأتفه الأسباب.

تعرف قيادة السجن صرامته وظلمه للسجناء فأوكلته بأمرهم وأعطوه صلاحيات واسعة. كان مميزاً بحنقه وشتائمه وبأنفه الأفتس وشفثيه الدسمتين، قال لعمر:

- أستطيع أن أعيدك إلى المنفردة، إياك من التصرفات اللامسؤولة، أي مخالفة في الغرفة ستقع عليك، فقد حدثني عنك مدير القسم عاموس الذي ستمثل بين يديه الآن... أحذرك أي كلمة ستؤدي بك إلى الجحيم .

في مكتب المدير لوحة تمثل السجن وأقسامه وملحقاته ومخطط تفصيلي يبين القسم المسؤول عنه، وخارطة ثانية تبين مدينة الرملة والقرى والبلدات والمستعمرات

الملحقة والتلال والوديان المارة بها، قال عاموس :

شكراً سيد يعكوب دعنا وحدنا .

نظر مدير القسم إلى عيني عمر وقال في نفسه كل منا مناسب للآخر في الشكل، فلم نختلف؟ تناقش في البداية معه حول ذلك. فأجاب عمر بما لا يقبل الشك بأن الأمور لا تقاس بالشكل، بل بالجوهر .

عندها دخل المدير في حديثه فقال:

- أنا أريد أن أحكي معك حديثاً ودياً، لن أسجل شيئاً، فليس لدي آلة تسجيل ويمكنك أن تتأكد من ذلك، ولا يوجد من يسجل أقوالك، حتى قلّمي سأضعه على الطاولة، عليك أن تناقشني بأفكارك دون خوف وتجنب عن تساؤلاتي، فأنا احترم وجهات نظر الآخرين، وخاصة كونك قيادياً، في البداية أحب أن تحدثني كيف يحيا القيادي في أي منظمة ؟

- يوم كنت في الأغوار كنا نعيش قيادة وكوادر وأفراداً حياة متشابهة. أما اليوم فقد اختلف الأمر، القيادي في أية منظمة يمارس عكس مايقوله، أما الحياة الاجتماعية فهي بالضبط كحياة القيادي عندكم، يأكل أكلاً لا يتناوله أحد من الشعب ويشرب نخب القيادة ويعاشر الشقراوات وله رقم حساب في الخارج.

- إذن أنت علي خلاف مع قيادتك ؟

- نحن لا نستطيع أن نكون إلا مع قيادتنا، فليس لدينا خيارات أخرى، بلادنا محتلة والحكام العرب لا يقبلون ثورتنا.

- إذن لماذا لا تجلس قيادتنا وقيادتك ونشرب نخب السلام!؟

- تريد أن تقول الاستسلام وهذا ما ترفضه القيادة .

- وأنت؟

- أنا دفعت شبابي وحياتي فداء للثورة والوطن ولن أقبل عنهما بديلاً .

- إذن لن نتفق !

- سجين وسجان بالتأكيد لا شيء يمكن أن نتفق حوله .

في المهجع الذي أدخل إليه متناقضات غريبة، الجدل السياسي يأخذ منحى غير صحيح كل واحد يتهم بتنظيم الآخر بالتقصير أو عدم العمل، ويصل هذا إلى حدود الضرب. الشيخ خالد بيده القرآن وحوله أثنان، يتلو ما تيسر من سورة مريم:

" قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً. قال كذلك ربك هو عليّ هينٌ ولنجعله آية للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضياً . "

أربعة يلعبون الورق ويصيحون فرحاً لدى انتهاء الشوط، ليبدووا شوطاً آخر من جديد، غير أبهين بمن يقرأ من القرآن ولأمن يناقش بالدين. السجان حاييم شال فتح الطاقة كعادته ضحك وعندما نظر الجميع تجاهه، أخبرهم بأنه جاهز لأية خدمه مادام كل شيء بثمنه .

حاييم مهرب حشيش وأفيون ألقى القبض عليه حكم ثلاث سنوات، بسبب مقاومته الدورية التي جاءت لاعتقاله، جرح أحد أفرادها، إذ ضربه سكيناً في خاصرته، أمضى سنة ونصف في سجن الجنائين الإسرائيليين، ثم حول كسجان على المهجع الذي سمي باسم مهجع المشاغيين .

عقد صداقة مع كل من عايد مصطفى وبدر يوسف .

عايد اتهم بقيادة خلية فدائية، ضرب على رأسه وجسده وتألم كثيراً. في اليوم الثاني والثالث بدأ يشكو من ألم فظيع في رأسه ثم حالات إغماء يتلوها ألم شديد، بعد شهر حول إلى سجن الرملة بعد أن تأكد مدير سجن المسكوبية في القدس بأنه أعطب عقلياً وبات مختلاً، وبدل وضعه في مستشفى الرملة " بيت حوريم " أودع السجن. تأتته نوبات هستيرية وعصبية، يأخذه حاييم ويعطيه حبوباً مسكنة، فينام مدة طويلة وعندما يفيق ينظر حوله، ثم يهيج كالجمل يرغي ويزيد، يضرب الحائط ويعض يديه ولا يهدأ إلا بعد تناول حبة من هذه الحبوب، أعتاد عليها ولم تعد تعطي مفعولها، فبدأ يعطيه كمية من الحشيش، فأخذت تظهر عليه بعض العلامات كاحمرار عينيه وسعاله المترافق مع بلغم. البرودة تسري في أطرافه مع عرق بارد وفير، ومع الزمن لم يعد يتمالك نفسه فبدأ يبول على ثيابه، ثم صار يفعلها تحته، انقلب وجوده إلى مصدر ازعاج وروائح واخزة وكريهة .

أما بدر يوسف فيقال إنه هو الذي شجع عايد على تناول الحشيش، له طبع سيء يستهزئ بالآخرين، يحتقر الموجودين في الغرفة ويتشاجر معهم، تبدو عليه علامات عدم التوازن، إضافة إلى استدعائه إلى الشاويش يعكوب مرة أو مرتين في الأسبوع.

في الأيام الثلاثة الأولى لم يتكيف عمر مع هذا الجو، فوضى، إزعاجات، مشاحنات مرض وأصيب بالدوار ووجع المعدة، ناوله حاييم حبة معدنة فرماها في وجهه وقال له :

- سأظل يقظاً من أجل أمثالك .

التفت السجناء إليه، عرضت ابتساماتهم وزينت ثغورهم. بدأت الشكوك تحوم حول بدر في الأيام الأخيرة، راقبوه، استدعي من قبل الإدارة، فسارع عمر إلى تفتيش ملابسه، وجد عنده دفترًا دون فيه بعض الملاحظات عن السجناء، وعلبة أقراص منوم وزجاجة شراب لها الفعل ذاته، إضافة إلى كمية من الحشيش. عند عودته تعاون بعض السجناء عليه، أدرك إنه اكتشف حاول الهرب إلى غرفة العار، فلم يمكنه عمر من الوصول إلى الباب وإخبار العسكري بقراره، ناوله ضربة على بطنه وأخرى على خده فوق مغمى عليه، قعد على بطنه، سأله:

- ما الذي فعلته يا خائن ؟

- سأعترف بكل شيء فقط أبعادوا يد عمر عني.

- نعم أنا مذنب وأطلب الصفح، كنت أتجسس عليكم.

- لم فعلت ذلك ؟

- وعدوني بإخلاء سبيلي. أنا مكلف بنقل تقرير نصف أسبوعي إلى الشاويش، وإلى الآن لم يفوا بوعدهم لقد خذلوني. أنا تائب على يدكم .

لكن هذا لم ينفذه من الضرب، وصل صوته بعيداً فحضر كل من حاييم والعسكري ناحوم والشاويش يعكوب، الذين دخلوا إلى المهجع وخلصوه من الموت. اقتادوا بدرًا، ومن يومها لا أحد يعرف عنه شيئاً .

رمى الشيخ خالد الحبوب المهدئة وكمية الحشيش في المراض وسكب فوقها الماء حتى تأكد أنها وصلت إلى المجرور العام. استغفر ربه وجلس مكانه، تناول القرآن وبدأ يقرأ سورة يوسف. بعد قليل جاء التفتيش فلم يجدوا شيئاً .

عايد ظل طوال أسبوعين تأتية نوبات عصبية وهستيرية والسجناء صابرون على بلواهم، حتى جاء يوم بدأ الاتزان يعود إليه تدريجياً، لم يمض شهر حتى عادت قواه العقلية بشكل نشط، فحمد الله وشكره كثيراً على خلاصه من بلوى المخدرات، ترافق هذا مع نقل السجان حاييم من القسم.

مع بداية عام واحد وسبعين تخلص المهجع من سيئاته، فقرروا الاحتفال بالعام الجديد، حاول الشيخ خالد واثنان معه عدم المشاركة، ابتعدوا عن الجماعة، حجتهم في ذلك أن الاحتفال الحقيقي في عيد رأس السنة الهجرية، فساد الفلق والترقب، استعرب الأكثرية هذا الموقف، ناقشوهم بعصبية، تدخل عمر لحسم

النقاش حول هذا الموضوع بقوله:

- إما نحتفل جمعياً أو لا نحتفل، أرفض مبدأ الاحتفال دون مشاركة تامة، نحن هنا إخوة ورفاق درب وسلاح، الفرح للجميع والحزن للجميع، وبما أننا تخلصنا من قاذورات الغرفة، فقد بات من حقنا الاحتفال، أليس كذلك؟

قَبِلَ الشيخ خالد عمر وقال :

- الفرح للجميع والحزن للجميع، لنحتفل إذن .

بدأ الاحتفال بإنشاد موشح أداه الشيخ وأربعة من أصحاب الصوت الجميل. بعد ذلك ترددت الأغاني الوطنية، والأغاني العاطفية، ثم تحدث بعضهم عن أغرب موقف مضحك واجهه. دقت الساعة اثنتي عشرة دقيقة، وضعوا ما عندهم من طعام، تلا ذلك هرج ثنائي وثلاثي استمر حتى ساعة متأخرة، على ضوء الشموع الخافتة .

في الصباح وفي تمام الساعة السادسة فتح الباب وصوت الطرقات عالية تتردد في أرجاء الغرفة، أفاق الجميع وهم ويفركون عيونهم، صاح الشاويش بصوت عالٍ: " اسفيرا"

لم يترك أحد منهم فراشه ولم يصغوا لكلامه نادى ثانية وبصوت أعلى " : انتباه ... التقعد " أخشيف ... اسفيرا" مع قرع الباب. أخذ التقعد اليومي وغادر إلى غرفة أخرى. بعد ساعة أحضروا فطراً جيداً، هو عبارة عن بيضة لكل سجين وعشر حبات زيتون مع رغيف من الخبز الساخن والطرير. هذه الكمية بالعادة لا تعطى إلا في المناسبات، وهي ضعف الكمية المقدمة يومياً على الإفطار .

استعدوا للفورة بينما عمر والشيخ خالد يستعدان للخدمة الذاتية، التي تتمثل في التنظيف والطبخ. حاول بعض السجناء إعفاءهما من ذلك، ولكنهما رفضا وأصرأ عليه. بعد أن انهيأ عملهما تناقشا، بدأ الشيخ حديثه:

- أنت بركتنا وتصير قدوتنا إذا صليت .

- دع هذا جانباً على أساس أن لكل منا مبدأه، نختلف من أجل الوطن والعمل الأفضل، هناك ما نلتقي عليه، كوننا ندافع عن قضية واحدة ضد عدو مغتصب وضد العبودية وطغيان رأس المال الذي يحول الإنسان إلى أداة .

- إذن أنت شيوعي !

- ليس هذا بالضبط، أنا مادي أو من بالفكر بالجدلي .

- المادي ملحد!

إذن اختلفنا في البداية .

اقترب منه الشيخ خالد، وضع يده في يده تعاهدا على التعاون. كان هذا الموقف لطمة كبيرة لإدارة السجن، قدروا أن وجودهما في غرفة واحدة سيؤدي إلى شجارات لها أول وليس لها آخر. لكن عندما وصلت التقارير إلى مدير السجن العام ليفي جونسون، لطم على خده، ووجه كتاب توبيخ إلى عاموس لسوء تصرفه، بينما اعترف بينه وبين نفسه بأن عمر إنسان غير معقول أبداً، لا بد من تحطيم نفسيته، وإذا لم نقدر فالحل الوحيد هو قتله .

ترك عاموس مكتبه وتوجه إلى مكتب ليفي جونسون، وهناك تلقى أوامر صريحة حول مراقبة تصرفات عمر وزرع أحد العملاء في غرفته، ونشر الدعايات والايقاع بينه وبين الشيخ خالد على أساس عدم جواز تعاون الكفرة والمؤمنين، والتركيز على أن الفرق في إسلامهم ما بين المسلم والكافر ترك الصلاة. " أعتقد أنك عرفت مهمتك جيداً، أعلمني بالنتيجة أولاً بأول "

- سيدي، الشخص الذي زرعناه في غرفتهم كشفوه وطردوه، من الصعب الآن زرع غيره، حتى لو فعلنا، فإنهم متماسكون بشكل غريب، تصوّر بأن الماركسيين لا يسمحون لأحد بأي كلمة أثناء إقامة الصلاة، ويقال بأن الروحانيين والماديين متفقون، كما لو كانوا في تنظيم واحد .

- إذن عليك أن تذل الشيخ بأي طريقة وتفقد هيبته الشخصية ومكانته الدينية، فإذا ترعزت ثقته بنفسه وثقة الآخرين به، نكون قد وضعنا قدمنا على الطريق الصحيح. مثلاً تجعل رجالك يبيثون دعايات حوله، عاملوه على أساس أنه كافر .

- سأحاول كل جهدي .

تراجع قليلاً وأدى التحية ثم انصرف وهو حانق وحاقد. على الفور استدعى الشيخ خالد، تركه في الغرفة ساعة كاملة، ثم طلب منه العودة إلى مهجعه وذلك مدة سبعة أيام وفي اليوم الثامن، جاءه عاموس وخاطبه :

- ياشيخ خالد أنا لم أصدق الدعايات التي وصلتني، باختصار أنت مادي أم روحاني ؟

- معاذ الله أن أكون مادياً

- ألا تعرف الحكمة التي تقول بأن الشخص يعرف من قرينه " قل لي من تصادق، أقل لك من أنت " وأنت لا تصادق سوى عمر، الشخص المادي في غرفتك .

- لا شيء يعيبه، إنه قائد وطني ويشرفني الاقتداء به .

- إنه ماركسي كافر !

- وليكن ماذا في ذلك نحن متفقون على أمور أكبر من ذلك .

جن جنون مدير القسم، لم يتمالك أعصابه، فقال للعسكري، خذه من أمامي، إنه يغيظني بطريقة لا أحتملها، خذه وقل له ممنوع من الصلاة داخل الغرفة.

عندما حدث الشيخ رفاقه عن مقابلة عاموس قال عمر:

نحن معك يا شيخ خالد كلنا نقف إلى جانبك، منذ اليوم عليك أن ترفع الأذان ثم تصلي ويوم الجمعة تلقى فينا خطبتها .

تذكر أمه التي تلبس ثوبها الأبيض وقت الصلاة، وكيف كان يناكفها عندما تقطع حكايتها أو توجلها إلى ما بعد صلاة العشاء. تطيل الركعات فيذهب إلى فراشه حزينا، ينتظر جلستها والتشهد فعندما يرى الشاهد يرتفع ويرى تسليمها، يهرع إلى حضنها، أما إذا برم وجهه فإنها تتأديه " تعال يا عفريت أنهيت صلاتي، تعال لأقص عليك حكاية مشوقة " .

تحمله وتضعه في حضنها ثانية، تقبله، ينظر إلى وجهها، يدقق النظر إلى مساماته وإلى عينيها السوداوين ووجهها الحنطي بقوله:

- أنت جميلة يا يمّا !

- أنت أجمل يا ولدي، عينك ما شاء الله زرقاوان، ووجهك اللهم صلي على النبي مثل المصحف.

يردد ما قاله فترد عليه :

- لو لم أكن جميلة لما تزوجني والدك، ما الذي أصابك كأنك تراني لأول مرة، أو كأني غائبة عنك سنة، ألا تريد الحكاية !

يستعد ويصغي لسماعها، مازال يذكر تفاصيل حكاية " ابن البائرة "

كان يا ما كان يا مستمعين ... دخل أخوه عدنان يناديها لتعبر المنخل لابنة الجبران. وفي هذا الوقت طلب أبو عدنان فنجان قهوة. ضجر عمر من هذه

المقاطعات والطلبات، حكاياتها شيقة، سمع منها حكاية جبينه التي ظلمت ولكنها أنصفت في النهاية وعادت إلى أمها تمسح بيدها على عينيها لتهبها النور كما وهبت الحياة والخضرة لأرض وطنها .

اقترب من أمه قبلها وقال :

- هيا حدثيني .

بدأ يتقلب في حضنها ويصدر صوتاً شبيهاً بالبكاء .

نظر أبو عدنان وقال مخاطباً إياها :

- ألم ينم العفريت بعد ... أنت تدليلينه يا أم عدنان !

- ولو يازوجي إنه عمر أنسيت كم تحبه ؟

قالت ذلك والتفتت إلى عينية الزرقاوين صلت على النبي وبدأت الحكاية :

" كان يا ماكان في قديم الزمان، كان لرجل ثلاثة أولاد. اثنان من امرأته الجديدة وواحد من القديمة التي يدعونها " البايرة " أراد أن يمتحن أولاده...نمت يا حبيبي طيب بكرة أكمل لك الحكاية " .

صباحاً أفاق باكراً دس رأسه في حضنها وقال :

- هيا أكملني الخرافة .

- النهار للعمل يا حبيبي والذي "يخرف " فيه تصير نقوده المعدنية تنك .

مازال يذكر تفاصيل الحكاية التي تتكرر كل يوم، قال في نفسه إنهم هناك شرقي النهر أبناء الجديدة الذين يرفضون اجتياز المخاضة ونقل الثورة إلى الضفة الغربية .

نظر إلى الشيخ، اقترب منه وقال:

- وحد الله يا رجل أراك مهموماً، منذ ساعة وأنا أراقبك ما الذي حصل

!□□□؟

- لقد تأخرت أمي، كانت تزورني كل شهر أخاف أن يكون قد حدث لها

مكروه، هل تصدق يا شيخي بأنها حياتي !

- ألا تذكر حديث الرسول الذي أوصى الإنسان بأمه حين سأله أعرابي من

أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله فقال له، أمك، قال الأعرابي ثم من، كررها الرسول ثلاث مرات ثم قال بعد ذلك ... أبوك .



عرف عمر بأن التهمة الموجهة إلى الشيخ هي إيواء " المخربين "، حدث ذلك عندما قبضوا على ابن أخته القادم من الأردن. سألوه فاعترف بأنه مر ببيت خاله في إحدى دورياته، اعتقلوه وعذبوه سألوه عن صلته بابن أخته، وإلى أي تنظيم ينتسب ؟

أجابهم: أي محكمة في العالم تدين الخال إذا استقبل ابن أخته وضيغه !  
حكموا عليه بالسجن خمس سنوات .

قال عمر: عندما تخرج عليك أن تعمل وتحرض الجماهير ضد الاحتلال في خطب يوم الجمعة وغيرها، وتحكي لهم قصص السجون .

- هذا أقل ما سأفعله، سنتسمع عني الكثير، أنا متأكد بأنني سأعود إلى السجن ثانية، لكن هذه المرة بتهمة حقيقية.

## - الفصل الثاني عشر -

في سجن الرملة الاستعدادات على أشدها ليلة الخامس عشر من أيار أربعة وسبعين، في تلك الليلة المظلمة أنير السجن ثم ارتفعت الأصوات ثم الغناء، قال العسكري ناحوم إنه "اليوبيل الفضي" فهقه ورفع صوته بالغناء، مرعاموس على غرف السجن، ضحكته تصل إلى أذنيه تفقدها عند الغروب ثم قدموا العشاء، فتحوا أبواب الغرف وسمحوا للسجناء بالخروج وسماع الحفلة طوال الليلة.

بدأت إذاعة السجن تبث الأغاني على أنغام الموسيقى. قال المذيع بفرح " لا نوم هذه الليلة، نحن معكم وأنتم معنا حتى بزوغ الفجر، سنقدم كل جميل ورائع من الأغاني وموائد الطعام على شرف إقامة دولتنا. في مثل هذا اليوم وقبل ربع قرن كتب الإسرائيليون بدمهم النور لكل يهود العالم. حققوا الاستقلال لدولتهم التي ستمتد حدودها إلى الماء ....."

توقف المذيع عن البث ليعلن حضور طاقم السجن وعلى رأسهم ليفي جونسون، أدو التحية العسكرية، دخل وتبعه المدعوون والطاقم الفني. بدأ البث لمجموعة أغانٍ تمجد قيام إسرائيل، وبعد فاصل موسيقي ذكر المدعوين بأن الحفل الفني سيستمر حتى الصباح .

شعر السجناء بضعفهم انكمشوا على ذاتهم، نظر بعضهم في وجوه بعضهم بعضاً، لم يتمالك الشيخ خالد نفسه، انزوى وبدأ يجفف دموعه. اقترب منه عمر وقال:

- ما هكذا يفعل الرجال!؟

- دلني أين هم!؟

كان لجملته وقع قاتل، حبس دموعه، بدا التوتر عليه، قام وتحرك في الغرفة حدق برفاقه وقال:

- أقسم يا شيخي بأن الذين لا يحسبون حساباً لذلنا سفلة، عليهم أن ينسقوا

مع إخوتهم العرب، ويوقفوا جدالهم العقيم، فهم يتحدثون أكثر مما يفعلون .

كان السجناء يخرجون من غرفهم ويعودون إليها، راقبوا طلوع القمر بعد العشاء بقليل، ربما يرونه للمرة الأولى من سنوات، مرّ القمر بعد طول ترقب بالرملة يحجل على قدم واحدة، مرّ قبل أن يستحم أو يغسل وجهه، مازالت آثار الكرى تغطي عينيه، جاء عابساً، كتم ضحكته ونوره، حاول السيطرة على كرويته ليظل رشيقاً، مرّ النسيم أمام أنفه عطس وتخلص من بقايا الدخان العالق في رئتيه، حين تعدى غيمة رمادية، إذ كاد يختنق فاستمر يسعل سعالاً جافاً، ليخرج ما علق في صدره، فعل ذلك مرات عدة قبل أن يسطع نوره .

أشرايت الأعناق إلى الأعلى في حالة ذهول لامثيل لها، قبع عمر في زاوية الغرفة وضع يده على خده، الحزن مائل في ذاكرته، الخيول تتسابق حول دائرة لايزيد قطرها على شبر. جياذ هرمة تدور دورتين ثم تجثم على صدره، كتيبة ارتدت وسدت النوافذ التي تصله بالعالم من خلال ما يدلف للغرفة من أناس وأخبار وقصاصات، مشاعر الإحباط تلفه، لا شيء يدعو للتفاؤل، وضع يده على خده بدا عليه التعب وأصابه شحوب وهم.

سافرت الغيوم وتبددت في فضاء الصحراء الواسعة، التي ظلت تروي برمالها وعطشها القلوب الضمأى. أخذت إجازة طويلة يوم رحلت أشهر الشتاء ومعها نيسان، لم تترك للناس سوى لونها وعمتها. من يومها والسواقي تقتحمك أسوار السجن، فتدخل رغماً عن الحراس، وبعضها يسقط جريحاً عند البوابة الخارجية، فتتكسد أكوامه على شكل هضبة. حلق الشيخ إلى رفاقه وقال بينه وبين ذاته:

" عمر من الرجال النادرين الذين يبتسمون وهم في أشد حالاتهم حزناً. مخلوق عجيب دمعه عزيزة لدرجة أن خروجها يساوي رجولته، تظل واقفة أو متوحدة مع قطرات دمه ."

الحياة حقل مجذب وواسع كصدر يمرغ الصغير فمه على حلمتيه ولا يجد قطرة حليب، صدر يمرغ فيه آخرون وجوههم فلا يجدون اللذة. في تلك الليلة سهر لا يسمع غناءهم ومرحهم بل ليردد تناويح قلبه. تذكر أن الحياة جميلة، ضم يديه إلى صدره فارتدتا وعاد الحزن يتشكل من جديد دائم الحيوية والرقص البهيمي .

لم ينم تورمت عيناه من السهر، وثقل رأسه، أصوات منكرة تأتيه مع الموسيقى، تحسس مقدار الحزن والمصيبة، لكن النوم سلطان يأتيه للحظات، يطبق جفنيه وكالمقروص يهب مذعوراً. طال الليل وتمدد، وكأن الزمن انمحي من

الوجود، إذا توقفت الدقيقة نافثة شعرها مشهرة أظافرها في رقبتة. تمنى أن يتحرك الوقت كعادته ولا يقف على قدمين عرجاوتين تمنى طلوع الفجر. الأصوات في الخارج تؤذي حواسه. أغان ورقص ومزاح وقهقهات تنتشر في سرديب السجن. أنصت الفجر لهذه الأغاني فنسي إنهاض الشمس التي غطت في سابع نوم، فما كان منه إلا إدارة ظهره للشرق. لم يفق أي من السجناء كما لم تغرد عصافير النهار، تخيل أصواتاً آتية من الشمال، أصغى فإذا بها زقزقات، فرك عينيه واستحضر حواسه ليتأكد إن كان ما شعر به حقيقة أم وهماً.. احتقت الأصوات وبدا المكان مهجوراً. لا صوت ولا حركة سوى دقات قلبه التي تصل إلى اسماعه واضحة، مازالت أذنه متعودة على السهر وسماع الأغاني حتى ساعة متأخرة وأحياناً يظل مستيقظاً، تذكر أم كلثوم في أغنياتها الجديدة وسهره معها لحظة بلحظة، حين كانت تقدم أغنية الموسم فتردد الآه والهوى والجراح .

الظلام ينقل صوت " ياظالمني " وهي تردده وتمزق المناديل منديلاً تلو الآخر، وتتعالى الصيحات. كاد يصيح مع الصائحين، لكنه في اللحظة الأخيرة لم يفعل. غلت أمه البابونج ودارت بيدها دورات عدة حول رأسه وهي تبسمل وتقرأ بعض الأدعية، ثم تتنأب، للؤلؤة الغالية تتحدر تجاه خدها، تتلوها لآلى أخرى وهي تقول " سلامتك يما عمر يا غالي، نذر وأمانة إذا شفيت لأذبح خمسة ديوك وأجمع نسوة الحارة في هذه الغرفة وأقرأ المولد النبوي، وأوزع عليهن وعلى أطفالهن صرر الملابس ".

برت بوعدها. بعد أسبوعين نزلت إلى السوق واشترت الديوك المنذورة وصرر الحلو ودعت جاراتها ونساء الحي. بعد المولد مباشرة شعر بأنه قوي الجسم ومعافى أمده الله بقوة من لدنه .

رأسه ينوس ويتمايل إلى الخلف والأمام، فيرتد النعاس مع ارتداد رقبتة إلى الخلف، يفرك عينيه تارة ثم يعتدل ويقعد. في هذه اللحظة أفاق الشيخ خالد كعادته صباحاً تعوذ من الشيطان الرحيم ووجد الله ونظر حوله. النور المتسلل قليلاً ساعده على الرؤية. فسلم عليه وقال:

- أمازالت مستيقظاً؟

- ما الذي أفعله إذا كنت في وضع نفسي صعب؟ سوى قتل ذاتي. في ليال كهذه يطير النوم من عيني!

- وحد الله يا رجل وطرده الشيطان ... أنا سأدعو لك في صلاتي .

- أشكرك يا شيخي .

توضاً الشيخ وصلى ركعتين ثم تمت، وبعد فترة طويلة من الدعاء. نادى عمر ثم اقترب منه، مازال الوقت باكراً وأمامهم ربع ساعة على موعد التعداد الصباحي المعتاد إذا لم يتأخر. بعد ساعة جاء الشاويش، وجهه مسود، طرق الباب بشدة فأفاق الجميع، وبدل قوله " اسفيرا" وعد السجناء، طلب عمر في الحال، ولولا خوفه من السجناء لجره، إذ عندما تأخر قليلاً تقدم منه وصاح في وجهه وجره من يريد قائلاً :

- هيا لا وقت للهو الآن ... بسرعة هيا المدير العام للسجن طلبك، وقعتك سوداء، هيا ولا تنتظر إليّ، سنرى بعد قليل وتعرف خطورة الموقف !

- ما الذي حدث أيها الشاويش ؟

- كل واحد يضع حذاه في فمه ويخرس .

كان الجواب صفة للجميع، لقد تأكّدوا أن شيئاً ما وعلى درجة كبيرة من الخطورة قد حدث. إن طلبه في الصباح الباكر بعد سهر ليلة كاملة احتفالاً ونشوة بقيام إسرائيل، شيء غير طبيعي !

نظر بعضهم إلى وجوه بعضهم الآخر، قال الشيخ خالد للشاويش :

- أنت مخطئ أيها الشاويش، إن جوابك هذا دال على أنك لست في وضع طبيعي، عليك الخروج ثم العودة بعد أن تهدأ وتطلب رفيقنا بأدب، وتعتذر منا .

- أنت مخطئ أيها الشاويش، إن جوابك هذا دال على أنك لست في وضع طبيعي، عليك الخروج ثم العودة بعد أن تهدأ وتطلب رفيقنا بأدب، وتعتذر منا .

- أنت تعرض نفسك وكل من في الغرفة لعقوبة شديدة ومدمرة أيها الأفاك .  
اخرس وإياك النطق بحرف واحد .

انتهى عمر من ارتداء بنطاله وقميصه، وكان هذا كافياً لإنهاء النقاش. جره إلى خارج الغرفة. مدير السجن العام ليفي جونسون ومعه كبار الضباط بانتظاره. أعطى أمره بإدخال عمر إلى غرفة الإدارة، ظل الجميع في أماكنهم، قال: سأفأوضه، لن أتأخر، التعليمات المشددة وحالة الاستنفار مستمرة. سننطلق بعد ذلك إلى معالوت ؟

قال ليفي بأدب مصطنع: تفضل سيد عمر اجلس على الكرسي، أنا بحاجة للنقاش معك.

- ما الذي حدث حتى تطلبنى في الصباح الباكر وتناقشني؟!
- لا شيء.. اسمع وأجب عن سؤالي. أنت كما سمعت عنك إنسان جيد، يحب الآخرين، ويتمنى لهم السعادة، وقد وصلتني تقارير تؤكد تفانيك في العمل من أجل الصالح العام. نحن أعداء لكن ما علاقة أطفالنا بالعداء؟ أعرف أيضاً: أنك تحب الأطفال حتى ولو كانوا أعداءك ... ماتعليقك على ذلك؟
- أنت تفاجئني بكلامك، لا شيء أعلق به!
- طيب إذا كان بيدك بارودة ورأيت أمامك أطفال هم طلاب مدرسة يهود، ولا أحد يراك، هل تقتلهم؟
- بالتأكيد لا فالطفل لا يتحمل غلط والده .
- إذا نستطيع أن نتفاهم .
- نتفاهم على ماذا!
- سيد عمر " مخربون " دخلوا معالوت واحتجزوا أطفال المدرسة هناك وهم يهددون بقتلهم.
- أنت تقول " مخربون " ما علاقتي بهم!
- إنهم من جماعتك .
- وضح الأمر أكثر.
- هناك ثلاثة أو أكثر من الفدائيين يحتجزون رهائن .
- ما المطلوب مني؟!
- أن تعطيم الأمر بإطلاق سراح الرهائن، ونحن سنطلق سراحك .
- أريد أن اطلع على البيانات الصادرة من طرفكم ومن طرفهم .
- لا وقت أمامنا المطوب أن تذهب معي وهناك ننفق. وزير الدفاع سيفاوضك بنفسه .
- رَن جرس الهاتف، أمسك جونسون السماعة، ثم أجاب :
- أنا هو ... طيب ... أمرك سيدي .... سنكون عندكم بعد نصف ساعة .
- وضعوا القيد في يديه والعصابة على عينيه، قاده أحد الجنود، ركب في سيارة جيب عسكرية برفقة مدير السجن وبعض طاقمه. وصلت السيارة إلى مطار

حربي، استقلوا طائرة مروحية. لفت دورة ثم اتجهت شمالاً وماهي سوى دقائق حتى سمع صوت ليفي يقول، فكروا العصابة عن عينيه، نحن الآن فوق معالوت، دعوه يرى الاستعدادات ...

شاهد بناء محاطاً من جهاته الأربع بالمدرعات والسهل مزروعاً بالجنود والدبابات والسيارات العسكرية، إضافة إلى مجموعة طائرات مروحية تلف حول المكان .

قال ليفي :

- لن يستطيعوا فعل أي شيء كما ترى، المكان محاصر، نحن نضمن سلامتهم إذا سلموا أنفسهم ونعد بإطلاق سراحهم، فإذا تم هذا بسلام سنرحلكم على متن طائرة خاصة إلى دمشق.

أنا لن أغير بلدي !

- هذه شروط جبهتك.

سمع نياً وصوله، فجاء الرد من قبل الفدائيين، نحن لينو وحربي وزياد بانتظار أوامرك. أنت قائدنا، فبماذا تأمرنا؟! نريد أن نراك ونسمع صوتك، اقترب منا أكثر .

حمل عمر القاسم مكبر الصوت، اقترب حتى صار في مواجهتهم، رفع يده محيياً، فرفعوا أيديهم و أدوا التحية، قال:

- أيها الرفاق نفذوا ما جنتم من أجله، نفذوا الأوامر التي تحملونها بدقة وأمانة والنصر لنا .

تقدم ثلاثة أخذ أحدهم مكبر الصوت، بينما قاده الآخران بعيداً ليبدؤوا حملة تعذيبية وضريه، قالوا له :

- لماذا لم تطلب منهم الاستسلام، ستموت معهم !؟

انهالوا عليه ضرباً ولكماً، ضربه حتى نزف من أنفه ومن مواضع عدة من جسده، الكدمات تملأ وجهه، تمزت ملابسه... قيده ورموه في سيارة عسكرية .

توالى الأسئلة تصم الأذان، كل من في المهجع استغرب عودته بهذا الشكل، كانوا يترقبون عودته، لكن ليس على هذه الشاكلة! عندما تأخر سألوا العسكري الذي على الباب فلم يجب، انشغل فكرهم. وعندما عاد ممزق الثياب مدمى الوجه والجسد، وقفوا متجمدين في أمكنتهم، يسألون لماذا ؟

رمى نفسه على الأرض، قال بأنه تعبان ويريد أن يرتاح، سألوه ماذا حدث؟

فأجاب: الذي حدث فوق كل تصور !

قال الشيخ خالد: " كان الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه " استحلّفكم أن تدعوه يرتاح، وعندما يفيق سيحدثنا .

قال أحدهم: وهل نستطيع صبراً ؟

- ماذا نفعل سنصبر ، لا ترهقوا الرفيق دعوه الآن !

انطلق عزف حزين، الوجوه تنتطلع إليه، لقد استطاع عايد أن يصنع نايه ويعزف عليه. جوف عصاً. ظل شهراً كاملاً يشتغل بصمت، يفتت داخلها كما تفتت مياه الفيضانات التربة وتجرف الصخر، ثم بعد ذلك تقبها تقوباً عدة، منذ شهر وهذه العصا صديقته، كان يقول إذا نجحت في تحويل العصا إلى آلة موسيقية أكون قد حققت ذاتي، سترون موهبتي أنا الذي أطرب القطيع في جبال القدس. أدور في الدبكة كمن يبحث عن ظله وأحولها إلى احتفال مشهود. الكل يقول لحظة وصولي، جاء الشاعر، أسر لهذه التسمية تسمو روعي في السماء، أنفخ من ذاتي في الهواء القابع بين جدران الآلة النفخية.

فيتراقص نغماتاً وقصة عشق. يكفي أن تقول في بلدة شعفاط عايد لتسمع ألف زغرودة .

انطلق اللحن الحزين فأعاد كل واحد إلى ذاته، فتح عمر عينيه على الصوت الشجي، انحدرت غيمة من سمائه وقال :

- اعزف أيها الرفيق، أظن أن منفعدي العملية قد لاقوا حتفهم، لا مجال لديهم للنجاة .

توقف العازف ونظروا إلى عمر الذي خرج عن صمته. قال: سأحدثكم بكل ما حدث فقط انتظروني لحظة، أريد أن أشرب فنجان قهوة لأصحو.

أصغوا .... لم يستطع أن يتابع حديثه ويصف أصوات إطلاق النار والإنفجارات، لكنهم فهموا ما حدث. ارتفعت مكبرات في السجن تعلن موت " المخربين الثلاثة " فارتفعت من المهاجع أصوات الآذان :

الله الأكبر ... الله الأكبر

بعد دقائق اصطفوا جميعاً خلف الشيخ خالد يؤدون صلاة الغائب. أما عمر فإنه يراقب ما يجري في الغرفة. جروحه تنزف. الكدمات تورمت وانتفخ جسده. أن



من الألم، تجمع الرفاق حوله، اقترب منه الشيخ خالد. بيده مسح دمعة لم تستطع المقاومة، وعزاه بموت رفاقه وتبعه الآخرون. اعتدل في جلسته احتراماً لرفاقه، تحمل الألم بصعوبة بالغة .

أنهى الجميع العزاء فانبطح على بطنه يئن ؟.

- الفصل الثالث عشر - الخصرة حياة والشمس نور والظل محطة. طبيعة حباها الله من الجمال والشمس ما لم يهب غيرها، تلك كانت الأغوار. أرضها واطنة فقدت شموخها، وعلوها وهامت في عتمة الزرع وضباب الصباح. ومع أنها تحولت إلى جنة بلهاء، أشجار متشابكة ونباتات متعرجة زاحفة وناهضة ترسم الألوان الباهتة كامرأة سهلة التناول، لا شيء فيها استهوى عمر القاسم. حلقة من الجبال الداكنة يحيط بها جو رمادي وقبة سماء عالية، توهي كم من الحرارة تسلط شمسها، حرارة تذيب حديد السيارة وتشتعل الحرائق. أما في الشتاء فالجو دافئ شبيه بنهايات الخريف وأواسط الربيع، تستوطنها العصافير، فتصير أكثر جمالاً خاصة في الأشهر الأخيرة من فصل الشتاء عندما تتضج بعض الفواكه وتبدأ بعض الأشجار باظهار فنتتها ونوارها، بينما تكون الخضار قد أعطت ما عندها .

كل هذا الجمال لم يغره بالبقاء فيها، رآها ساحة حشر وموقفاً يتسع لأناس ينتظرون وسيلة نقل من عالم آخر، قدماه تنقلانه إلى حيث يحب. رياضة المشي تستهويه يستطيع قطع مسافات طويلة قبل أن يقعد ليرتاح. لا شيء في الظل جذبه. فلولاً وجود المقاتلين ومسؤولياته العسكرية لما بقي يوماً واحداً. يتطلع إلى الغرب. تكاد الدمعة تتفجر حين تقارن بين شموخ الضفة الغربية مدنها وقراها ومرتعاتها والنسيم الذي يلاعب نهايات شعره، يتلمس بيديه المواضع التي أشعرته بالبرودة، يزرر قميصه وينشد قصيدة أبي القاسم الشابي كاملة ثم يردد مرات " ومن يتهيب صعود الجبال، يعش أبد الدهر بين الحفر " رائعة المطربة التي حولتها إلى نغم وكلمة عذبة يتذكرها الناس .

صرح غير مرة بأن الأغوار مقبرتنا وتلك حياتنا وشموخنا فأيهما تختارون؟

يرددون خلفه: والله لو قطعت النهر ووصلت بنا البحر لقطعناه معك دون كلمة أفٍ. اذهب فنحن جنديك ولن نخذلك .

أما القيادة فكانت تردد بأن الشعب في الداخل لن يثور شرب لبن دولة إسرائيل وأكل عسلها، لن يعود إلى البادية، لن يحركوا ساكناً. سيظلون وراء النهر يحاولون تثوير الأمة، فيجيب بلغة كلها استهزاء " وهل أنتم تائرون حتى تثوروا

غيركم! إن شئتم الديننا ومتاعها فظلوا هنا، فهي مقدمة لكم على طبق من الريالات والدولارات. المال والجنس زينة الحياة الدنيا فعبوا منهما ما شئتم، أما أنا فلن أبقى هنا، هناك بيتي وشعبي وعدوي، صحيح هذه مهمة صعبة لا هروب منها، وقد تفقد الإنسان حياته، لكنه يهبها ويكتبها حياة جديدة لشعبه ."

أحس بالاختناق فالحرارة تصهر المعادن وتذيب الإسفلت، كل شيء يغلي، الدماء في العروق، المياه في الأنهار، الأرض والتربة، الحشرات الهائمة تطير على شكل حلقة أينما حل، يده مروحته. تقرصه وتلسعه فيحك ويهرش جلده فيصطبغ باللون الأحمر، وتتجرح بعض الأمكنة وتصاب بالخدوش وتتورم، يضع قطعة قماش مبللة بالماء، الرطوبة المرتفعة تحول جسده إلى مضخة عرق. يعود ثانية إلى حك يديه وقدميه ووجهه وبقيّة جسده، يحرك يده ليبعد بعضها يغطي وجهه ويلبس جواربه فتهجم عليه وتقرصه. بأظافره يخدش جلده ويبيده يدعك مكان الورم يحرك جذعه أشبه براقص محترف. كاد الدم يفرمن وجهه. انتفخت بقع من مواضع عدة من جسده كطفل أصيب بالحصبة.

يأخذ مجلة " الحرية "، يقلبها ويحركها لا ليقراً هابل ليحرك الهواء الثقيل. يبصق ويقول في نفسه، بئس المنطقة التي تغرق نسمتها في شبرماء.

الرياح البحرية الغربية والتيارات الدافئة من أغوار الشرق والغرب، فأينما اتجه يجد الزرقة المتصلة بالعمود الإلهي وبالمتوسط والميت والأردن. من باطن الهوى جنوب غربي الرملة البحر صفحة زرقاء وخيط عالق ما بين الزرقتين يهبط رويداً حتى يختفي عندما يصير الأفق محمراً، مجموعة أودية تتبع من مرتفعات البيرة ورام الله تهول غرباً لتموت في المنطقة ذاتها كوداي الكلب والعقدة والسومر، تزين الجبال نهوضها ببواكير الأزهار البرية التي تتسلم من العام الجديد تأشيرة حياتها كالنرجس الذي أخذ حق المرور والتفتح، بعد شهرين من الاحتفالات ذاتها ترسم الأزاهير تيجانها وعرشها على السفوح والقمم كالحنون... تتمايل الوليدات مع عذوبة النسمة لتصل إلى الشعاب والمغاور التي تأخذ أسماءها من بعض الرعاة كمغارة راشد وحسين ... وشعاب القدس .

أما مرتفعات نابلس فتحبط بها كالسوار حيث يأخذ بعضها شكل انفراج يتجه جنوباً وشرقاً وآخر شمالي غربي. عيبال أم الحجارة والوعورة ذات الارتفاع الشاهق، غرباً البحر يغسل وجهه وشرقاً واجهة صخرية تكشر عن أضرارها مواجهة للأغوار. وكما في التضاريس التواءات وانخفاضات كذلك أرض النار، أوديتها الفارعة والتفاح وقانه ونفعه وحريه، أما النهود فذراها الجبل الكبير جرزليم

والطور، والسهول التي تقع ما بين الذرا وهي عسكر والمحفة، وأهم المنخفضات مرج سانور ...

المغاور والكهوف بيوت الأجداد قبل آلاف السنين سيلجأ إليها ويبني التنظيم، هو أراد وأمريكا قالت لا فكانت كلمتها العليا. في السبعة وستين ظل في سلسلة الجبال الناهضة حوالي أسبوعين، اصطحب معه ثلاثة رعاة دلوه على تسع مغارت، وشاهد كهوفاً وأودية ومنخفضات وصخوراً ونباتات برية وشجيرات. رسم طرق المواصلات والإمدادات وبناء القواعد العسكرية والجماهيرية. نام في إحدها أسبوعاً، فم يشعر بالحرارة ولا بالحشرات. رطوبة تسرب في أوصاله، والنسمات تدخل إلى أبعد نقطة في المغاور. أحس بنشاط وقوة إضافية. كان يرى أن القواعد الحقيقية هي هناك قريباً من الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية بالتحريز والاستقلال، ولا غيرها قادر على تحقيق ذلك ومتابعة النضال، أما الشعارات البراقة فهي غطاء للضعف والخداع .

ناقش مع حبش وجبريل وقادة آخرين خطة تقضي بالعودة إلى الضفة الغربية وقطاع غزة وبناء تنظيم سياسي جماهيري، ثم التهيئة لاحتلال المرتفعات، يكفي في البداية تسلل عدد من العناصر و الكوادر والقيادات، وبناء خمس قواعد متحركة لتحول مع الزمن إلى قوة لا تقهر. أما القواعد الموجودة هنا فهي مكشوفة علينا بناء غيرها، بحيث يصير لك قاعدة ثلاثة مواقع تبادلية لتضليل العدو .

ردوا عليه فأجل مشروع الانتقال إلى الداخل أشهراً عدة، قالوا له ياعمرو لا نستطيع الاعتماد على الداخل، الجماهير هناك لن تثوروا تدعمنا، إنها تأكل المن والسلوى، بعد تجربتها السابقة التي مازالت ماثلة بين أيديها، تساءل:

- إذن من أين يأتي التحرير ؟

أجابه قائد كبير: " من هنا"

بتحكم صاح: " حي على الصلاة، الله أكبر ولا إله إلا الله، نصركم الله على أعدائكم إنه قوي متين! "

تركوه وهم ينظرون خلفهم، فقد كان حوله رفاقه المستعدون لاعتقال القيادة في حال عنادها أكثر، أو إذا وقفت في طريقه .

من أم قيس حتى وادي الكفرين القريبة من نهر الأردن، انتشرت القواعد الفدائية على طول هذه المنطقة، كل تنظيم بنى قواعده بشكل عشوائي ودون التنسيق مع المنظمات الأخرى. في قاعدة الكرامة الواقعة على الضفة الشرقية

لنهر الأردن، اختار عمر مقره، معه أربعون مقاتلاً، وفي مكان قريب بنى معسكراً للتدريب، رصدت " إسرائيل " المعسكر المحاذي لخط الحدود، الطائرات الحوامة والنفاثة تقوم بطلعات عدة في اليوم الواحد، كان هذا كافياً لإبعاد المعسكر وترحيله للخلف عشرة كيلو مترات شمال غربي وادي السير، ليكون غير مرئي لأنظار العدو، وبعيداً عن مدفعيته. كان يرى أن القواعد الثابتة هي محطات خطرة معرضة للقصف كل لحظة، وبدل معالجة الموضوع بشكل عسكري وقائي، تمددوا تجاه المدن أريد، عجلون، السلط، جرش وهي المدن المحاذية للأغوار أو هي مراكز مرتفعة كلها أحرش تصلح للإغارة والاختباء. حريص على عدم الإساءة للناس العاديين.

يسخر من الذين يرددون بأن التحرير يأتي من الخارج، عمان، دمشق، بيروت. ويرى فيه كلاماً عبثياً غير مسؤول ... تناقضه مع قيادته جعله يكتب بنيرانها، الثورة تفتح نوافذ وأبواب الصراع وهي غير مجهزة بالقادة القادرين على تسيير الدفة، حتى المتطوع غير مسلح بالفكر. داخل تنظيمه سعى لبث أفكاره التي حاربتها القيادة، بينما وجدت آذاناً صاغية من الكوادر العليا والوسيطه. تفكيره أخذ منحنيين، سياسياً مع ثلة من الشبان الذين يتبنون الماركسية ويعدون وثيقة لترحها في أول مؤتمر للتنظيم المقرر عقده في آب سنة ثمانية وستين عسكرياً يركز على الداخل، ويرى أن الأغوار خطوة مؤقتة للذوبان في الداخل، وإلا فإن النتيجة حصد المرارة والخذلان وحكمته في ذلك " ماحك جلدك إلا ظفرك، فتول أنت جميع أمرك ". يردون عليه بقولهم :

- أنت تستبق الأمور .

اشتكى عناصره من قلة الطعام وعدم وجود خيارات داخلية وخارجية، كانت عناصر فتح تلبس الثياب الأنيفة والحذاء الكتاني الذي يغطي إضافة إلى القدم قسماً من الساق، يحملون بنادق " كلشن أخمص طي " يظهرون أناقتهم ووسامتهم، ويدفعون عناصر المنظمات إلى الإنضمام لقاعدتهم، فالراتب الشهري يعادل الضعف، اللباس والغذاء أفضل بمرات عدة. حتى إن أحدهم تمادى ودعاه إلى ترك جبهته والانضمام للتنظيم الأكثر غنى، فما كان منه إلا ضربه وتخليصه سلاحه، ثم اعتقاله مدة يومين، قال له: اذهب وحدث قيادتك أيها السافل .

نادى نائبه وأخبره بأن القيادة تخطط لتظل خارج الأرض المحتلة لسنوات لا يعلم بها سوى الله، كلام المسؤولين كافة يشير إلى أن عمان هي " هانوي العرب " منها ينطلق التحرير، أما الأغوار فهي الخط الأول وعلى المقاتلين أن يذوبوا في

التجمعات السكانية. تساءل:

- هل تعرف أيها الرفيق معنى هذا الكلام؟

- القيادة تتخذ احتياطاتها لمواصلة طريق التحرير .

- إنه طريق التبرير، التحرير ينطلق من الداخل حيث جماهيرنا وأهلنا، القيادة أيها الرفيق تخطط لتظل خارج الأرض المحتلة، وما يهمها البقاء على رأس الهرم التنظيمي، أما أنا فسأجهز نفسي للعودة، لتطبيق قناعاتي .

لا حظ أن المقاتلين الذين التحقوا بالثورة هم في الغالب من أبناء الشوارع ناقصي التعليم والتربية. فإذا لم يكبح جنوحهم فإن الثورة ستكون مدرسة تخرج لوصفاً على درجة عالية من التفنن والمكر والمهارة والخداع، رأى عينات منهم جبانة، استغرب كيف يدخل الخوف قلب الفدائي، أليس هو من عمل روحه على راحته؟! سألهم فأجابوه، بأنها لقمة العيش، قال:

- هل تعرفون ما معنى أن يمسك أحدهم رأس الهرم العسكري وربما السياسي؟! الثورة مدرسة لتعليم هؤلاء فن القتال وفن صنع الحياة والتعامل والأخلاق، ألم تشاهدوا الأم الآتية من سورية كيف بكت عند الحاجز وهي تصيح " أنا بعرضكم أريد أن أرى ابني قبل أن أعود، دعوه معكم ...." ولولا تدخلني لعادت دون رؤيته. أه لو تصورتم كيف ركضت إليه وبدأت تتشممه وتقبله، ثم ركعت عند قدميه وطلبت منه أن يعود معها، لكنه رفض .

نظر إلى الذين استلموا مهمات القطاعات العسكرية، وحركاتهم الهستيرية واستهتارهم بالعدو، ورفع شعارات ديماغوجية، والتركز على التسلل خلف خطوط العدو وزرع لغم والعودة، أو تبادل إطلاق النار، إصدار بيانات كاذبة، لتُظهر منظمة مانفوقها العسكري. أشد ما حز في نفسه روح الشطارة والتعتيم على الأخطاء وإحاطة أي مسؤول بمجموعة من أقربائه، واتخاذ خط بيبرر للآخرين أخطارهم. غزا الحزن شرايينه، قلبه يكاد يتقطع ألماً، حاول أن يقول كلمة، فراحت كلماته في هبوب الريح.

كانت حركة فتح توزع على التنظيمات الأخرى التموين، جاءه عصراً من طلب إليه التوقيع على استلام دفعة معلبات، لم يخطر بباله أنها ناقصة. كعادته قبل استلام أي شيء يدقق ويفحص ثم يوقع، هاله أن يكتشف أن العدد المطلوب التوقيع عليه هو ثلاثة أضعاف الكمية المسلمة، قال بحسن نية:

- أين الباقي؟

- وقع يارجل سنتلافى النقص فى المرات القادمة .
- ماذا تقول ؟
- وقع يا أخ، توقيك لن يكلفك كثيراً. خذ هذا قلم.
- لن أوقع .
- إن شاء الله عمرك ما وقعت، أنا سأوقع، الحق علىّ الذي أشفق عليكم من الجوع .

تقدم منه وناوله على خده، ثم جذبته إليه بقبضة يده، فتكوم بين رجليه، حاول أن ينتزع مسدسه، لكن قبضة عمر القوية خلصته منه وقال له:

- هيا أيها اللص اذهب وحدث قيادتك .

- بعد ساعة واحدة كانت قيادة قواته مطوقة، طلب إلى عمر أن يسلم نفسه، وأن لا يتناول على أكبر تنظيم. اتصل بالأجنحة المنتشرة حوله والتابعه لقاعدته. فأخذت استعداداتها. بعد مفاوضات دامت ثلاث ساعات حلت المشكلة. وحرمت قاعدته من أي مساعدة .

لم تنته المشكلة عند هذا الحد، فقد جاءه في اليوم الثاني القائد العسكري لتنظيمه ووجه إليه إنذاراً شديداً باللهجة كيلا يعامل الآخرين بروح عدائية.

ظلت هذه تحفر في نفسه، لقد حرم جماعته من المعلبات والألبسة الأغذية، كان عليه للحصول على حصته أن يوفد أحد الضباط الذين يثق بهم، يشتمه ويتأمر معهم للحصول على لقمة الخبز التي لم تكن متوفرة في منظمته.

## - الفصل الرابع عشر -

الصديق عمر :

تعكرت مياه بردى، وتحولت الغوطة إلى ركام من الاسمنت، المكان الذي احتوانا جانب شجرة الجوز الضخمة، جاءت جرافة وسوته بالأرض. أزور كل منطقة ذهبنا إليها واتحصصها.

أعيش اليوم على الماضي. لو خيروا الموت للسكن، لوجد فؤادي المحطم أفضل مكان لراحته، دقائقه كادت تتوقف! ماذا بقي من الشباب سوى ما يجول في خاطري عن مشاويرنا؟! لم أعرف أن الحياة التي عشناها جميلة! فالإنسان قد يعيش وسط الجنة ولا يعرف قيمتها، الآن أذكر كل لحظة من اللحظات التي عشناها .

ما هذه المعادلة، نذهب إلى الأردن ومن هناك إلى القدس، وتحمل بلدك وتخرج إلى الأغوار! لماذا لا تأتي إلى دمشق؟ هنا قريباً من الجولان مجموعة قواعدكم.

لماذا لا تفرح قلبي مرة واحدة؟!!

سألت عنك الطيور فصفقت بجناحيها وغادرت إلى الجنوب، ألم تنقل بعض ما حملتها؟!!

أذهب إلى الجامعة وأجلس على المقعد نفسه الذي ضمنا ألا تذكره! كم حدثتني وأنا أسمع إليك، ليتني سجلت صوتك، ليتني لم أتركك تسافر أيها المجنون! ففي بلادنا يحجز عليه ويوضع قريباً من دمشق في مستشفى ابن سينا. نعم مستشفىك عندي وفي بيتي، ليتني قلت لهم، لا تدعوه يسافر، لقبقت قريباً مني، هل تشفع لي لو فعلت ذلك؟!!

مازلت أذكر بعض تعبيراتك الرائعة، وخوفاً من نسيانها سجلتها، لا شك في أنك تصلح أن تكون شاعراً، أديباً لو سلكت هذا الطريق، هل أذكرك ببعض

نصوصك :

مليون زهرة برية تشبهك  
واحدة لها صفاتك  
واحدة لها أنفاسك وأريجك  
واحدة فقط قادرة على الحياة في كل الفصول  
لا تذبل جدائلها  
ولا تصفر وجنتاها  
ولا تتوقف عن التغريد  
إذا عرف أحدكم ما اسم هذه الزهرة فليصرح !?  
ربما يكون مطابقاً لاسم وصال الرغوة .

حبيبي :

أبحث بين أشياءي عنك فأجدك أمامي وخلفي ومعى، أنت في الهواء الذي  
أتنفسه، وفي الماء الذي أشربه، اليوم قرأت لك هذه العبارات التي دونتها في دفنري  
منذ كنا في السنة الثانية، هل أذكرك بها؟ !

فتاة مثلك تخضر لها الدروب

تبتسم الأرض ومن نداها تتشكل الألوان المفرحة

وصال كلها مرح إن كانت في الأرض فلتمنحها خضرة

وإن كانت في السماء فلتهب الشمس من دفنها ولتطالع وجه البحر.

كلماتك تفقدني الحيلة وتحولني إلى ركام. لماذا تركتني؟ هل أمزق ثيابي و  
أخرج عارية وأقول سجلوا هذا ما فعله عمر القاسم؟ لماذا تركتني يا عمر، نعم إن  
ظروفنا مختلفة، وطريقنا ليس واحداً، لكن ضربات قلبينا متوافقة؟! ألم يكن بيدنا  
أن نفعل أكثر من ذلك! هل أنت قادر على التحرير؟ وهل أنا قارة على الصمود؟  
عودتني سماع أم كلثوم وها أنذا أسهر ليالي وأنا أسمعها تئن وتتعذب، فتخفف  
بعض شجوني أو تزيدها لا أعلم، لكنني والحق يقال أرتاح لسماعها، فسماعها  
جزء من وجودك وذاتك!؟

اليوم أردد بعض عباراتك الشهيرة :

إذا عبأت الغيوم في جفني، فأبي سماء تتسع لدموعي!؟

كل غيوم الشتاء أحملها على ظهري، فإن جفت أعطيتها دمعة واحدة، لتعيد  
التوازن والرطوبة والمطر!



عزيزي: إذا دخل الوطن إلى المعتقل فعلى أبنائه أن يفكوا قيوده، أما إذا دخلت المرأة المعتقل فمن يفك قيدها؟! اجنبي يا عمر

لك تحياتي وحبتي

وصال في العاشر من أيلول الثمانية وستين

تذكر دماثتها وهروبها وترحلقها على الثلج، والرحلات الربيعية وعالم الجامعة وما فيه من تناقض وتمرد ومظاهر متباينة. كم شدها إليه وشعر بلذة شفيتها ونداوتها! ذكرته بمواقف عديدة، هجمت على ذاكرته دفعة واحدة... نظراتها الناعسة تلاحقه عاتبة، رفضت أكثر من شخص تقدم لخطوبتها. كان آخرهم معيداً في الجامعة، ابناً وحيداً لتاجر كبير. أمها طارت من الفرح، سمعت كلام ابنتها وعدم حماسها، فأصابها الدهشة، ووصفتها بالبلهاء. قرأت عليها سورة الكرسي وحاولت أن تقنعها بالزواج .

- يابنتي الزواج يدفع عنك غدر الحياة وشرها، والحياة بقدر ما تعطي تأخذ.

ضغظت على ابنتها ومارست سلطتها كأم من أجل الموافقة، لكنها لم تفلح. عيناها قلفتان متمردتان، أمضى ليله ساهراً على وهج عينيها ومثلثاً برحيق شفيتها. أحس بأنه يحلم وعليه أن يقول رأيه بصراحة، أن لا يخدعها. شعر بسحابة تغطيه، أبعد شعرها، جسدها البكر يفور كالارض البور التي تزرع لأول مرة. ظل أسبوعاً لا يذوق طعم الأكل حتى بان عليه الضعف. عيناها لا تفارقانه، نظراتها قاتلة .

ماذا لو عرفت أنه تعلق بغيرها، وأنه مرتبط بعبلة، ذات السحنة الحنطية والجسد المكتنز، والتي أثارت اهتمامه، وأقظت الينبوع من رقده. تلوى جسدها كالطريق التي تتسلقه السيارات الآتية إلى القدس من الجنوب والشمال والشرق، بعضها مسافر إلى بيت جالا وبيت لحم والخليل ومنها ينعطف شرقاً إلى أريحا أو شمالاً إلى البيرة ورام الله ونابلس. قال لها:

- أحبك يا عبلة !

تلون وجهها بالشحوب أشبه بمرعى مقفر، احمرت واصفرت وارتجف جسدها كقصيلة في مهب الريح، بان عليها الانفعال، نظراتها المجنونة تحاصره، تطالبه بأكثر من كلمة أحبك، يهرب من بريقهما، أعلن جسدها عن فوضى وارتباك وشفاتها عن حيرة، رفع رأسه، ابتسم، ارتفعت الشيطان إلى شفيتها لتزيد كمية الملح في البحر. قبل أن تتركه تاهت في بحر الزرقة، حدق، نادها، النسائم ترتل أنا

شيدها والنهار يهرب غرباً محاولاً الإفلات من مرتفعات القدس التي تحاول تأخير انحراف الشمس. عادت وهي تلملم طرف تنورتها خوفاً من تسلل الرياح إلى جسدها الكتنز. عيناها تائهتان تنبئان بانشغال فكرها. نظر إلى الجو، عاصفير طائرة على غير هدى، نهار ثقب عينيه. سمع لحنه المسافر ولهفة الغريب إلى بيته.

حدقت إلى عينيه، تاهت في بحر هائج ... رأى حيرتها، فقال:

- هيا نمضي معاً، المستقبل لنا.

كانت هذه الإشارة كافية لإعادة كنار قلبها إلى الزقزقة وعطرها إلى الانتشار، وألوان شفيتها وخديها إلى الظهور. بدأت الموسيقى تدق في رأسها، صوت ناي له نغمتان متناويتان. رائحة التراب والأرض التي اشتاقت إلى الماء. مشت على غير عادتها بغنج ودلال لم تقعله طوال حياتها، وضعت يدها بيده وهمت بتقبيله والبوح بأسرار لا يعرفها أحد، هل تبوح بسهرها وشوقها وخوفها؟ ضغط على أصابعها، كل شيء فيها بهي كالزهر، غض كالنعناع، مطواع كغصن اللبلاب. أضاء القمر الدروب أمامها، حدثها عن التنظيم، عبست. نظرت باستحياء كمن فعل شيئاً شنيعاً. وقفت أمامه شجرة برتقال فنية تحمل فاكهة وزهراً. قالت: هيا إلى الاجتماع

آخر مرة رآها أدركت بحاستها الشامية، أن كلاً منهما ذاهب في طريق وأنهما يقفان على المفرق. قالت: ستذكرني!

- لن أنساك يابنة الرغوة!

هم بوداعها وتقبيلها، تراجعت وأخرجت طوقاً من محفظتها، مالت إليه ووضعته في يده. نظر إليه راقب اختلاجات جسدها الحبور للحياة، ضمها إليه، ارتفعت أشعة الشمس مقدار عشرة أمتار، نادى على صاحبة الغرفة، دفع الأجرة وأعطاهم المفتاح وودعها .

منذ ساعة اختفى القرص في البحر، وصلا مكان الاجتماع، مالت إليه وقالت :

- متى ستلتحق بعملك الجديد في بيت صفا .

أجاب علة :

- في الساعة صباحاً سأكون بانتظارك، نذهب معاً.

حركت فيه رسالة الشامية كوامن العشق، تعيش معه لحظة بلحظة، أشعل الضوء، بحث عن قلمه، لاشيء سوى صوت الصراخ وحديث الحارس مع رفيقه، نبههما إلى ضرورة اليقظة، ووضع شريطاً لأم كلثوم في المسجلة، أخفض صوتها، الآخرون ينام ولن يزعجهم، تناول القلم.

الصديقة وصال :

لا شيء هنا يجري كما نريد، الأحلام الغضة التي قفزت إلى ذاكرتي يوم كنت في دمشق تبخرت. المسافة التي كنت سأقطعها مشياً، عليّ أن أهول الآن لألحق بالزمن، فقد سبقنا. لا شك أن الحلم ترعرع في ضلوعنا حتى استطاع أن يجد مساماً وصل عبره إلى الفؤاد.

هل أبوح بالحب الذي لم يجد واقعاً يحتضنه، حبنا يابنة الرغبة أكبر من المكان الذي نحن فيه، لقد دمر " الاسرائيليون " كبرياءنا ورجولتنا، هل تعرفين ما معنى أن ينتصروا ونهزم !

أنتِ تعيديني إلى الحياة الرائعة التي عشناها، لاشيء بقي كما هو، لقد أفقدنا العدو المرح. انظري إلى الأماكن التي ذهبنا إليها، أمازالت الغوطة نضرة؟ وقاسيون شامخاً؟ الربوة عابقة بالحياة والألفة؟ وأبو رمانه رسول الحب والحميدة سوقه؟ افحصي كل الأمكنة ودققي النظر في جمالها ستجدي كل شيء قد تغير .

أنا لم أخدعك يا حبيبتي، يمكنك أن تتزوجي وترتبطي مع أي إنسان تختارينه، فيك من الجمال والرقّة والدمائة والأثوثة ما يمكنك أن تلهبي عقول المئات وأفئدتهم ... أما إذا كان حديثك عن المنظور العام، فكلانا خدع واستلبت أحلامه .

الأحلام أيتها الصديقة لم تعد لها وجود في عالمنا المقهور، هل تدركين ما معنى أن الإنسان يحلم؟ معنى ذلك أن لديه الأمل بتكوين حياة كما يريد. علينا مهام عظيمة، أن نعيد لهذه الأمة العريقة كرامتها. مازالت مصرراً على مبادئنا، ستقولين بأنني محنون؟ مجنون قلت من يديك، ولكنني لن أفلت من يد الوطن.

اليوم مهمتي صعبة. ستسمعين ذات يوم وأنت على الشرفة شيئاً عن النضال في الداخل، هل نترك عدونا؟ تابعي أخبارنا أيتها الرفيقة .

وداعاً يا أغلى الأحبة

وسلاماً ..

الأغوار في نهاية أيلول الثمانية وستين .

أيقظت وصال الفتنة النائمة، تذكر كيف تمشي بدلال وغنج، أو كما يقال " خصلة وعنفود " تتقصع، تقول " التي لا يدللها حبيبها فإلى القبر "

تسير أمامه وهو يتأمل ملكات أنوثتها الشهية، تلبس ذاك الثوب الطويل المطرز الذي اشترته من عجوز فلسطينية. لبسته غير مرة في بيتها وبوجوده، لكنها لم تتجرأ ولومرة واحدة على الخروج به إلى الشارع. أخبرته بأنها ستحفظه في خزانها الخاصة. أما الخراطة الضيقة الشادة على خلفيتها والتي تحمّن حركتها وسرعتها، تمشي بهدوء وتمهل، السرعة تهري القماش وتترك حراً على جسدها نتيجة الحركة والاحتكاك، كانت تفضلها في الربيع لتتناغم أنوثتها مع مواهب الطبيعة.

## - الفصل الخامس عشر -

شوارع طويلة، وأزقة ضيقة، بيوت قديمة يستند بعضها إلى بعض، أناس مستعجلون، شباب انتشروا في كل مكان يبيعون الصحف والعلكة، استمر عمر في طريقه يراقب وجوه الناس عله يجد الفرح الذي هرب منه، يرد التحية برفع يده، ردد كلمات متفرقة، العمرية، ثانوية بيت صفاقا، المخابرات، والدته التي تلاحقه بأسئلتها، والده الذي يريد أن يخطب له ابنة عمه، تساعل إن كان من الصواب أن يذهب إلى الشعبة السياسية بقدميه، ويسلمهم نفسه. سيوفر عليهم متاعب البحث، وسيقع في متاعب شتى، لقمة العيش، إخوته، تراجع عن ذلك حين اقتنع بأنهم قادرون على جلبه، عندها سيتعرض لإهانة مضاعفة. ربما يمسكونه إذا حاصروا البيت وأحضروا خمسين عنصراً، لن يسلم نفسه. أما ما يسمعه من أقوال تدعو إلى تخفيف العقوبة أو العفو عنه، فهي تافهة.

لماذا يسلم نفسه؟ ولماذا لا يسلمها؟ لازمته الأفكار منذ البارحة مساءً، جلس وحيداً ثم غادر البيت، عاد وظل ساهراً حتى نام والده وإخوته. عليه أن يقصدهم ويقرع بابهم.

الكتاب الذي وصله يطلب حضوره إلى مديرية المخابرات العامة قسم الأمن السياسي، شعبة الشؤون العربية في اليوم التالي للتبليغ، الساعة التاسعة صباحاً، وأي تأخير يستوجب المساءلة .

عليه الذهاب والإجابة بقدر السؤال المطروح، وإذا لم يسأل يلتزم الصمت، وفي هذا الجانب تصير الحكمة الشعبية جيدة. أخذ يتذكر وصايا التنظيم، لا تعترف، للتعذيب نهاية، أبعد الشكوك عن رفاقك. إذا طالبوك بأسماء أصدقائك فعد أقرارك وطلاب صفك القدامى. بدأت رأسه تلف. ما هذا الظلم أربع ساعات بالمنفردة لقاء كلمة واحدة! كيف لو تحدث جملة مفيدة قال فيها الحقيقة، أو كتب معلقة جاهلية؟ كيف لو شاؤوا محاسبته على انتمائه التنظيمي الذي يقف علانية

ضد الحكم من خلال الاجتماعات والمظاهرات والبيانات !؟

تابع سيره شمالاً بعد استراحات عدة، تخلص من ازدحام شوارعها، الشوارع الفرعية تكاد تكون فارغة، أبنية موزعة على طول الطريق المؤدي إلى رام الله، سار على الجانب الأيمن من الشارع وغنى " وين ع رام الله ولفي يا مسافر وين ع رام الله " توقف عن الغناء، وصوته الخشن والموقف الانفعالي والحالة النفسية لا تساعد على الاستمرار في الغناء، عاد يناقش الموضوع في فكره، ارتاح على بعد مئات الأمتار من آخر بيت، أسند كوعه إلى حجر كبير، حفر التراب بيده، ماذا يفيد تهريه، ولا عمل دون الذهاب إليهم وأخذ الموافقة. الساعة العاشرة والثلاث، لن يستقبلوه هذا اليوم. سيتعرض لأسئلة سخيفة، غداً سيكون في إدارة المخبرات العامة قبل التاسعة كما هو منصوص في الورقة، وسيكرر ذهابه حتى يملوا منه، سينهي كل شيء، لاشيء يخيف، سيسألونه عن اسم التنظيم الذي ينتمي إليه، ورأيه بنظام الحكم، ويعرضون عليه التعاون معهم.

أسئلة سهلة، إنهم غير قادرين على معرفة أمور يظن أنهم مطلعون عليها. عادت الشوارع إليه، الأبنية الفخمة الحديثة تطالعه، تابع سيره تجاه وسط المدينة، تخلص من كل ما هو حديث وصل الأسواق القديمة والأحياء الشعبية والأماكن الأثرية والدينية، دخل الزحام، تجاوز مجموعة أزقة وتابع سيره يحث الخطأ .

أول البارحة وصل إلى البيت متأخراً، ناداه والده وسأله عمّ فعل خلال الأيام الماضية، لم يتلق إجابة مقنعة. ناوله ورقة التبليغ. أمامه كتابان، النقل واستدعاء المخبرات.

الموضوع: نقل مع إنذار نهائي .

لقد تقرر نقلكم إلى ثانوية بيت صفا، نقلاً تاديبياً، وفي حال تكرار ما قمتم به ستفصلون من التعليم دون سابق إنذار .

التوقيع مدير التعليم والمعارف .

استدعاه مدير المدرسة إلى الإدارة، ارتفعت صيحات الشعب من إحدى الشعب، وتدافع الطلاب إلى باب الصف، صاح بصوته الأمر فدخلوا وأغلقوا الباب، أخبر العريف ضرورة ضبطهم. أطمأن إلى هدوئهم لكنه ما إن ابتعد قليلاً، حتى ارتفع الصوت من جديد وبوتيرة أعلى .

رحب به المدير وناولته التقرير المرفوع ضده قائلاً: " اقرأ يا أستاذ، إنه من هاجم الدريس أكسل طالب في صفك، والده عريف بالجيش جاء قبل أربعة أيام

... إنه العسكري الذي قابلك وأخبرته أن ولده أكسل طالب في الشعبة الثانية. في البيت أخذ الكرياج يفرقع على جسد ابنه، في نهاية حفلة التأديب تهمك بعدم إعطاء الدروس وتقطيع الوقت والحديث عن القومية العربية ومدح عبد الناصر ومهاجمة الملك، ما العمل يا أستاذ؟"

في البيت وجد تجديداً لدعوته للحضور غداً إلى قسم الأمن السياسي، وقع والده على استلامها دون أن يعلم أحداً، حمد الله أن أمه لا علم لها باستدعائه، تقيم الدنيا تضطرب وتساءل حالتها الصحية، يرتفع معها الضغط وتتحرك الرمال. سهر حتى الثانية بعد منتصف الليل ثم اندس في فراشه، هرب النوم عنه أشبه بجندي فقد الأمل بالنصر فاعتمد على قدميه. التعب باد عليه، أشعل النور تناول كتاب " العروبة أولاً " وأخذ يقرأ الصفحات الأولى منه. عيناه منتفختان وآثار السهر بادية عليه، ذكرته هذه بأيام العشق يوم عرف وصال الوردة الدمشقية المتفتحة التي لا تحمل بذوراً بقدر ما فيها من الحسن. زهرة من نسيج الدموع كلما حاولت أن تتسع ذبلت. كالجمر في أول تكون الرماد، بركان خامد، ودعها بلا أمل وبلا عودة وجلس في محراب الوحدة ينتظر نهاية أحزانه وانتشار ذاته وتبدد فعلها

أغمض عينيه وهو يردد: أيتها الحبيبة هل شاهدت غيمة تمتص الرطوبة وتظل متوهجة كالبرق؟ أنا لا أنفك، عودي وأطلقني أنفاسك لتحملها النسيمات، وتأملي الغيوم القادمة من الجنوب ستجديني أبتك أشجاني وأنتحب على تلك الأيام. البارحة عزفته عيلة على ناديا السلطي التي صارت في حلقها التنظيمية، فتاة رقيقة، زهرة ضمتها إلى صدرها، لها جمال وصال وأنوثنها، تدق الأرض بمشيتها، جسدها رشيق، ومشيتها متأنية، تعطي لخطواتها شيئاً من الرصانة والثقة، فتبدو وكأنها تقود خلفها جيشاً يستعد للمناورة. مازالت طالبة في المرحلة الثانوية، تسأل كيف يحدث التغيير والنصر. أبدت إعجابها بإجابات عمر عن أسئلتها، وهذا ما دفعها إلى تنفيذ المهام بروح رفاقية. تأتي إلى عيلة وتقول:

- على المرأة أن تثبت أنها كالرجل، بل ومتفوقه عليه، عليها أن تعمل ليل نهار.

ناديا فتاة جريئة، لها قلب نمر وعيون مها وقوام غزالة، لونها حنطي، أنفها دقيق لا يدخل إلا كمية قليلة من الهواء، شفتاها رقيقتان، ساقاها غير ممثلنتين، شعرها مضفور يصل إلى وسط ظهرها، عنقها المرمرى يكشف عن طولها، لها شفتان من العقيق وصدر نوراني.

تحدث مع عبلة حولها، قال: " فتاة مندفعة مثلها تسير إلى الهاوية إذا لم تجد رعاية، فهي مهما ارتفعت وخالطت، ومهما وصلت ثقافتها ومطالعاتها، فالمجتمع لا يعترف بها كما تريد، لنحافظ على هذه الوردية من الذبول، إنها أمانة بين يديك، عجيبة، ادفعها لتكون عظيمة. "

قالت: " إن زكي فريج مهتم بها، ويبدو أن كلاً منهما معجب بالآخر، سمعت شيئاً من همسهما، الذي أن دل على شيء فعلى تقاهمهما ".

- زكي ينفذ مهماته دون تفكير وقناعة، مندفع، لا يناسبها شاب مثله.

- دعهما يعيشا حياتها، سيكشفان عن نفسيهما، الحب وحده يقربهما ويجعلهما يفتحان .

تناول فنجاناً من القهوة ثم توجه في الثامنة والنصف إلى دائرة الأمن السياسي التي سلك طريقها قبل يومين، تقع بعيدة عن بيته مسير ثلاث ساعة. وصل في الوقت المحدد، قدم طلب المراجعة، قاده عسكري إلى داخل البناء الضخم المكون من أربعة أدوار، صعدا إلى الطابق الثالث، طلب منه أن ينتظر ولا يتحرك، بعد ذهاب العسكري قدم الورقة فتلقى جواباً جافاً " انتظر"، ظل واقفاً في الممر ساعة، بعدها جاء من يناديه، في الوقت الذي توقع دخوله إلى المحقق أدخل إلى المنفردة. أغلقوا الباب الحديدي، الجدران تصطدم به، قعد بمساحة ظرف الرسالة هي عالمه الخارجي. بعد ثماني ساعات فتحو الباب. أفهمه أحد الموظفين بأنه تحت الأوامر، سأله لماذا لم تأت البارحة؟... تأتي متى نشاء، أفهمت معنى تأتي غداً!؟

لم يجب أسرع إلى صنبور الماء غب منه مرات متوالية ثم غسل وجهه ويديه، دفعه الموظف إلى الخارج وهو يردد، لا يوجد حمام هنا ، أنت قليل الذوق ألا يكفيك شرب برميل ماء، هيا وإلا أعدتك إلى بطن أمك، سحب جسده وهو يجرجر قدميه، الشمس غابت منذ قليل وهي تغوص أكثر فأكثر في الأعماق السحيقة، سار ببطء، دخل محل " الافندي " سلم عليه وطلب سندويشة فلافل ثم أتبعها بثانية. شعر أن معدته امتلأت. أنفاس تشرين الأول تغادر وما هي إلا بضع ساعات ويحمل حقيبته ويسافر. السماء ترتل صلواتها على ضوء القناديل المدلاة من قببتها وعلى أنغام رياح سابعة وسط غيوم ترتدي غلالة بيضاء. شعر بالانتعاش، نشرة الأخبار تنبئ بأن البلاد تتأثر بمرتفع جوي قادم من الجزيرة ومصر. الجوندي على عكس توقعات الراصد الجوي والنسمة الطرية تصفع الأخبار. شعر وكأنه فوق مركب يتلوى متساوقاً مع حركتي المد والجزر، تألقت



عيناه بالفرح، السماء كتل بيض والرياح الخريفية تشتد وهي تنذر ببرد شديد لهذا العام. انطلق الأذان من المسجد الأقصى موسيقاً عذبة. طار السنونو على ضوء المصابيح مترنحاً على غير هدى يمنة ويسرة. لكنه اختفى تماماً قبيل الأذان، شاهد جماعة تحمل محرثاً قديماً تقطع الشارع، أيعقل أنهم في الحقل حتى هذا اللحظة.

حزن لأسباب كثيرة منها لأنه لم يفعل شيئاً طوال الأيام الثلاثة.

دخل البيت في الساعة العاشرة ليلاً، رمى نفسه إلى الحصيرة دون أن يتناول لقمة واحدة. قبيل منتصف الليل تناول بعض حبات من الزيتون ثم انزوى وحيداً، تناول كتاب " العروبة أولاً " فتح على الصفحة الحادية والخمسين وقرر بينه وبين نفسه أن ينهي قراءته ولو اضطر إلى السهر حتى الصباح .

كعادته وصل صباحاً في تمام الساعة التاسعة سلم الورقة وظل على هذا الحال عشرة أيام دون أن يسأله، في اليوم الحادي عشر أخذوا أقواله وطالبوه توقيع تعهد ينص على عدم التعرض للسياسة، رفض ذلك فأبقوه في المنفردة أربعة أيام.

خرج ظهراً من بيته، الشمس حارقة على غير عادتها، غيوم بيض تتلاشى بسرعة، تضايق من شدة الحر، اشترى جريدة قرأ فيها حالة الجو " تتعرض البلاد لمنخفض جوي شديد " وضعها فوق رأسه وردد " ما بين تشرين وتشرين صيف ثان " ازداد اصفرار الأوراق وتساقطها، أوراق بنية تغطي الأرض أشبه بالزهور الحمراء القانية التي تنمو وقت عودة الحياة للأرض مباركة الإلهة عشتار، كاد يسقط، ارتاح على مقعد بظل شجرة وارفة. أفاق على صافرة الشرطي وهو يطالبه بالنهوض، نظر فإذا المصابيح شكلت حبلًا مستقيماً على طول الشارع.

- هيا أيها الثمل، كفاك شرباً الوقت بعد العشاء، أهكذا جعلتك الخمرة حيواناً!

- أنتم والخمرة أخوان !

- اسمعني بالله عليك، أول مرة أرى ثملاً يتفلسف، أستطيع أن أقودك إلى الجنائية، هيا قبل أن أفعلها .

استند على يده اليمنى، فرك عينيه جيداً، المكان خال إلا من بعض المارة، حدق بالشرطي وبعق على الأرض، أنوار الشوارع الباهتة تتناول، النسمة عذبة، حرك رأسه، أصيب بدوار خفيف وألم في معدته، فتش جيوبه، عاد إلى مكانه فتش جيداً، جاءه الشرطي وخاطبه :

- ألم أقل لك هيا إلى بيتك!.. أنت لم تفقد نقودك فقط بل عقلك!؟

تابع سيره حانياً رأسه يفكر كيف سيحصل على نقود بديله، حاول أن يتقيأ فلم يقدر، وصل بيته تعباً منهمكاً، تذكر مواعده مع عيلة عصرأً، لن تصدق ماحدث معه، ستقول أشياء كثيرة بينها وبين ذاتها، عاد والحزن كومة ما بين عينيه، لم يجب عن أسئلة إخوته، قال لأمه:

" أرجوكم كفى أسئلة ألا يوجد غيري ينام خارج بيته؟ "

شعر بطراوة الفرشة، غطته باللحاف، قبلته ثم أغلقت باب الغرفة، إخواته يتصايحون، نهض من النوم منزعجاً، نظر إلى مصطفى وقال: أنا تعب كفوا عن الصباح .

اراح جسده ثانية على الفرشة وغط في النوم. ظل يراجعهم أسبوعاً ثالثاً، في نهايته قابله ضابط فأخبره بسوء وضعه، أمامه عشرات التقارير المرفوعة، نصحة أن يصون لسانه، فلا يتقوه بجمل وكلمات لا يعرف معناها وعقوبة قائلها، بعد نقاش دام وقتاً اعتبر ما قبل غير مفضود به الإضرار بالصالح العام ولا بسمعة المملكة، وطالبه فتح صفحة جديدة مع الأمن .

الصباح ندي لكنه ينذر بيوم قائظ، إذ بدت الشمس قريبة من الأرض أكثر من الأيام السابقة، صعد السيارة إلى القرية التي تقسمها الشريط الشائك إلى غربي تحت إدارة إسرائيل وشرقي تحت الإدارة الأردنية. سأل عن ثانوية بيت صفاها، دخلها وقدم كتاب التعيين.

استأجر بيتاً قريباً من الشريط، راقب ما يحدث، أهل القرية يسهرون على الجانبين، يسمعون المذياع معاً وحكايات ألف ليلة وليلة والخراريف وعنتره. أما في الأعراس فالأغاني تفرد جناحها على القسمين، ترتفع أبواق السيارات، ويصدح المزمار والمجوز بألحانها العذبة، أما الصبايا فتبدأ بالرقص والدبكة والمهااة. مازال يذكر عرس خالد النواشفة، الذي خطب ابنة عمه من الجانب الغربي، جلس الطرفان والشريط بينهما، يعدون المهر ويتبادلون الأحاديث، ثم عند العصر حاولوا نقل العروس، فرفضت السلطات العسكرية، لكن هذا الأمر سوي مساءً. يومها كادت تقع مذبحة، قصوا الشريط ودخلوا إلى الجانب الغربي، أطلق عليهم الرصاص. تدخل المختار وأعاد كل شيء كما كان. قاد العروس من يدها وأوصلها إلى الجانب الشرقي .

مساء اجتمع في بيته عدد من الأهالي والمدرسين، تعودوا السهر عنده.

استطاع خلال شهرين تنظيم مدرسين وخمسة فلاحين في حركة القوميين العرب، ولم يمض السنة الأولى إلا وكان فيها أربع خلايا نشيطة، تبدأ اجتماعاتها باسم العروية وتنهيه، مع بداية فصل الصيف عمل دورة محو الأمية وفي نهايته رشح عشرة من أفراد التنظيم لدورة حزبية. تلقوا فيها محاضرات يومية عن العمل في أوساط الجماهير، في القومية العربية، في الوحدة والتحرر، المركزية الديمقراطية، النقد والنقد الذاتي وبناء الحزب ... في سنته الثانية تحول بيته إلى نادٍ خصص غرفة للاجتماعات الأسبوعية وأخرى للسهرة وثالثة لنومة. لم يعد أمره سرياً، الطفل في تلك البلدة عرف الكثير عن عمر. أفرزت السلطات الأمنية بعض عناصرها للعمل في البلدة .

مدير المدرسة حفاظاً على منصبه لم ينضم للحركة، لكن علاقته معها وطيدة لهذا وصفه المكتب الثاني، بأنه صديق لهم ومعاد للسلطة. ومع ذلك فضل أن يبقى على علاقة فردية. دفع الاشتراكات والتبرعات المترتبة عليه. سهر مع عمر ثلاث ليال حتى اقتنع بوجهة نظره.

كان المدرسون منقسمين إلى مؤيدين ومعارضين. أربعة منهم يدافعون عن السلطة، استطاع إسكاتهم وتقنيد حججهم، فانسحبوا ولم يعودوا لحضور مثل هذه السهرات .

الأحاديث لا تنتهي عن عبد الناصر والملك حسين وحزب البعث وحركة القوميين العرب والشيوعيين وحركة الأخوان المسلمين والامبريالية والصهيونية والاتحاد السوفياتي. كان دائم المزاح يجيب بأريحية عن الحياة والدين والعلم والماركسية ...

سألت عنه المخابرات، كررت سؤالها، بعثوا من أخبره بذلك، وعندما لم يكف عن نشاطه جاءته بأمر الاعتقال، أجابهم المدير بأن للمدرسة حرمتها، انتظروه في الخارج، أو خذوه من بيته أما من هنا فأمر غير جائز أمام طلابه.

لم يكن حذراً تعامل في فهمه للدعاية والتحريض وكأنه في حرب علني، وهو أعلم الناس بخطورة مايقدم عليه، فأى شخص يعتقل بسبب انتمائه يتعرض للضرب والإهانة والعذاب النفسي إضافة إلى فترة سجن تتراوح ما بين الثلاثة أشهر والعام .

شد التنظيم أعضائه للالتزام بالاجتماعات والمشاركة في مظاهرات الضفة الغربية وانتفاضة السموع، اعتمد المركزية لتنفيذ الأوامر دون مناقشة. تقرر القيادة

أمرًا ما يبلغونه إلى مسؤولي الساحات والشعب وهؤلاء بدورهم يوصلون ما تريده القيادة إلى الروابط فتتحرك الأخيرة لتبليغ الخلايا والحلقات، بحيث لا تمضي سوى ساعات قليلة ويكون التنظيم مستنفراً وجاهزاً لأي عمل، يأتي الحركيون في الموعد المحدد يلفون حول المكان، يسلمون على بعض ويهمسون بكلمات سرية ويتجادبون أطراف الحديث بحذر، وفي اللحظة المتفق عليها يصعد أحد الهاتفين، يصيح بصوته:

- دمننا حديد ونار

فترد عليه الجماهير المحتشدة :

- وحدة تحرر نأر

تتوقف المواصلات، يصاب الناس بذهول، يتساءل بعضهم من أين جاؤوا؟ آخرون يتفجرون ومنهم من يتحمس وينضم بلا شعور فلا يرى نفسه إلا وسطها، يرفع يده عالياً، وقبل أن تتقدم يفردون اللافتات والأعلام، فتبدوا أكبر من حجمها الطبيعي، تسير عرض الشارع وطوله، قوات الأمن والبادية تحتل منافذ الطرق. يعتقلون كل من تقع أيديهم عليه، أحياناً يحاصرون المظاهرة من ثلاث جهات، ليفسحوا المجال للهروب، أما الذين اعتقلوا فينا لهم الشتم والضرب والرفس.

في عمان النقي زكي فريج الذي اشترى شقة وأنتها، كان مسؤولاً عن المالية، الاشتراكات والتبرعات، بطريقة ذكية اقتطع من كل قسم جزءاً على مدار سنوات عدة، وغطى ذلك بالكشوف التي قدمها إلى القيادة.

توارى عمر عن الأنظار مادام مطلوباً. أخذ الاحتياطات أثناء الخروج والدخول، ظل كذلك حتى إطمأن أنه غير مراقب في العاصمة. في هذا الوقت استطاع زكي التعرف عن قرب على جارته خيرية مصطفى امرأة في العشرينات فقدت زوجها بحادث سيارة، تركها حاملاً فولدت سهام، أحبته، جففت دموعها وهي تنظر إلى السماء العميقة و إلى وجهه المشرق، نسيت أحزانها وقبضت على الشمس بيديها المتجلدتين، وأنارت أصابعها شموعاً وزنابق على دربه، شعرت أنها وصلت السماء السابعة في حبها لابن فريج. تحول حزنها إلى مرح، ومع أن المرأة تشتاق لماضيها وأحزانها، تسترجعهما، لأنها دونهما تكوين ناقص، لا يكتمل إلا بالمسحة السوداء، إلا أنها تخبط كل ذلك، وعاشت حياتها معه عشيقه وحببية. أحبها جسداً وروحاً. جسدها معجون بالحليب ملفوف أشبه بقطعة مرمر، شعرها يحتويه منديل، أما عيناها فخضراوان، تميل إلى النحافة، ترتدي زي رام الله

الشعبي بتطريزاته التي على الصدر والأكمام والجانبين وأسفل الثوب. صارت تأتيه كل مساء. احتج الجيران، أحضر شيخاً وشاهدين وكتب صك زواج ظل غير مصدق من المحكمة. رأت فيه دنياها وحياتها، يعريها ويتغزل بجسدها، فتتطلق شهوتها كالفرس الجموح، بينما طفلتها في السرير أو تحبو حولهما. الثمار في طريقها للنضج، وصدورها لن يتسع الحبق والزهور وتلك الفواكة إن نضجت. ثغرها قرنفة وشفاتها وما فيهما من زقزقة وحبور. باعت أساورها واشترت سجادة فرشتها في أرض الغرفة وصرفت الباقي على نزهاتهما. باعت حصتها في بيت زوجها وصرفتھا، ولم تبق ديناراً واحداً في حقيبتها، فجأة تحركت مياهه في رحمها وكتب الله لها الحمل .

أسود وجهه وقال:

- لا أريد أطفالاً إن شئت لحياتنا أن تستمر !

خافت منه، لأول مرة يراودها هذا الشعور الغريب، قررت أن تهرب منه وتحفظ بحملها.

احتفظ بصك الزواج. تركته حتى ذهب وخرجت من بيته ولم تعد. بحث عنها حتى وجدها، أعادها لبيته.

مساء وضع لها المنوم في الشاي، نقلها إلى المستشفى وهناك وجدت الدماء تنز وجسدها مخدر. بكت وكادت تنتحر إذ تنازلت كمية من حبوب الاسبرين وأدوية أخرى، لكنها أنقذت في اللحظات الأخيرة، أعطيت أدوية لمنع التسمم. ظلت أسبوعاً في بيته، لاطفها، قال لها: سنبدأ حياة جديدة سأثبت عقد الزواج .

ناولته نسختها فمزقها وقال لها :

- لا شيء يربطني بك بعد هذه اللحظة! إياك أن تأتي هنا مرة ثانية .

وقعت على الأرض، رش الماء على وجهها، أفاقته، بصقت في وجهه وجرت صغيرتها من يدها وهي تتمتم " لنا رب لا ينسانا" .

غادر عمر بيته وهو يردد :

- لن أظل في بيت تعود صاحبه فعل الشر !

في هذا الوقت جاءت ناديا السلطي تسأل عن عمر غادر بيته دون رجعة، فاستقبلها زكي ببشاشة، فهم أنها مكلفة من الحركة بإيصال رسالة وتعليمات جديدة .

نظر إليها خصلات شعرها تبرق، النور يضفي على وجهها حسناً، شعر برجفة ودق قلبه، أصابه الخدر والذهول، أريجها لف في تلافيف دماغه، لم يتخلص من هاجس عظمتها وأنوئتها تحدثاً عن عجل وغادرت. بعد هذه المقابلة وعدته بزيارة خاصة. بعد أن سمعت أنه خطط لاغتيال سمير الرفاعي.

مال قلبها إليه منذ زمن أحبته، رأت فيه الوطن والكبرياء أخبرها بأن المخابرات تبحث عنه، سيسافر إلى اليمن الجنوبي يشارك رفاقه بالثورة. هي تعرف بأن الجبهة القومية جزء من حركة القوميين العرب، سيقاثل الإنجليز الذين تأمروا وسلموا فلسطين لليهود. هامت بحبه، مثلها الأعلى الذي أمثلك حواسها، فلم ترمي من العالم غيره.

باحث بأشواقها الدفينة :

- أحبك يا زكي ... أنتَ حياتي.. خذني معك، كيف سأعيش بعدك !؟

- ستظلين معي وفي روحي وأنا أقاتل الإنجليز، سأعود منتصراً ذات يوم، فأنا بحاجة إلى دعائك .

في ليلة سفره سهرت معه حتى الفجر، أعطته شهد شفتيها ولين نهديها، رقصت معه وضحكت على الرغم من ألم الوداع. غنت وسمعته صوتها الرقيق " سافر مع السلامة " .

ودعها صباحاً كادت تسقط على الأرض، قبلته أمام الرفاق، وفاضت عيناها في لحظة الوداع بالدموع.

رصد جهاز المخابرات الأردنية حركته حتى وهو في اليمن، تابعوه وراقبوا تحركاته، وعندما عاد، القت السلطات القبض عليه، واجهوه بالمعلومات المتوفرة وأعطوه فرصة للنجاة إذا مد يد المساعدة، فاحت رائحة كريهة، تركوه .

شلع بنطاله وملابسه الداخلية غسلها وجففها. في الليل قرر أن ينجو بنفسه، صباحاً اتفق مع المحقق على التفاصيل والأسماء المتعلقة بالتسلسل الهرمي لتنظيم القوميين العرب، أعطاهم أسماء الجبهة القومية. بدأت أجهزة الأمن تلقي القبض على أفراد التنظيم، وكانت الفضيحة عندما أعلن الرفاق انسحابهم عبر الإذاعة، ناديا عرفت بكل ما فعله، جاءت إلى بيته، حاول أن يعتذر عن تخاذله، تظاهرت بالمرح، تقدم منها ليقبلها ويضمها إلى صدره، وقفت تنتظره وهو يقترب، اصطنعت ضحكة هستيرية، تركته يقترب وهي تتراجع محافظة على المسافة بينهما، فتح ذراعيه ومدهما تجاهها، لامست يدها كتفيها، قال:

- أحبك يا ناديا.

جذبها بقوة إلى صدره، تخلصت بصعوبة ومرونة من يديه وقالت:

- واضح حبك يا زكي، الذي يحب لا يخون، البرهان مافعلته ومثلك لا يستحق سوى هذه النهاية .

في هذه اللحظة حرثت السكينة أحشاءه، ابتعدت عنه وراقبته، تشنجت يده قبل أن تصلا رقبته، وقع على الأرض وهمس بكلمات غير مفهومة، بعد دقائق فقد جسده المرونة وتصلب، ظلت جانبه حتى تأكدت أنه فارق الحياة... غيرت ملابسها وأخذت ما تحتاجه بحقيبة يدها. أغلقت باب الشقة ومضت. كان دمه يملأ ساحة الغرفة ورائحة العفونة تنتشر في كل ركن في البيت، ولما لم يجد مكاناً للبقاء داخلها، سال إلى الباب الخارجي ونزل على الدرج، أشبه بدم بعير عض يد صاحبه، فأطلق عليه النار غير آسف على خدماته مراقباً دمه يسيل متشفياً وتاركاً لحمه جيفة للوحوش .

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)



## - الفصل السادس عشر -

النهر المسافر جنوباً الذي ظل حوال أشهر عدة مؤدباً، أودع خريبه لمخاضات تستخدم للعبور، ويوم وصل اليهود إلى ضفته الغربية فقد هدوءه، كانت رياح تشرين تراقص الأوراق التي تخضبت بالحناء، فانحنت راکعة تروي ظمأها، وعندما لم تستطع الوصول نزلت سابعة في الماء، الحيرة تتملك النهر فعلي يمينه الدوريات الإسرائيلية المختبئة بين القصب والحشائش والشجيرات تترصد حركة الطرف الآخر، وعلى يساره فتية يواصلون التطلع إلى الغرب وفي أيديهم سلاحهم، في هذا المنخفض يمشي مزهواً بفتية يتجاوزونه معلنين امتنانهم لمخاضاته.

مازل الجو حاراً وأسراب البرغش القارص تطارد كل من تجده، تحوم كالمروحية قبل أن تحط على الجسد، الغيوم تمشي بتمهل، لونت شفيتها برغوة بيضاء، فقد شابت لكثرة حركتها وطول مدة جريانها، جلس يتأمل المياه الرقراقة، شلح حذاءه ووضع قدميه في الماء، شعر ببرودة ورطوبة، غسل وجهه ويديه، جسده الدبق بحاجة إلى حمام، رمى ملابسه جانباً. فكر بالعملية التي سيقوم بها، قطع إلى الجانب الآخر سياحة وجلس هناك. أحس بالمرح إنه الآن فوق أرض فلسطين. راقب المنطقة جيداً وعندما تأكد من خلوها أخذ يندن ويغني، انتقل بسرعة إلى مكان آمن، نشف جسده وارتنى ملابسه، من بعيد صوت يناديه ويدعوه إلى العودة إلى القاعدة .

أمور ثلاثة فكر بها أمه وعبله ووصال، تمنى لو يلتقي بهن، كيف يقود مجموعة إلى الموت دون أن يرى ويودع من يحب، هذا الهاجس جعله يخاف، صحيح إنه يدخل إلى منطقة عرفها وخبرها، لكن الموت والعدو كأسا حنظل وكما يقولون "لأحد يضع على رأسه خيمة ". استطلعها قبل يومين وصل إلى مرتفعات رام الله ونظف أكثر من مغارة، سيقم في إحداها. ثمانية هم عناصر دوريته التي سيقودها أربعة ينفذون عملية وآخرون يبقون معه لبناء تنظيم في الداخل. تساءل إن كان هذا الحلك سيتحقق ويقرب يوم التحرير، أما إذا فشل فسيتكرس شعار

التحرير من الخارج وينتصر المنادون به. لأن دخول القيادة والقواعد إلى الضفة الغربية وقطاع غزة خطوة نادى وينادي بها وتلقى معارضة شديدة.

مرت أمامه أفعى بنيه، لفت حول شجرة وأخذت تصعد إلى الأعلى، ضربها فأصاب ذنبها، حركته بشدة وتابعت صعودها وعندما صارت فوق غصن عال فتحت فاهها وأخرجت منه مادة بيضاء ورمت نفسها عليه، عندها ابتعد قليلاً فتكومت أمامه على الأرض، دس على رأسها فظلت تحرك جسدها يمناً ويسرة ما يزيد على عشر دقائق، محاولة الخلاص حتى همدت في مكانها. مددها وقاس طولها ثم قلبها على بطنها وتمت بكلمات ذكر فيها الشمس ثم مضى .

شعر بالحرارة والرطوبة الخانقة في وقت اتجهت الغيوم شرقاً، ليعود للسماء صفاؤها وبهجتها وزرقتها وتوقف حفيف الأوراق المخضبة بالحناء. نهضت الأفعى إلى الأعلى بعد أن ارتويت من ماء الأردن، أما العصافير فهي دائمة الحركة والزقزقة، وهي بطيرانها هذا تحاول تحريك الهواء ليصير أكثر طراوة ونسماته أكثر عذوبة ورقة .

قال في الاجتماع: علينا أن نكون في الضفة الغربية وقطاع غزة، ندخلهما، نتصل بعدد من أصدقائنا ورفاقنا ونتفق على عمل منظم. أطلب بنقل جزء من كوادر الجبهة إلى هناك مقدمة لنقل القوات والسلاح والذخيرة.

- يا عمر هذه مغامرة، أنت تذكر كيف دفع العدو بقواته عن طريق الكرامة، فشلت عملياته عندما واجه صموداً ودعماً، ونحن في الداخل سنقتل أعمالنا إذا لم تجد مداً ودعماً، الشعب مازال غير مهيب. علينا أن نهيبه ثم نسلم كلامك .

\_ إذن " عيش تايجيك الحشيش !"

القمر في ليلة الثامن والعشرين من تشرين الأول سينأخر طلوعه، نادى على الرفاق بأسمائهم، محمد حمدان القاق، سهيل البرغوثي، محمد سليمان عسكر، حسن نمر أبو جابر، جميل عبد العزيز، نعمان أبو حسين، محمد حسين علان .

- هيا أيها الرفاق إلى الاجتماع.

في الساعة الثامنة مساءً شكلوا دورية على شكل رأس سهم، حدد مكان العبور من المخاضة الثانية بالقرب من الكرامة، إذ تبدو مياهه رقراقة راكدة ويصير الأردن أعرض. المنطقة مراقبة وعليهم الحذر. وزع مجموعات حماية من مدفعية الهاون وأسلحة متوسطة غرينوف وديكتريوف. عبر معهم أبو أحمد فؤاد

الذي اطمأن على سلامتهم وتوغلهم. ودعهم وقبلهم بعد ساعتين من الاستنفار والتأهب أمر بعد عودته بأنهاء كافة المظاهر والعودة إلى الحياة العادية.

العبور غرباً مقدس أشبه ما يكون بالتمعيد وصولاً إلى الجنة، مشوا على التراب بعد أن انحنوا راكعين وقبلوه، لحظة فرح، لحظة لقاء الحبيب مع عبلته التي تنتظره، تفتح ذراعيها وتكشف عن صدرها، ثغرها ضاحك تحضنه وتقول:

- هل هناك أطيب من شفتي ومن نهديّ و أحر من جسدي، إذا فقدت اللذة معي فلن تجدها عند إنسانة أخرى.

ويذهب ذهنه إلى الشام حيث بردى والحرور الذي يربط شفاهه بالبياض والخضرة، فتبدو أرواقه في حالة رقص تعبيراً عن فصلي الحياة " الثلج والربيع ". دعيت لحضور مؤتمر أب الذي عقد قبل شهرين، جاءت تزهو بحلتها تضع خريطة فلسطين على جديها، وقد صبغت شعرها ودهنت جسدها، فكانت تيرق كالذهب والماس، فثل في إقناعها بتبني الوثيقة التي كتب على طرفها " تقدمة الجناح اليساري ". سمعته يتحدث بالماركسية واللينينية، طلب توضيحاً منه لأنه طوال حياته يتغنى بالقومية العربية، فلم تقتنع، سألته وصال: ما الذي غيرك يا عمر ؟

- الواقع الذي أفرزته حرب الأيام الستة وغيره .

على هامش المؤتمر التقى بها، شعر بغربتها، وشعرت أنه تغير كثيراً، حركها الحب القديم، فوقفت بشدة ضد الدخول إلى الأرض المحتلة وبناء قواعد هناك مبررة كلامها، بأن الوقت مازال باكراً.

قبل أن تودعه عائدة إلى أبي رمانة، سهرت ليلتها معه حاولت إقناعه بأن يتخلى عن فكرة الداخل، حذرت من طرحه قائلة:

- إن ما تصر على أنه التجديد سيصير قديماً بعد سنوات، وإن توريطك بالدخول إلى الأرض المحتلة الآن هدفه الخلاص منك!

هزئ بأفكارها التي جاهدت لتوصيلها والدفاع عنها، تغيرت كثيراً، ماذا يهمها، إنها لا تشكو من احتلال دمشق، لذا فيدها مازالت في الماء، إنه يحقق حلمه، القيادات والكوادر في الداخل ومن الجبال والمغاور تنطلق وتعود. سيتصل بزعماء القدس ورفاقه وأصدقائه وأبناء تنظيمه، يسافر إلى المدن حلقة وصل بين الرفاق في، نابلس، رام الله، القدس والخليل. إذا تجاوب مع أرائه عدد بسيط سيبدأ به ويبني التنظيم على قاعدة المد الجماهيري والكفاح المسلح. أما الذين في الخارج

فهم جنود الاحتياط.

قبلته وصال وكفكفت دموعها، ودعته لزيارة دمشق وذكرته بماضيها. هز رأسه نظر إلى رفاقه الذين خلفه دعاهم للاستراحة بقوله :

- لقد ابتعدنا كثيراً، نرتاح الآن ربع ساعة ثم ننطلق إلى هدفا .

الحياة في المغارة كحياة القصور، بل أفضل بعيدة عن تعقيداتها رغم أنها بداية الحياة ومنطلقها الحضاري.

توجه مع مجموعة شبان إلى جبل الزيتون وأخذوا ما يكفيهم من ذخيرة ومؤونة وماء، وفي حين بدأ القصف المركز على القدس، الجيش الأردني أخذ يخلي مواقعه، نادى على أخيه مصطفى وقال:

- حبيبي الحرب تسير إلى غير صالحنا، لن نستطيع فعل الكثير، حزيران حار مخوفاً من تفسخ الجثث المطلوب دفنها، هؤلاء شهداؤنا لهم حق علينا فهم ملح الأرض.

أخذ القمر ينشر ضوءه، يعيد رسم وتشكل الكون ويعطي للأشياء حجمها وتكويناتها. ابتعدوا عن طريق معبد، تخلصوا منه حبواً، ظهرت قريهم بعض الدوريات، كمنوا ثم تخطوها زحفاً على أنواعهم وركبهم، بين العنصر والآخر خمسة أمتار حتى لا يصاب عدد كبير إذا وقع اشتباك، بعد خمس ساعات من اجتياز النهر وصلوا منطقة وعرة المشي فيها مخاطرة. انتظروا تباشير الصباح، ليسلكوا الطريق الذي سيوصلهم إلى مكان إقامتهم في الجبال، اكتشفوا أنهم غير بعيدين عن رام الله ومرتفعاتها. سمعوا أصواتاً غير بعيدة، دورية معادية تراقب المنطقة، تراجعوا فتلقوا أمراً بالتوقف، حدثهم عمر بطلاقة وعندما طلبوا منه كلمة السر صمت، في هذا الوقت ابتعد أربعة من الدورية، بينما توزع الباقون على شكل هلال، غطوا مساحة خمسين متراً، أمر بإطلاق النار وماهي إلا دقائق حتى توسع الاشتباك فبدأت مدفعية الميدان تدك الجبل بقذائفها، ظهر الطيران المروحي وألقى قنابل مضيئة، الصبح قريب والنجاة مستحيلة، بدأت الرشاشات تزرع في كل شبر الرصاص والموت. في زخم هذا القصف توقفوا عن إطلاق النار، لا بد من إبقاء مخزن أو أكثر لمداهمة. الآن تأكد من بناء قواعد وقيادات داخل الأرض المحتلة مستحيلة، لا بد من الموت، الحل الوحيد، لكن من يدافع عن أفكاره؟

وهل كانت وصال على حق حين خاطبته قبل عودتها إلى دمشق: أنت صفقة تجارية !

- أعيدي لم أفهم ما تقصدينه؟

- لن يفهم أحدنا الآخر يا حبيبي ، القرار لن يكون بأيدينا، لن يغامروا بامتيازاتهم، هل أذكرك بأفكارك التي لن تتحقق "القواعد الثابتة هدف سهل المنال. ليست البندقية كل شيء، ترك ساحة الكفاح المسلح للعاطلين عن العمل يحولها إلى شركة مساهمة في قتل أبنائها. الأغوار خطوة للذوبان في الداخل. الخطأ السياسي لا يقبل الغفران ولا الندم. فرصتنا الذهبية الآن إذا ضيعتها القيادة فلنندب حظنا لخمسین سنة قادمة"

في الثورة لا يستطيع التطلع إلا إلى الشمس، الذهاب إلى الظل كي لا يدفع عيناه ولا يشعر بحرارة الجو والزوغان والنقل في الجفون. لا يعفيه من المبادرة. الألم يلف ويدور داخل جمجمته إلى الصدغين ومؤخرة الرأس. ماتت الابتسامة وذبلت الأفكار كما الأوراق التي تواجه بداية الشتاء. سيطر على ذاته وبدأ يسدد على هدفه، لقد هرب الخوف دون رجعة، لاشيء سوى الموت. لحظة انتهت ذخيرته، عب كمية من الهواء، إنه يشعر بالآلام في جسده، لقد أصيب، ولا بد من تحقيق نبوءة عبلة، لحظة اشتعل جسدها نوراً قبل عام حين صرحت: "ستدخل الأرض المحتلة وتقاتلهم حتى آخر رصاصة وسيجرحونك في رأسك، ويضعونك في السجن ولن يفرجوا عنك".

- ما معنى كلامك المتشائم؟

- دعني أبك على هواي .

عيناها جمرتان موقدتان، وجسدها الناري يشع، قلبها أرنب بري، ودعته وقبلته قبلة طويلة وهي تقول: " مع السلامة "

حين ألقى القبض عليه تجددت الهواجس التي طاردت أمه. من أجل الخلاص من خوفها ووحشتها دعت جاريتها للغداء وظلت ثلاثة أيام توزع الخبز وهي تردد " اللقم ترد النقم "

أحضرت قارئة تلت بعض السور، في نهاية اليوم الثالث مد يده إلى صدرها. سألته عن صحته فأجابها:

أنا بصحة جيدة يا يمًا .

طوقت القوات العسكرية المكان، شعر بتدفق الدم الحار من رأسه وجسده. ضعفت قوته، دعا رفاقه إلى النجاة بأنفسهم، ضغط على الزناد، فتش عن طلقات فلم يجد، رمى البندقية جانباً، مد يده إلى الجعبة وأخرج رمانة، بأسنانه فتح

مسمار الأمان، وألقاها. صوت يرتفع ويتقدم تجاهه يصيح:

" ارفع يديك، القوات الاسرائيلية تحاصرك، ارم سلاحك جانبا، وارفع يديك، جيش الدفاع يضمن سلامتك. ارفع يديك ...." كانت هذه آخر الكلمات التي سمعها. ما حصل كان كبيرا، ضربت القوات طوقين حول المكان، المروحيات تجوب المنطقة، إحداها حطت غير بعيدة عنهم.

توقف إطلاق النار من قبل الفدائيين، تأكدت القوات المحاصرة أن ذخيرتهم نفذت. بدؤوا يتقدمون وهم يطلقون النار. اعتقلوا المجموعة المتبقية. أما عمر فقد أغمي عليه، جروحه تنزف، اقترب منه ضابط وخاطبه " هيا أيها المخرب " .

تأكد أنه غير قادر على الحركة. احضروا نقالة إسعاف وحملوه إلى السيارة. أعطى الضابط أوامره بالمحافظة على حياتهم، مازالت المخابرات بحاجة إلى معلومات عن الفدائيين. نقل إلى سجن أريحا تلقى إسعافات أولية سريعة وأخضعوه لتحقيق ميداني استهدف استغلال الحالة النفسية، وجمع أكبر قدر من المعلومات التي يصرح بها بفعل إصابته وحالته غير المتوازنة في بداية الاعتقال .

فتح عينيه وجد نفسه ملقى على السرير ومحاطاً بالجنود. في هذا الوقت أعلن الممرض الذي انتهى من خياطة جروحه، أن وضعه سيء، لا فائدة من التحقيق مادام في شبه غيبوبة. خرج الجنود بقي اثنان يرتديان الزي المدني أحدهما على يمينه والآخر على يساره. قال الذي على يمينه بالعبري إن وضعه لا يسمح بأكثر من سؤالين أو ثلاثة. أجابه زميله بأنهما سيظلان يسألانه حتى يستخلصا منه قبل التي يملكها. حذق إلى السقف، بيديه تفحص السرير ثم نظر يمينه ويسرة. ابتسما قبل أن يوجها إليه الأسئلة، قال الأول:

- أنت في أمان !

سأله الثاني

- ما اسمك، ولأي منظمة تنتمي ؟

- سيد عمر من أين دخلت، ولماذا ؟

- لن أجيب عن أي سؤال قبل اسعافي !

- ماذا تسمي خياطة الجروح ووقف النزيف .

- الجروح بحاجة إلى ضمادات ولف ودواء ..

خلال وقت قصير جاءت سيارة اسعاف فيها ضمادات، لفوا جروحه وأعطوه

إبرتين في العضل وكمية من الحبوب. نام على أثرها، وعندما أفاق وجدتهما مكانهما :

- سيد عمر اسمك بالكامل ولأي منظمة تنتسب ؟

- أنت إذن عمر محمود القاسم عضو لجنة مركزية في الجبهة، تحمل إجازة في اللغة الإنجليزية من جامعة دمشق وتجيد التحدث باللغة الفرنسية واللغة العبرية أيضاً. تعلمت لغتنا بعد السبعة وستين ... عظيم أبو عباية، أنت دخلت أرض إسرائيل دون إذن وحملت سلاحاً ممنوعاً، قتلت جندياً وجرحت عدداً آخر. ما قولك ؟

- غير صحيح. أنا دخلت إلى أرضي، بيتي وأهلي مازلوا في القدس. علينا أن الانلخط أو نغلط بالتسميات، هذه أرض فلسطين .

- بل أرض إسرائيل، أرض المعيداد .

- هذا زعم وادعاء ديني لا يلزم الآخرين وهو لا يشكل مصدراً من مصادر القانون الدولي. بأي حق يوعد اليهود بأرض كانوا فيها عابرين كأبي غزو مر وانتهى! وما علاقة يهود اليوم بذلك ؟

سأل المحقق زميله إن كان استكمل المعلومات الشخصية الخاصة بالأسير، ثم همس في أذنه بأن عليهم الاتصال بالقيادة ومشاورتها في أمره. رفع السماعه وطلب التحدث مع إدارة المخابرات العامة، أبلغهم ما عنده من معلومات، فطلب إليهما البقاء معه بانتظار أوامر جديدة. نظرا إلى وجهه وتأملاً جروحه غير قادرين على توجيه أسئلة تترد إلى نحرهما. بعد نصف ساعة رن جرس الهاتف رد أحدهما وقال لرفيقه بأن هذه المكالمة من مكتب وزير الدفاع، الذي سيكون هنا بعد دقائق. خرج ليبلغ إدارة السجن لتأخذ احتياطاتها .

تحرك مدير السجن، ترك مكتبه وأعطى أوامره، أتخذت الاستعدادات ليكون الاستقبال لائقاً، إذ اصطف العساكر لتأدية التحية. بعد ربع ساعة سمع صوت طائفة مروحية تقترب من السجن ثم غير بعيدة عنه، ترجل موشي ديان، تقدم مدير السجن أداة التحية وسلم عليه، ثم قاده إلى مكتبه .ومن هناك توجهها إلى حيث طلب، إلى الأسير الذي أسمه عمر القاسم، الذي استغرب وجود عدد من المسؤولين حوله، فتح عينيه كالحلم، فرأى من يضع عصا سواد على إحدى عينيه، اغمضهما وغط في شبه غيبوبة، لكنه سمع بعض أطراف الحديث، وعرف أن وزير الدفاع هو الذي يغطي إحدى عينيه بعصا، حاول أن يجلس في سريره،

وبعد صعوبة تمكن من ذلك، عندها أمر وزير الدفاع مرافقيه بالخروج، قال: - " شالوم " سيد عمر ، أخبروني أنك تجيد لغات عدة غير لغتك، تحمل إجازة جامعية وعضو لجنة مركزية في " منظمة تخريبية " سامحك الله لقد جئت ونسفت تصريحى، منذ عشرة أيام قلت، إن المخربين المعتقلين عندنا أميون، مدفوعون للموت دون قناعة. مثقف مثلك عليه البحث عن عمل يناسبه في دولته إسرائيل .... أنت من القدس عاصمتنا، أنت مواطن لك حقوق علينا شريطة عودتك إلى الصواب، سنعالجك ونخبرك في البقاء معنا أو العودة للخارج بروح جديدة ومفاهيم عصرية .

بالتأكيد مقابل ذلك تعلن أسفك وندمك بتصريح صحفي على ما أقدمت عليه".

لم تكن حالته الصحية تساعده، رفع إصبعيه إلى الأعلى وقال P.L.O. لم يغلق وزير الدفاع النقاش، ابتسم وقال: " ستبقى هنا، وعندما تغير رأيك أخبرنا". ظل وقتاً طويلاً يناقشه في حق إسرائيل بالوجود، وحق الفلسطينيين عند اخوتهم ... شدد على قدرة المال العربي مع الفكر الصهيوني على صنع المعجزات .

تحسنت حالة عمر حاول أن يرد على كل نقطة ضمن مفهومه العلمي. يتعب فيرتاح قليلاً ويطلب الماء، يغفو خمس دقائق أو أكثر، ثم يعاود الكلام، الكلمة الأخيرة قالها ديان ومعنى " هذه الأرض لا تحتل وجود شعبين، فإما أن نذوب بالعروبة أو أنتم، فمن الأقرب؟! ".

غادر وهو يؤكد بأنه سيلتقي به مرات، عندما تتحسن صحته، أشاح عمر بوجهه وهمس :

- ألم يجدوا غيرك. إنك تثير المرارة، أنت من هزمتنا العام الماضي، إنه لقاء القوي للضعيف!؟

قال له أحد المحققين بأن اسرائيل تنتظره، وعندما سأل " كيف؟" وضحا له ذلك. لام نفسه وقيادته، وتأكد بأنه مازال صغيراً، وسيتعلم في السجن الكثير .

نشرت مجلة الحرية تحليلاً عن أعمال مؤتمر آب، مما جعلهم يقرؤون ما بين السطور ويصلون إلى ما وصلوا إليه، لكنهم فوجئوا إذ لم يتوقعوا أن القيادة في الجبهة ستضحى بأمثاله، قائد سياسي وعسكري ومثقف . " لو كنا نعرف ماسيفعله في السجن لتركناه أو قتلناه " هذا ما صرح به مدير سجن نفحة في الثمانين.



نظر من النافذة مازالت الغيوم البيض تسرح في السماء وتثير معها حزم الهواء.  
فرح في صغره لمنظر قطعان الأغنام السارحة في الجو، تذكر ذلك وابتسم.

منذ الصباح والعصافير تتطاير على غير هدى، وأوراق الأشجار التي تقطر  
دماً يتقاذفها الهواء. الشمس تلتهم، وعندما تهتز الأشجار والأوراق فإن الأنوار  
تتراقص أشبه بثوب غجرية راقصة. قبل سنوات ويوم كان بداية المرحلة الثانوية  
سمع قرع الطبل، كانت القدس تقيم احتفالاتها الموسمية في الخميس الثالث من  
نيسان أو ما يسمى بخميس الموسم. نادته أمه، صوت القرع يجذبه، لضربه إيقاع  
خاص يشبه نغير الصيادين الذين يطاردون العصافير. أما هنا فهو بداية فرح  
وسهرة غجرية تمتد حتى الصباح. جلس على الأرض في الصف الأول، وعندما  
كبرت الدائرة وأخذت الفتيات ترقص ظل محافظاً على مكانه، يتميلن ويهززن و"  
يطعجن " وينحنين بأجسادهن وعندما يدرن ترتفع التتورة شيئاً فشيئاً فيظهرن  
عريهن البيض ورشاقتهن، تتوالى الصفرات والتصفيق على صوت " هوي " تلف  
راقصة دقيقة الملامح حسنة الوجه ضامرة الخصر عمرها لم يتجاوز الخامسة  
عشر، تلف وتدور وعند دوراتها ترفع بإحدى يديها تتورتها فيظهر عريها حتى  
النهدين، وبيان طرف سروالها الداخلي السميك، أحياناً شيء من السفينه. فكان هذا  
يلهب عقول الرجال ويعطي للسهرة متعتها وأنسها..... نهقت حميرهم المربوطة  
على بعد أمتار من المكان الذي نزلوه، نصبوا خيامهم خلال أقل من ساعة. ارتدت  
النسوة الألبسة الشفافة والتنانير الدائرية التي يتوافق ارتفاعها وانخفاضها مع شدة  
الرقص والدوران.

عند آخر السهرة عادت الصبية ثانية إلى الرقص وهي أكثر حيوية وإثارة،  
فبدأت ترقص وتعقص جسدها وشعرها فيبرز النهدان قويين صلبين كسفرجلتين لم  
تصفرا، الصدر مشع فتحة الثوب العليا تبرز العنق وجزءاً من الصدر على شكل  
دائرة تنتهي عند سفحيهما، مع فرقة وقرقة الصنجات ودخول امرأة في الثلاثينات  
تحدثها، هزت جسدها اسفنجة تتحني كما شاءت ترفع إحدى رجليها ثم الأخرى  
تتلوها بقفزة وهزة دائرية، جعلت الحضور يقفون مبهورين، أما المرأة فقد عوضت  
عن مجارتها للراقصة الصغيرة بإظهار مفاتها بشكل متعمد، إذ تمسك بيدها طرف  
ثوبها الذي تلوحه في الفضاء فيظهر ما هو مخبوء، ومالم تره الأعين، فكان لعملها  
هذا إثارة، الشبان وكأنهم قدوا من الصخر، وأصحاب الأموال يزيدون كمية ما يدفع  
مع ما تظهره من براعة، فذاك يدس يده في عباها، وآخر يوصلها حتى ثديها  
يقرصها فتميل وتبتسم للورقة النقدية الكبيرة وتتس ما أحدثته فرقة يديه في ثديها،  
بعضهم يلجأ إلى الشيخ المرافق لهن، وبعضهم يحاول حل معضلته بنفسه يدخل

ويرقص ثم يميل تجاه أذنها، فتخرج لتدخل غيرها، تختفي عن الحلقة وتعود لتمارس مهارتها من جديد، وتظل تخرج واحدة وتدخل غيرها حتى ينعم جميعاً بطيب لقاء متجدد. وعندما يحصلن على حاجتهن من المال والمتعة يهمن في أذن كبيرهن الذي يعلن انتهاء السهرة. ولا يعني هذا نهايتها، فعند الوصول إلى مضاربهن وبيت الخيش المنسوب يرتمين على الأرض لشدة الأعياء، تاركات الهواء يلعب بثيابهن، دون حاجة لغطاء أو ستر أفخاذهن، فتتراقص أجسادهن في رؤوس الشبان الذين يظنون في المكان يحوفونه حتى الصباح .

بعضهن يفضلن عدم النوم ينشفن عرقهن ويتناولن القهوة ثم يبدأن المزاح، فتحكي كل واحدة مانالها في تلك الليلة مع من ذهبت وكم دفع لها. أجسادهن تظل متدفقة حيوية حتى الصباح حيث يتناولن الإفطار وينمن سويعات قليلة .

أرسلت أمه عدنان يبحث عنه ويناديه، في زحمة السهرة نسي ماجاء من أجله، في آخرها جاء أبو عدنان وجرحها إلى البيت وهو يلعب الساعة التي جاء العجر فيها، انتهى قرع الطبول فعاد المدنيان إلى مكانهما على يمينه ويساره وهو مازال يتوجع في سريره.

طلب أحدهما إليه أن ينزل عن السرير ويرفع يديه عالياً، أنزل يده اليمنى ووضعها خلف ظهره وشدها بالوثاق ثم لف يده اليسرى وأدخلها بالحلقة الثانية وقال له :

- كيف ترى نفسك الآن ؟

ضحكا بصوت مرتفع وأحضر المدني والآخر القيد الثاني ووضعها في رجليه ثم صاح به هيا " مخرب " بداية صفعه على رقبته، وقبل أن ينزل أصطدمت رجله "ببرطاش" الباب فتكوم، فأخذاً يضربانه ويضحكان، التفت عمر بصق وقال:

- أي موقف إنساني أراه

نظر إليه بحقد، اقترب منه أحدهما وفك قيده للحظات، وفسح له المجال ليقوم. اتكأ بذراعه على الحائط .

مشى خطوات متناقلة عليه أن يحرك إحدى قدميه ثم يحرك الأخرى في خطوة لا تزيد على شبر، وقبل أن يصل إلى الباب الخارجي وضعها عصابة سوداء على عينيه. أظلمت الدنيا، عليه أن يحرك رجله ويمشي حسب التعليمات التي يسمعاها. عند باب السيارة الزنزانة وقع على الأرض، فضرباه بأحذيتهم، نادوا مجموعة جنود حملوه ورموه في السيارة وأغلقوا الباب فلفه بقفل وجلس هناك

عسكريان مسلحان. وقفت أمام الزنزانة السيارة جيب عسكرية وخلفها واحدة إضافة إلى عدد من راكبي الدراجات النارية. تكوم في أرض السيارة، حاول النهوض فلم يقدر، شعر بثقل جسده جاهد ليرى ما حوله، لم ير شيئاً اتكأ على جانبه الأيسر وغفا. السيارة تمشي على طريق مليء بالحفر، ترتفع ثم تهوي من جديد في حفرة، أفاق وحاول أن يحرك جسده، يدها موثقتان وقدماه مقيدتان، تذكر ماحدث معه. جاهد حتى استطاع أن يجلس على الكرسي. أثناء حركته هذه نزلت العصابة قليلاً عن عينيه اليسرى، نظر حوله، لا أحد في السيارة المغلقة، اقترب من النافذة التي بعرض فتر، جاهد حتى استطاع أن يصلها، للمرة الثانية يحاول أن يمسك النافذة، فيكشف أن الصغد يمنعهما من الحركة. استنشق الهواء فشعر بالانتعاش. خمن أنه يتجه غرباً حين تأكد من وضع الشمس بالنسبة للسيارة. هذه الأرض بما فيها من بيارات وكروم وخضرة لا تنتهي، لا يعرفها، بالتأكيد هي في عمق الثمانية وأربعين. حذق إلى السماء فشاهد غمامات أكثر كثافة من السحب التي رآها صباحاً. شعر بلسعة هواء باردة وألم في جروحه، إنه الهواء الذي تحركه السيارة. هواء عذي محمل بالرطوبة. تابعت السيارة وجهتها غرباً، انعطفت يميناً ثم دخلت في طريق ضيق، قرأ لوحة بالعبري تشير إلى صرفند. تقدمت ببطء فاحت رائحة المجاري المكشوفة، الذباب له حومة والأوساخ مكدسة تغطي المكان، رائحة كريهة لم يستطع التخلص منها، دفن أنفه في جسم السيارة. رأى غرفاً متطاولة وجنازير حديد هي بقايا اصطبلات خيل استخدمها الإنكليز لهذا الغرض، مازالت المذاود واضحة. هذا المكان غير بعيد عن الطريق العام. صوت السيارات وحركتها لا ينقطعان، وغير بعيد عنه مطار حركته ليست دائمة. توغلت الزنزانة حتى توقفت أمام بناء مطروش بدهان أصفر، بجانبه شجرتا نخيل شجرتا نخيل سامقتان وشجرة بلوط وشجرتا تين عليهن عدد هائل من الطيور، ومع أن الأطيوار رمز للفرح فإنها هنا موظفة عكس مهمتها، فلطير قصة مع كل سجين مر على تحقيق صرفند، إذ يستمر التعذيب حتى وقت متأخر من الليل، وعندما يبدأ محاولة النوم، تكون قد أخذت ما يكفيها من النوم لتبدأ بالشدو في الصباح الباكر، وبعيد أذان الفجر، طيور مختلفة الأشكال والأصوات جوقة موسيقية غير متناغمة. لأول مرة يكره الإنسان صوتها.

المعتقل وسط غابة غير معروف في تلك الفترة، وعندما سأل عنه جاءه الجواب مباشرة :

" أنت لا تعرف هذا المكان، وليس مهماً معرفته، هنا لا سلطة فوق سلطة المخابرات، أنت في أمان إذا تعاونت معنا، وإذا لم تفعل فستموت من العذاب، لا

أحد يسأل عنك، وإذا فعلوها سنقول، مات على أثر إصابته، نحن نعرف عنكم الكثير، نعرف كل شيء، هيا تحدث ولا تضيع الوقت".

الصليب الأحمر الدولي بحث عن هذا المعتقل، ولم يستدل عليه بعد عامين إلا بإعجوبة. تغلق الأبواب الخارجية، فيصير المكان معزولاً عن العالم، وحتى لا يفتضح أمره ولأسباب قدرتها إدارته أبقّت الأوساخ داخله. لا شيء حوله يدل على ذلك. أنزلوه من السيارة وفكوا قيده ووثاقه ووضعوه في زنزانه طولها متران وعرضها متر واحد وأغلقوا عليه الباب.

الدنيا سوداء، أغمض عينيه مدة ثم فتحهما ليكتشف تحسن رؤيته، فقد شاهد نافذة بعرض الإصبع. الحرارة شديدة تبللت ثيابه عرقاً، جسده يرتجف من الرطوبة والألم ومعدته الخاوية تشعره بحاجته إلى الأكل جدرانها يطحن بعضها بعضها، يحس بين الفينة والفينة بوجع لا يطاق، فيشد بطنه ويضع يده فوقها وما هي إلا دقائق حتى تفارقه هذه الحالة لتأتيه من جديد وهكذا. جروحه مازالت حية. فتحوا الباب ورموا عليه ثلاث بطانيات، جفف عرقه بواحدة، ووضع واحدة تحته أما الثالثة فجعلها مابين جسده والحائط انقاء الرطوبة التي تتخر العظام. شعر بحاجة إلى النوم فغفا. صحا على صوت قرقعة عند باب الزنزانه. فتح العسكري الباب وأمره " هيا خلفي".

قال في نفسه إن وجود المعتقل في بيئة جميلة يفسدها. مظاهر اليوم الجديد، الصباح، أصوات المعتقلين وأناتهم، جرجرة أرجلهم ومشيمم البطيء، رائحة دخان سجائرهم، صدرت التنبيهات للجميع " أسفيرا " هيا قفوا باستعداد.

صرفند انتظار للمجهول، انتظار لوجه بشع، للتحقيق، أن تصر على أقوالك ويكتموا نفسك، ويدفعون جثتك إلى كيس قماشي، يضعونها في مؤخرة السيارة وعند أقرب مزبلة يرمونها أو يحرقونها.

أدخلوه غرفة مستطيلة طولها يقارب الستة أمتار أما عرضها فحوالي الثلثين. فيها اثنان يجلسان كل خلف طاولته، طلبا منه الجلوس في مواجهتهما. رنّ الجرس فطلب أحدهما قهوة وبدأ يعرف عن نفسه بأنه " سابير" من المخابرات العامة وزميله "دان" من وزارة الدفاع. ليسا من ملاك صرفند، جاء خصيصاً لمشاهدته ولقائه، الذي وصفه دان باللقاء الودي. فلن يكتب أو يسجل شيئاً وزيادة في اطمئنانه غادرا مكانهما وجلس سابير إلى جانبه، أما دان فحذا حذو زميله، ترك طاولته وجلس قريباً منهما، فبد بلونه الحنطي جادا على الرغم من صغر سنه، قال:

في البداية مطلوب منك تعبئة نسختين، هما استمارتان شخصيتان، فيهما معلومات عن المعتقل وأسرتة وهوياته، فقد احتوت الأولى على:

الأسم والإخوة والأقارب والأحزاب التي انتسب إليها وعمله فيها والمسجد الذي يصلي فيه والشهادة التي يحملها، مراحل الدراسة ومكانها، أسماء الأصدقاء الذين عرفهم في كل مرحلة وعناوينهم، عنواناً أو أكثر للاتصال البريدي، ثم أخيراً ماذا يطلب؟!؟

أما الثانية فبالإضافة إلى المعلومات الأساسية فيها البنود التالية:

الدورات التي انتسب إليها والأسلحة التي يجيد استخدامها وأين تدرّب وإلى أية منظمة ينسب وماذا يعرف عن المنظمات الأخرى؟ العمليات التي قام بها ومدى نجاحها؟ مكان القاعدة واسم المسؤول وعنوانه وأسماء عناصرها؟ وما أقرب قاعدة إليها وماذا يعرف من عناصرها، نوعية الطعام صباحاً، ظهراً، مساءً، وهل هناك فروق في ذلك بين منظمة وأخرى، اشرح ذلك؟ ما علاقته مع الأهالي ومن يعرف؟ مآريه بالمختار؟ ماذا يتوقع مستقبلاً؟ هل يعلن ندمه وأسفه؟ هل من شيء يقوله لأهله أو لصديقه أو لحبيبيته؟

ملاحظة: مع الاستمارة أوراق بيضاء يستطيع كتابة ما شاء عليها .

بكل ود ولطف دعاه دان ليدله على الأسلحة التي يعرفها ومدى معرفته بها؟ ويحدثه عن ميزات كل سلاح جريه، وأية قطعة يستطيع فكها وتركيبها يمكنه القيام بذلك دون العودة لأحد.

أشار بيده " هيا معي " .

دخلا غرفة أسلحة فيها من الخنجر إلى المدفع، سأله عن اسم كل سلاح وميزاته ومدى معرفته الرماية به واسم الدولة الصانعة، ثم طلب إليه أن يفك البارودة البلجيكية والإنكليزية والفرنسية والروسية والرشاش المتوسط.. ظهر الإعياء عليه لم يعد قادراً حتى على الجلوس لشدة التعب، كاد يقع، أوصله العسكري إلى الزنزانة وأغلقها. بعد قليل جاؤوه بصحن شوربة فيه قطعنا بطاطا. في هذه الساعة انطلق صوت صراخ وضرب وتعذيب .

يعذبون رغبة في التعذيب، ويتلذذون لصياح السجناء وصراخهم، ما هذه الموسيقى التي تطربهم؟ أي بشر هم؟! أصوات مرتفعة أنين وآه وضربات سياط، تفرقع عند اصطدامها بالأجساد الأدمية، كثيراً ما يقع ويتعثر، ترتفع ضحكاتهم المجنونة، أي أناس هم، يتمتعون بالصراخ؟!؟

الأصوات تصله واضحة :

- دخيلك سأعترف ارفع الضرب عني ولا تضع الكهرياء في جسدي!

الكهرياء مخلوقة عجيبة تمشي ضمن أسلاك، لا تشكو همها لأحد، تخصص المناضلين، كما تخض البدوية الشكوة، لترى إن كان قادراً على الصبر، يرتجف، يرتج، تأخذه ذات اليمين وذات اليسار كبندول الساعة، خلال لحظة يكاد يسقط، قلبه يسقط إلى أسفل قدميه.

رجفة في القلب وألم في المعدة والأمعاء، هبوط قوى الجسم، الجسم المحطم يتكوم بفعل الرجفات المجنونة. طائر ينتفض، يرتعش، غيبوبة، يسبح في الفضاء والألم يمزقه، خلال ثوان قوة تشده إلى الأسفل لتبقيه جثة.

هل يعقل أن الإنسان يتحمل كل ذلك وهو صامت؟ هل يستطيع المكابرة؟ قال عمر:

- سأموت ويتوقف قلبي عن الحركة، فهذا أفضل، عليّ أن لا أقول كلمة تدل على ضعفي.

سمع طوال الليل هذه الأصوات والصراخ والشتائم ضد العرب والشرف. في الساعة الثانية عشر انقطعت الأناث لمدة قصيرة لتعود أعنف. المحقق يهدد، تعترف أم آتي بأمك؟! سترها عارية، الجنود سيفترعونها. عند الصباح انقطع الصباح. دق على الباب. فتح العسكري وصاح بوجهه: تريد أن تبول خذ هذا الدلو ولا تدق الباب ثانية!

شعر بدوخان وزوغان وانحطاط، رأسه يؤلمه، وقع على الحائط فأصابه خدش في وجهه، قعد على الأرض، اقترب الموت منه خطوات. صارعه فسمع صوتاً في الخارج، تبين أن الموت فر هارياً، خاف أن يقلبوا عليه الزنزانة، قرر عدم المجيء ثانية، هرب من ثقب صغير وهو يردد: إذا أراد الله قبض روح فليأت بنفسه أو يبعث غيري!

روائح المجارير تزكم أنفه، أقدام تتحرك، هرش جسده الدبق، أسراب الدويبات التي تؤنسه تحوم وتقرصه، يفرك مكانها، يشعر بحاجة أكثر إلى حكها، ماذا يفعل وهو بين الإغفاءة والصحو؟

صباحاً جاء من قاده إلى التحقيق. المحققان مكانهما. قال سابيير:

- أهلاً بك في دولة إسرائيل، بماذا تحب أن نبدأ؟ ... حبذا لو حدثتني عن

منظمتك " التخريبية " .

- دعنا نتفق على المصطلحات، اتحفظ على كلمتي مخرب وإسرائيل ...  
الإنسان الذي يدافع عن وطنه ليس مخرباً، وإن ما تسمونه إسرائيل هي فلسطين  
أو أرض كنعان .

- وهل هذا وارد بعد هزيمتكم العام الماضي؟

- الشعب لم يهزم أنتم حاربتهم دوماً !

- دعنا من ذلك الآن سمعنا أن داخل منظمتكم تيار يطرح الماركسية، هل  
تسمح فتح اليمينية بولادة تيار يناقض طروحاتها. إذا حصل صراع كيف  
ستواجهونه؟

- طبيعي أن نختلف وتتباين وجهات نظرنا للوصول لطريق أفضل. نتحاور  
معاً وتبادل الآراء، أما صراعنا المصيري فمعكم .

- وإذا استطعنا نقل الصراع بينكم!؟

- إن حدث يحل بالحوار الديمقراطي.

- وإذا استخدم السلاح!؟

- أنت تقول ألعازاً، إذا حصل سيكون هناك موقف من المقاتلين!

- سيد عمر أنت طيب ووطني زيادة، هل نسيت بأننا سنغذي التناقضات  
وسنصل إلى ما نريد! نحن لدينا خبراء يخططون لأجيال .

تدخل دان وقال أنتم بعيدون عن العلمانية، سنتعاون مع أصدقائنا وسنشدكم  
إلى الأصولية، مجتمعكم منحور يقبل الأفكار الغيبية والدينية، مسيحيون ومسلمون  
أنسيت أن هناك السنة والشيعية والدروز.... هل تريد أن تنقذ نفسك من الأسر،  
لماذا لا تجيب؟ أعطيك فرصة لن تتكرر، تصرح أمام الصحافيين بأنك ضد  
العمل التخريبي ثم تغادر السجن إلى بيتك، وإن شئت السفر إلى الخارج، فأذهب  
لن نقف في طريقك .

لم يجب حرق إليه، ففهم المحقق بأن نظراته تؤكد إنه يحتقر هذا الأسلوب.

أنت تعرف بأن قوة جيش الدفاع لا تقهر، ثلاث دول انهزمت ولو شئنا أية  
عاصمة من الثلاث لو صلناها، لكننا لا نريد أن نضيع جيشنا !

- حرب الجيوش انتهت لتبدأ حرب الشعب .

- أي شعب يحارب وهو جائع ولا يملك حريته. أنت رجل خيالي ماسك العصا من الوسط الجيوش مازالت تشتري أسلحة روسية، وهذا يعني أن حرباً قادمة على المنطقة.

- ربما ليفرضوا الحل الذي يريدونه وليس لتحرير بلادنا !

- أنت مخرب خطير .

- لا تخاطبني بهذه الكلمة .

دق على الطاولة بعصية وقال " مخرب وألف مخرب خذوه "

دخل جنديان قاده إلى خارج الغرفة ووضعوا القماشة السوداء على عينيه، مشى حسب الأوامر المعطاة، تعثر ووقع في المجاري واصطدم بجدار، ظلا يلفان به المنطقة حتى وقع على الأرض. أحضرا نقالة حملاه حتى الزنزانه ودفعاه داخلها. تكوم على ذاته وظل لا يعرف ما حدث طوال الساعة الماضية من الزمن. أفاق، قرع الباب، جاءه الجواب: ماذا تريد ؟

- أريد أن أستحم وأبدل ثيابي .

- لا يوجد قرار بذلك، انتظر حتى المساء، عندك دلو الأوساخ استعمله .

ظل يدق الباب ويصيح :

- أريد أن أستحم، أغسل ثيابي، أتخلص من القاذورات .

لم يجبه أحد.

مساء سمحوا له بالخروج لمدة ربع ساعة، استحم بالماء البارد وغسل ملابسه وعندما انتهت المدة سحبوه وهو عار. دفعوه إلى المنفردة، عصر ملابسه وعلقها واندس ما بين بطانياته. غفا في ساعة متأخرة سمع أصواتاً مزعجة سمع صراخاً وضرباً كما في الليلة السابقة .

الجدران الصفراء أمامه، تحتويه، يتفحصها، يراها قوية مرة وضعيفة مرات، لقد اعتاد على الظلام داخلها، وعلى الروائح، رائحة الغائط والبول، روائح كريهة حادة وواخز للأنف، لا تطاق لثانية، فكيف إذا كان الوسط الذي يعيش فيه؟ الدوار يلازمه، ثقل في المعدة، شعور بالتقيؤ والتقرز. الإنسان إذا تكلم وعبر عن أحزانه يخفف كثيراً من آلامه، نظر إلى الحيطان وبدأ يكلم نفسه، لكنه استدرك أن الذي يفعل ذلك هو فاقد الإرادة. بدا عليه التأثر جلس وفرك يديه وهو يتأمل باب الحديد السميكة الذي يفصله عن العالم الخارجي .



في صباح اليوم الثالث قاده عسكريان إلى المحقق عموس مسؤول المنظمات الفلسطينية في المخابرات الإسرائيلية ، مد المحقق يده مصافحاً وبادر بالقول:

- أهلاً ومرحباً بكم على أرض " إسرائيل "!

- بل أرضنا المحتلة فلسطين .

- لا أريد " شوشرة " في هذه الأيام وغيرها الحق لنا لأننا الأقوى دائماً! أنت في تنظيم يتخلى عن هويته وفيه صراعات، ما رأيك به وهل هو مع اليمين أم مع اليسار ؟

- لم أفهم قصدك من السؤال ؟

- أنتم في آب الماضي عقدتم في جرش مؤتمراً انقسمتم فيه إلى تيارين .

- جدل الأفكار وصراعها مازال في بدايته، إننا في مرحلة تحول من ذهنية القومي العربي إلى الماركسي المادي وهذا لا يتم بين يوم وليلتين. مازال الفرز لم ينته .

- تُسمون الجبهة ومعناها ائتلاف لعدة أحزاب وقوى، فما هذه الأحزاب والقوى، وإذا لم تكن موجودة فكيف تفسر ذلك؟

- الجبهة إطار واسع تضم فئات الشعب، تفرز حزبها الطبيعي.

- كل جبهة وحركة ستفرز حزبها، فأيهم هو الطبيعي ؟

- هذا يتأكد بالممارسة .

- سنعطيك ورقة تسجل فيها معلومات عن تنظيمكم والقواعد التي تعرفها وأسماء المخربين وأسماء قياداتهم .

- الذي تطلبه كثير على جاسوس أن يقدمه دفعة واحدة!

- أنت أبو عابدة تقدم ونحن نقدم مذكرة إخلاء سبيل.

- لن أفعلها

- سنتدم يوم يصير واحدكم اسماً بلا مسمى، بلا مدلول كأبي اسم آخر .

في كل يوم كانوا يخضعونه لتحقيق جديد ومعاملة قاسية، جاؤوه مساء بحقنة لتعطيله جنسياً، تضخمت خصيتاه لساعات، ثم عادتا لوضعهما الطبيعي، بعد أربعة عشر يوماً قدم إلى المحكمة العسكرية في رام الله. طلب القاضي تمديد توقيفه ووضعه في سجن عادي فحول إلى الرملة.

## - الفصل السابع عشر -

لا شيء في نفحة تغير، تتعاقب الفصول والعجاج لا ينقطع، حتى في فصل الربيع حين تنهض بعض الأزاهير والأشواك البرية من سباتها وتحاول أن تغير اللوحة وتضفي عليها شيئاً من الجمال، تنكفيء تحت ذرات الهبوب. هذه الرياح التي تصول وتجول لتَهَب زفير الطبيعة وسوافيها لذاك السجن، أكوام الرمل تتحرك وتتوقف أشبه بقافلة نالها الكثير من التعب .

الهباء بفعل رعونته وقسوته واصراره على تعكير الجو يشكل تعرجات وأكواماً متناثرة. يأخذ بعض أشكال المجسمات حين تتوضع الذرات بعضها فوق بعض، فتغطي جزءاً منه، تتلبس القسم الباقي في حركة زاحفة لا تنتهي، فتختفي بعض الصخور وتمتلئ الحفر تراباً شديداً الشبه بالمد البحري العنيف الذي استطاع فرض رماله بقوته على الشاطئ، لكن هذه الحالة لا تدوم، ففي رحلة هوائية تالية تأخذ شيئاً منه. تكشف الطبيعة عريها محاولة التأثير في شكلها وفتح بعض التجويقات النخر .

عاد السجناء إلى نفحة فاستقبلتهم بالوهج، فتحت حضنها ونثرت الجمر والنار في كل مكان، جمر يجعل القدور تغلي ولهبب يجعل الأجساد تقور عرقاً، عادوا وهم حائرون. هل نجح الإضراب؟ موت اثنين في بيت معتسار جعلهم يعتقدون أنهم خسروا كثيراً. أثنان لا أحد يعرف اين جنتاهما، هل دفنتا؟ أم مازلنا في المشرحة؟ أم ظلنا وسيلة إيضاح؟ بانث التلة، إنهم يقتربون ببطء من السجن. كل شيء ساكن، بينما النيل يفيض غامراً صدورهم ووجوههم، تحول ماؤه إلى دبق زادت ملوحته مع كل فيضان. حركوا أيديهم في محاولة للتخفيف من خطر الفيضان وتحريك الهواء الساكن.

التصقت ملابسهم بأجسادهم وتحولت إلى قديد. سرعة السيارة كسرعة جمل بطيء. فُتِح باب السجن الخارجي ودخلت الزنزانة إلى باحة السجن الداخلية، ثم دخلت بقية السيارات. نزل السائق و المراقبون، بقي السجناء مدة طويلة، سقط منهم اثنان في أرض السيارة التي تحول جسدها إلى فرن زجاجي. نزلوا وهم يترنحون، طلبوا اصطفاقهم تحت النار الموقدة، فكوا الأصفاد، مسحوا عرقهم بأكمام ملابسهم. ظلوا ثلاث ساعات، كانت كافية لهروبهم إلى الظل بفعل سقوطهم واحداً بعد الآخر ...

لم يكتف السجنانون بنقلهم، بل أخذوا يو بخونهم ويضربونهم بمقدمة أذيتهم ويشتمونهم بكلام بذيء :

- أنتم تريدون فرض ارادتكم على إسرائيل يا أبنا القحاب !

اتجهت العيون إلى القائل إنه أحد الجنود غير المعروفين، ناداه الياهو باسم امشيروش. مدير السجن عمрам نزل من مكتبه، يحمل جهازاً لاسلكياً ويصدر الأوامر . حوله عدد من الضباط وضباط الصف و الجنود وقطيع من كلاب الحراسة المفترسة، مروا قرب الكلاب التي زادت من نباحها. ساروا عدة أمتار باتجاه البوابة الداخلية. الكلاب بنباحها والضباط بأوامرهم. حصلت عركة عند البوابة الداخلية أحد الحراس حاول دفع عمر مما أدى إلى مشاجرة بالأيدي. استخدم السجنون الهروات والغاز فوقع على الأرض جروه إلى الداخل وهم يضرّبونه ويشتمونه.

جرّح في صدره وآخر في ظهره نتيجة الضرب. ذهب إلى الظل بعد أن جفف الدم النازف وغسله. دارت على أثرها مشاحنات في الباحة، وارتفعت الأصوات من داخل المهاجع تردد عمر... عمر. لم يكن وضعه سيئاً، بل جذلاً ومرحاً لما رآه وسمعه، لقد أدرك الآن أن السجناء قوة يحسب حسابها، إنه الآن بعيد عن أيديهم يراقب فقط، تصور ذلك الحوت الذي يؤدي حركاته برشاقة يرفع رأسه إلى الأعلى، وأحياناً جسده اللدن كله، ثم يقذف به دفعة واحدة إلى الماء، فيحدث الارتطام صوتاً، يتلوى داخل الماء، كأنه أفعى نهضت بعد سبات شتائي.

وما هي إلا دقائق حتى كان الجميع في الظل ينشفون عرقهم وبعضهم يداري جروحه. مازال الشغب مستمراً في غرف السجن. سيعودون إلى غرفهم، يفرشونها ويطرزونها بالألحان والدموع والدماء، وسيحدثون عن الظلم الذي لاقوه .

جاء الأمر بأن يخلعوا ملابسهم، كل واحد كوم ملابسهم أمامه، جاؤوا فتنشوها وأخذوها تاركهم عراة. بعد التفتيش الدقيق في الداخل والخارج، سلموا مل سجين بنطلونين وقميصين برتقاليين، وفرشة اسفنج ويطانيتين. في هذا الوقت تسرب خبر استشهاد راسم حلاوة وعلي الجعفري فارتفعت أصوات منددة ثم سكنوا، دوى الأذان وصلوا على روحيهما. ثم رفرفت الرايات السوداء وأعلن الحداد ثلاثة أيام. بينما بدأ الشيوخ يرتلون قصار السور وآيات من القرآن الكريم. أعلنت الإدارة عبر مكبرات الصوت منع التلاوة وطلبت إلى الجميع التزام الصمت والهدوء، وعندما لم يستجب أحد أصدر عمرام أوامره بمصادرة المصاحف، جسده يرتجف، اتخذ شكل لبوة تتحفز للانقضاض، وجهه ازداد سمرة وبدا كأنه من الفلاشا، ظهرت عليه السمنة ليخالف ماهو معروف عن الأجساد اليمنية، تلقى إياهو الأمر من رحيم، وأخذ يفتش الغرف ويصحبته ثلاثة حراس. يدخلون الغرفة فينادي أحد العساكر

بأعلى صوته " أخشيف .... أسفيرا " لم ينتبهوا، عاذاها ثانية فلم يتلق جواباً. كانوا خاشعين ينصتون للتلاوة. تناول المصحف من يد الشيخ عباس فتوقف عن التلاوة.

تعوذ بالله من الشيطان الرجيم. حاول إعادته فتدخل زملاءه، حاولوا اقتياده خارج الغرفة، لم يفلحوا إذ جرت مشادة تحولت إلى ضرب بالأيدي. هتف إلياهو ليلبغ الإدارة. بعد دقائق وصل عمرام ونائبه رحميم إلى الغرفة قادوا الشيخ عباساً وعمر وحسان. لفوا على المهاجع وصادروا ما لا يقل عن سبعة مصاحف. أما إلياهو فقد أسرع يتخلص من بقايا الدم الراعف على وجهه.

رفعت درجة الاستنفار لدرجة منع فيها العناصر أربعة أيام من المبيت. وانتقاماً أخرجوا السجناء إلى الباحة وتركوا الكلاب تهجم عليهم وتراجع، وكأنه مشهد تمثيلي متقن، غادرت مكانها ما بين الشبكين لتتخذ من الباحة حلبة صراع وتركت معهم طوال الأيام الأربعة في أوقات الفورة. أمرهم في اليوم الثاني أن يشبك كل سجين يديه خلف رأسه ويقعد من الظهر إلى المساء ممنوعاً عن التحرك أو الشرب أو الذهاب إلى دورة المياه فاختلطت رائحة البول بالعرق بالغائط .

وصل الصحفيون إلى نفحة واتجهوا إلى السجن ليغطوا نتائج الإضراب، للمرة الثانية يفتح الباب الكبير ويدخل مراسلو وكالات الأنباء والصحافيون وكاميرات التلفزيون، يلتقطون صوراً حية، التقطوا صوراً للمناظر الجميلة لجنة عدن وللشكل الخارجي للسجن. أخرجهم المدير في مكتبه حتى تلقى هاتفاً من نائبه، بعد أن أنهى السجناء والسجانون حملة تنظيف استمرت نصف ساعة، بعدها قدمت وجبة كاملة. حضر إلياهو وفتح الأبواب الداخلية للغرف وسمح بالتنقل والالتقاء.

أمران متناقضان حصلاً، هددوهم بالبقاء في الساحة مدة أسبوع بلا طعام أو شراب وحتى بلا نوم، الشمس نهراً تفعل فعلها إذا كلما أغمي على واحد سحبوه إلى الظل. هذا التشديد يتناقض مع ما حدث قبل ساعة، الاهتمام المفاجئ وتحسين لغة التخاطب والسماح بالزيارات والانتقال من غرفة إلى أخرى، لكن كل شيء اتضح مع دخول الوفد الإعلامي إلى الغرف. في هذا الوقت وصل شأوول ليفي مدير مصلحة السجون، فاصطف الحراس والسجانون لاستقباله.

ترك عمرام الوفد الصحفي، أدى التحية وقاده إلى مكتبه ثم التحق بالإعلاميين. الغرف نظيفة والسجناء يتجولون بين الغرف، تجمهروا حول الوفد. تقدم شأوول وعرف بنفسه سلم عليهم ثم طلب إليهم الاستمرار بمهمتهم وتلبية

مطالبهم فيما يرونه مناسباً .

سنة من الرفاق في غرفة نائب المدير الذي بقي معهم طوال المدة التي قضاها الوفد. لكن أحد الصحفيين طلب أن يلتقي بالسجين عمر القاسم، فأحضره، نظر إليهم وبدأ يستمع إلى أسئلتهم :

- حدثني عن نتائج الإضراب ؟

بداية هناك خمسة من رفاقي محجوزون عند نائب المدير كيلاندلي بأية شهادة، أطالب بإحضارهم ليسمعوا ما سأقوله :

بعد وصولهم تابع كلامه :

- سمعنا أن هناك أشياء كثيرة تحققت، مثل زمان الزيارة ومدتها ونوعية الطعام والسماع بالمذياع في السجون كافة، واستبدال فرشاة الاسفنج بواحدة أكثر سماكة وزيادة البطانيات شتاء وتحسين المعاملة. لكننا إلي الآن لم نلمسه على الواقع .

- ما أثر ذلك عليكم ؟

- الانتقام ولا شيء غيره، منذ أربعة أيام ونحن بلا طعام وشراب ممنوعون من ذلك حتى قبل ساعة فقط، قبل يومين قضينا النهار والليل في الباحة تحت الشمس المحرقة، ننام دون غطاء أو فرشاة ونقضي حاجتنا تحتنا، حتى الكلاب أخرجوها من بين الشبكين وتركوها معنا في الفسحة.

تدخل شأؤول وقال :

- التقارير التي تصلني تقول بأنكم مدللون، ألا يكفيكم ما حققتموه. كفى أيها المخرب إنك تفتري على دولة إسرائيل التي لا تظلم أحداً. كفى فأنت كالقط الذي يأكل و يخمش أصحابه، عيناك تشبهانه، هذا كذب وافتراء علينا، نمد يد السلام فلا نتلقى سوى الطعنات من القتلة أمثال هؤلاء، الذين لم نسيء إليهم، حافظنا على حياتنا، ولم نفعل أكثر من سجنهم لتهديبهم وقتل روح الشر فيهم.

جن جنون عمر لهذه الكلمات التي تفتقد إلى أدنى حد من الصدق، فتحدث بصراحة أكثر مع الصحفي وشرح له فهم " إسرائيل " للسلام والحرية والديمقراطية بحجبها عن الآخرين، والعمل على إبادتهم وطردهم من أراضيهم، نحن احتلت أرضنا ولم نفعل أكثر من العودة إليها. عاملونا كالكلاب، بل أدنى من ذلك بآلاف المرات. الكلاب عندكم في بريطانيا مرفهة. ليتنا نحصل على جزء من حق

الكلاب .

تدخل مدير السجن وقال محذراً: هذا كثير أنا لا أسمح !

- هل سمعت ؟

هز الصحافي برأسه ولم يعلق، بل لجأ إلى أكثر من حارس، وجه أسئلة عرف من إجاباتهم الحقيقة. ليلاً غادر الوفد وانتهت الاجراءات الاستثنائية .

قعد في الزاوية وضع يديه على صدغيه. أسبل جفنيه. اثنتا عشرة سنة توقفت فيها الحياة ولف الزمن دورة عكسية. الدائرة مازالت لم تنته محيطها. حرب في الأردن ثم في لبنان وفي كل مكان. مطلوب اصطياد المقاوم حياً أو ميتاً. يحاصر، يظل سجيناً بين كتل الأسمنت وعند الحدود يرتفع الجدار في وجهه ليصل إلى السماء السابعة. أه لو يستطيع التأثير بالأحداث، أكان بالسيناريو نفسه؟! كان عليه أن يدفع غيره إلى الأرض المحتلة وبناء قاعدة شعبية وحرب طويلة الأمد، يسكت الشعارات الجوفاء وكل البنادق التي أطلقت الرصاص في المناسبات.

كاديموت لحظة سقوط تل الزعتر، نقل إلى المستشفى بحالة إسعاف وظل ثلاثة أيام. بعد خروجه بقي مدة لا يكلم أحداً. شتم المتحاربين الذين حفروا في قلبه جرحاً لن يلتئم، وعزا جزءاً من السياسة الفاشلة إلى الابتعاد عن الأرض المحتلة، وعدم متابعة طريقة، واعتبار الحلقة الأساسية من النضال مرة عمان ومرة أخرى بيروت. بعد أيلول السبعين لا شيء ينتظر المقاومة في الدول العربية سوى القتل بأشكال مختلفة من الأخوة ومن العدو. لم يكن ألمه لأن تل الزعتر سقط، بل لأن كل جميل وكل حلم انتهى في هذه المرحلة، تذكر كلام المحقق، يستعيده كلمة كلمة :

" سيقاتلكم العرب في كل مكان وسيقتلونكم بلا رحمة، ومن تبقى سيجمل بنادق قزماة يقاتل بها بعضكم بعضاً "

ود الخلاص من هذا الكابوس، وإلا فإنه سينتحر، ولو كان الأمر خاصاً به لما تأخر، السجناء يرونه قدوتهم، ينصتون إلى أقواله، أفعاله طريق ومدرسة تعلمهم الصبر والاستمرار في النضال، لم ينس يوم قالوا له: " والله لو طالبتنا بفعل شيء لما تأخرنا، ثققتنا بك لا حدود لها" بكى من كل قلبه، لا يعلمون لأي منحدر تنزلق الأحداث، لا يعرفون ما يخبئه الغد، إذ عندما تفلت الدفة لا أحد يستطيع إبعاد المركب عن العاصفة .

ينهض النهار شاحباً باكياً، يستلقي على وسادة رملية، الرؤى تنتشل وتتبعثر  
كذرات الرمل الدقيقة التي تفتتها وتهرسها طاحونة الهواء فتجعلها هباء ثم تذروها  
إلى أمكنة بعيدة. تذكر ذلك الهبوب قبل سبعة عشر عاماً يوم غطى قاسيون  
والغوطة فتحول كل شيء إلى أصفر باهت. هبت الريح في غير وقتها وأوانها،  
حملت الدقيق إلى كل بيت، غطت وصال عينيها واعتدته فألاً سيئاً، في البداية  
ظنتها سحابة عابرة، الريح تحمل من النفوذ وسكاكه والجوف ما خف حمله، تطير  
به شمالاً وتذروه عند انعطافها غرباً. خاف على المدينة، لأول مرة يرى القبلي في  
الواحة العاصمة فسامها رياح الشؤم.

لبست عباءة سوداء، ونسيت أغاني الفرح، لكنها كففت الدقيق العالق على  
وجهها، وفي إحدى حماماتها جلّت جسدها، فبدت المدينة عروساً. من الزيداني  
ومضايًا ترتحل النسائم الآتية من الباروك وبحمدون ودير القمر فتكحل عينيها  
وتسرح شعرها وتعطرها. فيقف التاريخ في يده الشمس وفي الأخرى يضمها ويلثم  
ثغرها. تلك كانت مدينة وصال التي لا يخرج منها الداخل إلا وإلى جانبه شامية.  
إنه أحد الشاذين عن هذه القاعدة. داس على قلبه، غنص وغادر، كان أمل العودة  
يرواده، ولا شيء منعه سوى المهمات. كيف خرج منها وحيداً ودخل بيته وحيداً  
وهو الآن وحيد. تذكر أغنية فريد الأطرش ذاك المطرب الذي يهرب الفرح من  
وجهه وشكله الباكي، أغانيه الحزينة جعلته لا يرتاح لسماعه مع أن صوته  
وموسيقاه فرضاً نفسيهما بقوة.

وصال فتاة جميلة في مدينة خلقها الله جميلة، أنفها قاسيون وأقدامها تسبح  
في الغوطة والخضرة. تمثلت الصحراء والحضارة معاً في ذاك الشارع الذي يمر  
جانب بيتها وبتلك النخلات السامقات، اللاتي لم يهزهن الريح ولم يشنقن إلى  
حضن البادية؟! شوارعها عريضة، أحيائها الحديثة تقف شاهدة على التطور  
واستمرار حياة القديم إلى جانب الحديث في عملية تصالح قل أن نجد مثيلاً لها،  
فالأحياء القديمة التي حباها الله من الحسن والفتنة مالم يعطه لمدينة أخرى، ظلت  
شاهدة على الحضارة، واقفة بشموخها قاطعة أيدي الغزاة واللصوص وأرجلهم.  
مساءً تقفل أبوابها السبعة وتضع إلى جانب كل باب حارساً. أبواب لها من البهاء  
والروعة، ما يثير الدهشة، تطلع الشمس ترسل باكورة غزلها إلى بابها الشرقي  
بمداخله الثلاثة ومئذنته المربعة، والشارع الطويل العريض الذي يربطه بباب  
السيدة جابية والذي يجاريه في الحسن وفي أبوابه الثلاثة التي تنطلق منها ثلاث  
أسواق. إلى يمين باب شرقي باب توما حيث بقايا قوس وجسر روماني. نظرت  
وصال إليه مرحة تصورت خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح وآلاف الرجال

الذين فتحوها ليزرعوا الربيع، وليعطوا للإبداع مكانته. الابتسامة تلف وجهها وتترك أثرها في العينين .

في الأحياء القديمة رآها جميلة وباردة على الرغم من دفء كلماتها، لف الريف والبادية دورة كاملة في رأسه المتعب، خطرت له أفكار لا يعرف كيف أنته، لقد بات يشك في حبها، تساءل بينه وبين نفسه، إن كانت ساكنة ابي رمانة تعرف العاطفة الراقية التي تجمع قلبين، العشق للقروية التي تحاور القمر والنجوم، تتقلب في فراشها، يستعصي عليها النوم، فتهدب مذعورة تكلم ذاتها، تفتح صدرها للطبيعة، فتحتضن دموعها وألمها وتهبها شيئاً من الصبر، ولا يطلع الصبح إلا وفمها قطعة جافة وعيناها قد صغرتا. لحظة شروق الشمس تواجه الأشعة وتحملها الدعاء والمحبة، ثم تعود إلى غرفتها تلم الفراش وتسوي البيت وهي تدندن بأغنية ناعمة تصل في الحال إلى روح حبيبها. هل تساهر ابنة أبي رمانة القمر الذي توسد الشارع وأخذ شكله المفلطح في مصباحه؟ كيف لها أن تعرف حلوة الحب من مراراته وهي لم تذق في حياتها سوى الحلويات؟ هذه الهواجس جعلته يتوجس خوفاً، ابنة المدينة قادرة على التمثيل والتصنع، فهل كل ما تفعله كذلك؟

- ما بك يا عمر ؟

- لا شيء لكنني تعبت، لا أستطيع لملمة أفكارى، دعي الأبواب الأخرى للغد ولكن قبل هذا الوقت قبل نهاية المحاضرات اتجها صوب الأبواب الباقية، مازالت أربعة أبواب لم يذهب إليها. طارت فرحاً وهي تشرح عن كل باب تماماً كالدليل السياحي، تُعرف عن الحي والباب ويأخذان عنده صورة تذكارية. طلبت إلى عمر أن يحدثها عن أبواب القدس. فأجابها: ليس الآن !

- إذن هيا إلى الباب الصغير ومسجد الباشورة الملاصق له، ومن هناك إلى باب الفرج المزدوج وباب العمارة الذي كان يسمى باب الفراديس، أما الباب السابع فهو باب السلامة الذي يقع شمالي المدينة وهو من أجمل أبوابها، أذكر منها باب النصر الذي أزاله ولاية الأتراك عند فتح سوق الحميدية، وباب كيسان...

ألقت بقية الأفعال في بردى فسألها " وذلك الذي معك !؟

مر قريهما رجل دين مسيحي فأعطته القفل الباقي معها وقالت له " خذوه وحافظوا عليه "

- إلى أين أيتها الرائعة، لقد زادت الأبواب على السبعة !؟

- لم تر بعد " باب الجنيق " الواقع بين باب السلامة وباب توما .



- دعيه لمرة ثانية .

في طريق عودتهما مرا جانب النصب الكبير المسمى بالمرجة وتأملاً أسلاك الهاتف والمسجد الذي في الأعلى، سألتها:

- ماذا يمثل هذا النصب؟ ألا تعرفين؟

- لأول مرة أدقق النظر فيه، سأسأل أمي!

- سنسأل الآن ... من ... مشاقة هيا !

صعدا إلى بناية العابد، وصلا الطابق الثاني. الدرج حجري يلف وهو صاعد، عند المخبر شاهدا رجلاً طاعناً في السن سألاه فأجاب :

\_ إنه النصب التذكاري بمناسبة مد الخط الحديدي الحجازي من ترقية إلى المدينة المنورة .

في المرجة تتوزع الطرق إلى أحياء المدينة الشيخ محي الدين، الأكراد، المهاجرين، الميدان والمزة ..... في دمشق القديمة يعرف الناس بعضهم بعضاً، يتبادلون الكلمات الجميلة، تضايقت عندما سألتها عن علاقاتها مع جيرانها، لكونها لا تعرفهم، علقت على ذلك :

- في أبي رمانة لا يعرف الجار جاره حق المعرفة، يغلقون أبوابهم وعندما يقرع ويسألون عن شخص تتناهبم الدهشة ويقولون لم نسمع به، ويكتشفون في النهاية أنه ربما ملاصق لهم، كم هي الدنيا غريبة وصغيرة !

- عزيزتي نحن كدمشقكم القديمة عندنا سبعة أبواب و أبواب أخرى مغلقة ويعرف بعضنا بعضنا، أنا أعرف نصف أهل القدس أزورهم ويزوروني .

نظرت إليه وهو يسترسل في حديثه فقالت له بالشامية :

- " حاج بقى " إذا أمضيت حياتك في مخالطة الآخرين فمن أين حصلت على ثقافتك العالية؟

- الاندماج في الحياة، والحياة ذاتها ثقافة علينا أن لا نغفلها.

- أنا أعيش مع والدتي يصعب عليّ الانفتاح أكثر، التهم للفتاة جاهزة و "رضا الناس غاية يصعب إدراكها "

نفضت المدينة غبارها، نهضت وحيدة تعرج وأحياناً تزحف كالكسيح، ملأ الدقيق فمها، أسنانها تصر، ارتفعت الهبوب عاموداً في وسط السماء وبدأت

تتحلزن وهي تنتقل من مكان إلى آخر. خر نجم فجاء بعيداً عنها، أضاعت الأنوار الصفراء شوارعها. ضرب بكفه على مقدمة رأسه، مازالت قناة الغور تفيض كما حصل معه يوم دخل الحمام الدمشقي أول مرة. من يصدق أن ستين حمماً تقع في المدينة القديمة ضمن مساحة أقل من ستة كيلو مترات مربعة. دخل مباشرة إلى " الجواني " دون الاستراحة والمرور " بالبراني والوسطاني "، شلح ملابسه، سال العرق وتصيب بشكل غريب، دخل في عينيه وفي فمه، شعر بدوخان وزوعان، الجواني حرارة مرتفعة، حاول أن يتنفس، أحس بألم في بطنه وأصابه دوار، لم يعد قادراً على التماسك، قبل أن يقع استند إلى الجدار وقعد إلى الأرض الدبقة. دخل المدلك، انتبه إلى جسده المتصلب، أسرع وأحضر قليلاً من الماء البارد وأمر بإطفاء النار، مسح وجهه وأخذ يدلك عضلاته ويربت بيده على وجهه برفق حتى أفاق.

محاولاً ما أمكن التخفيف مما حصل فروى له شيئاً عن لذة الحمام والأغاني المرافقة، غنى بصوته الناعم وعمر يستمع مبتهجاً ومندهباً :

أويها زء زء العصفور تانفلق

وتخبا بين الدوالي والورق

والعدو مانال مراده

كل يوم عنا فرح

لي لي لي ليش

لاحظ السرور والمرح يسكنان محياه فتابع حديثه: " يا صاحبي أهل دمشق يفخرون بأربع خصال، الماء والهواء والفاكهة والحمام، ومع ذلك فالرجل يكره إعطاء زوجته أجرة الحمام، ليس من باب البخل، لأنه معين لها على المكروه، يقال إن فيه كشف العورات وارتفاع الصوت بغير كلام الله، لكن هذا غير صحيح فهناك حمامات النسوة وأخرى للرجال أو حسب الدور. الحمام يذهب القشافة ويعقبها بالنظافة ويفش التخممة "

جفف جسده وأبقاه في الوسطاني مدة من الزمن وأخذ يشرح عن القبة المستديرة التي لولاها لكان التنفس صعباً وعن هندسة البناء الذي يشبه القلاع أو الأماكن الدينية والزخارف المنقوشة التي تشع، ونبهه إلى وظيفة القناة التي لم يعد لها أي عمل، فجر المياه لم يعد بواسطتها بل بأنابيب. عندما عرف المدلك أن عمر ليس من دمشق نصحه أن يزور قصر العظم والجامع الأموي والتكية

السليمانيه والمتحف الوطني، في هذا الوقت الذي انبته فيه إلى القبة كانت أشعة الشمس تتراقص عبر الزجاج المعشق.

مازال يذكر ابتسامة العامل وتودده، تبادلًا العناوين، ناوله خمس ليرات لحق به ليرد له الباقي، فأجابه " الباقي لك " فدعا له من كل قلبه وقال:

- إن شاء الله بالعودة إلى فلسطين، يومها سأطلب من المعلم أن يفتح الحمام مجاناً لمدة أسبوع .

نظر إليها وقال :

- لقد انتهيت من شرح محاسن دمشق، أيتها الحسنة، إياك أن تعتقدي أنك تحبينها أكثر مني!؟

وقفت كالفرس الأصيلة حدقت إليه، تأملها جيداً وكأنه يراها للمرة الأولى، صدر كالقلاة، أعلى نهديها يضغط على ثوبها الناعم، عيناها مجنونتان. فكرت بعودته إلى القدس، هذا الهاوس أتاها فجأة. احتضنت الألم في أضلاعها. أي صراخ يفيدها وأحشاؤها تنقطع؟! أي ألم يمكن أن تعبر عنه ساحة وجهها. تذكرت ما قاله عن الحب " كلمة رائعة، عاطفة نبيلة، ربيع الحياة وتجدها، هو ذاك الإبداع الذي يدغدغ الوجدان، ويجعل الحياة قلقة، حلو مرة، ومرّ مرات. يفتح العين على اتساعها لتريا جذوة الحياة التي لا تتنطفئ ". دقت الأرض برجلها، لوحت بيدها بعد أن ابتعدت عنه. راودتها أفكار غريبة عجيبة، لم تستطع أن تظل حتى الصباح، قبيل منتصف الليل ارتدت ملابسها على عجل، تناولت أحد كتبها وقالت لأمها " أنا عند صديقتي وهذا رقم هاتفها " .

عيناها تشعان بريقاً وحرناً، نظراتها تائهة وحائرة، خطواتها سريعة كعدو الإبل. عند وصولها إلى بيته وقفت تفكر، هل تعود؟ ولكنها في لحظة شجاعة قرعت الباب، فتح ورحب بها، استغرب مجيئها، سألها، غمرت الدموع وجهها وبللت أعلى ثوبها وصدرها. تساءل عن الأمر العظيم الذي دفعها للحضور في وقت متأخر! لم تجب. غير ثيابه، تابعت حركاته وعندما هم بفتح الباب، تكومت على فراشه .

أغلق الباب وعاد يسألها :

- ماذا حصل أيتها المجنونة؟ هل أنت مريضة؟ ... إذن ماذا تريدان؟

مسحت دموعها وقررت العودة من حيث أتت، قال:

- لن أدعك حتى أعرف ما حصل وما سر زيارتك المفاجأة في وقت كهذا!
- أنت لا تملك قلباً أيها الكافر!
- كما تريد، هل جئت لثمتي، سامحك الله؟

انحنى وقبلها فسمع أصوات البلابل والكنار تغرد، في حين هبت ريح ناعسة أنصت فسمع خريراً، تسأل، أيعقل أن يكون لبردى خرير في هذا الوقت من العام. اكتشف أنه ترك صنوبر الماء مفتوحاً.

ضحكا من كل قلبيهما. قبلته على عنقه ودعته أن يعيدها إلى بيتها .

لم يتحدثا، الصمت لغة فيها الكثير من التوتر. هدأت أعصابها، ثم صرخت بأنها لو لم تره لما استطاعت البقاء في البيت ولفقدت النوم، الذي نهضت منه مذعورة، وربما أصابتها حالة جنون فظيعة. ناداها بالعاشقة فاقتربت منه أكثر حين هبت ريح فتيية رطبة من الهامة .

- بماذا تفكر يا عمر ، تعال وشاركنا الطعام، لك نصف ساعة وأنت تضع رأسك بين يديك.

وحد الله. لكل شيء نهاية !

التفت إلى رفاقه، جميعهم ينظر إليه وفي عيونهم حسرة ولوعة. حزن لا يستطيع أن يعبر عنه أكبر شاعر، يتوطن داخل البؤبؤ وفي بياض العين وعلى الرموش والمنطقة التي حولها. خيوط حمراء تأخذ طريقها الحلزوني في البياض، وانحباس لدموع لو قدر لها أن تأخذ طريقها لأغرقت الغرفة. تمالك نفسه. التفت جانباً ليتخلص من دمعة أخذت طريقها إلى الوجنتين .

نظر إلى لون الغرفة، شعاع الشمس يتسلل من طاقة صغيرة ضئيلاً وعند العصر يتلاشى .

لكنهم تعودوا على هذا القبس، الحرارة لو دخلت لتحولت الغرفة إلى محطة حرارية، أما النور فهو كاف لانجاز أعمالهم البسيطة، على ضوءه الخافت يتسامرون وتمضي الأيام متكاسله متماثلة، والأيام المتماثلة تذكره بالروتين الذي يجعل الحياة بلا معنى، إذا دخل مكاناً أحاله إلى ركام وإذا تسلل إلى شعب حوله إلى الأسوأ .

تساءل عن الأحلام الوردية يوم ظن أنه قادر على تغيير العالم، وأنه بمظاهرة وهتافات وقليل من الرصاص قادر أيضاً على إثبات وجوده. سافرت تلك

الأحلام. حتى الورود اختفت إلا من حنة عدن، جنة المسؤولين في السجن والزوار من القادة، ليعيشوا فيها لحظات تعكس حياة مخالفة لكل أشكال السجن والاعتقال. جاءته أحلام الواقع المعيش، الأحلام السوداوية، البارحة ناضلوا وأضربوا ومات منهم أثنان من أجل هدف بسيط، لو تحدث أحدهم به وهم في الأغوار لضحكوا، وقالوا أمن أجل الامتناع عن الطعام نفقد اثنين من أفضل الرفاق، بنس الإضراب ..!

اختفى القمر من حياتهم، وارتفعت السماء ولم تعد تطل عليهم وتضحك لهم إلا وقت " الفورة ". الأرض سورت بجبال عالية والبحر مرتع لأسماك القرش. مهما حاول الهرب فالسجن وواقعة المر يلاحقه. الأوامر. الإفطار والخدمة الذاتية والتنفس والتعداد الصباحي والتعداد الثاني ومساءً التعداد الثالث. الساعة العاشرة ليلاً تتطفئ الأضواء داخل السجن وعليهم النوم. الصراع مع إدارة السجن يومي بل كل لحظة. الإدارة تنتظر إليهم كعبيد وهم ينظرون إلى أنفسهم أحراراً يصنعون الحياة ويساهمون في كتابة التاريخ. بينما السجناء مأمور منفذ، هادم للحرية وللذات ومدمر لحياة البشر.

زيارات الأهل لسجنائهم مقطوعة طوال فترة الإضراب وبعده بأسبوعين. أول الزائرات آمنه خليل التي جاءت والبسمة مطرزة على شفتيها. قالت لأبنها بمرح :

- خطبنا لك هدى يا ولدي .

- أهي تحبني؟

-إنها لا تحب سواك. تسألني عنك وتتابع أوضاع السجناء، أطلقت أمها زغرودة عندما فاتحتها بالأمر، أما والدها فرحب وقال " على بركة الله " وقرأ الفاتحة .

اختفت ممارسات السجنائين، ولم ير إلا الناس الطبيين، الطيبون لدرجة البلاهة، هؤلاء الناس لا ينقصهم العزم بل القيادة. يمشي القائد على الجمر، فيطير الناس خلفه على النار ويحلقون في الجو، ينقضون على الخطر، وإذا مشى فوق الماء يسبحون أو يغرقون لا فرق. لقد وافقوا لأنه وطني. طار من الفرخ، عاد إلى الغرفة، استقبلوه عند بابها، وضع الهدية جانباً والابتسامة العريضة تتحدث نيابة عنه، سألوه: ماذا حدث ؟

قعد وتفحص وجوههم واحداً واحداً، شعر أنه يحبهم جميعاً، جلسوا حوله، تراعت له الشمس في كبد السماء من الطاقة الصغيرة، والأرض لشدة حرارتها

تنشر لهيبتها. السجان طلب سكوتهم وإلا فالعقوبة لكل من في الغرفة .  
أجاب والسعادة تغمره: لقد خطبت .... خطبت أُمي الفتاة التي أحببتها.  
- مبروك، إن شاء الله مبروك ... مبروك ... ألف مبروك !

تحركت الألسنة في الأفواه وانطلق ما يشبه الزغاريد، بينما الشمس تميل إلى  
وسادتها البحرية، تتحدر أكثر فأكثر غرباً. قام الشيخ عباس توضأً وصلى العصر.  
ثم قال: سنحتفل هذه الليلة بالمناسبة السعيدة .

قال ذلك مع أن كان أكثرهم قتامة وحزناً، غاص في أعماقه، تذكر ذلك  
الجسد الذي اشتكى من الظمأ فرواه. زوجته فواحة ذلك الخليط المتجانس من  
الورود والنعناع والفاكهة، تبتسم فيصير للكون طعم البرتقال ورائحة أزهار الليمون،  
بحر هائج يحتاج إلى عدة روافد، فيها شوق العالم ولدته، بحرها لا يحتضن  
العرقى، وسماؤها جذلى مسيجة بالقرنفل الأحمر، تضج أنوثته، يهرب لون وجهها  
ويصير أكثر شحوباً كلما اقتربت منه، غير قادرة على البوح بلوعة جسدها وحبها  
للأطفال .

كم ذهبت زوجته إلى الأطباء وصرحت أنها لم تحمل، اصفر وجهه هذا السر  
لا يستطيع أن يبوح به، إذا عرفه الذين في الغرفة سيفقد جزءاً من رجولته، وإذا  
بقي في قلبه فإنه سيفتته، قال حسان:

- ما بك يا شيخي غداً تخرد وتزوج ثانية ثم تحج .

- أراك تتهمك يا بن المستقية على ظهرها، فلولا فرحك لعملت لك زفة كما  
يزف الصغار المجانين أيها الأبله، تأدب أيها الخاطب واحترم نفسك، ماذا رأيت  
من خطيبتك، إنها لم تشعل لك سراجاً واحداً، ولم تبتسم، أحببتها على الرائحة،  
العشق عن بعد أيها الذي لم ير منها سوى شكلها الخارجي. آه من النسوة !

شعر أن الجملة الأخيرة خرجت دون إرادته فتابع كلامه بعد أن ضج الجميع،  
فرد عليه مازحاً:

- هل أنت عاشق يا شخينا ونحن لا نعلم ذلك !؟

نظروا إليه وفي عيونهم تساؤل. شعر أن عليه الإجابة فقال :

- وحدوا الله يا إخوان، فأنا كما تعرفون أكره حتى ذكر النسوة، ولم أر منهن  
شيئاً حتى شكلهن لأنكم كما تعرفون العين تزني.

- كفى اترك درس الدين والأخلاق لمناسبة أخرى، هيا إلى الغناء .

وسعوا الحلقة حسان لشدة فرحه وضع على وسطه منديلاً عقده من الجهة اليمنى، لف لفتين ثم أعطى المنديل إلى خالد بزروي دار دورات عدة وهو يحرك يديه مرة باتجاه الداخل ومرة إلى الخارج، على وقع الأكف أخذ يلائم حركات قدميه فكل ثلاث خطوات يعقبها هزة خصر أو خبطة قدم، ثم لف كراقصي المولوية، دخل مكانه فادي حسن و أبو الشوق رقصا بحني جذعيهما وأحياناً حني الرأس إلى الخلف أشبه براقصة تطلب قبلة أو نقوداً.

أكتملت الحلقة وأخذت السهرة جانب الفكاهة بعد مشاركة الشيخ عباس إذ ربط الكوفية. على خصره وأخذ يراقص مرة فادي ومرة أبا الشوق، فتبين إنه ماهر باللف والدوران والهز وخفة الحركة .

رقصوا رقصة السيف. ثم أخذ يغني وهم يرددون :

يا مرحبا واهلا بالعين الكحلا

يانخلة طويلة بين الحرم والصخرة

إن كان انتِ حلوة قدامك أحلى وأحلى

وغنى اسحاق مراغة رغم مرضه:

دخل الزين أبو ارداني

والعسل منو سيلاني

عالفرقا ياصبر أيوب

يفتت حجر الصواني

دخل الزين أبو ارداني

عالماني يمّا الماني

دخل المبسم يامريم

دق الماني دروب دروب

لا كتب لحبيبي مكتوب

عالماني يمّا الماني

قام عمر بقامته الفارعة وابتسامته العريضة، تناول الكوفية لوح بها بيده اليمنى، صار يمشي كل عدة خطوات ويخبط بقدمه اليسرى، لف على رجل واحدة ثم على مقدمة أصابع قدميه وأخذ يتحرك حركات سريعة، ثم حرك يديه وكأنه يؤدي تمارين سويدية. عيناه تشعان بريقاً وفرحاً. لف الشيخ عباس كوفيته على خصره وطلب منه أن يغني فغنى

برهوم يا برهم يا بو الجديده

والجرح عمّل يا عيني بدو فتيله

برهوم محنى والشعر متنى

اطلب وتمنى يا عيني ما في جميله

أي والله ما في جميلة  
برهوم ورا الباب بنده ياشباب  
غاب القمر غاب يا عيني قومي افتحي له  
برهوم عالسطوح والشعر الأشقر يلوح  
والقلب مجروح يا عيني جرح السكينة ...  
قطع الحارس الكهرياء قائلاً: الفرع ممنوع .

أشعلوا شمعة، فتح حسان الهدية وأخذ يوزع على رفاقه، وهو يسمع كلمات  
الترحيب والمباركة، بقوا على قعدتهم اقتربوا أكثر بعضهم من بعض، و أخذ كل  
واحد يحكي حكاية عن الزواج، وكيف تعامل الزوجة، قال الشيخ عباس:

- هل أعلمك كيف تتجح في إمتاع زوجتك؟

سر الجميع لمبادرته هذه مأخذ يشرح ما عليه فعله في الليلة الأولى، وكيف  
يتصرف بعد صرختها الأولى، وما عليه فعله في الأسبوع الأول، وهو يردد: " لا  
حياء في الدين، إن تعليم أمثالك صدقة "

الجميع يكادون يقلبون على قفاهم إذ كان حديثه بلا أدنى خجل، سمي  
الأشياء بأسمائها الشعبية.



[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## - الفصل الثامن عشر -

" أين أنتَ، آمال نجحت ولم تبارك لها؟ ولم تقل بأنك طرت من الفرح وأسرعت لتحضر علبة حلوى تزوعها على أصدقائك، تعال وشاهد بنفسك الدنيا لا تسعها، هي مرحة وكأنها ابنة عشر سنوات، ابتسمت وقلت لها مبروك، تظاهرت بالفرح الذي لم يجد لقلبي سبيلاً، إنه الحزن الذي توسده. كل الأفراح ناقصة، أنت وحدك تستطيع إتمامها، جاءتني أختك حنان تخبرني بأن آمال تفكر بالسفر إلى بلاد " بره " لتدرس، تقول بأنك نصحتها بذلك وأوصيت لها ببعثة إلى ألمانيا. صرخت في وجهها وقلت دعوه في سجنه ولا تدخلوه في مشاكلنا .

صحيح أنه يخاف عليكن، لكن خفن الله واتركناه! أمن المعقول أن نطلب مساعدته المادية؟ إياك أن تفعلها يا بنتي !

آه يا عمر أنت لا تعرف بأنك كياني وذاتي. تطلب مني المغفرة، سامحك الله.

هل هناك أم لا ينبض قلبها بحب أبنائها ... فاض الأردن وبلل ثيابها، ناولت الرسالة إلى حنان لتعيد قراءتها ثانية.

الأخت الحبيبة حنان والأخت آمال :

تحية محبة وبعد .

لا أدري كم من الوقت لتصل رسالتي حيث إن رسالتكن تلقيتها البارحة بتاريخ 8-10-1978 أي بعد شهر من صدورها. إنه يؤسفني أن أكون سجيناً في هذه الفترة العصبية من حياة إخوتي، وددت لو أكون طليقاً وأقدم ما أستطيع من حاجة مادية ومعنوية ... سواء كان المال أو العطف والحنان، ولكن على الرغم من ذلك فأنا لست نادماً لوجودي هنا، لأن واجبي تجاه وطني وشعبي ومبادئهم بكثير من واجبي تجاه أهلي وأخوتي واعتقد أنكن تؤيدنني في ذلك .

أخواتي الحبيبات :

قرأت رسالتكن وتأثرت بها جداً، فهي مليئة بالحب والألم، مليئة بالحرارة والصدق، ليس بشكل الكلمات وإنما بجوهرها ... أنا شجعت آمال للدراسة في ألمانيا الشرقية إذا استطاعت الحصول على بعثة دراسية بمساعدة الأصدقاء، وإذا مكنتها علاماتها من ذلك. أو العودة إلى القدس والتسجيل في جامعة بيرزيت، وفي كلتا الحالتين فأنا لا أملك نقوداً سوى رواتبي التي لا أستطيع التصرف بها إلا بوكالة خطية تخولها قبضها. وهذا يعني أن عليها إرسالها بواسطة الصليب الأحمر، حتى أوقع عليها.

أنا غير قادر على تصور أن أختي في عمان ونقول أنها مقطوعة من النقود! إن مجرد تصوره فظيع، فكيف إذا كان حقيقة! حبذا لو أقدر على فعل أي شيء. أنا هنا انتظر زيارتكم كل أسبوعين أو زيارة الصليب الأحمر كل شهرين. أنت تطلبين أن أكون محايداً تجاه القضايا المطروحة في الرسالة. الحقيقة أنني لست مهادناً في شيء، إنني أتبنى الفلسفة الماركسية التي لا تقبل الحياد. إن الإنسان لا يمكنه إلا أن يكون فعالاً، لأنه عندما يقول غير ذلك، فإنه يؤكد انحيازه جانبا دون آخر. إن الظواهر الكونية سواء في الطبيعة أو المجتمع ذات جانبيين فقط ولا يمكن أن يكون لها ثلاثة أوجه، فكل شيء يوجد مع نقيضه وليس غير ذلك، فإذا لم يكن الإنسان شيئاً ما فهو نقيضه، ولا يمكن إلا أن يكون منحازاً، فالحب مقابل الكره، والليل مقابل النهار، والمادة مقابل الوعي.... إلخ من المقولات الفلسفية المتضادة. وعلى هذا فأنا مع أخواتي إذا كانت القضية متعلقة بحريتهن وشخصيتهن وكيانهن الذاتي .

أما بالنسبة لقولك عن القناعة والمبدأ وكيف أن الناس لاتسيء لذوي المبادئ ماداموا يتبعونها. إن هذه الجملة صحيحة وجميلة، ولكن المبادئ لا قيمة لها بحد ذاتها، لأنها مجرد انعكاس للواقع. إن المبادئ يجب أن تلازمها الممارسة الحياتية، فمن الخطأ أن نتمسك بمبدأ ولم تثبت صحته في الممارسة العملية. على الإنسان أن لا يخلق عالياً في الهواء لأنه بذلك يبتعد عن الأرض التي يقف عليها. أي يبتعد عن الممارسة والواقع، والجسم المعلق في الهواء لا وزن له تقريباً. وحتى يكون لنا ولمبادئنا وزن يجب أن لا تبتعد كثيراً عن الواقع. عليكن أن تتذكرن بأن الفلوس ضائعة والحب يبقى، ولكن لا يمكن الحديث عنهما بشكل أحادي ومجرد، فالحب هو وعي أو إدراك أو إحساس ولكن لأبد من ربطه بشيء مادي ملموس حتى تصبح له قيمة إن حبي لكن ليس شيئاً مجرداً وإنما يرتبط بما تصنعه من إنجاز لأنفسكن وما تحققنه من نجاح في ممارساتكن، لأن هذا يقربكن مني ويثير إعجابي.

كلمة أخيرة لأمي :

أمي أطلب رضاك، أنت سمائي وذاتي ووجودي، اعترف بأنني عذبتك، سامحيني واغفري لي .... أنت كل شيء رائع في الحياة .

عمر قاسم

الرملة في 9-10-1978

مازلت الصور تأتيها، ولعل نجاح صغرى بناتها أو أية فرحة تعيدها إلى سيرته، كيف تتجاهل وجوده؟ كيف تنسى أنه يحب الجميع؟ أنه عمر أبو عباية فلذة كبدها طفلها المدلل الذي لم يكبر في نظرها.

- وهل أنا صغير ؟

-أنت مازلت طفلاً، وستظل كذلك يا نور عيني حتى لو صار عندك أطفال، هذه هي الأم يا ولدي

مازلت صورة الطفولة تتوارد كالفيلم في مخيلتها تستعيدها كل يوم. تضمه إلى صدرها وتهدهده، وعندما تتأكد من أنه غفا، يتسلل النوم إلى جفنيها، تطبقهما. شعرت أن الفراش شوك يخزها في جسدها، لم تكف عيناها عن الدمع، نهضت، البيت زنزانة جدرانه تضغط على صدرها، رأسها لم يتوقف عن التفكير، استوطنه الألم وانتشر حتى العروق الدقيقة جداً، مع مرور الوقت يزداد حتى يصير أشبه بمصنع آلاته تزعج العاملين، وضعت يدها اليمنى على صدغها، أسرعت وغسلت وجهها وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم.

صلت ركعتين لله، لكن الحالة عادت أكثر من الأول، تناولت منديلاً لفته لفات عدة وعصبت رأسها، صغارها يراقبون كل حركة من حركاتها، يطوفون حولها كالأطفال الذين يتجمعون حول بائع حلويات. سقطت المنشفة من يدها، تناولتها وعلقتها في مكانها. خرجت إلى أزقة حارة السعديات، تجولت فيها ثم عادت إلى بيتها الذي يقع وسطها، تعانقه مجموعة بيوت طينية بحرارة، فلا تترك فاصلاً بين البيت والآخر إلا واجهة ضيقة من الطريق، ثلاثة أو أربعة أمتار عرض الزقاق، وهناك أزقة بعرض مترين.

كانت في المربع الداخلي حيث كان فيه مكان للفراش، شعرت بخدر قامت ومشت، وعندما تعبت قعدت .

رجلها اليمنى تهتز بعصبية ظاهرة في حركة شبه متواصلة، وعند محاولتها السيطرة على انفعالها تصاب بالإخفاق. خرجت من الغرفة إلى الباحة السماوية

التي تنتشر حولها الغرف، وعند الباب الخارجي غرفة صغيرة استخدمت مطبخاً وعلى يمينها دورة المياه والحمام، فتحت الباب الخشبي الخارجي السميكة. تكاد حركة الناس تنقطع في مثل هذا الوقت. صوت أقدام.... ربما هما؟ مدت رأسها قليلاً وتركت الباب موارباً، أهذه هي النهاية يذهبان إلى المخفر ولا يعودان سيواجهونه وعندما يرفض يستخدمون أساليب الضرب ويفحصون السيارة ويحللون البصمات، سيلاحقونه حتى يعترف، يسألونه لماذا فعلتها، فيجيب أنا فخور بما عملت هذا واجبي. رفعت يديها وصرخت كالبلهاء صرخة قوية، جعلت أطفالها يتجمدون خوفاً، كل شيء فيها غريب، شعرها منفوش وتصرفاتها تحمل فوضى لا تحتمل. حالتها غير المستقرة وما انتابها من فزع شل تفكيرها. فلم تعد قادرة على شيء سوى الانتظار القاتل .

عادت وقعدت على قاطع خشبي عريض، شعرت بالاسترخاء، استسلمت لغفوة وعندما سمعت قامت للوضوء والصلاة، ارتدت جلباباً أبيض يغطي رأسها وجسدها، وبعد نهاية الركعات ردت السجادة الصغيرة إلى حضنها، وأخذت تدعو أن يرد الله أبا عدنان وصغيرها عمر سالمين .

أخذت الريح تعصف، لملمت ما في الشوارع والحارات وجمعت ما هو مبعثر وكومته في الحارات الداخلية واتجهت شرقاً وجنوباً متابعة صغيرها معلنة تجميع الغيوم في سماء القدس، أحست بقشعريرة تسري في عروقها وأصابتها رجفة خفيفة، أسرعت إلى الفرشة دست جسدها وطلبت حبة اسبرين، ناولها عدنان وأحضر كوباً من الماء.

لا حول ولا قوة إلا بالله، التحقيق يستمر ساعة أو اثنتين وربما ثلاثاً، أما أن يستمر من الظهر ولا ينتهي في الليل، فهذا يعني أن أمراً غير عادي حصل. قرع شديد على الباب. تركت الفراش وأسرعت فإذا جارتها أم سعيد، دخلت وقعدت في الغرفة .

- ما بك يابنة الشلبي أرى وجهك مخطوفاً وحالتك لا تسر؟

- إن شاء الله خير. أبو عدنان لم يعد حتى اللحظة، ذهب إلى مخفر الشرطة ظهراً .

استغفرت أم سعيد ربها، ودعت أن يعيده سالماً وأخذت تهون الأمر وتبعد الاحتمالات السيئة، أم عدنان قالت :

- إننا مهددون من الإنجليز، ما الذي أتى بهم من آخر المعمورة، بيننا وبينهم

سبعة بحور وبلاد لا يعلم بها سوى الله !

- الإنجليز خنازير ..طوال عمرهم يخذلون الشعوب ويستعبدوننا .

تناولت فجان القهوة حركته ونظرت في البقايا، ابتسمت ثم انصرفت تاركة كل شيء كما وجدته غير قادرة على بث الأمل ... عادت فاطمة الشلبي وحيدة، قرأت آية الكرسي وسورة الإخلاص والحمد مرات عدة، فؤادها يخفق كقلب طائر متعب، تدرع الغرفة جيئة وذهاباً وتذهب بها الظنون كل مذهب، تركت بيتها وأسرت خارجة، تفرك يديها بعضهما ببعض، وعندما تدرك أنها في الشارع تخاف الظلمة، تحاول أن تبدو طبيعية، تخفف من سرعتها وتضبط حركتها. تبلل طرف شفيتها ثم تلتفت يمناً ويسرة. فإذا كان الشارع فارغاً تتابع طريقها، وإذا سمعت وقع خطوات عادت متزقبة، لا سبيل سوى خيالها الذي لم يسعها إلا بالسوء . في لحظة شجاعة نادرة حدثت نفسها، لم أنت خائفة يا فاطمة؟ هذه حارتك تخرجين في أي وقت! تخفق في الإجابة، تعيش على البقية الباقية من أعصابها. لم تعد قدماها تحملانها. أصفر و جهها كالعصفر. أولادها أكبرهم عدنان وهو غير قادر على فعل شيء، ردت عليه: " اسكت ولا تزيد همي، هؤلاء الإنجليز لهم عيون كثيرة، إن شاء الله خير "

قررت عدم النوم، ستظل مراقبة الأزقة حتى يعودا، لا بد من عودتهما ... رأتهما آتيتين على بعد أمتار، تفحصتهما، إنهما معافيان ابتسم أبو عدنان، أدرك مدى قلقها، قالت في نفسها: "الحمد لك يارب " ردت بابتسامة باهته وقبل أن تسأله تناولت صغيرها وفعته إلى صدرها، قبلته قبلة طويلة، وجهها مازال مشحوناً بالقلق، نبهها لذلك فردت:

- أنتما لا تحسان قلقي، خفت كثيراً وندمت لإرساله معك!

- وحدّي الله إن ذهابي إلى مخفر الشرطة لم يكن في يوم من الأيام أمراً غير عادي. كل حياتي أخدم عندهم لماذا اليوم بالذات!؟

- من يأكل الفول ... وأنت تعرف قصة الجنديين اللذين صعدا السيارة التي تقودها، ستقول بأنهما فقدا بعد أن نزلا، وتعتقد بذلك أنك ضحكت عليهم، وأنهم صدقوك، لاتنسى طوال عمرهم يضحكون علينا ولا يحسبون لنا أي حساب .

- من يأكل الفول .... وأنت تعرف قصة الجنديين اللذين صعدا السيارة التي تقودها، ستقول بأنهما فقدا بعد أن نزلا، وتعتقد بذلك أنك ضحكت عليهم، وأنهم صدقوك، لا تنسى طوال عمرهم يضحكون علينا ولا يحسبون لنا أي حساب.

تركته ولم تكثرث لجوابه، تعرف أنه سيقول لها كلاماً يهدئ من روعها، ليقنعها بأن الأمر عادي جداً، اقتربت من صغيرها، وجهها دائري حنطي وعيناها واسعتان جميلتان فيهما بريق أخاذ، لقوامها جذع الحور ولا طرفها مرونة أفنانة، عمرها مكتوب في الورود البيضاء وفي تجاعيد الجفون، والتفكير الرصين الذي يحتم عليها التمهّل في اتخاذ القرار، دائمة الابتسام، دعت صغيرها أن يحدثها، نظر إليها وقال:

أريد أن أتعلّم الإنجليزية .

- يلعن الإنجليزي والساعة التي جاؤونا، لماذا لا تجيب عن سؤالي ؟

- طيب أكون عسكرياً وأحمل بندقية .

- تعال يا محمد " شوف " ابنك !

سقطت ركبناها على الأرض، لم تتوقع هذا الجواب، حاولت أن تعود إلى صفائها وهدوئها وفرحها بعودتهما، نظرت إليهما، عيناها سوداوان، عاملة ماهرة تمضي يوحها وهي تكنس البيته وتمسحه. تناقص وزنها فصارت أكثر رشاقة من قبل، شعرت بمتعة وهي تنظف وتطبخ. حدقت بصغيرها الذي له تصرفات شبيهة بالعفاريت، نادى أبا عدنان وقالت له: خذ من أمامي إنه لا يكل من الأسئلة، تصور أنه يعد النجوم، ألا ترى بأن الملائكة لا تسمح بذلك يا أبا عدنان؟ - وحدي الله يا فاطمة !

ذات مرة سألت خاله، لماذا نسمع المغني ولانراه ؟

كانت أفكاره وتساؤلاته في الأربعينات يوم لم يكن في القدس أي تلفاز، وصفته عمته بأنه " فلتة "، وقال عنه والده تفكيره أكبر من عمره، أما أمه فقد طلبت من أبيه أن يسجله في المدرسة. أخواله كانوا يدلونه ويقولون لأختهم: هذا حصتنا من بيت القاسم .

كم مرة اختارته من بين إخوته ليرافقها إلى أخواله، يمضي بينهم كل صيف أسبوعاً أو أكثر في بلدة حبلّة، عندهم هو المدلل يشتري الحلويات أكثر من أبنائهم، وربما تكون مشترياته بقدر مشتريات أولاد أخواله جميعاً، وكان هذا الأمر يفرحه، إذا يبدأ بتوزيع السكاكر عليهم، وإذا صادف أن رأى خاله هذا المنظر نهر أبناء وأبناء إخوته قائلاً :

- لا يجوز الاعتداء على حلوى الضيف .

يضربهم بكفه، فينهزمون من وجهه، يأخذه إلى البائع ثانية ويشتري مجدداً، وكان هذا الأمر يفرحهم، لأنهم واثقون بأن محصلة الشراء ستوزع عليهم، وخوفاً من عيون أخواله ونسائهم يخرج مع الصغار، يصفهم بالترتيب ثم يبدأ بالتوزيع. وعندما يشتري له خاله الثاني والثالث يملأ جيوبه، وكما فعلوا في المرة الأولى يلحقونه بعيداً عن البيت وهناك يشكلون دائرة حوله ويبدوون بتناول الحلوى.

يحبه أبناء أخواله كثيراً، إذ يعتبر مجيئة يوم حبور تكثر فيه النقود ويظهر الكرم العربي على حقيقته.

البائعون المتجولون كثر ينادون على العلكة والمطعم وبيض الحمام والملبن والسكر الفضي وغزل البنات والهريسة .

في البيت انتظر خروج والده إلى الدوام فركض خارجه، أصدقاؤه بانتظاره، أحدثوا ضجة لدى قدومه، ركضوا إلى باب حطة المؤدي إلى حارات ضيقة، سلكوا زقاقاً طويلاً عرضه متران ونصف. وهناك أخذوا يلهون ويلعبون، دائماً يختارون منطقة رطبة بلكوناتها تتصافح وأحياناً تقبل بعضها بعضها. تعالت أصواتهم، ضحكاتهم، يركضون من قنطرة إلى أخرى، قناطر توصل إلى طريق ضيقه بعضها يقل عرضها عن مترين ووبعضها الآخر يزيد على أربعة أمتار وبعضها يزيد على ستة، حارات لشدة تلاصقها تظن أنها مسقوفة بسقف واحد. البيوت متشابهة مجموعة غرف وباحة دائرية في الوسط وأشجار مثمرة قرب المدخل أو في وسط الباحة، وغالباً ما تكون هذه دالية معرشة تتدلى قطوفها كالمصاييح ... باب خارجي واطى على شكل منحني يضطر الداخل إلى التواضع قبل العبور، تشد التريينات وآيات الفن الزائرين، والتي تحول البيت من الداخل إلى معرض فني.

تتحول بعض هذه الدخلات إلى مسرح لألعابهم البرئية، السباق من أول الحارة إلى آخرها، لعبة "الطميمة والبنانير" حيث يغمض أحدهم عينيه ويعد العد يفتحها ليلحق بمن يستطيع في حين يعود الياقون إلى المكان فالذي يمسكه يخسر، أما اللعبة الثانية فتعتمد على صف الداحل على الأرض بأشكال مختلفة عن طريق وضعها مصفوفة على شكل خط، بما يسمى " الشكة " أو عن طريق رسم مثلث أو ما يسمى " المور " أو عن طريق الحفرة وغيرها. كان طوله وضخامة جسمه يدلان على أنه أكبر من سنه الحقيقي، فعندما يلعب المباحة مع رفاقه يتدخل أصحاب الدكاكين أو المارون إذ يعلقون ويصفونه بأنه شاب (حرام عليك رمي الصغار على الأرض) .

فيجيبهم: نحن من عمر واحد وفي الصف نفسه .



في شهر رمضان يلفون خلف المسحر الذي يدور على حارتهم بيتاً بيتاً  
ينادي " يانايم وحد الدايم ..."

على أصوات الطبل وقرع الأبواب تمضي ساعة السحور، يذهبون إلى مقام  
الشيخ ريحان المضاء بالشموع. فيرسمون خطوطاً على الأرض ويحجلون من  
مربع إلى آخر حتى نهاية المربعات الستة.

أمامه أمه فتعمل له " عاجة " وتقول له: هذه عروستك يما !

فيجيب: عروستي ليست عاجة !

فتصبح فرحة: تسلم لأمك.

تضمه إلى صدرها وتقبله، أبحرت في هذه الذكريات. يخبرها بأن عنده  
اجتماعاً، كانت هذه علامة استنفار، فنقول لأخته، ضعي إبريق الشاي وركوة  
القهوة على النار، قدميهما حين طلبه لهما .

أما هي فتخرج أمام البيت وحوله تستطلع الأمر وتظل قلقة حتى ينتهي  
الاجتماع. وعندما عرف مدى قلقها وتوترها فضل عدم إطلاعها، لكنها لم تعد  
بحاجة، فقد عرفت أصدقاءه واحداً واحداً، ومن الذين يجتمعون.

تساءلت، هل يأتيه رجل غير جاد أو غير سياسي ليلاً؟ ولم يعلق الباب ويبدأ  
الهمس وكلام الأسرار؟ أصدقاؤه معروفون قدومهم يعني بقاءها متوترة متحفزة  
طوال اجتماعهم. اقترحوا تغيير المكان فخافت عليه، راقبته وتسلمت خلفه في  
الليالي تحرس مكانه الجديد عندما عرفته.

تذكرت الأمسيات وحديثه، سجن ابنها يجبرها أن تظل متوترة دائمة التفكير.  
ظلت أشهراً تقف عند الباب وتطل من النافذة تترقب قدومه أو خبر يطمئنها،  
الدموع تنحدر من عينيها فتمسحهما .

قال لرفاقه بوجودها بوسعكم اعتبارها أمكم، عندما لا تجدونني جربوها،  
ستأكدون بأنها ليست فقط أما لنا بل لكل من دخل البيت، ولكل من كتب كلمة  
في تاريخ فلسطين منذ أيام منذ أقدم العصور. وذات مرة سمعها تغني لعروس في  
حارتهم، ابتسم ووقف ينصت، زقزق قلبه وظل ينتظرها وعندما عادت، أجابت بأن  
صوتها غير جميل .

لوى رأسه وقال: بل أروع صوت سمعته أذناي !

انتشرت الدوريات في الشوارع وحوصرت مداخل القدس من جهاتها الثلاث،

فخرجت ومعها عبلة وضعتا قسماً من المناشير في عبيهما والقسم الآخر في المحفظة النسائية التي تحملها. صباحاً جاءه رفاقه وهم يغردون، لقد جن جنون السلطة، كيف وزعت هذه البيانات، فقال لهم كلمة واحدة:

- هذه أُمي أمامكم أسألوها .

كلماتها الرائعة تنطلق تصل إلى الشمس، فترتد خجولة لأنها غير قادرة على الوصول إليه، رؤيتها له حدث رائع، قصيدة، أغنية سبق وأن غنتها لأبي عدنان عندما كان سائقاً ما بين القدس ويافا في الثلاثينات. فاطمة الشلبي سافرت معه غير مرة. أحد العارفين قال بأنه عرفها في نابلس كانت عند أجدارها في قرية مسحة. نظر في المرأة، ابتسمت فدخلت قلبه، عاد إلى بيته ميمتاً، لم يغيب وجهها عنه، كان لحضورها نشوة، لم يتخلص من قلقه إلا بعد خطوبتها وزواجها.

بعد اعتقال ابنها فارقتها الابتسامة، إنها ضجرة، مهدودة، مفكرة، رأسها يؤلمها، أوجاع العالم استوطنت جسدها، شعرت أن عليها اقتلاع الاحتلال واجتثاث السجون، فلذة كبدها بين جدرانها الصفراء موثوق اليدين ومقيد القدمين. تحولت الأشياء ومعانيها. الحمامة التي تسبح وترفرف باجنحتها في سماء الأردن والشام صارت أسيرة .

ظلت على الرغم من كل آلامها سيدة بيت لا تخالف زوجها، تتدخل بأدب، تتصت وعندما تود الإدلاء برأيها تطلب أن يسمح لها بذلك. أما بالنسبة لأبنائها فإنها تعتبر تربيتهم شيئاً خاصاً بها لوجودهم معها طوال النهار.. المطبخ شغلها الدائم، مجال تحركها، تطلق في البيت أنفاسها لتحملها النسمات وتتركها في كل موضع. تبدأ عملها وتنتهيه بعزيمة ومثابرة. لكن سجن ابنها كسر ظهرها، جعل روحها تذوي، فالروح إذا يبست مانفع الجسد، شاخت أحلامها حتى باتت ترى أن تحقيق الحلم يحتاج إلى آلاف الاحلام المتجددة لعل واحداً منها يتحول إلى حقيقة. فوضى فكرها جعلتها مشتتة وغير عارفة لما تريد وشاكية. رفضت أن تسجن أفكارها، صرحت بها، بماذا ستتطلق، الحرية، الانطلاق، الانفتاح، طمحت إلى الوصول إلى السماء السابعة، بكت، سألته:

- هل تحب الكتاب إلى هذه الدرجة ... ألا تريد أن تفرحني بك ؟

- إن ما يشغل فكري أشياء أخرى، لا أفكر بفرح يخصني دون الآخرين، الآن الحزن للجميع وليس الفرحة، أما إن كنت تقصدين ما فهمته فهو ما ابتعد عنه الآن وفي هذه الظروف فليس مهماً زواجي، أنا ماض إلى المقاومة، العمل الذي

سأقوم به بداية فجر وحياء .

ارتعشت يداها، طيبة القلب، نظراتها الفاحصة، وصوتها الصافي . إنها ذات عزيمة جبارة، كانت كلما شعرت بضعفها تقول: اللهم ألهمني الصبر .

أخذت مرة تروي جزءاً من سيرة حياتها، تساءلت عندما وصلت في حديثها إلى الفترة التي انتقلوا فيها إلى منطقة الشيخ جراح: " هل تعرفون كم قضينا من الوقت في بنائه؟

وكم من الجهد صرفنا؟ وكم من الأموال دفعنا؟ كيف سنبنى بيتاً آخر إذا نسفوه؟ إنهم يعيدوننا إلى البدائية، في هذه الأيام لم يعد هناك من يسكن المغاور ويتسلق الأشجار ويعيش على قطف الثمار".

تمضي جل وقتها مفكرة تتصوره يتعذب، الدم يسيل من أنفه وأمكنة أخرى، الكبراج ترك الكدمات وبقعاً زرقاء على جسده. سنواتها التي مرت سريعة بدأت تتوقف، دموعها جريان الأردن منذ شق طريقه جنوباً راکعاً مؤدباً، مؤدياً صلواته وتحياته للهضاب والأودية التي تجاوره. زفراتها تلهب صدره. كانت عند تفتيشهم للبيت تقف منتصبية، واضعة يديها على خصرها، تاركة إياهم يفتشون كما يحولهم، وعندما ينتهون ولا يجدونه تخاطبهم :

- لكم الحلاوة ولنا الصبر والعلم إن وجد تموه، فأنا أبحث عنه .

أمة بخوفها عليه تزعجه، أول مرة ذهب إلى دمشق لم تتم طوال شهر، حتى وصلت رسالة طمأننتها. حسبت ألف حساب، قالت بينها وبين نفسها قد يكون ذهب مع سائق ابن حرام، وربما أوقفوه على الحدود، أو منعه من المرور أو اعتقاله، كيف يعيش؟ كيف يأكل وينام؟ من يغسل ويطيخ له؟ يهزأ زوجها من مخاوفها ويقول أنت عاطفية أكثر من اللازم !

عرف ذلك بعد عودته من دمشق حين سألته ألف سؤال، وحدثته بحكايا تفيض بالحب، وبحكايا مليئة بالأسرار، ظلت تحاوره في تلك الليلة، جالسة، لم تضطجع أو تتمدد خوفاً من مغالبة النعاس لها.

صوته في أذنها، إنه في الشارع، انطلق صراخه طالباً من رفاقه اللحاق به، أخذوا يتبعونه وهم يتدافعون ويتراكضون في الحارات، حارات أرضها مرصوفة بحجارة سوداء، وصلوا إلى أحد أبواب القدس، وقف على الحجر الواقع إلى الزاوية اليسرى من باب حطة. نظروا فإذا بأعلى جدار السور نافذتان غير واسعتين عليهما قضبان حديدية، من هذا الباب انطلقوا إلى طريق كلها أقواس لا ترتفع عن

الرأس إلا قليلاً. يشعر المارة بدنوها. هاماتهم قد تلامسها ولكنه عندما يدقق يجد ما بينه وبين أدنى قوس نصف متر على الأقل، قناطر مركبة ليسمك كل حجر الآخر. هذا التماسك لم يؤثر به الزمن. فإذا تداعى حجر وجب ترميمه قبل أن يؤثر على الفنطرة، لذا فقد تمت المحافظة على الأقواس باستثناء ما خربته الزلازل ورمم بعد انتهائها. الترميم يعيد الجمال فالجسور التي ينزمنها التراب وفتات الخشب الناعم، من الصعوبة الاهتداء إلى مصدر القرض.

يبدأ التفتيش عن مصدر الحركة لتجديد الأخشاب المتأكله عن طريق تغريغ جانبي الخشبة وسحبها كما تسحب الشعرة من العجين، وبالطريقة ذاتها تدخل الخشبة الجديدة ثم يطين مكانها، حتى تبدو أن الأمر لم يتغير منه شيء .

تنتشر على جانبي الطريق الضيقة نوافذ متطاولة، فوق الأبواب أبراج تعلق بعض الأقواس. على الجانبين دور ومحلات تجارية، تستند البيوت بعضها إلى بعض، يقولون إذا تهدم بيت في الحارة عابت البيوت وتصدعت، فأى خلل يعالج من أهل الحي، هذه البيوت الحانية والمتقاربة والمتداخلة دافئة شتاء ورطبة صيفاً. مظلمة إذا كانت الحارة مغطاة، ومع ذلك يتسلل النور من كوى معدة لهذا الغرض نتيجة خبرة ودراية. أما داخل البيت فالغرف واسعة مرتفعة السقف. أخشابها متقاربة وأحياناً متراسة تكاد لا نجد إلا فراغاً بسيطاً، ولو حسب البناء قوتها لتبين أنها قادرة على حمل بناية وليس سقفاً بسيطاً فقط .

القدس مهرجان محبة، نيروز، مواسم احتفالات، أعراس، مدينة مشغولة بفرحها طوال العام .

التقى عمر بالأجانب وشرح لبعضهم حدود القدس القديمة ، وأسماء أسواقها وحرارتها القديمة، دلهم على الأسواق المكشوفة والمغطاة والأعمدة الأثرية والحجارة المبنية منها البيوت والمستخدمه لرصف الشوارع.

التقى بوفد سياحي مؤلف من جوليا الشقراء وزميلتها سكاذا وجان، جاؤوا من مدينة الضباب، نزلوا في فندق واحد وتعارفوا. سار معهم إلى باب العمود حيث كانت تخرج القوافل من هناك إلى دمشق، هذا الباب الذي تعلوه استدارة بين برجين، دخلوا عبر أبوابه التي تقع في نهايتها كنيسة القيامة، وصلوا ساحتها والنقطة الصور بين بقايا الأعمدة التي تحمل أروقة المساكن والقاعات المخصصة لراحة الحجاج والصيانة. تأملوا الكنيسة ومنها تابعوا سيرهم باتجاه واجهة فيها بابان وعلى جانبيها أعمدة تنتهي بأقواس مدبية ونوافذ مغلقة يعلوها برج الأجراس القوطي. تعالت أصواتهم مثلوا إشارة الصليب ثم ساروا إلى مصلى الأرمن.

جذب جان جوليا وهمس في أذنها، فردت بالنفي وعلت ضحكتها. تركته واقتربت من عمر وقالت :

- اشرح لنا ماتراه مناسباً، وإذا مررنا بمكان أثري هام دلنا عليه.  
ابتسم بود وأجاب:

- طلبك يعني أن نتوقف في كل مكان، لأننا وسط مدينة أثرية بكاملها .

قبل أن يتابعا نظرت إلى عينيها، أخرجت ورقة من محفظتها وسجلت عنوانها في الفندق، وطلبت حضوره مساء، هز رأسه فغنت لها الأطيوار وبان الفرخ في عينيها.

وصلوا إلى كنيسة الروم الأثوذكس، ومنها اتجهوا شرقاً، هبطوا درجات أوصلتهم إلى كنيسة القديسة هيلانة. تابعوا سيرهم شرقاً وصاروا قريبين من بقالية أبي عزيز الذي رد على التحية ودعاهم للاستراحة. أمام الدكان مرتفع بسيط وكرسيا قش جلسوا يرتاحون، سأل أبو عزيز :

- من هؤلاء يا عمر ... إنجليز إنتبه يا ولدي معظمهم جواسيس !

- شكراً .

من هناك استأجروا سيارة ولفوا على باقي الأبواب، باب الساهرة، باب الأسباط، الحائط الشرقي للسور ومنه جنوباً إلى بابي المغاربة والنبي داوود ومن هناك إلى بيته في الشيخ جراح. استقبلت أم عدنان الضيوف كعادتها. قبلت الفتاتين وجاءت بشرشف لتضعه على ساقيهما، وهي تردد:

- الفتاة التي تدخل بيتنا تصير ابنتنا وتكتسب حمايتنا وهي بالتالي عرضنا، المحافظة عليها جزء من إنسانيتنا.

- الفصل التاسع عشر -

نفحة الأكثر قسوة موقعاً وحياة، إذا قورنت بغيرها من السجون، موقعها وسط النقب أعطاهما القفر، لاشيء حي سوى الصراصير وبعض أنواع الفراش الصحراوي والعقارب والأفاعي. الطبيعة جهنم موقدة صيفاً، أما شتاء فالرياح تعوي وتنبح كالكلاب الشاردة دون قطرة مطر، وعندما تخرج من الأرض بعض الأشواك والزهور البرية بفعل رطوبة الشتاء وهروب بعض السحب وانتحارها، تهب الرمال لتمحو أي وجود للحياة. إن اختيار السجن هناك عقوبة لمن يكن فيه إن كان سجاناً أو سجيناً. تذكر يوم رحل وكيف استقبلهم طاقم السجن، أصابه صداع،

أغمض عينيه وأسند رأسه إلى الحائط، نظر إلى رفاقه وقال:

- لن أخرج دعوني خدمة .....

استلقى في الغرفة، بدأ فكره يلف بدائرة قطرها خط الاستواء، أراد أن يخلد ولو لدقائق إلى ذاته. أن يطلق العنان لخياله ويستحضر عشرات الصور أمامه. عندما تصل أول صورة تتالي الباقيات، كانت أم الياس المرأة الطيبة، ذات الوجه الدقيق والقوام الهزيل، أول صورة في ألبوم رأسه، امرأة تخاف عليه، ناداها يمًا.

فردت عليه: نعم يا بني .

تهرع إلى الباب، تفتحه عند سماعها لنقرته. حتى عندما يحاول مداعبتها بتغيير طرقته، تصيح السمع فتتأكد أنه هو ويريد أن يتلاعب بأعصابها. تضحك وهي تفتح الباب، عرفتك يا عمر!

سألته: لماذا يخفي رنة طرقته ؟

ابتسم ولم يجب .

- طرقتك دخلت أوردتي وصارت جزءاً من كياني .

أحياناً تشم زهر الليمون بعدها يُقرع الباب، أهي تهيوأت؟ أم ماذا؟ لو كانت تهيوأت لما حدثت مرات عدة، وفي كل مرة تكتشف أنه أبو عباية. غير مرة فتحت الباب لحظة وصوله، سألتها: كيف عرفت؟

تجيب بفرح إنها مشيته المعروفة لديها. تنفت دخان سيجارتها فيرسم أشكالاً وخيالات، تتأملها وترى فيها أبا الياس رحمه الله والياس الذي يدرس في الخارج. فكرت أن تعمل بنصائح عدو الدخان، أن تترك السيجارة وتهجرها دفعة واحدة، لكن نفسها لم تطاوعها، تعن اللفافة على بالها، فتراها أحلى من العسل، ترى كل دنياها وحاضرها داخلها، فتشدها من العلبة إلى فمها، تشعلها واحدة من الأخرى، أشبه بدخان قطار تعب. تُعبُ منها فتملاً صدرها بالسحب الضبابية.

تنظر إليه تبتسم ثم تعلق: إنه المرض الذي لا بد منه والذي صار جزءاً مني.

السيجارة بين أصابعها مغردة موحية بصور الماضي، تتأملها وتبطن في تدخينها، تشعر أنها امتلكت العالم. ظل التبغ نقطة خلاف بينها وبينه، لكنها لم تعد تأبه. قالت له: أعرف ما تقوله، التدخين مضر يؤدي إلى السرطان وغيره، لكنني غير قادر على تركه، اعذرني يا بني.

ظهِراً أحضرت كمية من السمك وبعض الحلويات، نظرت إليه وقالت: اليوم

ستأكل الصيادية من يديّ .

- من يد لا نعدّهما، لماذا كل ذلك يمّا؟!

- اسكت يكفي غيابك عن البيت الليلة الماضية، لقد ذهب نصف عمري، أنت اليوم ممنوع من الخروج، وممنوع من الرد، ممنوع من عمل أي شيء. اذهب واستلق على سريرك .

- كفى أوامر لقد صرت كالرؤساء المحترمين .

- بل أكثر منهم تشدداً، أنت لو تعرف ما حل بي تعذّرنِي، اليوم عيد والأطفال الذين مثلك عليهم طاعة أمهاتهم .

- متى أصير شاباً ؟

- ستظل طفلاً أخاف عليك من شر أولاد الحرام ومن ظلام الليل، ولن تكبر أبداً، صدقني أراك كأنك ابن عشر سنوات.

أسرعت ونظفت السمك وتبلّته ثم وضعته في " الطابون"، أشارت عليه أن يذهب ويأخذ بيده أي كتاب وينتظر حتى تتاديه، وكما يفعل الولد المطيع ابتسم ثم انسحب، تناول أحد كتب ساطع الحصري و أخذ يلتهم أوراقه صفحة إثر صفحة.

وضع يده على جبينه تناول حبة أسبرين، جاءتة عبلة تلتقط أنفاسها، وجهها ورق هارب من حرارة الجو إلى حضن تشرين ذي الأنفاس الرطبة، تأملته ثم أخبرته ما حصل في بيته قبل ساعتين.

" جاؤوا بسيارتين وأخذوا أخاك علياً رهينة، ولن يفرجوا عنه إلا بعد القبض عليك أو تسليم نفسك، الأفضل أن تتواري عن الأنظار، وجهوا إنذاراً بإخلاء المنزل لنفسه خلال أربع وعشرين ساعة، ولهذا أخذوا قياساته. حضر ضابطان من سلاح الهندسة في سيارة عسكرية، دار حوله ثم قررا حفر حفتين".

رفض أبو عدنان إخلاءه والخروج. قال:

- ليهبط البيت عليّ، تعاقبون أسرة من أجل واحد، ماذا نفعل ونحن لا نعلم عنه شيئاً ؟

أنتم لديكم المخابرات، فإذا كنتم غير قادرين على الإمساك به، فلا تنتقموا لهذا السبب .

أجاب الضابط .

- نحن نعرف أين يختفي...سنحضره خلال ثلاثة أيام، الأفضل أن يسلم نفسه.

اجتمع الجيران استقلوا سيارتي أجرة وذهبوا إلى الحاكم العسكري ليبلغوه بالعدول عن نسف البيت لأن عمر متوارٍ عن الأنظار، ولا أحد يعرف عنه شيئاً منذ تموز الماضي.

وقفت أمامه، عيناها تنذران بمطر كالغيوم الآتية من الغرب التي يُسمع هديرها، الوريقات ارتجفت وهي تستقبل أولى حباته، اقتربا من شجرة كثيفة ؟  
- إنه المطر هيا إلى بيتنا حتى يفرجها الله .

- وإذا عاندا!

نظرت إليه وفي عيناها ألق يغسله الندى. كلها ترقب وهي تتأمل ملامه وسورة الغضب المرتسمة على وجهه، رفعت ياقة معطفها ومسحت شعرها، تأمل ثغرها وجسدها المكتنز في حين ازداد انهمار المطر، فالتصق بها وقال :

- رأيت من أكثر جنوناً منا ؟

- الجنون هو أنت. في ظل الخوف المسيطر لن نستطيع اتخاذ موقف صائب.

حرق إلى عينيها فوجد فيهما الألفة والحب، تعابير وجهها الودودة فيها الكثير من الحيرة والتمرد، انكأت على جذع الشجرة ناظرة إليه، راعها ما شاهدته من سكون ودفء، فاستسلمت لقبلة. شلح كنزته وعصرها ثم أعادها على جسده، شعر بقشعريرة، فاقترحت أن تخلع معطفها، رفض وقال:

- أيتها المجنونة أنت تعرفين بأنني رياضي وعندي القدرة على السير بملابسي الداخلية، لكن ما يمنعني من الجري وجودك وخجلي .

- ماشاء الله صرت تعرف الخجل هيا واحد .... اثنان ... ثلاثة .

عدت ثم بدأ بالجري، بينما المطر يحول الأرض إلى برك صغيرة تاركاً أخاديد وأثلاماً متطاولة وصلا إلى شارع فرعي ومن هناك استأجرت سيارة إلى بيتها، فكر بالحرب التي بدأت وانتهت في أيام أشبه بكابوس استمر حتى في اليقظة .

" الحرب النظامية إذلال لشعوبنا، التي تدفع دم قلبها ويُقتل أبناؤها، هذه اللعينة ينتصر فيها عدونا والمهزوم يحول مابقي من أنوثته إلى فحولة باتجاه



الداخل، فيتمرد العدو ويصل رأسه قبة السماء يطل من عل ركباً طائراً أسود اللون يفعل الأعاجيب ."

قال ذلك في نفسه ومنظر الجنود الإسرائيليين أمامه بكامل عدتهم. جاؤوا قبل عام اثنين وثمانين فيما سموه " مناورة مسح الخوف " مع كل جماعة ضابط يشرح عن السجن والخوف القابع في صدور السجناء، قال:

- هؤلاء جاؤوا يقاتلوننا وعندما اصطدموا مع أول دورية ارتبكوا، لم يستطيعوا استخدام سلاحهم الذي صار عبئاً، بينما جندينا يعطيه الأوامر بالاستسلام. اترك سلاحك وضعه بين رجليك، قف وارفع يديك. يفعل المهاجمون ما أمرهم، يتعاضم خوفهم، تأملوهم جيداً، تبدو أشكالهم وقاماتهم كالرجال، لكنهم من الداخل جبناء وسترون ذلك بأنفسكم في لبنان .

سمع كل كلمة قبلت وظل صامتاً حتى أنهى حديثه، عندها قال :

- أيها الجنود إننا إذا قبضنا على سلاحنا لا ندعه حتى نقتل عدونا أو يقتلنا، الخوف يبتعد حين يرانا، إياكم والمخاطرة، ستجدونهم أمامكم، الموت ينتظركم، فكروا وارفضوا أوامر قيادتكم بغزو لبنان.

هيا إلى المنفردة أيها الكلب .

قال عمرام ذلك وانصرف منزعجاً. جاء ثلاثة وجروه، قادوا عمر خارج الغرفة ودفعوه إلى الزنزانة واغلقوا عليه بابها. نفخة دائماً تصلح للتجارب، فبعد إضراب الثماني، قررت إدارة السجون بالتعاون مع وزارة المعارف إرسال أطفال من المرحلة الابتدائية ليروا " المخربين " بأعينهم ليشكلوا فكرة عنهم وليهرب الخوف من أفئدتهم، لتتكون لديهم كراهية للعرب والسجناء، كراهية يتجرعونها كما يشربون الماء ويتنفسون الهواء، وليطلعوا على قدرة الأمن في إذلالهم وعقابهم وحماية دولتهم.

الوقت ضحوة حين فتحت الأبواب على غير عاداتها، فاندفعت أفواج الأطفال ومعهم معلمتهم يمشون في الممرات وينظرون إلى الغرف ثم يرتدون إلى الخلف، طاقم السجن بكامله يرافقهم إضافة إلى خمس معلمات ومدير المعارف في تل أبيب. الأطفال لا يتجاوزن العشر سنوات، ينظرون إلى الغرف بفرح ويتراجعون، بعضهم يبتعد كثيراً عن الباب، بينما إحدى المعلمات تشرح عن السجناء .

استاء الشيخ عباس من ضحك الأطفال فعلق:

- هؤلاء جاؤوا للضحك منا ... من الأفضل أن نتجاهلهم .

أجاب حسان :

- وحد ربك يا رجل إن قلبي يشعر بالفرح لرؤيتهم، أليس لك أخوة صغار؟
- أحرص، إياك تشبيه إخواتي بهم .
- احتدم النقاش، وكاد الشيخ عباس أن ينتقم من أحد الأطفال الذي اقترب ومد يده إلى لحيته. ابتسم عمر للطفل الصغير وقال موجهاً كلامه لرفاقه:  
- لا يا شيخنا الطفل بلا جنسية، علينا أن نكسب وده وصادقته .
- ماذا تقول يا رفيق، هؤلاء يتشربون الحقد والكراهية ضدنا، وبريون عليهما.
- هيا نشعرهم بأنهم بين أهلهم ولا نزج ببراءتهم في صراعنا مع عدونا.
- كانت هذه الإشارة كافية لينطلق السجناء على سحبتهم، يرحبون بالأطفال ويلعبونهم وكأنهم أولادهم، عملوا حلقة مفتوحة وأخذوا يغنون، كانت الأغنية الأولى " سنة حلوة " وأغنية أجنبية مشهورة Happy birth to you وأغان أخرى عبرية وعربية وإنكليزية، ركض الأطفال جهة الغناء، شاركوا وأخذوا يرددون.  
دخلوا الحلقة واختلطوا بالسجناء، غنوا ورقصوا وأكلوا من الفواكه الموجودة من بقايا زيارات سابقة آخرها قبل يومين .
- خرج الجميع إلى الباحة عملوا دائرة كبيرة، دبكوا وغنوا ورقصوا، فانطلقت ضجة الشيخ عباس بالموشحات والأغاني الدينية، طار عقل المعلمات، اقترح عمرام أن ينهي كل شيء بأمر منه، رفضت المعلمة وقالت:  
- ماذا يقول الأطفال، هل نسيت أننا نعلمهم الديمقراطية وحرية الرأي، مهمتنا بعد الزيارة صعبة.. انسحب عمرام تاركاً بقية السجنائين، غير قادر على متابعة ما حصل ، تبادل السجناء والأطفال الهدايا وعادوا وهم يحملون ذكريات جميلة. غير ناسين ما قاله عمر حين وجه له أحد الأطفال السؤال التالي :
- لم أنتم سجناء؟
- لأن لنا أخوة بعمركم نريد لهم حياة جميلة .
- أنتم مجرمون ومخربون، هكذا علمونا .
- نحن أصدقاء أيها الأطفال، اقتربوا أكثر، ارفعوا أيديكم واهتفوا، لتتحيا الصداقة والمحبة ويسقط السجن.

بعد أسبوع بعث الأطفال رسائل وهدايا صادرتها الإدارة وأتلفتها ثم اتصلت مع إدارة السجون لمعالجة نتائج زيارة الصغار وعدم تكرارها. حاولت إلغاء زيارة مقررة للشبيبة لسجن نفحة، لكن وزارة المعارف أصرت على تنفيذ الاتفاق، بحجة أن الشبيبة واعية، فإذا استطاعوا الضحك على الصغار وبأغنيتين أو أكثر فهم غير قادرين على ذلك .

فتحت الأبواب، فتيان وفتيات جالوا في الغرف، أعمارهم لا تتجاوز الخامسة عشرة، اشترطت إدارة السجن أن تكون الزيارة سريعة بحيث لا يتاح لهم الاختلاط بالسجناء، دخلت اثنتان وقتنا نتظران والخوف زرع لمستة الذاوية على خديهما، واحدة حنطية والأخرى شقراء، اقتربنا من حسان الذي راقب دخولهما. الحنطية ذات جسم رياضي. سألتها :

- هل تحبين الرياضة ؟

- الرياضة حياتي ووجودي .

- أتفكرين أن تصيري لاعبة جنباذ ؟

- لم الجنباذ بالذات ؟

- جسذك رياضي التكوين كناديا كومنشي!

حدقت به وابتسمت ، انتابها فرح غامر ، قالت لرفيقتها بافتخار : " أ رأيت !"

ثم صاغت سؤالها بتعجب :

- سنوات وأنت في السجن وليس عندك تلفزيون؟ كيف تعرفها ؟

- أتابع ذلك من خلال الصحافة، نحن نقرأ في اليوم ما لا يقل عن ثمانى ساعات.

عرفها بأفراد الغرفة، ابتسمت بينما الشقراء تشدها وهي تعاند وتناقش، قالت:

- أنا شوشانا من " لا تقيا " ورفيقتي يهوديت من مدينة " بريمن " بألمانيا ؟

قعدتا على الأرض، عزفهما عمر القاسم وعدد الألعاب التي يجيدها، رفع الأثقال والملاكمة وتدريب على الألعاب الرياضية كافة من كرة القدم إلى السلة واليد والطاولة.. استغربت شوشانا فسألته كيف يوفق بين السجن والرياضة، أما يهوديت فقد استغربت أن يكون في نفحة لاعب رياضي، لأنها كما لقنوها أن السجن للمجرمين والمخربين الذين لا يعرفون الإنسانية. عند هذا الحد تجرأ

وسألهن، ماذا لو أحببت إحداكن شخصاً واكتشفت أنه عربي، هل تستمر في حبها؟  
أجابت شوشانا: الحب لا يعرف الجنسية ولا الديانة.  
أما يهوديت فقد احتجت على كلام رفيقتها فأجابت بالنفي والاستحالة.  
- ألسنا نملك عواطف متشابهة!؟

- القضية ليست بالبساطة أو بالإقناع، إنها الممارسة فأنا تعلمت الخوف من الأجنب " هاغوييم " فإذا دخل أحدهم بيتنا، لازم نغسل الباب سبع مرات حتى ينظف البيت، فكيف سأدخل غير يهودي إلى قلبي!؟

اعتذرت شوشانا عن كلام رفيقتها البعيد عن الحياة الإنسانية، ثم خرجن مسرورات بعد أن أخذ عمر عنوان مدرستهن. تقدم إليها وأخذ الورقة التي كتب عليها العنوان ولطمه على وجهه مهدداً " كيف تتجراً وتطلب عنوان فتاة إسرائيلية أيها المخرب! "

لم يجب بل لملم بطانياته ليعيش في المنفردة ثلاثة أيام. سمع هديل حمام، نظر إلى الطاقة فإذا زوج الحمام الهزاز، تناول الرسالة الموضوعية في رجله، قرأها بسرعة، إنها من سليم الدوري، يصف فيها وضع السجناء في بئر السبع، ويذكر بأن أم عدنان جاءت لتزوره فوجدت بعد انتهاء الزيارة أنه منقول، وزعت الهدية وناله منها فطيرة.

تناول القلم وكتب رسالة شرح فيها الزيارات المتكررة إلى السجن بعد الإضراب، بداية من زيارة الصحفيين ثم تلاميذ المرحلة الابتدائية والشبيبة، ربط الرسالة بعد أن طلب أن يرد عليها بسرعة.

مازال يذكر آخر كلماته " خذ زوج الهزاز واتركه بعد وصولك" .

لم يكن في قدرته فعل ذلك فاجراءات التفتيش ومنع اصطحاب الطيور حالت، لكن الفرصة عادت حين دخل زوج الحمام من طاقة السيارة الزنزانة، ظل داخلها وعندما تضايق غادرها يرفرف فوقها حتى سجن نفحة، ولم يغادر السجن إلا عندما وضع في رجله رسالة.

رحلة المحبة لم تتعب الحمامتين بل أعطتهما رشاقة، ولم ينكشف سرهما طوال المدة التي قضاها في نفحة على الرغم من محاربة إدارة السجن لأي علاقة مع الحيوانات، ومنها بعض الحوادث الطريفة .

ذات يوم هربت أرنبه من جنة عدن، اختارت الباب الخلفي الذي يطل عليه

بعض الغرف، حفرت حجراً جانبه و أخذت تقفز مبتعدة، نطت عبر الطاقة ودخلت الغرفة، كان حدثاً غريباً، اجتمعوا حولها لمسوها بأيديهم دلوها وخاطبوها، ظلت معهم ساعات وهم يطعنونها صاروا يرمونه إليها عبر الطاقة، أخذت يوماً بعد يوم تجد أن الحياة مع السجناء مسلية، بدأت تمضي وقتها مع السجناء من سجين إلى آخر حتى أن عباساً ألف عليها قصيدة شعبية وبثها أشجانه وحدثها عن غرامياته وذكر فواحة بالخير. كل واحد لطفها وحدثها فصارت عزيزة عليهم واعتبروها صلتهم بالحياة، وظل الأمر كذلك حتى ولدت وتزايد عدد الأرناب. علم عمрам فأصدر أمره بالقبض عليها وإعادتها إلى جنة عدن. الأرنبة أحست بالخطر فأختبأت، بحث عنها إليها وجدوكرها، لكنه لم يستطيع إعادتها لا هي ولا صغارها فأحضر قططاً سمينة. استمرت عملية الصراع أسبوعاً أدت إلى هربها بعد اصابتها بجروح، إذ كسرت رجلها وعورت عينها وشقت أذنها، أما الأرنب الصغيرة فقد التهمت القطة، وعندما ظن السجناء أن مدير السجن قد انتصر، أطلت برأسها عبر الطاقة ومعها أرنب فتى، قفزت إلى الغرفة وقفز هو خلفها.

بعد أن أنهى عمر حديثه عن زوج الحمام الهزاز وأخبار بئر السبع ذاك السجن الذي يقع على الحدود الشمالية للنقب والمفتوح على المدن الفلسطينية وعلى تماس بالحياة المعيشة وعن سليم الدوري حاضر البديهة " المزهراني " الذي مازال يذكر كلماته يوم خاطبه قائلاً:

- إنك الفرخ أيها القاسم، صدقني بأنني مسرور لأنني سجين معك، أنت مثقف ورياضي وصاحب تعامل جيد، إن للسجن طعماً حلواً، ومن يعرفك يعيش وكأنه مع أهله.

سليم من لا يعرفه يحكم عليه بأنه لم يحزن في حياته مرة واحدة، يتمزق ولا يظهر على وجهه إلا المرح، قبض عليه وهو سائر بمظاهرة، اشترك بها وهو لا ينتسب لتنظيم، عندما سألوه عن تنظيمه أجاب بكلمة " الوطن " بعث إلى خطيبته يدعوها أن تتزوج ولا تنتظره. أجابته:

- هذا كلام شخص غير محب، أخبرني، أكره الإشفاق فإن كنت كذلك فدع الأمر لي فأنا قوية بما فيه الكفاية .  
بكي دون أن يشعر أحد بدموعه.

إنه مثال لا يتكرر يروض الطيور، إذا أشار لعصفور نزل حيث يأمره. في البركس تحدثوا بأمور كثيرة، البارحة ناقشوا نشأة القصة القصيرة وعلاقتها بسقوط

الاقطاع ومجيء البرجوازية والانقلاب الصناعي، وذكروا أمور لم يفهمها الجميع حول الفكرة واللغة والبيئة واللحظات العابرة، وذكروا أسماء مثل إذا إدغار آلان بو ومويسان، وقبلها تحدثوا حول السياسة والصراع الطبقي ووحدة الأضداد

والجدلية والنقد والديمقراطية.. كما شرح كيف عاش حياته وراء العصفير والفخاخ و " النقيفات "، يركض ويصفر ليدفع بالطائر إلى حتفه، إذ عندما ينقر الدودة يرتفع التراب إلى الأعلى، يعدوا ليمسكه.

مازالت ذكريات " البركسات " وسقوفها المقوسة والغرف التي هي أشبه بمهاجع والساحة الكبيرة التي تتسع للسجناء وقت الفورة. ثلاثة أشهر قضاها مع سليم الذي أمن اتصالاته مع داخل الغرف ومع خارج السجن، يبدو كلاعب سيرك وهو يغازل الطيور، يدخل العصفور من الطاقة يطيره ويداعبه بحركاته البهلوانية أو حسب صفراته التي يصدرها ويتقن بتلحينها، فمرة يطير على شكل منح ومرات على شكل متعرج، أما عندما يصدر صفرة طويلة أو حزينة فإنها نذير بالخطر، يسلك العصفور أقرب الطريق إلى الخارج مصففاً بجناحيه.

علمت إدارة السجن فقامت بتفتيش الغرفة غير مرة، وفي كل تفتيش يفلت العصفور. عين مردخاي حارساً أمره بقتل العصفير التي تقترب من النوافذ. أغلقوا الطاقة ووضعوا سليماً في المنفردة ستة أيام أمضاها العصفور منتقلاً ما بين الغرفة والزنازنة رغم الرصاص المنهمر باتجاهه، وعندما أعادوه إلى البركس جاء العصفور مع سرب من جماعته. صم الرصاص الآذان وهو يسقط الطيور التي اقتربت من الطاقة. حزن لمنظر الطيور المذبوحة. تأكد الحراس من قتلها، لم يعد عصفوره ولم يهون عليه الأمر إلا زوج الحمام الهزاز الذي جاء مع جوقة العصفير، فتح جزءاً من الطاقة دخل الهزاز وأخذ يحرك ذيله وأرجله ويهز جسده يمشي رافعاً رأسه وعنقه بكبرياء، طار حزن سليم عرف أهميته فأبقاه. باضت الأنثى داخل علية ورفدت، بينما الهزاز يقوم بحركات تدل على فحولته ولا يتخلى عن ذلك إلا ساعة تغادر عشها، عندها يتمثل دورها بكل وداعة راقداً على البيض .

ذُكرت هذه الحوادث حسان وعمر بحادثة القطة في سجن عسقلان التي أدت إلى استنفار دام يومين، أفرغت الغرف، ودخلت إدارة السجن ممثلة بتريدانوا وزيتون وعمانوئيل ويودا بحثاً عن قطة دخلت إحدى الغرف حسب تقرير الشاويش المناوب، سألوا عنها فاستغرب السجناء ذلك، أخرجوهم من الصباح وحتى الليل بحثاً عنها، لم يعثروا على أثر لها. قال أبو عروبة:

- يا حيف على الرجال تبحثون يوماً كاملاً عن قطة ولا تجدونها، لم ذلك؟ هل هي فدائية أم أنها مكلفة بمهمة محددة؟

- اخرس أيها الكردي القدر، لو كان فيك خير ما تركت العراق.

استخدمت القطة الحيلة أثناء تنقلها، إذ عرفت بغريزتها عدوها من صديقها. من الغرفة إلى البوابة الخارجية خمسة أبواب، فإذا مرت بسلام فإن الباب الخارجي لا تستطيع اجتيازه إلا قفزاً ولحظة فتح الطاقة، حذرة جداً عندما تمر بجانب شخص يرتدي الزي العسكري، فإنها تحاول الاختباء.

تقف جانب الحائط حتى يمر أو تتط خائفة، ظلت على تلك الحالة حتى ولدت فانفصح أمرها. أبعدت هي وصغارها، لكنها ظلت تتردد حتى أطلقوا عليها الرصاص.

مساءً أصدر أحد السجناء مواء، تركوا المهاجع وتوجهوا إلى الباحة بحثاً عنها لم يجدها. قرر حيوت أن يناموا في الساحة أو يسلموا القطة .

كان القرار مضحكاً، ما كان منهم إلا المواء المتواصل، وهذا أدى إلى احتجاج عشرة في الزنازين.

- الفصل العشرون -

حين وضع رأسه على الوسادة لف دورات عدة وأخذت الوسواس تغزو فؤاده، الذكريات تتوطن يعيش على ذكرى السجناء يذكرهم واحداً واحداً، تلقى رسائل من حسان وفادي، والشيخ عباس وسليم الدوري وعابد وخالد بزوي.

طلبه شاول ليفي مدير مصلحة السجون، قال بتشف:

- أرايت ما فعله " المخربون " طلبوا مئات الأسرى في عملية تبادل الشهر الخامس عام خمسة وثمانين، قرأت اللوائح، سألت وبحثت عن اسمك، أيعقل ألا يدرجوه فجاءني الجواب فعلوها عن سابق إصرار، وأبلغوني بتفاصيل أضفتها إلى ملفك، مسكين أنتكون نهايتك بعد كل النضال مأساوية إلى هذه الدرجة؟!

صمت لحظة وأجاب:

- للقيادة تقديراتها، ولا تظن بأنني غير مسرور، إذا كنت أفرح لحرية مواطن من أفريقيا أو أمريكا اللاتينية، فكيف لا أفرح لأخ أو رفيق إطلاق سراحه جزء من حريتي، أنا فرح لذلك وفي منتهى السعادة وسأظل على قلوبكم كالجمر.

نظر بامتعاض وتمتم: ستظل الجمر الذي ندوسه متى شئنا .

لم ينم أبو عباية في تلك الليلة، سألوه، ماذا أيها الرفيق ..... غير معقول  
.... أي قيادة لا يمكن أن تستنتيك !؟

" ماذا لو فعلوها، كنت أمثل تيار التجديد، دخلت العملية وكلهم قالوا سنتابع،  
بعد عامين تحولت الساحة الأردنية إلى دماء تنز من جسد الفلسطيني والأردني،  
اختاروا أضعف الساحات العربية المواجهة للعدو وقالوا هيا إلى لبنان ووصل  
إلى بيروت. راهنوا على انهياره، تماسكت قليلاً حتى لا أحقق حلمهم، الإبر تخز  
قلبي. أشعر بدقاته من فوق القميص، راقبت الموقف لحظة بلحظة سمعت عن  
ترحيل آخر عسكري. تحولت نفحة إلى جدار المبكى، قلت في نفسي لنقرأ الفاتحة،  
لنعد أنفسنا إلى مرحلة جديدة، لكن متى تبدأ وأين ...."

قال حسان: وأسفاه !

وقال الشيخ عباس: هؤلاء التفتوا إلى أنفسهم، جمعوا ثروة وامتلكوا السلاح  
للدفاع عن امتيازاتهم .

لم يقل عمر شيئاً، قلبه يعتصر، الدماء التي يضخها سوداء حارة وعكرة كجو  
نفحة في تلك الأيام، مرض وفقد الشهية للطعام، تغير نظامه اليومي فلم يعد  
يمارس الرياضة، فقط قراءة الصحف وتحليل الأخبار، النشرات تأتيه طازجة عبر  
مكبر الصوت كل ساعة، الجسد الذي لم تحطمه السنوات بدأ يتحلل، تساءل: ما  
العمل! وقفت أمامه شامخة وقالت: " مالمعمل! " وعندما لم تجد جواباً تابعت  
حديثها... وصال وجه ملائكي يشع نوراً وفم ابتسامته قرنفة حمراء اكتوت من  
العشق، وقلبها غاية ورود " على الإنسان أن يعيش كالأخريين "

أغرو رقت عيناها بالدموع وهو يتحدث عن الوطن والحياة والتضحية، مسح  
دموعها، نظرت إليه وقالت: أنت ظالم وقاس يا عمر، الأسرة أولاً وهي عماد  
الوطن، العدو يقاومها، يحاول إبادتها، سنتدم ذات يوم حين لا ينفع شيء في  
تغيير مسار حياتك .

وصف أفكارها كواحدة تركت المدرسة وهي في المرحلة الابتدائية. وكاد  
يصف أم عبله بذلك حين أخرجت طقم الكاسات الموضوع في الخزانة الزجاجية  
وطلبت إلى ابنتها أن تغسله جيداً، لتسكب شراب التمر الهندي ذي اللون البني  
الفاتح بعد إضافة قليل من الكازوز .

قالت وهي تنظر إلى عيني ابنتها وعينيها.



- إن شاء الله في فرحكما.

أخذ الضعف يدب في أوصاله، تحولت حياته إلى فوضى، لا يحدث أحداً،  
ساهم مفكر واضعاً يده على خده، كيف للثورة أن يأكل بعضها بعضاً في طرابلس  
؟

" نعم إنهم كلاب تافهون والكل مهزومون ."

اختفى بريق عينيه كيف له أن يبتسم والمصائب لا تأتي إلاحزمة. تذكر ما  
قاله المحقق، إنه أسير أقوالهم، أبلغوه إنه الوحيد من السجناء القدام الذي سيظل  
في المعتقل، علق بهمس:

- فعلوها أبناء ال..

في الصباح ظهر التعب على وجهه، رفض تناول الطعام، وعندما امتنع  
الجميع عن تناوله، اقترب وأكل بعض اللقيمات، نظر إلى وجوه رفاقه، الفرح في  
قلوبهم غير قادرين على إعلانه، قال :

- سنحتفل .

- سنحتفل وأنت لن تخرج معنا!

السجون بحاجة إلى قائد مثلي، إن فرحتي لا تقدر أيها الرفاق والأخوة، أقسم  
إننا سنحتفل، كم نفرح عندما يخرج واحد إلى الحياة العادية ويتحرر من الأسر ...  
فكيف إذا كان الخارجون أنتم جميعاً .

بكي الجميع وحزنوا من كل قلبهم، مازالت كلماته تلاحقهم :

- عيب ماذا تفعلون، هل أنتم صغار؟ إذا لم نفرح الآن فأنتم لا تقدرون  
مشاعري!

غنوا ورقصوا وتناولوا وجبة طعام والكمية المتبقية من الفواكه .

نظر إلى جدران السجن وإلى غرفه " آه كم نحن أصدقاء، لقد مضت فترة  
طويلة منذ الثامن والعشرين من تشرين الأول عام ثمانية وستين إلى الشهر  
الخامس من عام خمسة وثمانين، سبعة عشر عاماً من العلاقة الحميمة، كل  
سنتمتر تفحصته أكثر من مئات المرات ....

أنت أيها السجن، هل ستحولني إلى جدار أم إلى طاقة؟ وهلة ستذكروني  
بالخير؟ أم أنهم سلبوا منك الذاكرة وكل شيء جميل! نحن أصدقاء لم تملني على

الرغم من طول الإقامة، عقدنا علاقات وثيقة هي أشد متانة من علاقتي مع أمي و أبي وأخوتي، أرى جدرانك تهتز طرباً وتبرق لأقل ضوء قادم من الخارج، إنك مثلي تفرح لمرور غيمة فوقك وتضحك ملء شديك عندما يهطل المطر غزيراً، تفرح رائحة الزهور وينهض أدون برفقة عشتار التي يمل صحبتها عطرت أنفه شم رائحة الأنوثة، قوام منتصب وجه إلهة رائعة، لا شيء يوحي بتعبها سوى ترحح قدميها، أسمع نحيب جدرانك في الليالي الباردة وفي الصقيع، وفي الخماسين قفقد صوابك، لكنك لا تقدم سوى القيد، ماذا لو تعاوناً معاً وانحنيت تواضعاً، الجدار العالي يرد الشمس والنسمة، فإذا لم تقدر على هدمه تساعدني على فتح كوة للبريد والنور. لم تحرك ساكناً، هذا لأنك قاس وعنيدي لا يعرف قلبك الرحمة، تملك غرفاً صغيرة جداً لشخص واحد. أعددت واحدة لصاحبك رداً من الزمن، أهذا ما فكرت به من أجلي، ليست هذه آخر كلماتي، في الغد وفي كل وقت لنا لقاء، فهل هناك غيرنا " .

ها قد مر عام وهو وقت كاف لتغيير نمط الحياة، فهاهو يتحول إلى عقد صداقة قوية مع الرسائل، تطل وجوه الرفاق والأخوة فتحملهم السطور، ابتساماتهم، كل الماضي بأفراحه وأتراحه، تساءل على من يرد أولاً :

تحية رفاقية وبعد، تلقيت رسائل عدم منك ومن بعض الأصدقاء وقد أرسلت ردوداً عليها جميعاً ،غير أنني لست متأكداً من وصول الرد، بعد أن تكررت إعادة الرسائل بعد ثلاثة أشهر .

الرفيق الغالي:

لم أعود الكتابة إليك، ما عدا مرة واحدة كانت من السجن للسجن، طبعاً تسرني الكتابة إليك وأنت خارج الأسر، كان بودي أن نتراسل من مكان آخر وفي أحسن الأطوال أن نلتقي معاً ونستفيد من الذكريات، علماً أن وجوهكم ستذكرني بكل مآسي الأسر وعذاباته، على صعيد صحي الجسدية فهي جيدة نسبياً، ولكن الوضع الصحي لم يعد هو المعيار الأساس للصمود الذاتي، فالوضع النفسي أصبح هو المعيار الأول، وعلى هذا الصعيد فالراحة النفسية شبه معدومة، أحياناً تكون مئة بالمئة عندما أتلقى رسائل، وعندما تصلني أخبار عن التبادل أو عن محادثات لتوحيد المنظمة أو تصاعد الأعمال .... ويبدو أن معادلة صمودي تزداد تعقيداً يوماً عن يوم، وتتزايد العناصر المكونة خاصة بعد عزلي عن إخواني ورفاقي وإرغامي على العيش بين المدنيين الجنائين، كنت أود العيش بين أناس هم جزء من كياني ومقومات شخصيتي دونهم تغدو الحياة عبثاً، إنهم بالنسبة لي

الصف الأول من القرابة الشاملة، التي تتعدى روابط الدم والعرق. إن حنينكم إلى الأيام القاسية قد يكون مستوعباً لأنها تذكركم بأعز وأحب الأصدقاء، لكنه سيتبدد عندما تدركون عمق المعاناة التي يمر بها إخواننا ورفاقنا جيل ما بعد التبادل في معسكرات الاعتقال، إن هذه المعاناة لا تبعث على المتعة لأن ضحاياها شباب، تتقصهم التجربة ويواجهون عدواً مسلحاً بتجربة مريرة وواسعة في القمع والتنكيل، وإذا قدرت لنا الظروف وتحررنا سيكون لنا حديث عن ذلك.

الرفيق الحبيب :

مختصر الحديث أن شعبنا يعاني على مستوى طبقاته وفئاته وفي كافة أماكن تواجده، غير أننا لن نسمح للحقد الصهيوني أن يخلق بيننا هتلاً جديداً، ولن نسمح له أن يحرفنا عن القوانين العلمية للحركة، إننا سنحارب الصهيونية بالوسائل التي تخدم أهدافنا الطبقيّة الإنسانيّة، وسوف نتألم في الوقت نفسه للمآسي التي تسببها حربهم العدوانية ليس فقط لشعبنا وللشعوب العربية وإنما لليهود أنفسهم .

الصديق حسان :

مهما وصفت الحياة خارج الأسر بأنها روتينية ومملة، فلن تقنعني بأن الحياة خارج الأسر ليست رائعة، يكفي متعة مشاهدة الأحداث أمامنا والمساهمة بصناعتها، يكفي أن الواقع الخارجي يخضع لقوانين الحركة والتطور ويحمل في طياته كل يوم جديداً ... على كل مهما كان شعوركم فلن ألومكم، فلقد تعبتم ويحق لكم الاستمتاع ليس فقط بالراحة الجسدية وإنما النفسية أيضاً .

الرفيق العزيز :

الحياة بين الجنائيين في سجن الرملة ليست سيئة لإنسان مثلي فهم قوانين الظواهر والتكيف، فيها بعض الفائدة ولكننا نحن الماركسيين نؤمن بالجماعة، الجماعة تربي حسبما علمنا "ماكرنكو"، ولذلك فإن الحياة الفردية مهما كانت ايجابياتها لا تشكل بديلاً عن الحياة الجماعية في السجون الأمنية. أدرس ليلاً دروساً باللغة الانجليزية والفرنسية، غالباً استيقظ باكراً مع العد الصباحي، أمارس الرياضة وبعد ذلك أقوم بالتنظيف حتى العاشرة. في المساء أشاهد التلفزيون " الإسرائيلي" أحياناً أشارك في ندوات الثقافية يشارك فيها مساجين عرب ويهود خاصة عندما يكون الموضوع جديراً بالاهتمام. إن الأمنيين بحكم وجودهم أقلية في سجن مدني ملزمون بإقامة علاقات معهم .

أخيراً قد تكون هذه الرسالة موجهة لشخصك الحبيب، ولكنها في الحقيقة موجهة لكل الأخوة والرفاق المحررين الذين هم الأهل و الأصدقاء، تحية لكم جميعاً دون ذكر أسمائهم لأن عدم تحديدها لن ينسيني واحداً منكم. أنتم في القلب، لن أقول وداعاً ولكن إلى اللقاء .

1986-7-31

## - الفصل الحادي والعشرون -

بدأت تظهر قضايا مهمة لم يكن محسباً حسابها من قبل، قضايا التحقيقات ضد بعض المتهمين بالتعامل مع العدو، حيث يضطرون للاستفسار عنهم ومراقبتهم وسؤال القيادة عن أمور معينة يدعيها بعضهم.

ولهذا حرص بعض القادة في كل سجن على توفير كوادر قادرة على القيام بممارسات مفيدة للأمن الوطني، وقد تعزز هذا الاتجاه بعد تنفيذ حكم الأعدام بعدد من الجواسيس، كما بات ملحاً التحقيق مع كل عميل تكتمل مبررات اتهامه وملفه الأمني، وقد كشفت هذه التحقيقات أموراً هامة كثيرة، كما أن التعاون بين الرفاق في المعتقلات أدى إلى ارتفاع درجة الانضباط والصمود وانخفاض حالات التساقت خاصة بين الأشبال، ولهذا عكف عمر القاسم على تأليف كراس أمني ضمنه حالات عديدة، تحدث عنها بإسهاب بعد أن قسم درجات العمالة إلى أربع، فكان هذا المخطوط في نحو سبعين صفحة من القطع الكبير بعنوان " ماذا بعد الأمن الداخلي؟"

كل سجين يدخل المعتقل يكتب تقريراً عن نفسه وكل ما يعرفه ووضعه التنظيمي وعمله قبل السجن، يبقى هذا محفوظاً في مكان سري لدى اللجنة الأمنية لتنظيمه، التي لديها ما يشبه أرشيف المعلومات، وغالباً ما يكون عناصر اللجنة الأمنية غير معروفين لدرجة أن كل واحد عليه أن يعي مسؤولية ما يتلفظ به، حتى مواقفه وتعليقاته محسوبة عليه .

أقل درجات العمالة الاعتقال لتغطية عمالته أو بقصد مهمة محددة من ثلاثة أشهر إلى ستة، وغالباً ما يكون صاحبها معروفاً في السجن بتورطه، يقضي مدة اعتقاله منعزلاً، لا أحد يتعامل معه، يخرج بعد هذه المدة ليثبت وطنيته وليأخذ دوره في الحياة، حتى لا يزايد عليه أحد، وهناك من ينهار أثناء التحقيق، يعطي معلومات صحيحة عن رفاقه، يستمر في إيصالها مقابل وعود رخيصة.

أما الأخطر فهو الشخص الصلب أثناء التحقيق الذي لم يعترف، لكن وتحت

ظروف السجن تهتز شخصيته فيتعامل مع العدو على مبدأ بقدر المعلومات وأهميتها يخفضون سجنه فيصير أعبوه في أيديهم، كل هؤلاء تعتبر عمالتهم مصلحية، لا تضر ضرراً كاملاً بالمواطنين، ولا تؤدي إلى تنفيذ عمليات تؤدي إلى الموت أو العاهات والأضرار المزمدة كما في العميل رقم واحد، الذي يقوم بعمل يؤدي أبناء شعبه مباشرة كما فعل عدنان فحمأوي الذي وضع مادة في مياه جنين أدت إلى العقم لأكثر من ثمانين فتاة، ثبت ذلك بعد فحصهن.

أدخلوه سجن نابلس ليمضي عقوبة لا تتجاوز ستة أشهر، اكتشفوه هناك، الأسئلة تلاحقه والعيون تنتهمه، حققوا معه داخل المعتقل، اعترف، لكنهم قبل أن ينفذوا حكم الإعدام هرب إلى غرفة العار وطلب حماية إدارة السجن التي نقلته إلى الرملة. عُم على السجن اسمه وجرمه والحكم الصادر بحقه.

ظهر في المعبار وحيداً، الحزن حول عينيه شريط أسود، ابتلع النهار آخر الخطوط، وترك مهمة تكحيلها لليل، هرب المرح من حياته، تحاشى نظرات السجناء، شعر بضيق بحاجة إلى هواء، العرق يتقاطر من أعلى جبينه، ذاو كغصن أبعدوه عن الشجرة وجهه شاحب كقشرة ليمون داستها الأرجل .

التقوا به وعرفوه ولكنهم تجاهلوا وجوده، أشاح بوجهه بعيداً وجلس في الزاوية واضعاً يده على خده حركة الناس داخل المعبار نشطة، السجناء المنقولون إلى سجن آخر أو المرسلون إلى المحاكمات يمرون عبره. يتجمع السجناء على شكل حلقات يتناقشون يتحدثون عن ظروف اعتقالهم ويتعارفون. عدد من الطلاب المعتقلين حديثاً عرفوا عمر القاسم، نادوا بعضهم بعضاً وتحلقوا حوله، بدؤوا حديثاً مطولاً، ذكروه بالتدريس في العمرية ... بيت صافا ... جنين .... ولم يتركوه وجدوها فرصة ليستمعوا من أستاذهم عن السجن والحياة والتنظيم والإصرار على النصر، أخذ الحديث جوانب عدة من زوايا لم تكن معروفة بعد. أحدهم أخبره بأن هاجم الدريس التحق بأحد فروع الأمن وعنده سيارة حديثه، سأل عنك وأقسم أن يذلك ويودعك السجن، لم يجيبهم بل قال:

- سامحه الله !

جدران المعبار الصفراء تزداد قتامة يوماً بعد آخر، عليها سجلت عشرات الأسماء وتاريخ الاعتقال والتوقيع .

رسالة إلى أمي:

" إلى التي أفنت حياتها وهي تقول: الله يوفقك يا بني .

كلماتك سلاح تعطيني الصبر، وجهك ملاذي وقبلتي، كم أنت جميلة ورائعة!  
وكم أنا بحاجة إلى كلمة منك! فهل سأراك بعد يا أغلى ما في الوجود"

التوقيع زياد حاج محمد

" إلى القادة الذين دفعونا إلى العملية وأصدروا بلاغهم، وإنها ثورة حتى  
النصر "

نور خالد أحمد

" ثورة حتى التحرير وبجانبها انفراج إصبعين والحروف التالية P. L. o.

كارم شريف

إلى معلمي عمر القاسم :

" لا أقول إنك خُدت حين دخلت العملية، كان لابد من ذلك لأنك وطني "

الطالب عصام سمير عيسى

أمسك القلم وكتب تحتها :

" إلى طلابي وأبناء شعبي:

السجن لا يعرف لون الشمس ولا طعمها ولا رائحتها، فإن شئناً أن نتحدى  
الجدران العالية فعلياً أن نصنع شمسنا التي تشع في داخلنا، تفتح ذاتنا التواقة إلى  
الحياة .

صمودنا وقرارنا يولد فينا الأمل، وهذه كلها قنوات تصب في جدول الانتصار  
الذي نحلم به، والذي عليكم أن تحققوه "

عمر محمد محمود القاسم

مسح دمعين سقطنا وقال في نفسه: " هل خُدت حقاً، لقد حلمت أمني أن  
جماعة دفعوني إلى بئر عميقة، كنت كلما مددت يدي، رفضوا الإمساك بها  
ورشقوها بالحجارة ."

يومها بخرت البيت وذبحت ثلاث أدياك ودعت النسوة إلى مولد، وعندما  
سألته لم؟ أجابت:

- من أجلك يا نور عيني حتى يرد الله عنك الأذى !

أعطتني كمية من النقود المعدنية، خرجت إلى الحارة وأعطيت رفاقي بعض

الحلوى التي اشتريتها وركضنا في الأزقة القديمة متوغلين شمالاً حتى أقصى مكان في المدينة.

تأمل بقية العبارات والتواقيع. توقف عند عبارة " السجن شيء مؤلم دفعونا إليه ...." اهتز جسده وبدا عليه الانفعال، تحاشى رفيقاه الحديث معه، تركوه لحزنه إذ عندما يكون متضامياً يحتاج إلى كمية هواء كبيرة لا يوفرها السجن. يتحول أشبه مايكون ببالون يكاد ينفجر لأقل نفخة. تغيّر شكله وقطب جبينه، حرك يده وقال لهما:

اقرأ هذه العبارة التي لم يكتبها إلا سجين عانى من المأساة خارج الأسوار وداخل المعتقل، فقد أمله بحاضره وقيادته، وعندما يتوصل المعتقل لهذه المعادلة يتحول إلى برميل بارود ينفجر ببطء على مدار سنوات طويلة، لا أحد يشعر به سواه من الداخل .

تمنى أن يعرف الذي كتبها لبيته الأمل ويأخذ جزءاً من عذابه، سيقول به، نحن نناضل من أجل حياة أفضل ووطن بلا احتلال، حياة ينتفي فيها القهر. جاؤوا بعدنان الفحماوي .

استجوبه وهدده بالقتل، غطى الرفاق مسألة استدعائه بنشاطهم المتواصل داخل المعبار ، سأله:

- من أي تنظيم، ومع أي مخابرات تعاملت؟

- من التنظيم الذي لا يولي المسألة الأمنية أية أهمية، لم أتعامل مع المخابرات ولم اتجسس! قال ذلك ووجهه تجاه الأرض، لم يعترف سوى عن اسم تنظيمه، عندها واجهه بأقواله في سجن نابلس، ووضع يده في خناقه، تظاهر بالاختناق وحاول الفرار، لكنه لم يفلح فقد ردوه قبل أن يغادر، تظاهر بالمرض، حاول الصراخ فهددوه بالقتل. رفع الفحماوي يده اليمنى وقال :

- اشهدوا إنها التوبة !

توالت المطالبة بالاعتراف وبعدها القرار، وكان اعترافه كالصاعقة، إنه تجسس لصالح تنظيمه ولصالح الأردن وإسرائيل. كل واحدة من الثلاث جندته بشكل مستقل ومنفصل، علماً بأن الموساد عرفت كل شيء عنه ووجهته كما أرادت. قال عمر :

- لا توبة لخائن، هيا نفذوا الحكم الذي أصدره الرفاق في سجن نابلس .



لم يتركوه إلا جثة هامدة رموها عند الباب، حانت منه التفاتة وهم ينقلونها إلى الخارج. غطى أنفه الرائحة الكريهة غطت المكان. وجوه السجناء غريبة وكئيبة واصرار لدى الإدارة على الانتقام. سمع أحدهم يقول، بأنهم مجرمون الأولى بقيادتنا رميهم في البحر فسمك المتوسط وطبيرا بحاجة إلى غذاء. لم يسمع بقية التعليقات لكنه خمن ما يقولون، وجوههم التي كساها السواد، تنبئ بما سيفعلونه، جاء من شدة خارج الغرفة بعصبية وهو يردد كلمات " فعلتها أيها الوقح، أيها المخرب ستال جزاءك، هيا إلى الإدارة " في هذه اللحظة بالذات أعلن كل من في المهجع تضامنهم معه وإضرابهم. عندها بدأت سلطات السجن تعيد حساباتها من جديد .

أينما ذهب فسلطات السجن تعيد حساباتها ألف مرة قبل أن تتصرف، خطط وهو في عسقلان لإضراب ستة وثمانين. مر في طريقه إلى " اشكلون " بعدد من القرى التي سمع بأسمائها، بينما كان البحر صديقه طوال فترة السفر، هذه من المرات القليلة التي نقلوه دون غطاء على عينيه، شيء مذهل تلك الرحلة، البحر صورة صافية يعرض عريه وأثوثه كفتاة عذارى تلقي بجسدها على الشاطئ، تحس بالدفء فيصير جسدها أكثر لدانة، تزحف محركة وسطها دافعة رأسها إلى الوراء، فإذا بها ثانية في الماء المالح، تتذكر خصوبتها وفوتوتها فتسير مع المد في حركة لولبية لا تنتهي، خطر له هذا المنظر حين رأى ذاك الوجه الصافي الذي يتسع للكون ومنظر الذين ينتظرون غياب الشمس. يقولون بأن النسوة اللاتي يرمين بأجسادهن يهين جزءاً من خصوبتهن إليه وهو يعطينهن الحضان الذي يحقق متعتهن، في أول أربعماء من نيسان ينتظرن لحظة الغروب ليسبحن أما التي تظل على الشاطئ فتبهج عينها بذاك المنظر الجميل، لحظة يهوي القرص في الماء ولحظة ابتلاعه لجرعة منه يتراقص مع لمعان وتراقص آخر لحظة من النهار وبريق الأجساد العاجية المتماوجة.

البحر ذاك الجسد الذي ظنوه غافياً يتمدد ويرفع يديه محتضناً ما بداخله دافعاً الرمال بقدميه، فيشعر بنشوة غريبة، يفرك عينيه، يفيق ليقبل أجساد العذارى واحدة واحدة ويضع في أرحامهن شيئاً من ملوحته، فيبدو و بحركته الجنسية، أشبه بجنية عصية على الموت قادرة على التلقيح. تأخذ العتمة شيئاً من هيئته وسكونه، ترتفع إلى الأعلى فيشعر الناس بدخول الليل، لكنها ظلمة تضيئها الأجساد، في حين يتحول العالم إلى ماء وسماء. أما الشمس فكانت مستلقية على ظهرها تتقلب تارة يميناً وتارة يساراً، تاركة نارها الحمراء تشتعل في رمال عسقلان، الهواء يسخن الجو يحمل معه الغبار والعجاج، بينما السماء قبة نهد يستحم بحرارة حلمته.

ذكره البحر بماضيه في متوسط اللاذقية وأرواد وفي الزبداني والريوة وشوارح دمشق، ذكره لكل ذلك وغيره بينما السيارة الزنزانة تشق طريقها ببطء إلى الجنوب، تصور أنه منتزه قريب من البحر إذ قورن بنفحة خاصة بعد نجاح إضراب السبعين.

عروة وفتشوه قبل أن يسلموه لباس السجن، أدخلوه الغرفة رقم خمسة وأغلقوا الباب، نظر إلى السجناء لم يتذكر أنه رأى واحداً منهم، سلم وقفوا وأحاطوا به. شبان أعمارهم في العشرينات باستثناء أبي ديب في الخمسين من عمره اتهم بإيواء ابن خاله مازن العابد، الذي جاء مبعوثاً من والده ثم تكرر مجيئه... ذات مرة صارحه بأنه سيقوم بعمليات ضد إسرائيل ويعود عبر مخاضات الأردن.

اصطدم بإحدى الدوريات وهو في طريق عودته، جرح وقبض عليه فاعترف أنه اتصل بابن عمته فأحيل إلى عسقلان .

أما أبو ديب فقد دافع عن نفسه بادعائه أنه ضيفه إضافة إلى القري، ولا يستطيع إلا إستقباله. وعندما سألوه عن المعلومات التي نقلها إليه، أنكر ونفى أنه تجسس أو قبض أي مبلغ... أجاب :

- الإنسان عندما يكرم ضيفه لا ينتظر مقابلاً، أنسيتم أننا مازلنا محافظين على عاداتنا على الرغم من احتلالكم!

سألوه عن الأمن ولماذا لم يبلغ عنه؟ أجاب:

- هذا اختصاصكم أنا غير موظف عندكم، هناك عاقل يبلغ عن ضيفه!؟

نظر إلى وجوههم فتأكد أنه لا يعرفهم وربما لا يعرفونه، فعرف نفسه "

- أنا عمر القاسم يسعدني أن أكون معكم .

وقف الجميع عند سماع اسمه واقتربوا منه، نظروا إلى وجوههم وابتسموا، ضج المهجع بالمرح وبدؤوا يقبلونه ويهللون والفرحة تغمرهم. قال أبو ديب فرحاً:

-أننا محظوظون بوجودك يا رفيق!

أحاطوا به وبدأ كل واحد يحكي قصته، ثم أخذ يجيب عن أسئلة حول عملية التبادل والسجون التي مر بها خلال ثمانية عشر عاماً. حدثهم عن إضراب عسقلان وإضراب نفحة وعن حياته في سجن رام الله وبئر السبع والرملة والصرفند ..... وعن أهمية التنسيق والتعاون. قال مروان الساحر ابن الخليل:

- المؤسف انعدام التنسيق، المنطقة التي كنت أدخلها وأوصل إليها السلاح

أمنة والطرق أعرفها، خبرتها خلال أكثر من عشرين مرة ذهاباً وإياباً. صرت أعرف حجارتها وطرقها الترابية. اصطدمنا مع دورية صديقة، أطلقوا علينا النار، فطوق العدو المكان ..... رفيقاي استطاعا الانسحاب، في حين قبضوا على الدورية التي اشتبكت معها وعليّ، كان الأمر مضحكاً ومخجلاً حين أعلن التنظيمات عن تلك العملية وعددوا خسائر العدو المادية والمعنوية.

بعد ستة أشهر علم أن رفيقيه اجتازا الحدود بسلام. وعادا إلى قاعدتهما في المنفى حيث المركزية والأوامر التي تنفذ دون تخطيط صحيح. الداخل والخارج صوتان غير متجانسين، الذين في السجن يرفعون أصواتهم يصرخون ترد القيادة بذبذبة أخرى. بصرخة لا علاقة لها بالواقع، هي فوق الواقع أو تحته، تنتظى إلى ألف جملة وكلمة غير مفهومة.

كلهم محتفون بعمر القاسم إلا محمد زين العماش الذي يتوجع من أسنانه ومعدته مع أنه طبيب جراح، يتألم للطريقة التي اعتقل بها، أخذوه من الشارع، اتهموه بالاشتراك بالتظاهر، لم يندم إلا لأنه لم يكن ب المظاهرة، أشار أبو ديب بيده إليه وهو يتحدث عن قصته. بدأ عمر يهتم به ويدفعه للتكيف مع وضعه. عرف أن خطيبته تنتظره وهو يجلبها بجنون، يهذي باسمها ويعيش معها معظم وقته يبتعد عن رفاقه ليهيم بعالم حبيبته وداد السكري شاركته التجارب والأبحاث والدروس العملية والعمليات. ناقشها في الزواج المتكافئ، وعندما اقتنعا بأنهما مناسبان أحدهما للآخر خطبها وقرأ الفاتحة مع والدها، وقبل أن يلقوا القبض عليه اتفقا على الزواج بعد عيد الأضحى، قبل شهر من موعد دخل عسقلان .

يسلم النهار رايته وقيثارته لغول يفيض بكارة الشمس، فيعم السواد على عالمه، يأتيه الخوف، ذاك الذي لا شكل هندسي له، يأتي ضيفاً على الصدر فيبدو أصغر من حجمه الطبيعي، تذكر الشوارع التي اكتوت بالنيران وواجهة المحلات المغلقة في ذلك اليوم المشؤوم .

قال له المحقق: معتقل وتبتسم، اعترف لماذا أنت مسرور !

- أنا لم أفعل شيئاً. مسرور لأنك يتفرج عني.

-أفرج عنك يا بن العاهرة الذي مثلك يبكي على نفسه، سترى ما نحن

فاعلون !

من حظتها غادرتة الابتسامة وعاش منزوياً، مرت به لحظات العشق، تساءل، ماذا تفعل وداد الآن؟ ربما تستحم بساقية عينيها على دورة الزمن وغدره.

تفتح المضختين فتدفعان ما بقي من مياه النبع .

- أحبك يا وداد !

تبتسم وتلوذ خجولة بكتبها، تنظر إليه وتتحاش الرد.

- لماذا لا تردي، نفسي أن تقوليها !

- آه منك يا محمد، أتريد الكلمة أم الأحاسيس؟ دعني أحبك دون بوح، ودعني أتعذب فربما أنا أحب ذلك! ألا تكفيك ابتسامتي، هل تظن أن هناك فتاة تسكت إذا سمعت كلمة أحبك، إذا لم تبادلها الشعور ذاته، ستقلب عليه الدنيا وتفضحه وتشتكيه، هل فعلت بك ذلك؟ لماذا لا تجيب؟ آه منك يا معذبي!

مازال يحفظ كلماتها ودقائق تفاصيل وجهها وجمالها ومشيتها وابتسامتها. كانت تشعل فيه نار الشوق للقاء، كما تشعل الأزهار شوق الشجرة للثمرة، فلا يغيب عنها طويلاً، يعود ليخبرها أنه غير قادر على البعد ولو ليوم واحد، عنياه جمرتان، يسهر ليله يناجيه.

سهروا حتى الثانية صباحاً ثم ناموا، لكن عمر لم ينم وكأنه سجين لأول مرة. مرت الساعات الباقية لإشراق الشمس طويلة وثقيله. سلى ذاته ببعض الذكريات الجميلة التي تعود إليها كلما ازدادت الحياة قتامة. نبهته وصال إلى عدم اهتمامه بنفسه، يقرأ بشرهة أشبه بأقول أقبل على مائدة عامرة، طالبته أن يرحم جسمه، ضحكت وهي تحدثه، ثم جلست قبالته تتأمل عينيه الزرقاوين، عندها كلام كثير لم تقله، بلعته وقالته بنظراتها الساحرة. أجابها وهو يدقق النظر إلى شفيتها وابتسامتها الرائعة:

- حتى القراءة تغارين منها، آه منك أيتها الغازية لذة أحلامي، الداخلة بيني وبين ذاتي، ليتني أتسلل إلى أحلامك وأشعل سراج عينيك ونسهر، فمن لا تهزه يد شامية، لا تهزه أقوى العواصف والعواطف. تطالبيني أن أصير كالآخرين، سأشكوك إلى أمك .

- إذن وصلت إلى حقلك !

ضحكت ثم تابعت :

- آه لو سمعتك ماما لطار صوابها! لو سمعت غزلك لأمطرتني سيلاً من النصائح. " يا مو البننت إذا لم تتزوج غنياً تمضي حياتها باحثة عن المال، أما إذا كان المال بين يديها كالماء، ستبحث عن دروب السعادة الحققة، يامو الفلسطيني

ماذا يملك حتى تتزوجيه "

- أمك يا حبيبتي إنسانة عظيمة تبحث عن سعادتك بمفهومها، وهنا يأتي دورك، عليك أن تطلق ألف زغرودة وتقول بآن السعادة ليست نقوداً، والتي تملكه تراه شيئاً تافهاً وتبحث عن سعادتها بعيداً عنه.

وزعت السماء شيئاً من غيومها البيض، في حين هبت نسمة باردة جداً من الشمال، البرودة تلسع الوجه والأذنين، فرك يديه ثم خبأهما في جيوبه، يريد استرجار الفء لكنه لم يحصل عليه، ركض وأخذ بيده كمية من الثلج وقذفها تناولت كمية رصتها بيديها وردت على ضربته. ركضت ووقعت على الثلج، مد يده شدته فوقها، كل شيء فيها ندي. أنهضها وسارا على الطرف الأيمن من شارع بيروت المتجه إلى دمر، وصلا الربوة دخلا طريقاً تريباً موحلاً إلى جانبه بيوت متناثرة، خافت زررت قميصها ورفعت كنزتها لتحمي رقبتها. تسلفت قطرات الماء إلى جسدها. شعرت بالبرودة كادت يداها تتيبسان. أوقفت سيارة أجرة واندفعت داخلها، صعد إلى جانب السائق، ظل ملتفتاً إلى الخلف يحدثها، لكنها لم تكن مسرورة، البرد غزا مفاصلها وعظامها، انكشمت أشبه بقطة تبلت، ارتخي جسدها فأسندت رأسها إلى الخلف. نزلت عند مدخل البناية، شدته لينزل. صعدا وبعد أن فتحت الباب أحست بحالة انحطاط، ارتمت على الاركة في الصالون، فتحت عينيها وحاولت الابتسام لم تقدر. زاغ بصرها، الأشكال تبدو أكثر رخواة، أغمضت عينيها لتحفظ بشيء من التوازن. أسرعت إلى المغسلة وضعت إصبعها في فمها وتقبأت. قبل ستة أيام ذهبا إلى الزيداني تزلجا ولعباً طويلاً، كادت رجلها تتكسر، عادت وهي مليئة بالحرارة والحيوية قادرة أن تستمر باللعب ساعات طويلة ولم تشعر بالتعب والدوخة، بل كانت رشيقة بشكل لا يصدق. قالت تخاطبه:

- أيام الثلج في بلادنا تنتهي بسرعة وقد لا تأتي في بعض السنين. هيا نتسابق ونتراشق، غداً سنتمنى نسمة باردة في آب وسنذكر هذا اليوم وغيره ونحن نتحسر على هذه الأيام.

نسي تلك الأيام التي تأتيه كومضات. ألف بعد طول وقت طباع الرفاق وعرف قصههم، سعى لتنظيم الوقت والنقاش والسعي لحياة أفضل داخل السجن. إن ما أعطته سلطات السجن بعد إضراب الثمانين أخذته بعد تفريغ السجن من الرعيل المجرب نتيجة عملية التبادل التي حدثت العام الماضي وإهمال تجربة الاعتقال الماضية، كأنهم بدؤوا من نقطة الصفر دون الأخذ بالاعتبار المرحلة التي وصل إليها نضال الحركة الأسيرة خاصة التخطيط الشامل للنضالات

الاستراتيجية التي تستهدف المطالب للجميع ...

لخص المطالب برفض سياسة العمل المنتج وصيانة الأمن الداخلي والاجتماعي وإصلاح الذين لم يصمدوا أثناء التحقيق، وتحسين الطعام وظروف الزيارة ومدتها، سألهم عن المذيع والكتب والكراسات والأوراق ...

فقالوا ممنوع.. كل شيء ممنوع ولا أحد يطالب بتحسينها. سأل :

- ما الحل ؟

أجابوا :

- عندك

كل يوم يقعدون مساء متحلقين مستمعين إليه، اقترح أن يكون أبو ديب المسؤول عن التنسيق داخل الغرفة ومع باقي الغرف، قال أبو ديب:

- أنا موافق، لكن لا أحد غيرك يمثل الأسرى ويتحدث باسمهم. من يوافقني.

صاح الجميع: كلنا موافقون .

ابتسم وشكرهم على تقنيهم، بدأ يلتقي في الفورة مع بعض الكوادر من الغرف الأخرى، سمت كل غرفة مندوبها، اجتمع المندوبون واقترحوا بأن يكون ممثلهم، نال هذا الاقتراح موافقة الجميع.

سمع قصص التحقيق والأساليب المستخدمة التي تعتمد على تراكم الكم الهائل من المعلومات وتوظيف صور الطائرات، وتحديد القواعد وحركتها ... عاد إلى ذاته وسألها إن كان السجين الذي لا يملك خبرة قادراً على ترتيب أفكاره والإدلاء بمعلومات هامشية وينكر ما هو منسوب إليه ؟

عليه أن يقول لا فالأجهزة لاتملك سوى ما تستجره منه ذاته، حيث يقومون بدراسة التحقيق الأولي دراسة نفسية فيتم تسليط الضوء على موضوع معين، وهكذا في كل مرة حتى يجد الأسير نفسه قد أدلى على دفعات بكل ما عنده دون أن يدري. ما الذي يفعله عندما يعلق في الفضاء مرفوعاً عن الأرض، يداه تكادان تتفصلان من المفصل. في البداية يصر على الصمود، يشعر بدوار خفيف يزداد بالتدرج، فيتحول مسرح أفكاره إلى مطارق تدق في رأسه، يترنج وجسده صلب أشبه بالمشنوقين الذين رأهم معلقين في عمان وفي دمشق. عندها وصف الحياة بأنها قبيحة، تذكر العدالة المفقودة. أكثر من مرة شك بالجرم المكتوب على الصدر، ربما اعترف من الضرب ومثل الجريمة كما أوحى له الأسئلة كأنه

ارتكبتها ليتخلص من نار التعذيب، مادامت القاعدة العرفية تقول " بأن المتهم مدان حتى ولو لم يقيم بالعمل، لن يجرؤ على تبرئة نفسه لوالتهم أوراق المصحف أو أثبت عكس ذلك ". باع الحياة بقشرة بصلية، المصير المحتوم جعله قوياً لا يتراجع، بصق عليهم عندما علقوه وعذبوه، قالوا له " ستموت هنا في المعتقل " كان يعلم أن للتعذيب نهاية. فقد علموه في حركة القوميين العرب أن يجب بقدر السؤال كيلا يسمح للمحقق باستخلاص سؤال جديد من إجابته، وتعلم الصرامة والمركزية في التنظيم والتعامل والقواعد الحزبية الداخلية والتي أهمها تنفيذ الأوامر دون نقاش على قاعدة " نفذ ثم اعترض " ورغم أنه لا يميل إلى القوة في التعامل إلا أنها أعطته التحمل.

تذكر أساليبهم الإغماء المتوالية، التي تفقده الزمن، يصحو بعد أن يرشه أحدهم بالماء، يفيق ليجد الزنزانة مملوءة ماءً. هناك أكثر من شبر ماء، لا مصرف لها تتسلل منه. شعر بدوار بات معه الوقوف صعباً، استند إلى الجدار ورمى بثقله على الحائط، اكتشف أن بإمكانه فتح شق صغير تحت الباب، حاول باصبعه، جاهد لكن الأوساخ بدت أكثر قوة من عزيمته، أعاد المحاولة، ابتم حين استطاع فتح ما يقرب من سنتمتر ما بين حديد الباب وأرضيه الزنزانة، المياه غادرت حتى آخر قطرة.

شعر بحاجة إلى النوم. أسند رأسه إلى راحتيه وغفا، جاء من يناديه ويطلب إليه أن يعود إلى الغرفة.

لقد انكشف أمر الإضراب، وسيبدأ مع صباح الغد حتى لا تستخدم الإدارة أساليب التعذيب والترهيب مع بعض الأشبال الذين قد تدفعهم لإفشاله، ردوا بناء على رأي عمر الكلمات التالية " الإضراب منذ الصباح الغد ". في حين ساد جو من الهرج، أمر مدير السجن إنهاء الشغب وإعادة السجناء إلى غرفهم واختصار فترة الفورة، وعدم إخراج الدفعتين الباقيتين، ففي عسقلان اربعمئة خمسون معتقلاً، يخرجون إلى الفورة على ثلاث دفعات متساوية. أمر هايمن كلاً من تريتون وزيتون للسيطرة على السجناء ومنعهم من الشغب وعدم نزول الموظفين وطاقم السجن إلى بيوتهم ووقف الإجازات حتى يتضح ما يبنيته المعتقلون فعله، لم يفلحوا في إعادة الوضع إلى ما كان عليه، أرسلوا مجموعة من الحراس في مقدمتهم عمانوئيل والمرضى يودا، أماموشي بن مؤام فقد أعلن عبر مكبر الصوت أن الإدارة لا تسمع بالشغب، وأن على السجناء العودة إلى غرفهم.

كرر هذا الأمر مرات عدة .... رن جرس الهاتف في مكتبه، تناول السماعة

ورد :

- نعم سيدي، سأفعل ما تأمر .

نادى على تريدانو وزيتون وأبلغهما أوامر حيوت المشددة للمرة الثانية بإنهاء فترة الفورة بأسرع ما يمكن " استخدموا أساليب العنف التي ترونها مناسبة" جمع الشاويشان كل الحراس وهم مدججون بالسلاح، رموا أربع قنابل دخانية وقنبلتين مسيلتين للدموع، وأطلقوا العيارات النارية في الجو وفي الساحة، مما أدى إلى القضاء على حركة الشغب والتمرد، بينما ظلت مظاهر العنف والتحقيقات وإطلاق الرصاص الحي في السماء طوال الليل .

صباحاً رد المعتقلون الطعام وأبلغوا الإدارة عن طريق الحراس الموجودين على أبواب الغرف ومذكرة خطية موجهة إلى مدير السجن تحدد المطالب وبداية الإضراب الذي اطلقوا عليه " انتفاضة المعتقلين عام ستة وثمانين "، عندها أخرج الشاويشان إلى الباحة عدداً من السجناء. نادى تريدانو على عمر وعندما صار في وسط الساحة صدرت ضحكات من الجنود، التفت حوله و أدرك أن أمراً ما يهيئونه، أمره الشاويش بالركوع فرفع رأسه عالياً، أمره ثانية ، عندها رد عليه:

من أنت أيها الوقح الغبي ياسجان النور والمعرفة حتى أركع لك، أنا لم أتعلم ذلك بعد ولن أتعلمه!

- اركع لأنك عندما تفعل ذلك تؤدي جزءاً من الدين الذي عليك أن تؤديه لإسرائيل التي أبقت على حياة أمثالك أيها المخرب الوقح .

- حياتي جزء من حياة شعبي التي لن تنتهي بقرار أو أمر منك .

هجموا عليه، تصدى لهم بالملاكمة فأردى أربعة أرضاً، فما كان من الممرض يودا إلا ضربه على مؤخرة رأسه فوقع على الأرض يسبح بدمائه، حاول السجناء الذين في الباحة الدفاع فما كان من الحراس إلا التصدي وجرح معظمهم. عندها بدؤوا يرقصون ويغنون ويمارسون الضرب على أنغام رقص الفالس.

ظهراً قدموا الطعام فرده السجناء كعادتهم في الصباح، قرر مدير السجن أن يلف على الغرف ويعلن حالة الاستنفار القصوى وإبلاغ مدير السجون المركزية شاؤول ليفي. ألغى مجموعة مواعيد بينها موعده مع لبيبة، أما هايمن فلم يتمكن من إلغاء موعده مع غراسيا، حاول النزول لكن طلبه قوبل بالرفض. غراسيا ستبكي حظها وستدمع عيناها التان لا تتعبان من الدموع، كيف أحببت سجاناً؟ هايمن ليس أكثر من ذلك! سجان وسجين لايملك من إرادته شيئاً ... ستنتظره



وتترقب خطواته وقرع الباب، لكنها عندما تتأكد بأنه يأتيها تبصق على صورته وتقول في نفسها، هذه هي الحياة هنا، حياة لا فرح فيها، حياة بؤس وتشرذم! عندما يأتي ستبرم وجهها، ليعتذر ويقبل يديها وقدميها وهو يحاول استرضاءها قائلاً :

- هذه حياتنا يا حبيبتى، أمرنا ليس بيدنا، حياة لا طعم لها، الفرح فيها هارب، لكن ماذا نفعل ؟

- أنت نائب مدير السجن وتقول هذا، فكيف العنصر العادي، دعنا نغادر إسرائيل الحرية أئمن شيء في الوجود علنا نجدها في بلدكم !

حاول أن يلغي درجة الاستنفار القصوى، لكن حيوت رفض بشدة وأمره بتنفيذ القوانين " أنت عسكري يا هايمن لا تنس ذلك " .

أدى التحية وغادر على مضض، أغلقت الأبواب الخارجية، وبدأ المدير التتكيل بالمضربين. في هذا الوقت، تم إحراق البطانيات، فتراقصت النيران، أقسم حيوت أن ينتقم، اتصل بجهاز الإطفاء المحلي والمركزي، وأبلغ مدير السجن ووزير الداخلية، بعد أربع ساعات جاء شأوول ليفي واجتمع مع عمر القاسم، وأمر بنقل الجرحى إلى مستشفى أسافا هاروفيه في الرملة.

بعد أيام جاء إسحاق نافون فطلب حضوره، بعد دقائق كان يجلسان في غرفة مدير السجن ولا أحد سواهما، قال نافون :

- سيد عمر أنا وأنت من مواليد القدس، ربما أكبرك بعشرين عاماً، فأنا فيها حتى قيل أن يسكنها والدك، نحن أبناء مدينة واحدة ودولة واحدة، وسياسي مثلك يعرف أنني انتمي إلى تجمع المعراخ وعضو في الكنيسة لأربع دورات متتالية السادس والسابع والثامن والتاسع، لا شك في أنك تعرف مكانتي في إسرائيل . أنا أحترمك سيد عمر وأريد أن أصل معك إلى حل يرضينا. أنت كمن في وسط بئر لا الحبل قادر على إنقاذه ولا هو قادر على النزول، لا أريد أن أحدثك عن جماعتك الذين رفضوا إدراج اسمك في قوائم عملية التبادل ولا عن أشياء كثيرة تعرضنا لها، هؤلاء لا يهمهم سوى المناصب وعندما يتضايقون لن يجدوا سوانا لنتفاهم معاً، فدعنا نبدأ الخطوة الأولى، أنت ممثل عنهم وأنا ممثل عن إسرائيل، وإن شئت أن نتحدث كمواطنين لآمانع عندي فأنت مولود في عاصمتنا. أنتم حرقت البطانيات وهذا عمل يتنافى مع الإضراب. أنا سأقف إلى جانبك فقط أطلب منك التفكير بعقل والعودة عن الإضراب والاعتذار عن التخريب الذي قمتم به،

وتتعهد بعدم القيام بأي نشاط سياسي مقابل الإفراج عنك والسماح لك بالإقامة أينما شئت حتى في القدس فهي ترحب بك ... لا تجب فكر، أنت تعرف بأن العمل التخريبي لم يعد يخيفنا، نحن من مبدأ الشفقة نعرض عليك حياتك وعملك، وإن شئت الهجرة نساعدك على ذلك، وأنا شخصياً أتعهد بتكاليفها. أنت مثلنا تدين الإرهاب. إياك أن ترفض عرضنا، ترفض الفرصة الأخيرة لنجاتك!

- يتعبرني السجناء أباً لبعضهم وأخاً لبعضهم الآخر، فإن شئت أن تطلق فسراحنا جميعاً، هل يعقل أن يترك أب أولاده؟ أنا لا أفعلها! وإن وجدت أباً فعلها فهو ليس أنا بالتأكيد. سيد نافون لك منصبك وعرشك ولنا سجوننا، لا تظن أن شخصاً مثلي يمكن أن يساوم إذ لم يعد يهمني مصيري الشخصي. لا تظن أنني لا أحب الحياة والحرية ولا أكره السجون، صدقني لا أحد في العالم يحب الحرية مثلي لكنني لا أساوم!

إن كنت تريد إطلاق سراحي دون مقدمات فأفعل دون شروط، وإن شئت إطلاق سراح غيري فافعل، وإذا لم تفعل فإنك جئت ترى مأسينا وتتشفى وتضحك! إنكم تسجوننا، تعتقلون أجسادنا أما أفكارنا فهي تعيش حياتها حتى داخل سجونكم وهي ميدان شرفنا. حياتي وما تبقى منها أوقات مرهونة للآخرين، تريد إخراجي بعد ما سمعت لا أظنك فاعلاً؟ فأنا لا أنفعل في شيء ولست فرس رهان! عد أيها الرئيس فأنت تستطيع أن تساومني، لكن الشخص الذي أمامك غير قادر على مساومتك، أسألك هل لدي ما أساوم عليه سوى كرامتي وشرفي ولا أظنهما قابلين لذلك!؟

نظر إليه تراجع إلى الخلف وعاد إلى الزنزانة وهو مبتسم، بينما إسحاق نافون ظل ذاهلاً دون أن ينبس ببنت شفه.

[www.alkottob.com](http://www.alkottob.com)

## - الفصل الثاني والعشرون

اقتربت سنة سبع وثمانين من نهايتها، في حين بدأت الغيوم تتحدث بلسانها وقلبها، وما فيهما، يخرج شرراً وطبولاً، المطر ينهمر، ترش به الحقول. الغيوم قطن ونعاج سارحة تتمازج بالأيدي ثم تتفرق.

الرياح تتفخ في قصبه مثقوبة، تعطي الحركة لغمامات تائهة. المزن تتحرك في السماء، أما على الأرض فقد منعت السلطات الإسرائيلية التجول، منعت الغيوم التي ترفع يديها إلى الأعلى من الصياح والهتاف، لا شيء يطاول السماء سوى إطلاق عبارات نارية. ممنوع على الغيوم الكشف عن قلبها والتحدث أو حتى الضحك والتشاجر، تراكضت وتحول البرق والرعد إلى لطح دماء على الشوارع. لا شيء يعلو على مرجها وابتسامتها ولحنها الأزلي.

بضعة أطفال فقدوا في الشوارع ماتوا من الرصاص وبعضهم اختنق نتيجة القنابل المسيلة للدموع، وكما تعانق الغيوم الأفق وأعالي التلال، عانقت الشوارع الأطفال لكن عناقها طال مع بعضهم طال إلى حد منعهم من الحركة ومن التنفس وترك آثاره دماء على مكان العناق .

دبكت الغيوم في الشوارع وهزت خصرها، وارتفع الرعد مدوياً ماداً الخضرة والجمال، وظلت فرحةً بالأمواج التي تنزل إلى الشارع، مدركه أنها الانتفاضة لأن لموجتها روحاً لا تنتهي. هتفوا:

- يسقط الاحتلال، بالروح والدم نفديك يا فلسطين، بالروح بالدم نفديك يا شهيد.

الانتفاضة حياة حرة لا تأتي هي في ذاتنا، فإن كنا غير قادرين على كشفها أمام الشمس الساطعة، سنظل غير قادرين على صنعها وغير جديرين بها ... سنظل بلا لسان، بلا أفق وبلا عقل، كسيحة تجري في الشوارع على غير هدى.

اقترب السجناء منه يحدثونه عن تهمهم ونضالهم، فهذا رامي زيدان الذي قام بإدخال أسلحة إلى مدينة نابلس ورجا السبعوي المتهم بالتسلل والاتصال مع خلية يقودها أبو صبري والتخطيط لعمليات والاتصال بشخصيات وطنية، وإبراهيم الأخرس في السنة الأخيرة لطب الأسنان أعتقل مع ثلاثة كانوا في بيته بحجة تنظيم اجتماعات دون إذن مسبق من سلطات الاحتلال. كلهم في سجن الرملة المدني، يعيشون مع اليهود المجرمين الجنائيين .

في السجن كل شيء متوفر، حتى التلفاز والراديو والمسجلة والفيديو، أدوات النظافة جاهزة الأكل جيد وكأنك وسط بقالية أو " سوبر ماركت " ...ظن بعض السجناء أنه يهودي فلون حدقته و طوله ولكننه أثناء الكلام عوامل شجعتهم على هذا الاعتقاد، سأله فأجابتهم :

- أنا لا أنظر للإنسان من منظار ديني بل من منظار إنساني، أنا من مدينة القدس، ألقى القبض عليّ وأنا في طريقي إلى بيت أهلي في حي الشيخ جراح، مازالوا يعيشون فيه.

" مدينتي خلقها الله أنيقة جميلة لحظة شروق الشمس، مفتوحة لكل الناس، الديانات تتألف وتتعانق لتكون جسداً واحداً. لوحة كتبت تاريخ الأمم وظلت تبتسم رغم الاحتلال، تقول بأنها عصية وتؤكد هذه المقولة باستمرار. مازالت هاجعة في مجمعي بقبابها ومآذنها الرشيفة، شوارعها التي تغذت من أورديتي، وحرارتها الرطبة من باب حطة والعمود حتى حارات الأقليات الواقعة إلى الجنوب والغرب. طرقها مستقيمة وأحياناً متعرجة حسب مسير الأودية وتجاه الجبال التي احتضنت المساكن الفاخرة من وادي الجوز وجبل سوبكس حتى جبل صهيون والمكبر جنوباً، الحي الذي سكنته كان منطقة توسع، إلا أنه الآن ملتحم بالمناطق المجاورة كالجامعة العبرية في الشرق وحي سانهدريا اليهودي في الغرب الذي بني وأنا في السجن "

أصغى السجناء اليهود لحديثه وانقسموا إزاءه إلى فريقين، فريق اعتبره " مخرباً " و آخر اعتبره أماً مادام سجيناً معهم. أما هو فقد أظهر حبه لتعليمهم وتنقيفهم، فإزداد عدد المحبين وقسم دروسه إلى مجموعة مواد هي لغات، مجتمع، سياسة واقتصاد ومعالجة مشاكل. درّس أربع لغات العربية والعبرية والإنجليزية والفرنسية، وبلغ عدد الذين يتعلمون على يده أكثر من عشرين، في حين كان أربعة جنائيين يخططون لضربه وقتله، ذات مساء تحلقوا حوله. كان بيد أحدهم سكين، هجم عليه، كان قاعداً وبحركة من قدمه استطاع أن يلقيه أرضاً، خلصه

من السكنين فلاذ الثلاثة في زاوية الغرفة، تدخل باقي السجناء وأنهو كل شيء دون أن تصل إلى إدارة السجن. ومع ذلك جاء أحد الضباط يطلب المتخاصمين من عرب ويهود، وعندما ما لم يجد له له منفذاً قال كلمته:

جاء أحد الضباط يطلب المتخاصمين من عرب ويهود، وعندما لم يجد له منفذاً قال كلمته:

- اذهبوا فالشيطان بينكم !

صاروا يذهبون إليه كل واحد يريد أن يأخذ دوره في التعليم، والذي لا يحب التعليم يبحث عن الرياضة. عمل فريقي كرة سلة ويد وفريقاً للمصارعة، ومن لا يحب شيئاً من هذا يتأمل شخصيته ويستغرب وجوده بين " المخربين ". خاض نقاشات معهم حول التوراة وأرض الميعاد وحق الشعوب في تقرير مصيرها. شرح لهم عن القوانين التي لا تعرف الخطأ ولا الشواذ وعن الظواهر الموجودة موضوعياً والتي لا تعتمد على إرادتهم ووعيهم.

تدخل عوزي وقال:

- ما الذي عرفنا بذلك لولا وجود الفكر، ما فائدة وجود الكون دوننا؟ الله سخره لنا، لولا وجود الإنسان لما وجدت القوانين!

- يا سيد عوزي الإنسان اكتشف القوانين!

شرح له الأضداد والسبب والنتيجة وإرادة البشرية في تطور العالم.. وعندما وجد نفسه محاصراً لا يستطيع الاستمرار في النقاش، شتمه وطالب مقابلة ضابط الإدارة الذي نقله إلى مدير السجن وهناك أخبره بأن المسمى عمر القاسم يحرض الجميع ويشرح عن العلم والمعرفة ويصفنا بأننا عدوانيون .

- جيد سيد عوزي أنا سأطلب إعفاءكم من تِلْثِي المدة، توكل على الله وأخبرني بكل جديد. أريد أن أراك مرتين في الأسبوع .

استدعى مدير السجن عمر، دخل فسأله وطلب منه أن يجيبه بصراحة.

حدق به عمر القاسم وأجاب:

- هل هذا تحقيق ؟

- إنه حوار ديمقراطي، لا تنس أنك في إسرائيل تستطيع الإدلاء برأيك دون أن يؤثر هذا عليك شيئاً ! في البداية ما رأيك بإسرائيل ؟

- كل ماهو قائم على العدوان والاعتصاب زائل مهما يطل الزمن حتى لو  
أوهم العالم بالديمقراطية وقال بأنه بلد الحريات. المستقبل أت لكن يظل السؤال  
دون إجابة كيف يكون؟ وكيف يكون إنساناً حراً إذا اغتصب حرية الآخرين!

- ربما لأننا لا نجلس معاً ونحل مشاكلنا ؟

- لتفرضوا ما تريدون، إرادة الأقوياء على الضعفاء! كيف نجلس وأنتم  
تفرضون الاعتراف بإنسانيتنا وتغتصبون أرضنا وتسجوننا، مثلاً هل تعيدون  
اللاجئين إلى بيوتهم؟ هل تعطون أهالي الضفة الغربية وقطاع غزة الاستقلال. هل  
... وهل ؟

- سيد عمر أنت تذهب بعيداً، فكر بواقعية ومنطق! هل هناك من يكره أن  
يعامل كإسرائيلي له حقوق وعليه واجبات ؟ أدعوك للعودة إلى ضميرك وتعلن أمام  
الجميع بأنك مواطن إسرائيلي فأنت من القدس ... القدس عاصمتنا الأبدية. أنت  
إسرائيلي حتى في شكك!

- بهذه البساطة، لا أعرف هل تضحك عليّ أم على نفسك، أنه كلام يفتقر  
إلى الاتزان!

ضم عوزي إلى تكتله سيمون وشاليف من روسيا البيضاء وزخرون من  
الأجنتين، أما الباقي فقد استتكروا أية محاولة للاعتداء أو التحرش. تقدم عوزي من  
عمر وطالبه بدفع ثمن الزاوية التي اختاروها داخل الغرفة. طلب بكل وقاحة أجرة  
مبنيتهم و إقامتهم في السجن على كل أن يدفع ألف شيكل شهرياً، قال :

- هذا السجن لنا، عليكم أن تؤمنوا هذا المبلغ وتدفعوه حتى آخر الشهر!

لم يردوا لكنه ظل يحاول التحرش، جن جنونه يريد أن يكسب ثلثي المدة  
ويخرج من السجن ويمارس حياته، لا يهमे من عمر سوى أن يكون موطئ قدم  
للارتقاء ثم الخروج من البوابة الخارجية. عوزي طالب في كلية الحقوق تناول  
المخدرات وانحرف عن طريقه، وحتى اللحظة فإنها مازالت تصله إلى الغرفة بأية  
طريقة وكيف، لا أحد يعلم؟! حتى جماعته الذين انضموا إليه يزودهم بها بثمن  
بسيط، إذ تدفع الإدارة له الفرق .... لم يسيء عمر علاقاته معهم نصح الذين  
يغادرون السجن بقوله:

- السجن ليس مؤلماً أكثر من خروج الإنسان منه دون أن يعرف ما يريد!

تابع أخبار التفاز، القدس ساحة حرب، مواجهة، حجر يقابل بندقية. نابلس  
فرس تكرر، بحر أمواجه الشبان ونهاره ثوب مطرز لفتاة لم تلد بعد. في الخليل

التهنئات لها حضور، توهج عطاء. العشاق يرفعون أصواتهم، الأفواه تبتسم يرسمون بمظاهراتهم الحرية. يصنعون تماثلها من الحجر. رجل يرفع يده إلى الشمس ويأخذ منها وما يقذف به اعداءه. له رقية متطاولة ومن يده الأخرى ينثر الأبدية كالرذاذ فوق سهول العالم وجباله.

فتح الطلاب بوابات مدارسهم خرجوا ولحقهم الصغار، ارتفعت اللافتات، طوقت سيارات الشرطة المدن. انفجرت القنابل الدخانية والصوتية والمسيلة للدموع، تراكض الناس وتحولت المدن إلى متاريس، المتاريس أكوام حجارة، حدث هذا في أيام قليلة. ظنت إسرائيل أن الذي حدث أمر طبيعي. بالقمع سينتهي كل شيء .

تساءل بينه وبين نفسه، هل يمكن أن نطلق على ما يقوم به الصغار ومن خلفهم الجماهير في الضفة الغربية وقطاع غزة اسم الانتفاضة؟ وهل حان وقت تحقق الأهداف التي نادى بها بعد تسعة عشر عاماً من سجنه؟ إذا كان ما حصل منذ أيام كما توقع، فإن الشعب يسير في طريقه الصحيح. اقترب منه رامي زيدان وقال:

- ما بك يا عمر حدثني؟

- كل شيء في العالم يتغير ولا بد لشعبنا من المواجهة، أنا سعيد بالأخبار التي سمعها ألم تر مانقله التلفاز وما سمعناه من الإذاعة عن التظاهر والعصيان الذي يقوم به الشعب ضد المحتل.

خاص في عالمه الداخلي إذا كان ما قاله حسان في رسائله حقيقة فإننا في وضع صعب، أمة تحفر قبرها، هل يعقل أن يكون السجن هنا أفضل من الخارج. يعيش في معتقل كبير، ربما هذا من قبيل التخفيف عنا. إذا كان حقيقة فعلى العرب السلام. جاءه كابوس، أفاق هلعاً، غسل وجهه وبقي ساهراً إلى الصباح.

عندما يكون الظلام في الخارج وفي الداخل لا شيء إلا ويستحضره، تذكر كل مكان ذهب إليه مع وصال، رفرفت روحها الندية وأخذ يتأمل نقاطيها وهو يضع يده على عينيه. الأمة بحاجة إلى شخص يتزوج وينجب ويأكل ولا يفتح فمه لغير الطعام. إنها ليست بحاجة إليه، العرب غير قادرين على وصنع أحداث جديدة تتخطى ما رسم لهم في سان ريمو. تذكر كيف يصفق الناس بشدة للخطابات، وكيف تعيده الإذاعة وتنتشره الصحف وفي اليوم الثاني تورد فقرات منه، وفي اليوم الثالث والرابع والخامس تحلل فقرات أخرى، ثم يتحول القول إلى قرآن كريم، عندما يتأكد من أن أجاد لعبة اللغة يتحول إلى لعبة أخرى هي لعبة



السيف وإغلاق المدارس وفتح السجون أو وضع سياج على الحدود مع لافتة كبيرة تدل على الأسلاك الشائكة.

في الأيام المنصرمة لم يفكر في أن رفاقه الذين عاشوا معه سنوات طويلة سعادرون دفعة واحدة ويبقى هو، لو أن عجربة ضربت بالحجارة أو بالمندل أو الفجان لتقرأ بخته وقالت له ذلك لما صدقها، حفرت كلمات مدير السجون شاؤول ليفي في قلبه مجرى لن يندمل. ماذا سيقولون لأمه إذا سألتهم؟ كيف سقابلونها إذا رفعت يديها وقالت :

- اشتكيتم إلى الله، يخرب بينكم، تطالبون بإخراج السجناء ومبادلتم ولا تطالبون بابني، والله إسرائيل ما عملت عملتكم السوداء، اذهبوا عن وجهي، اغربوا كلكم كلاب خنازير لا أريد أن أرى أحداً.

الموسيقا الجنائزية تدق في رأسه تخترقه، أخذت ترتفع مترافقة مع توتره العصبي.

قال له حسان في آخر ليلة قضاها معه :

- اعذري يا عمر لا أستطيع أن أرى أحداً من أهلك، ولا من أحبابك وخاصة وصال وعبلة .

هل أذهب إليهن بلا وجه؟ أين أخبئه " أخبرني كيف أقابلهن وأنا بلا وجه؟ إذا صرخت وصال في وقالت: أين عمر، فعلتموها يا أولاد...! إذا أغمي عليها كيف أتصرف؟ أنا خارج من هنا بلا لسان. عبلة رفيقتك كيف أنظر إلى عينيها؟ ستسألني أين عمر يا حسان؟ أنت تضعني في موقف محرجة. ليتهم يبقونني معك أهون ألف مرة.

لكن أعدك أن أرسل لهم من يطمئنهن، وإذا استطعت أن اتجه إلى بينكم سأقابل أمك ولكنه ليس وعداً ؟

- اترك العواطف يا أخي، ستذهب إليهن جميعاً بوجه أو دون وجه، راكضاً أو زاحفاً هذا أمر يخصك. الآن دعنا نناقش موضوع الثورة من الداخل ضد إسرائيل، هذه أمانة أخرى عليك أن تحملها وأنت مرفوع الرأس، أريد أن أسمع بعد سنة أو أكثر قليلاً كيف خرج الشعب إلى الشوارع يقول لا!

عاد يتذكر قول مدير السجن:

- أنت تكابر ... افعل ما شئت وافرح لبقائك في السجن على طريقتك

الخاصة، لكن ثق لو كنت إسرائيلياً، وكنا في موقفكم لكان اسمك في رأس القائمة ويحمل الرقم واحد، الآن سأحدث بلغتكم وأقول لك، لقد ناضلت كثيراً لكن هل هناك من يسمع ويقدر؟

تمالك نفسه ليبدو قوياً، سار باتجاه الغرفة ترنح وهو ماش. قعد على الأرض وعندما شعر بدوران شديد في رأسه استلقى، تركوه يرتاح، تمدد على الفراش. اجتمعوا حوله قرأ الحزن في عيونهم. قال:

- ما بكم وكأنكم ستخرجون إلى جهنم! سنفرج عنكم، هل هناك فرح أكثر؟ هل هناك أقدس من الحرية؟ هيا احتفلوا اضحكوا، إنه ألم بسيط في معدتي ولا شيء يزيله سوى فرحك ومرحكم. ما زال يتذكر كلمات أم الياس حين تقدم منها، قبل يديها وقال:

- لن أتأخر ثانية يماً!

- هذا ما تفعله بعد غياب ليلة كاملة، كلمات تضحك بها علي!

ابتسم وقال في نفسه أنت محظوظ يا عمر، الناس لها أم واحدة أما أنت فلك أمان، كيف أحبته أم الياس إلى الدرجة الجنونية، تسهر ليلها حتى يعود. يعقد اجتماع القيادة في بيتها البعيد عن المراقبة والأنظار، تعلم أهمية الاجتماعات تظل تحرسهم. في آخر أيامه في القدس طورد وهذا ما أخافها، إذ صارت تنتظر مجيئه على أحر من الجمر، رآها ليلاً تبكي، لم تتناول الطعام، رأته فمسحت دموعها وكأن شيئاً لم يكن، قالت: أنا فرحة بقدوك، أنا لم أبك أبداً يا ولدي.

أعاده صوت رامي إلى السجن، ابتسم وقال له: أنا جاهز يا صديقي، أسنا سجناء معاً!

يخلق السجن شروطاً إنسانية، تزداد العاطفة، يتذكر بعضهم حسنات بعضهم، يبدأ كل واحد بإيجاد مناخ خاص به، يخلقه يبتدعه إلى درجة أنه يستعيد كل كلمة من حياته. اقترب يوسف جاكوب وصار بمحاذاة القاسم. ربت على ركبته بفرح وأبدى رغبته كمشارك بالنقاش الذي يفتح أمامه مجال التخلص من وحدته. مال إلى أذن عمر يطلب نصحه :

- كيف سأتغلب على صعوبات الحياة دون تعاطي المشروبات وفي مقدمتها العرق؟ قالوا بأن حياة رائعة تنتظرنا، الجنة في إسرائيل ومن لا يهاجر سيظل في جهنم، وصفوها بلاد رفاة. الدولة تعطي البيوت وتؤمن العمل، غادرت وطني الدانمرك، تركت أهلي في مدينة كوبنهاجن المرفأ الذي توسد مضيق السوند، هناك

لا حرب ولا اعتقالات، العمل بسيط والدخل كبير والحياة تضحك لنا، ضحكوا عليّ وجئت إلى هنا. حضرت حربين، أصبت في رجلي، قررت العودة إلى بلدي لكنني لا أملك النقود الكافية، بدأت طريق الانحراف فأخذت الخمرة تعشش في رأسي وفي عروقي. لم أستطع التغلب على صعوبات الحياة دون الشراب الذي يجعلني أفقد ذاتي. صحيح السكر يدمرني ويجعلني خرقاً بالية، إنساناً لا يفكر إلا بالهروب، لكنني لن أتخلى عنه وأنا هنا ... بعد عامين أخرج من السجن عندها سأجمع نقوداً كافية وأعود إلى الدانمرك، بلاد الثلج والبرد والشتاء الجميل، هناك نقاط المطر موصولة ما بين السماء اليابسة.

قهقه وهو يتطلع إلى عمر فأضاف:

- عزيزي أنت من الدانمرك، عيناك طولك، شكل وجهك، صدقني إذا ذهبت إلى هناك سيظنونك بأنك مولود فيها، لكنك تقول إنك سجين مدى الحياة، وهذا ما يزعجني. أه. كان بودي أن ترافقني ونصير أخوة، لي شقيقة هناك ستحبك وتتزوجك، في الرسالة القادمة سأحدثها عنك، هل ترى صورتها سأحضرها من هناك .

ترك عمر وبدأ يبحث بين الأوراق وفي محفظته الخاصة حتى وجد الصورة، إنها صورة فتاة يبدو أنها لم تبق جمالاً لغيرها "حنانية" وهذا اسمها، رفضت القدم معه قالت :

- الإنسان العاقل لا يغادر وطنه، هنا عشنا وأنا أحب الناس الذين أعيش معهم. لن أهاجر يا يوسيف.

لم يعلق على كلامه بل كان يرثي لحالته ولإقدامه على طعن سيدة ومحاولة سرقة منزلها، حاول يوسيف تغيير الجو، نظر إليه وقال:

- صديقي عمر أقولها صراحة، إن إهانة سياسي بسبب أفكاره ومبادئه أو اعتقاله للحظات استهتار بالقيم الإنسانية. ستظل حقوق الإنسان في خطر ما دام هناك أناس يضطهدون ذنبهم الوحيد أن لهم رأياً مخالفاً للسلطات الحاكمة، أو أنهم يناضلون ضد عدو معتصب للأرض والتاريخ.

مساءً كعادتهم أداروا التلفاز، توالى أخبار الانتفاضة، المظاهرات مقدمة للعصيان المدني، طلبه المدارس يحتلون الشوارع، الأمهات يزغردن يقدمن أطباقاً من الحجارة، معارك حقيقية.

الانتفاضة تفتح الستارة التي تحجب الشمس والنور، الليل يلفظ آخر أنفاسه،

يخب الخطا صوب نهار يفك أغلاله من أعماق العتمة، ارتفعت أمواج بحر غزة الذي لم يعد رهين جنود الاحتلال، إنه الآن قادر على افراغ قوته على الرمال، وإعطاء الشمس حقها من المياه لتبلل شفتيها وتتهي عطشها، مياهه تتحرك كجسد فتاة رشيقة، أمواجه امرأة مراهقة، الغيوم تسيح وتعانقه في حركة زمانية لا تنتهي. المخيمات هناك خرجت إلى الشوارع تهتف " الحرية " .

نادى العسكري عليه بصوت قوي ثم أردف قائلاً: جهز نفسك للزيارة

هذه الزيارة توقعها منذ ثلاثة أسابيع، بسرعة حلق ذقنه وسوى شاربيه وارتدى ثيابه الجديدة. وجلس ينتظر قدوم العسكري، الشمس مبهجة والرفاق منشرحون، كل شيء رائع مادام سيرى أمه الزهرة التي تبخرت دموعها في عالم النسيان، ولم يبق إلا لسانها وقلبها اللذان تمردا على الموت واليباس، اختفى بريق عينيها وتحولت تقاطيعها المرحمة وجاذبيتها إلى سحناء زاوية خاوية، شفتاها تلويان تطلبان الماء كلما فكرت به، ويدها يابستان. ابتسامتها تحمل غصة، مضطربه، نظراتها جامدة تطيل التفكير، تسرح يخبرها :

-يما لا تتعبي نفسك، لا حاجة إلى ما تفعلينه، هل يعقل أن تظلي تحرسينا طوال وقت الاجتماع مرة أنت ومرة أم الياس.

- عندما تصير أباً ستعرف كم من الحب يحتاجه طفلك! لو كان بيدي أفتح قلبي وأضعك فيه.

يدفن وجهه في صدرها.

- كفى يا ولدي تريد أن تبقى مدلاً، تسلم يا حبيبي!

لحظة رن النداء في أذنه أصابه دوار خفيف عكس ما كان يتوقع، مواقف لا تخصي تعرض لها.

كلمات الضابط ذكرته بذلك: " لا تنفعل (ببساطة) الرأس، يمكننا أن نكون أصدقاء، تقدم لنا معلومات، ونحن نتكفل بمصروفك، مقابل معلومات تافهة .... لا تزعل لانريد شيئاً منك فقط تأتي آخر الشهر وتقبض مساعدة، إضافة إلى مسدس تضعه على خاصرتك، يزيد وزنك وتحقق احترامك، تمشي دون أن يستطيع أن يقول لك أحد كلمة واحدة، وسنسمعك وننصت إليك " .

أجابه:

- جئت بناء على دعوتكم لا أشكو من شيء، عينت مدرساً في بيت صفافا

وأنتم بصفتكم الجهة الأمنية التي طلبتني عليها أن لا تهينني، هل جئتمكم أطلب العمل ذات يوم !

نظر المحقق إلى وجهه، صحيح إنه قاس وعنيد ويستحق عقوبة المنفردة، رن الجرس فجاء عسكري أعطاه الأمر بوضعهم في الزنزانة لإشعار آخر.

دفعوا أبا أشرف إلى الغرفة وأغلقوا الباب، الكدمات تملأ وجهه، نظر إلى الموجودين سلم عليهم واقترب من عمر حدق به وقال له:

- ألسنت عمر القاسم؟

- بلى!

- ونظر إليه ملياً وقال:

- وأنت صاحب كازية النجاح الواقعة على الطريق رام الله القدس.

تعانقا ثم جلس إلى جانبه يحدثه عن ظروف اعتقاله.

جاءت دورية إسرائيلية لتعقله، توقفت السيارة، قرعوا بابه، خرج بالمنامة ووضع عينه على منظار الباب، فرأى جنوداً مسلحين، بسرعة عاد وبدل ثيابه. توالى الطرقات مع محاولات لخلع الباب، كلمح البصر ارتقى الدرج وقفز إلى سطح المنزل المجاور ومنه لسطح آخر. بينما اقتحمت الدورية بيته، فتشته وعبثت بمحتوياته فلم يجدوا شيئاً.

أفاق الجيران على أصوات القرع، أحاطوا بالسيارة، أحس أفراد الدورية بالخطر. سدوا بنادقهم فتراجع الناس، في حين بدأ الصغار بضربها بالحجارة، ارتفعت الصيحات تنادي الناس بالهجوم على أبناء الكلبة !

تناول الجندي البندقية وأطلق عدداً من القنابل المسيلة للدموع، عندها وصل الخبر كل بيت.

ارتفعت أصوات النسوة وأصوات تنادي الله أكبر، بدؤوا بوضع المتاريس في الشوارع خرقوا الإطارات العامة وارتفع الدخان في الجو.

أبو أشرف يغلق محطة الوقود نهراً بوجه السيارات الإسرائيلية ويفتحها ليلاً تأتيه سيارات الصهاريج الصغيرة و " الطنابر " تتزود وتعبئ المازوت لتوزعه على البيوت... لم يستطع أن يظل مختفياً، ستأتي الصهاريج وسيبتزرها أصحابها، الناس سيموتون من البرد إذا لم يتزودوا بالوقود ماذا يفعل ربما يأتيه ويمسكونه! تشجع وقال بينه وبين نفسه ليأتوا ما فائدة التخفي إذا كان الناس بحاجة إلى هذه

المادة، ماذا يقولون؟!

اتجه دون إبطاء إلى الكازية، فتحها وبدأ يوزع المحروقات. كانوا يراقبونه عن بعد، اقتربوا منه، لم يتحرك، وصلوا إليه وهو مازال يبيع، قبضوا عليه وأوثقوه وأمروه بالتوجه معهم. رموه في السيارة بعد أن عصبوا عينيه. قذفت السيارة خلفها الطريق المعبد وكل الماضي الذي حمله حتى هذه اللحظة، رمت خلفها القدس ورام الله، لا يعرف إلى أين وصلت؟ إذ بعد زمن قصير وجد نفسه في معتقل يجهل اسمه، قادوه إلى المحقق الذي سأله :

- لماذا تبيع الأهالي؟ ولماذا لا تفتح المحطة نهاراً؟ أنت مضرب، أنت " مخرب " سنحاكمك وفق القوانين المرعية.

بعد ساعات من التحقيق الأولي جاء أمر تحويله إلى معتقل آخر، إذ وجد نفسه وسط أبنية قديمة وبعض الخرائب، صرخوا في وجهه :

- ألم نطالبك بوقف بيع الأهالي؟ ... سنتال جزاءك العادل !

طلب من عسكريين أن يتولوا أمره. عاد إلى مكتبه بعد أن تأكد من تنفيذهم لما اراده أصّر على أقواله .....

قال له المحقق: بمقدار ما تعطينا نعطيك.

أشار بالشاهد وحركه بشدة. رن الجرس فدخل عسكريان، أمرهما بأن لا يعيدونه إلا جثة.

قال العسكري:

- اعترف وأرح نفسك، من الذي أمرك بذلك؟ وإلي أي منظمة تخريبية تنتسب؟ ستظل تتعذب حتى تقول كل ما عندك .

نظر إليه دون أن يعلق بحرف واحد. أمر بتعليقه، فاحضروا " سبية " وعلقوا يديه في حلقتين وتركوه يتأرجح .

- هل تعترف ؟

لم يجب شعر أن يديه يكادان ينفصلان عن جسده، ركز تفكيره فقد سيطر على ذاته، وعندما نادوه طالبين إجابته لينجو بنفسه وهم يعدون واحد اثنين .... لم يستطع الإجابة ولا التحدث .

لفت الدوخة رأسه وأحس بحالة انحطاط، مال رأسه إلى جهة اليمين.

- هل تعترف ... اعترف أفضل ...؟

أنزلوه، تكوم على الأرض، أتوا بدلوي ماء ورشوه، بدأت رموشه تتحرك حركات غير منتظمة، فتح عينيه قليلاً رآهما أمامه يتهاامسان. ابتلت ملبسه، اعادوه إلى زنزنه عرضها لايزيد عن ستين سنتمتراً لايسطيع أن يمد رجليه، يقرفص يدفعهما إلى صدره. غفا دون أن يدري كم من الوقت مضى. أفاق على صوت كلبين كبيرين ينبحان بشدة يمدان رأسيهما إلى الأمام وعندما يصطدم أنفهما بالشبك يرفعانه إلى الأعلى في حركة نباح لا تنتهي.

أخبره المحقق بأنهما كلبان جائعان سيلتھمان أعضائه التناسلية. عليه أن يعترف إذا أراد أن يحافظ على وجوده. يعترف عن الذين دفعوه لمثل هذه المواقف، ويدلي بأسماء أصدقائه وعلاقتهم بحركة المقاومة.

أخرجه من الزنزانة، عراه تماماً كما خلقه الله، وأعطى أوامره للكلبين ثم ابتعد عنهما. لحقه الكلبان واحد عن يمينه والآخر عن يساره، ظل يلف يركض يبتعد ويقترب منهما حوالي ساعة، ارتمى على الأرض متعباً، قرب أحدهما فمه وعضه من خصيتيه، شعر بألم فظيع ألم لا يطاق، دوخة تلف رأسه ومغص قطع أحشائه، تحسس عضوه وتأكد من سلامته. ركض الكلب الآخر تجاهه ليمثل الدور نفسه. لم يعد قادراً على المناورة. الألم يعض شرايينه التي باتت تنقل الألم بدل الدم. لم يتمالك قواه، وقع على الأرض مغمى عليه. أفاق وكأن كل ما حدث حلم. إنه في الزنزانة، ملبسه جافة، وضع يده أسفل بطنه ليتأكد مما حدث. شعر بأوجاع. أوجاع لا تطاق لكنه حمد الله فكل شيء كما هو. أدرك بأن الكلبين مدربان على دروس من هذا القبيل، وهو لم يكن أكثر من درنية لتنفيذ المناورة بالرصاص الحي .

رفع رجليه عالياً، شعر بارتياح فالدم في هذه الحالة يغذي الرأس الذي تعب من التفكير، لكنه لا يقدر أن يبقى على هذه الحالة أكثر من نصف ساعة. تعود ركبته إلى بطنه فيشعر بضيق، المكان الذي يتسع لطفل صغير وليس لرجل ضخم الجثة صار من نصيبه وعليه أن ينكيف فيه.

خلع بنطاله ليتأكد إن كان ما حصل قبل قليل حقيقة، دقق النظر فشاهد آثار أنياب الكلب واضحة و أثر نقاط الدم قد تجمدت ونزلت حتى فخذيه، عاد لارتداء بنطاله وتظاهر باللامبالاة في وقت بدأت دقات القفل تتراجع ليفتح الباب عسكري يأمره بالخروج إلى الفورة مدة ساعة وفي مكان محدد.

في هذه اللحظة تراءى على طرف المكان ملاك ابتسم وقال له " أصبر فأنا معك، ستعود لتوزع مادة الوقود على المواطنين، كلها أيام معدودة ".  
جال الفرح على وجهه لهذه الرؤية، قعد واضعاً يده على خده مفكراً، ماذا حصل مع زوجته وأولاده ؟

كيف سيعيشون وهو بعيد عنهم؟ وكيف سيؤمنون متطلباتهم؟ .... تسهر زوجته على أمل عودته، يغالبها النعاس وتنام، تفيق باكراً تقلب اللحاف فلا تجده جانبها! تنفقد الغرف ودورة المياه ! يغزو الخوف قلبها، أين يكون الآن؟ لقد هرب من وجههم. إذ كان البارحة قد جاء بنفسه وطمأنها بعد ذهاب الدورية ... ربما المجنون فعلها وعاد إلى المحطة لبيع الناس، كان عليه أن يوكل غيره ويختفي عن الأنظار أيام حتى ينسوه ويملوا من مداهمته ويتأكدوا أن المساك به ليس فقط صعباً بل مستحيلاً. تنظر إلى صغارها، تقبلهم والدمعة تقبل وجنتيها وتحدرد إلى صدرها وهي لا تملك جواباً على تساؤلاتها وأوهامها، ماذا تفعل بصغارها الذين يرددون :

- ماما .... أين بابا؟

يكون بصوت عال بينما هي تكي بصوت غير مسموع، تجفف دموعها دمة دمة. تتشجع وتتابع عملها في البيت وهي مسلمة أمرها إلى الله قائلة :  
- السجن للرجال، " السجن ما بيتسكر على حدا !"

الفصل الثالث والعشرون \_

الصديق الغالي سليم الدوري :

تحية طيبة :

كنت أتصفح بعض رسائل الصليب الأحمر وأستعيد الذكريات عندما عثرت على رسالتك المؤرخة في 1986 /9/30

. بداية أنا سعيد، سعادتي بتحركم طغت على حياتي وبيت وكأني أسبح في بحر من النشوة. إذ من غير الممكن لإنسان مثلي أن يجد طعاماً للحياة بعد ما جرى لولا هذا الشعور العميق من السعادة الذي يسيطر على نفسي نتيجة تحرر هذا العدد الكبير من الأحباب. إنكم سفراؤنا المعبرون عن معاناتنا والضمانة الحقيقية لعدم تكرار التفاهات والمسلقيات الضعيفة.

أيها الرفيق: رسالتك رقيقة جداً وزاخرة بالمعاني وتفوح منها رائحة الصداقة،



إنني مسرور أن اسمع عن زواجك أنت والآخرين. أفكاري تقودني إلى التعاسة، لكنني قادر على التغلب وتسيير دفة حياتي، أحياناً ينتابني شعور بأنه لن يكون لي أولاد شباب أو لن أكون جداً لأنه فات الأوان. لكن هذا لا يعكس حقيقة ما أفكر. إن التغيير الذي حصل في نوعية السجناء وأعمارهم تجعلني أشعر أنني أب وجد وأخ في آن واحد. إذ هناك الكثير من الأشبال الذين ينظرون لي كأب وأنا أحبهم فعلاً كأبنائي. وبعضهم صغير جداً بحيث يحبونني كجد والباقي كبار السن يعاملونني كأخ .

أفكر أحياناً لماذا أشعر بالسعادة رغم سني الأسر الطويلة ومعاناتها، لكنني سرعان ما أكتشفت الجواب، فأنا لا أشعر نفسي غريباً، فأينما حللت أجد أخوة يحبونني ويعاملونني كرمز لصمودهم ويسألون عني إذا ألمت بي وعكة صحية، ويغمرونني بعطفهم واحترامهم أعيش بين أهل وهذا سر صمودي، وهذا الموقف لم يأت من فراغ فأنا لا أقف مكاني وانتظر المحبة من الآخرين ، فهي لا توهب لأنها ثمرة العطاء ، سعيد ذلك الإنسان الذي يجعل حياته كلها عطاء... إن هذا لا يعني حبي للسجن بل العكس فالحياة الحقيقية تبدأ حين نخرج ونستنشق هواء السماء دونما سياج أو شبك. إننا وإن كنا نستطيع توفير ظروف السعادة في الصحراء القاحلة، فإننا نشاق للأرض الخضراء والمياه العذبة وشاطئ البحر والنجوم المتلألئة بالليل ومنظر السماء البديع والرائع.

إنني أحيي الرفاق كافة وأثمن جهودهم السابقة واللاحقة

عمر محمود القاسم

عسقلان في 1987 /12/21

كانت هذه آخر أيامه في عسقلان حيث التقى في غرفته مع شبان شاركوا في الانتفاضة منهم من رفع العلم الفلسطيني في المظاهرة ومزق العلم الإسرائيلي وأحرقه، ورقص على ضوء النيران المتصاعدة رقصته المجنونة وهو يهتف ... ومنهم من حرق إطارات السيارة، ورجم السيارات الإسرائيلية بالحجارة، منهم من أقام الكمان، ومنهم منهم ....

وضعت الدولة في حالة استنفار، الجيش، الشرطة، السجنون إذ بدأ طاقم السجن الدوام طوال اليوم، كما شددت الحراسات حول المباني الحكومية، ونزلت القوات إلى الشوارع، بينما جانب الطائرات الحوامة سماء قطاع غزة والضفة تساعد القوات في رصد حركات الناس في الأحياء والشوارع والبساتين والبراري وحتى في المرتفعات. وتدل على التجمعات، تشارك في إلقاء القنابل الدخانية

عليها.

ازدادت الاعتقالات، في كل يوم موقوفون جدد، دفعة جديدة منهم في باحة السجن، شبان بعمر الزهور، منهم الطالب الجامعي والثانوي وحتى بعض الأطفال الذين لا يتجاوزون عشر السنوات، الذين يتم توقيفهم ثم اطلاق سراحهم بعد أيام.

جمعهم مدير السجن في وسط الباحة وتركهم طوال النهار يتعرضون للمطر والرياح والبرد فكانون الأول معروف بأنه فحل الشتاء. عند المساء أمر بوضعهم في الزنازين مدة ثلاثة أيام، قال قبل أن يعود إلى مكتبه :

- أنتم تتكرون دور إسرائيل في تمدنكم، تعضون اليد التي امتدت إليكم، أنتك كلاب، لا بل الكلاب أكثر وفاء، أنتم لا تستحقون الحياة، تعلمتم النباح، قوانتا لا تخافه، ولا تخاف الرصاص، فكيف ستخاف حجركم أيها الجبناء؟

أعطى أوامر جديدة بتعذيبهم قبل وضعهم في الزنازين، وذهب إلى مكتبه.

ظلوا بلا أكل طوال وجودهم في المنفردات، طالبوا بحقهم في الطعام، فكان

الجواب:

- عندما تبرهنون أنكم بشر سنقدم لكم ما يتوجب علينا تقديمه للسجين

وزعوا سجناء آخر دفعة على غرف السجن. اثنان كان نصيب الغرفة رقم خمسة، رحبوا بهما، وبدؤوا يستمعون لقصة أولهما.

قال محمد رجب السامح، إنه طالب في المرحلة الثانوية ، يخرج كل يوم للمشاركة في المظاهرات، لم تعجبه المشاركة السلبية، اتفق مع اثنين أن يتصدوا لدوريه، كمنوا في منطقة غير بعيدة عن المظاهرة، جاءت أول سيارة، رشقوها بالحجارة فانقلبت، أطلقت النيران عليهم من السيارة التي خلفها، جرح زميلهم فرج خالد الذي أطلقوا عليه لقب المعري، فهو متصرف له مواقف من المرأة تشبه إلى حد ما موقف معلمه، يحب الاعتكاف والعزلة، لكن عندما بدأت الانتفاضة أوائل هذه الشهر، شارك من بدايتها. التفت إلى الخلف في محاولة لإسعافه، فطلب منه أن ينجو بنفسه، لاذ بالفرار، وفي غزة شارك بالمظاهرة، هتف، ورفع العلم الفلسطيني، وأحرق علم " إسرائيل "، ظلوا يطاردونه حتى القوا القبض عليه، ضربه على وجهه، فقد أحد أسنانه، أما الكدمات فمنتشرة على جسده كانتشار الغيوم في سماء ذلك اليوم.

سأله مدير السجن :

- كيف تمزق علمنا وتحرقه، ألا تعرف دلالة ذلك؟

- أعرف كل شيء، وفعلت ذلك عن سابق إصرار وقصد، وسأمزقه أينما وجدته .

وعده بالموت، ومازال ينتظر، ضحك المستمعون لدمائته.

الشاب الآخر صبري العناس، عرف من قصته، بأنه كان من أكثر طلبة كلية الطب مرحاً، محبوباً من زملائه، أحب صديقاته لقلبه ريم عيسى، مثقف دائم الحديث عن الأدب والحياة، يلخص آخر ما قرأ على أصدقائه. من يراه داخل الغرفة، يتحدث بكلمات لا معنى لها يشفق عليه. حصل هذا نتيجة تلقيه ضربات على رأسه، وهو يرد الجنود عن ريم التي كانت إلى جانبه في المظاهرة، ارتدى بعد أن خلصها من أيديهم. أثناء التحقيق الأولي سألوه فأجابهم إجابات تدل على عدم اتزانة. تركوه في الغرفة موثقاً، لاحت منه التفاته فرأهم يضعون جثة في كيس ويجرونه ويرموناه في مؤخرة إحدى السيارات.

بدأ جسده يرتجف، عرضوه على طبيب ثم على لجنة طبية، فجاءهم التقرير التالي: " إن صبري العناس قد تحول إلى عاهة، ننصح بتسليمه إلى ذويه أو تسفيره إلى الخارج على نفقة الدولة للعلاج ".

تجاهلوا التقرير وحولوه إلى سجن عسقلان، رموه في الغرفة رقم خمسة وأغلقوا خلفه الباب. نظر كل من في الغرفة إليه ، وقف يتأملهم، ثم أسرع كالسهم ورمى نفسه على الشيخ زكريا، أمسكه من لحيته وهو يقول " ريم يا زينة البنات! " ضحك السجناء فماكان من الشيخ إلا ضربه على خده. فولى هارباً وهو يمد يده تجاهه، يبكي ودموعه تتهاطل كالمطر الذي في الخارج " أنت من أمسكها من شعرها ".

تضايق زكريا، وقف وهو يتهدده، إذا لم يكف عنه، ركض العناس واختبأ خلف عمر، وهو مازال يبكي ويردد كلماته السابقة ... ترك الجميع ما بأيديهم من عمل واقتربوا أكثر يراقبون ما سيحدث.

سأله عمر، ما القصة!

أجابه:

-يمصون المطعم ويشدون ريم إلى السيارة

- ما علاقة شيخنا؟

- لم يجب، فقد انترانه فوق على الأرض. عند هذا الحد عرفوا أنه فقد الدرة التي يملكها، فرثوا لحاله ولاموا زكريا على تصرفه، الذي رد بانفعال:  
أنا لا أسمح لأحد أن يستهزئ مني ويمد يده إلى ذقني الطاهرة، ويحدث بلا مبالاة.

- هذا هراء، إياك أن تفعلها وإلا .....

كان هذا رد عمر فما كان من الشيخ إلا الهجوم تجاهه، لكن السجناء حالوا بينهما. عندها بصق صبري العناس على زكريا وقال له :

- أنت كلب !

قالها وركض للاختباء. توالى مسرحيته تتابع فصولها. أخذ صبري يظهر جنونه، أخرج لفافة وبدأ يدخن بشراهة، يسحب نفساً منها، يسعل، يسعل بشدة ثم يقذفها ويدوسها، يزداد سعاله وتدمع عيناه، صوته كله حشجة، يكاد لا يسمع، يتواصل سعاله كنباح كلب، وعندما يعود إلى وضعه ويشعر أن تنفسه عاد إلى وضعه الطبيعي، يطلب لفافة ثانية وثالثة .

نظروا إليه وهم مشفقون، نصحه محمد رجب أن يقلع عن التدخين بقوله:

- إنك تهري رنتيك خاصة إذا كان على الريق، ألا تعرف أضرار الدخان، أنت تهذي وتقتل نفسك، يكفيك هذا!

قام يتمشى، يتوقف، يفتح كفيه، يتطلع إلى السجناء ويخبرهم بأنه مات، يقرأ الفاتحة ويمسّد على وجهه، ثم يبكي وبعد أن يتعب يقعد على الأرض ثم يعود للمشي والركض.

كل شيء فيه تغير، لحيته الكثة، طريقة النظر، الخوف الدائم والاختباء خلف أقرب شخص إليه، وبمزيد من الحذر يهمس في أذن الأقرب إليه بحزن عميق "إنه مات وضعوه في كيس ورموه في مؤخرة السيارة". يخرج لفافة ويضعها في فمه، يرتجف عود الثقاب بين أصابعه، يحاول إشعال العود يخفق، يعيد المحاولة وعندما يشعل يتركه ثم يتناوله من الأرض أو يشعل غيره، يقربه من اللفافة ويأخذ نفساً عميقاً. يضحك، لكن انطفاء السيكارة، يجعله يهرش جسده ويضغط على أسنانه، ثم يبكي.

يقعد على الأرض، يرى الفرح في عيني ريم، تشده للهرب من ضجة المدينة يتبعها وهي تغني له ثم تسأله:

- ما الحب؟

ينظر إلى عينيها وهو يقول لست فيلسوفاً، الحب هو ريم!

يسألها عن الوطن، فتجيب بعد أن تحدق بعينه، الوطن هو أنت!

ينتقل إلى رفاقه، فيجدهم ينظرون إليه، ينسى أحلامه، يفتش جيوبه، يقلبها، يلف في الغرفة، يضع يده أمام وجهه ليتقي شيئاً ما، ثم يقرب شفثيه من أذن أحد السجناء ويقول جملته المشهورة. ندم الشيخ زكريا على ضرب السجناء الجديد، وصار يدعو في كل صلاة لشفائه. بات من الضروري تنظيم الأوقات حتى لا تذهب هدراً، وحتى لا تبقى منصبة على الضحك أو حركات العناس، لأن وجوده في الغرفة قلبها رأساً على عقب، فلم يعد هناك اهتمامات سياسية وثقافية. دبت الفوضى، مما دفع عمر للمبادرة بمناقشة ذلك ووضع برنامج يقسم الوقت إلى مطالعة ورياضة ونقاش وتدریس، وتولى هو تدریس اللغة الانجليزية بداية بالمبادئ الأولية وتركيب الجملة والأفعال بأقسامه والاستفهام والنفي .... مدة الدرس تسعون دقيقة مقسمة إلى ثلاثة أقسام متساوية، درس جديد، حل تمارين، ومحادثة، انضم سجناء الغرفة خمسة إلى البرنامج، حتى صبري استجاب لذلك، فلم يعد يقوم بحركات غير لائقة وقت الدرس أو في أوقات النقاش، وبات لمثل هذه الحركات أوقاتها، مما دفع حالته إلى التحسن التدريجي.

الشيء الذي لم يحسب حسابيه هو النقاش حول الشعار المرطلي، ما بين الشيخ وبعض الرفاق، بدؤوا يكيلون تهم الخيانة. ابتعد الرفاق عنه وتناقص عدد المصلين خلفه، ففي إحدى صلوات الجمعة وجد نفسه وحيداً، احتد وقال: أنتم كفار، لماذا تسجنكم إسرائيل!؟

بعدها طلب الشيخ إلى الإدارة، قال له الضابط:

- أنت يا شيخ نسيت ما بيننا! لم نسألك عن شيء ولم نمنعك من إلقاء خطبك، ألم نشجعك على تضمين مكارم الأخلاق و القصص القرآنية، وتبيان أمور الدين لأفراد الشعب على خير وجه، ما الذي حدث حتى صرنا أعداء!؟

- ما بيني وبينكم كما بين القط والفأرة، لا يمكن أن يكونا صديقين على الرغم من حياتهما المشتركة .... أنتم قتلتم أخي الذي لا يتجاوز عشر سنوات.

أخبره نيتهم الإفراج عنه، عندما يقرر طلب الرحمة و العودة إلى الجامع وممارسة عمله السابق دون تحريض.

لاشيء في الغرفة ولا في السجن يخلصه من همومه، سوى الرسائل التي

تنهال عليه، رفاقه يحسدونه ويقولون: أنت محظوظ يا عمر!

زادت أعداد الرسائل التي تصله، رفاقه خارج السجن، أنت محظوظ! لا أحد غيره ويقدمه بقي وراء القضبان، خلافات بسيطة وربما شخصية هي التي جعلت القيادة لا تدرج اسمه، هل يصدق ما تقوله الرسائل، أم يصدق الذين يحسدونه؟

سيفراً الفاتحة على القيادة، هذه التي تملك صحة جيدة، وكرشاً متهدلاً للوجاهة، تسبح بحمد ربها وتشكره على نعمه التي لا تحصى، وعلى الأمور الوفيرة، والدفاتر المستطيلة التي باتت في أيديهم. مرت أمامه حياة الأغوار، والشعارات التي عجزت الأرض عن حملها فتبخرت، أوصى رفاقه بالمحافظة على كراساتهِ التي كتبها وهو في نفحة تحت عناوين مختلفة منها:

- " نقد ذاتي على الفهم النخبوي "

- " الدساتير الاعتقالية "

- " المراحل التي مرت بها المعتقلات "

لخص هذه المراحل بثلاث، الأولى مرحلة العفوية التي كان فيها العدو يصدم المقاتل بسيل من المعلومات النافهة، والتي يحصل عليها بالتصوير الجوي أو من صحف المقاومة.

والثانية هي التجربة والخطأ إذ صار الأسير يميز بين ما يمكن التصريح به والأسرار التي عليه عدم البوح بها، والمرحلة الثالثة هي الوعي المنظم الذي عرف فيه الفدائي عدوه والأساليب التي يتبعها وحيله.

أحس بفكره يقفز لا يعرف ما يريد، ولا يجد مرمى لتستقر أفكاره فيه، يعمل كشريط طبعت عنه نسخ عدة، شعر بتعب وإعياء، استعاد مجموعة المواقف والآراء، الآن تأكد بأن حياته بانوراما، لكنها منثورة أمامه وملتصقة بعقله.

شعر أنه يعيش نهايات حياته التي باتت بلا أمل، يودعها وهو جالس في محراب الوحدة ينتظر انشطار أحزانه وذاته وتبدد فعلها. هل هو إنسان بلا إرادة بلا مستقبل؟

الإنسان والإدارة والمستقبل أتا في الحياة، ابتسم لماضيه الرائع، ماض كله حب، الآن بات يدرك أن العظيم من الرجال من استطاع أن يحب بصدق مازال قلبه أخضر. من يحقق حلمه ويشبك يده بيد وصال في شوارع دمشق في هذه اللحظة أو أية لحظة قادمة ويأخذ حياته التي لم يبق منها شيء! من يعيد إنبات

شجرة الحب التي تأكلت جذورها؟ أريجها يلف رأسه يسري بأوردته ويصل دماغه، لم يقدر التخلص من هاجسها، ماثلة بكامل زينتها وأناقته وأنوئتها، ألهمت خياله الذي انتقل إلى كل منطقة ذهباً إليها، قلبه يخفق كطائر ذبيح .

ها هي تعيد طلبها أن يرافقها بجولة في دمشق، نظرت إليه وابتسمت وهي بكامل زينتها وأناقته، اتجها من بيتها في أبي رمانة إلى حديقة المدفع ومنها سارا شرقاً إلى منطقة عرنوس، حيث الأبنية القديمة والمستشفى الإيطالي وضريح، سألته: " ألا تعرف ضريح من وما قصته؟".

- أسمعها منك!

- إنه عرنوس حدثتني ماما بقصته المثيرة والمدهشة.

ابتسم وعلق: كنت أظنها منطقة زراعية لها شهرة بالذرة، وربما لعرناسها قصة ما فيها بعض الدمائية خلدها أهل دمشق. أو في هذه المنطقة بائع عرنيس أو أي شيء من هذا القبيل.

ضحكت فتراقصت الأمواج على شفيتها وحلق حمام الأموي فوقهما، وضعت يدها في يده، أحس بدفئتها، ضغط عليها، نظرت إليه وقالت:

- هكذا أذن بائع عرنيس! ... اسمع واستخلص الحكمة: " هاجم البيزنطيون دمشق فخرج أهلها للدفاع عنها، جرت معركة ارتد فيها الروم، وأسروا أميرة على غاية من الجمال، أميرة تغازل الشمس فتتوهج بضوئها، أحبها حاكم دمشق وتزوجها.

عاشت معه حياة جميلة. بعد فترة اشتاقت لأهلها، فبعثت معها من أوصلها إلى الحدود. هناك رفضوا إعادتها. أنجبت طفلاً اسمته " ارنوس " نلفظه نحن " عرنوس"، كبر هذا وورث العرش عن والدته. قاد الجيوش البيزنطية باتجاه دمشق وتشاء المصادفة أن يلتقي حاكم دمشق الكهل مع ابنه مواجهة. فيعرف الأب ابنه من القلادة الموضوعة حول رقبته والتي أهداها لزوجته، قبل أن يتبارزا سأله عن القلادة فتعارفا، فبدل القتال تعانقا، فضل الإقامة مع أبيه في دمشق وورث الحكم وعاش بقية حياته ودفن هناك ."

- أنت رائعة يا وصال، إن ما ذكرته فاق تصوري.

هز برأسه علامة الإعجاب وتابع " هيا إلى بوابة الصالحية فرما تتذكرين شيئاً آخر تحكيه ليظل ذكرى منك، ذكرى جميلة ورائعة.

من هناك اتجها مروراً بالشهداء والبرلمان، قطعا الشارع إلى منطقة البحصنة فالمرجة، تابعا إلى سوق الخجا والحميدية بعد أن تجاوزا السنجدار.

احتفل سوق الحميدية بهما فبدا أكثر نضارة وبهجة في ذلك الصباح المشمس، وصلا الجامع الأموي، طافا به ثم قصدا قبر رأس الحسين بن علي. نظرت إليه وابتسمت سألته إن كان يعرف ما يحدث في ليلة النصف من شعبان.

- هذه لا تحتاج إلى قصة جديدة! يتم الاحتفال بقراءة القرآن وإلقاء الخطبة والموعظة.

- وماذا بعد؟

- البقية عندك .

- سنوياً يتضمن الاحتفال مشاهدة وتهوية قبر رأس الحسين، ثم التوجه إلى بيت الجباوي لتناول الطعام والذي عادة ما يكون " لبنية " .

- تستحقين أيتها الدليلة سندويشة فلافل، فهيا إلى الأكل.

- مازال في جعبتي الكثير عن دمشق!

تابعا سيرهما إلى القيمرية والنوفرة ومن هناك إلى باب القمر توقفا قليلاً عند بقاياها، وواصلتا طريقهما إلى باب فينوس ركبا سيارة أجرة إلى المرجة ومن هناك إلى أبي رمانة.

- هيا ادخل نتناول طعام الغداء .

ودعها على أمل اللقاء ثانية في الجامعة صباح اليوم التالي .

ستار من الدخان يغلف الذاكرة التي تهرب بعيداً، لكن هذه المرة صوب الأغوار لم يتوقع أن عبوره للنهر سيرسم مصيره الأزلي، لم يبارحه الألم بعد إضراب الستة وثمانين، بدأ يشعر بالأوجاع تغزوه. ألم في معدته وألم أثناء التبول. لقد كبر وهذه أمراض الشيخوخة هكذا بدأ يحدث نفسه. تجاوز الخامسة والأربعين منها تسعة عشر عاماً في السجن ومع ذلك مازال يحلم بالخروج. سيعود إلى القدس ويرفع العلم على بيته ويلتقي مع عيلة التي كتبت تخبره بأنها لن تتزوج غيره. هل سيخطبها أم سيذهب إلى ابنة الرغوة؟ إذا كان ليس بمقدوره التخلي عنهما ماذا يجيبهما. كانت وصال رافضة للزواج. أخذت عهداً أن لا تتزوج غيره. وضع يده على عينيه ثم مسحهما. عليه أن يبكي في داخله وأن لا يرى أحد دموعه. هو فقط يشعر بها وهي تتساقط على وجيب قلبه.



- لماذا غامر وترك الساحة فارغة؟ ماذا بقي من حياته؟ لقد اغتالوا حلمه  
الوردي الجميل!

الحياة عطاء وقد سحبت منه الحياة عطاءاتها.

حلم أن عبة زرات الشجرة التي التقيا عندها، نادته ليشاهد المنظر الغرائبي،  
وصفت له المشهد بدقة، لكن الشجرة بدل أن تكبر أخذت تصغر، شاهدت عليها  
أوراقاً ملطخة وأغصاناً حمراء وجذعاً داكناً يتحول ليلاً إلى أبيض. في الليل تشع  
الشجرة وتنتشر نورها الأبيض على مساحة واسعة، أما في أعلاها فثمرة كأنها  
نجمة.

## - الفصل الرابع والعشرون -

جاءت الطلبات مع عدم الموافقة، قال مدير السجون لمدير سجن الرملة المعين حديثاً الجنرال أوران: " لا تحول طلبات أخرى عن ذلك المخرب القذر، جماعته لفظوه ولم يطلبوه، يعتبرونه خطراً، فكيف نحن؟ لن نكون أرحم منهم، لا تنس أنه خطر على الجميع، إنه كالذباب أينما ذهب ينشر أوساخه وأمراضه. إياك أن يلين قلبك، الواجب يدفعنا أن لا ندعه يتمتع بحريته لحظة واحدة، أما الموت فنحن لا نقرره، إنه أمر من الله، فإذا كان لا بد منه ففي مستشفى " اسافاها روفيه " متسع لأمثاله، تذكر جيداً بأنه أهان قيادتنا السياسية والعسكرية بداية بديان وبارليف ونافون، إن شخصاً مثله، رفض مصافحتهم عليه أن يموت كمدأ وحسرة أما المحامية وغيرها فيمكنك أن تطمئنها و تضحك عليها بكلمتين "

الألم في الحالب، هناك شيء يقف في طريق التبول، يكرز على أسنانه، يغمض عينيه، يضع يديه على فخذيه، يفتح راحتيه ويغلقهما ويشد بقبضته أعلى العانة يمسدها، يشعر بألم فظيع يحبسه في حنجرته. الألم يمزق الشرايين والأوردة الدقيقة جداً في مجرى التبول بداية بالكليتين. يحاول أن يدفع السوائل المحصورة في جوفه إلى الخارج. يطلق جزءاً من الصرخة بينما يسجن البقية الباقية في فمه. شفتاه تبيستا حتى صارتا قطعتي اسفنج قاس. الألم يغزو جسده يمتد إلى الخصرة، يرتفع قليلاً حتى يصل إلى رأسه، شيء ما كالإبر يغزو صدغيه، ارتفعت حرارته، شغل بصوت أشبه بهبوب الريح في أذنيه، قرفص، العرق بلله، المياه جرت ساقية إلى فتحة المستراح. غزته البرودة، الأوجاع لم يعد يحتملها، صرخ بلا إرادة، هرعوا إليه، فإذا به يحاول التبول، سألوه فطمأنهم. ابتعدوا عنه وأغلقوا الباب، جاءت الألام دفعات، لم ير مثلها ولم يسمع عنها، ألم يقطع داخله، نقط حمراء تخرج، يتضاعف الضغط، لا بد أن شيئاً ما يقف في طريق المياه المالحة حتى انحبت.

بعد جهد زاد على نصف ساعة تراخت مفاصله وأحس بالإعياء، ناداهم

بصوت واهن، جاؤوا وحملوه وأعادوه إلى مكانه. تمدد. التفوا حوله. حرك يده ليأخذ كمية من الهواء، تراخى جسده وأغمض عينيه. أسرع رامي زيدان وقرع الباب تبعه بالقرع والمناداه إبراهيم الأخرس وأبو أشرف. ذهب الحارس وعندما عاد أخبرهم بأنه أبلغ الإدارة، التي سترسل الممرض على عجل، بعد ربع ساعة عاد ثانية يؤكد على طلبه فجاءه الجواب بأن الطبيب والممرض غادرا ولا أحد موجود من الطاقم الطبي. نظر إليهم الحارس من الطاقة وأبلغهم بأنه فعل ما يمليه عليه ضميره.

النيران تخرج مع أنفاسه، يده كالأثافي، بلل العرق جسده وجعل فرشته تعصر ماء في حين بدأ جسمه المقشعر حالتي " الباردة والحامية " مرة يغلي ويفور ومرة يبرد وتصطك أسنانه، وضعوا فوقه بطانيات عدة. شعر بحاجة إلى الإغفاءة لكنه لم يقدر. لم تمض ربع ساعة إلا وعاد إلى دورة المياه، حاول الضغط لإخراج المياه المالحة، أحس بشيء يחדشه، خرجت بضعة نقاط، بلل الدم ثيابه الداخلية. تناول كوبين من الماء، لا شيء جعله ينس آلامه سوى المشي داخل الغرفة، لكن بعض السجناء الجنائيين تدخلوا، وبدؤوا يضحكون من حركاته، أخبروه بأن ما يفعله غير مقبول. هددوا بقتله إن لم يسكت أو يخنقونه فينقطع صوته إلى الأبد، لكن آخرين وقفوا في وجههم وأصرروا على وجوب نقله إلى المستشفى ،

تسع مرات ذهب إلى دورة المياه، شعر بنهايتها خروج مادة صلبة كحبة العدس، فتدفقت الدماء المختلطة بالبول. عاوده الارتياح واقترب من حالته الطبيعية. نقلوه إلى مستشفى " اسافا هاروفيه"، اجتمع حوله ثلاثة أطباء أقرروا بأن حالته صعبة إذ تبين عجز الكلتيين اللتين تحتويان جهازين الأول لرشح البول والثاني لرد الراشح إلى مجرى الدم فالوريد الكلوي الذي يسمح لكل نافع بالارتداد. أما المعدة ففيها بعض القروح والالتهابات، إذ هضمت في يوم ما من أيام إضراب الستة وثمانين جدرانها وغشائها المخاطي، ومن هذه القروح والندب ما انتقل إلى الأمعاء وتحول إلى خلايا تتكاثر بشكل غير معقول، خلايا شخصوها بأنها سرطانية، إضافة إلى نزف في الكبد ساءت حالته يوماً بعد يوم حتى توقفت كليته عن العمل، وازدادت الآلام في المعدة والأمعاء والكولون ولم يعد وضعه الصحي يسمح له إلا بحديث قصير مع أهله. وصلت به الحالة إلى فقدان الوعي والرقاد. في حين أبطأت ضربات قلبه كثيراً وتحول تنفسه إلى شخير، أما عيناه فقد ضاقت حدقتاهما.

شيء واحد شغل فكره، تلك التي حملها من العذاب ما لم تحتلمه الجبال، لم

تفرح به كبقية إخوته، حدق إلى وجهها وابتسم .... رفعته بين ذراعيها تحنق أصابعها بطيات شعره، ينظر إليها ويخبئ رأسه في صدرها، ترفعه وتقبله قائلة " تسلم يمًا " هذا يريحه خاصة إذا اتبعته بمديح وبدأت تتغزل بعينيه. إخوته يعطونه شيئاً من مشترياتهم وهو لا يفعل سوى التدقيق في وجوههم والابتسام.

تهبه ابتسامتها وهي في أشد حالاتها حزناً، تسكب دموعها وتقول هذه دموع الفرح، تخبره بأنها سعيدة وقلبها يعتصر ألماً وحزناً .... لا شيء دله على عظمتها أكثر من تمثالها الراقد داخله وما فعلته طوال إحدى وعشرين سنة. في كل زيارة يصير البيت مكاناً لعمل الفطائر والحلويات. لا تنام إلا بعد أن تنتهي كل شيء. وعندما تضع رأسها على الوسادة تتذكر أشياء لم تقم بها وهكذا حتى الصباح حيث تمضي إليه.

الآن وهو ينظر إليها أدرك أنها يجب أن تكون آخر شيء يراه قبل أن يغمض عينيه، وضع يده على يدها، حركها ثم ضغط عليها وهو يتأمل ملامح وجهها ودموعها التي انسابت كالأردن، قال بينه وبين نفسه " سامحيني لم أسبب لك سوى الحزن " تخفي ألمها حين تلاحظ تمتمات شفثيه، تقربهما منه تقبله وتقول:

- ابتسامة منك يا حبيبي تعيد حياتي!

" ما هذه الإنسانة التي أفنت حياتها من أجلي! ستظلين عظيمة! أنا أنزف، جسدي محطم، أنت رائعة، أبقى ولا تغادري، فقط انظري ودعيني أرى أسنانك، قول لي أنه ابني لن أدعه. علمته مع حبيبي أن لا يساوم، ولم يساوم، المرض لا يهم، العمر انتهى لا يهم ، الشيء المهم أن تظل ابتسامتك و أن يفرح شعبي. السجن يا أمي جعل شرابيبي تنقطع. أحالني إلى هيكل عظمي، أذاب القوة والفتوة. أنا أتحلل، لا تبكي، أنت تعرفين بأن عدونا قادر على استغلال أية نقطة ضعف، عندما تشعرين بذلك لا تجعليني أرى وجهك، اذهبي خارج الغرفة وافعلي ما شئت، لا شيء بقي سوى الصمود. أموت أفضل مليون مرة من حياة الذل! هل نسبت بأنتي قدوة لرفاقي؟! "

تورمت قدماه يئن من الألم والمرض، دخلت شقيقته أمل وشاهدته على تلك الحالة، فصرخت بأعلى صوتها:

- هل تتصورون بأنه سيفر من بين أيديكم وهو بهذه الحالة أيها القساة؟! "

نظر إليها الضابط وقال: إنها الأوامر ولكنني سأتصرف على مسؤوليتي.

أمر بنزع القيود من قدميه وتشديد الحراسة... كاد يتوقف تنفسه، وضعوا الأكسجين ومع ذلك ظل غير قادر على الاستنشاق، نزع غطاء الأكسجين، حاول التحدث معها وفي صوته حشرجة:

- أنا لا أستطيع التنفس، أختنق ولا أدري ما السبب؟

جالت عيناه في سقف الغرفة، ثم انحدرتا صوب اليمين فإذا شقيقه علي يبثسم له، سأله:

- ماذا نفع يا أخي ؟

- لا شيء إنها النهاية، ناد أمي وأبقها إلى جانبي .

تساءل علي ما الشيء الذي يمكن أن يفعله في مثل هذه اللحظات؟ أدرك أخيراً بأن عليه أن يتحرك بسرعة، قابل مدير المستشفى وشرح حال شقيقه ثم غادر ليعود بعد ساعة ومعه طبيبان يهوديان الأول عاموس مارز والثاني عمانوئيل تيودور. فحصاه ثم قدما تقريراً عن حالته.

قال عاموس: " حالته سيئة نتيجة الإهمال !"

وقال عمانوئيل تيودور: " إنه بحاجة إلى علاج خارج إسرائيل وإلا فحالته ميؤوس منها ."

حمل التقريرين وذهب إلى مدير المستشفى، فلم يجد أي اهتمام، ذهب إلى محاميته ليحاكمه التي حضرت وتقدمت بطلب لإطلاق سراحه ضمنته صورة عن التقريرين وعن تقارير أخرى. ثم أضافت شرحاً عن حالته الصحية التي كان السجن أحد أسبابها ونقص العلاج سبباً آخر، علماً بأن تاريخه الطبي كان نظيفاً طالبت بعلاجه كإنسان حر والسماح بسفره إلى الخارج.

أجابها مدير سجن الرملة أوران بأن عمر القاسم يرفض الخروج ويشترط عودته إلى القدس بعد العلاج وهذا لا يناسبنا .

تقلب في سريره، عيناه مغمضتان بالكاد يستطيع فتحهما. شعر بثقل في رأسه بتياري الكناري والخليج يجوبانه، أحس بالمراجل تغلي ويخرج البخار من فمه ومنخاريه. حرك رأسه قليلاً ، قبل تسع سنوات قال له الممرض رافي:

- ماذا يمكنني أن أفعل لمضرب يبول دماً! عليك العودة عن الإضراب لأعالجك .

أجابه عمر:

- الضرب والنوم على الأرض والرطوبة أليست عوامل مؤثرة أيها الممرض الحقير! حاولت التخلص مني وقتلي، لكنني الأقوى وسأظل كذلك. ماذا يهم لو نزفت دمائي كلها؟

المهم أن لا ترى جسدي ينحني ولو للحظات.

قبل شهرين فرضوا عليهم أكل خبز عويص بمناسبة ما يسمونه ذكرى التوهان في سينا حيث انقطعت عنهم الخمائر، يومها قال لهم وهم يستعدون للاحتفال بعيد الفصح:

- الخميرة قطعة عجيب موضوعة في الدقيق قبل يوم واحد، فأني وهم هذا!

قال له الشاويش: أعد ما قلته، لم أستوعبه!

- مادام الخبز من العجين والخميرة من العجين فكيف تفسرون قولكم؟

- اخرس أيها الحقير معلوماتك هذه تساوي الصفر، إياك أن تتلفظ بمثلها إنك تحاول أن تشكك بصدقنا وأعيادنا المقدسة!

وزع نظراته على الموجودين، نظر إلى الأطباء الذين يروحون ويعودون يمارسون عملهم على خير وجه، بعضهم يتفحص ملامحه ويغض بصره، كلهم سمعوا عنه الكثير من لايعرف قصته وصموده؟ .... كان بينهم من يتعمد إهمال علاجه وإعطاء معلومات غير صحيحة وهذا أدى إلى مشاجرات واتهامات، نقل ثلاثة أطباء بسببها، لكنهم رفضوا النقل وظلوا يداومون في المستشفى ويعتنون بالمرضى. بعدها ساءت حالته، طلب أمه حدق بوجهها وسالت دمهة، شعرت بما يشبه الانفجار في رأسها، أدركت أنه يودعها حين كرر كلمات ذات دلالة كبيرة:

- سامحيني يمّا. سامحيني فهذا طريقي ولا شيء سواه!

في الخارج توقفت العصافير عن التفرغيد وثارت عواصف قادمة من الجنوب، إذ تحرك الهبوب والعجاج فغطى المستشفى. لفت الرياح دورات مجنونة ثم ارتفعت صاعدة إلى الأعلى وتوجهت شرقاً، لكنها لم تهدأ، تلتها عاصفة رملية ثانية وثالثة .....

لازمه الأطباء الثلاثة حاولوا مساعدته، لكن الوقت مضى، ولا شيء يمكن أن يفيد، ظهر وأخذ الساعة الثالثة تماماً أحس برجفة، فأشار إلى أمه اقتربت منه قبل يدها،

اقتربت منه أمل وأخوه علي، مد يده لهما وصدرت عنه حركة، ارتخت يده

وتبيست، تبيس جسده، قالت أمل: لقد مات الغالي!

أطلقت أمه صرخة جمعت الأطباء والممرضين، اخترقت الجدار ويقال بأن صداها وصل إلى مدينة دمشق، إذ رجفت من هولها وصال، استغفرت ربها وتلبستها حالة اضطراب لم تشهدها ثم ارتمت على الأرض. في الوقت الذي ارتمت فوّه أمل. أخوه علي الوحيد الذي ظل متمسكاً يكفكف دموعه ويتأمل أمه التي غابت عن الوعي ووجه أخيه الذي ترك ابتسامة تصلبت على شفثيه. فحص الأطباء عمر وحددوا ساعة وفاته بالثالثة من ظهر يوم الرابع من حزيران عام تسعة وثمانين.

ساد الصمت. ركض أحد الأطباء لإبلاغ إدارة المستشفى، بينما أسرع أحد الجنود الحرس لإبلاغ الجنرال "أورون". في هذا الوقت تناقل الصحفيون الخبر ووصل إلى القدس بعد ساعتين، فتوافدت الجماهير إلى بيت أبي عدنان في الشيخ جراح. لم يتسع البيت ولا مساحته للوفود.. وقف الناس في الشوارع يتربقون قدوم النعش، أمضوا ليلتهم على هذا الأمل. في حين ارتفع الأذان في الجوامع ودقت أجراس الكنائس وأعلن الحداد ثلاثة أيام، أما في السجون فاعتبروه يوم شؤم صلوا عليه صلاة الغائب. سافر أقاربه وأصدقائه إلى القدس لحضور الجنازة.

في اليوم الثاني نقل الجثمان من مستشفى "أسافا هاروفيه" إلى مستشفى "المقاصد الخيرية الإسلامية" في القدس. وفي الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء السادس من الشهر السادس انطلقت الجنازة إلى باحة الحرم القدسي الشريف ثم اتجهت نحو مقبرة الشهداء في باب الأسباط.

الحزن ينهش القلوب وينشر عتمته على الشارع وعلى وجوه الناس وعلى كل مكان في القدس. توافد الناس إلى بيت أبي عدنان لعزائهم. سلموا وجلسوا على الكرسي. فجأة ظهر طفل له أوصاف عمر من حيث الشكل والملامح حتى الحديث. تقدم من أم عدنان، توقف أمامها، نظر إليها وتأمل وجهها، وجه يشع نوراً على الرغم من الفاجعة. حانت منها التفاتة، ذهلت لمنظره أمامها، الوجه نفسه والعينان الزرقاوان والطول الفارع.

حدقت به فاخطلت دموعها بابتسامة أشارت بيدها إليه طالبة أن يقترب أكثر. تردد ولكنه مضى نحوها. وقفت وضمته إلى صدرها، وضعت يدها على كتفه وعبثت بالأخرى بشعره. توقفت النسوة عن البكاء، ينتظرن ما تفعله أم عدنان التي سألنه عن اسمه، فأجابها مستوضحاً إن كانت هي أم عدنان؟ فأجابته بلهفة:

. نعم يا حبيبي أنا أم عدنان فاطمة الشلبي!  
نظر إلى عينيها النديتين وإلى شعرها الذي اختلط بياضه بسواده وإلى وجهها  
المتغضن وقال:  
. ألم تعرفيني بعد يمًا؟ انظري إلى عيني وإلى الشامة في أعلى كتفي.  
ضمته إليها وقالت: زغردن أيتها النسوة وأقمن الأفراح، إنه عمر ..!  
عاد الناس للاجتماع ما بين مصدق ومكذب، توافدوا إلى البيت ليشاهدوا  
الطفل فوجدوه جالساً في حضنها وهي تقبله وتداعب خصلات شعره.  
وقف الطفل وقال "سأقص عليكم حكايتي"  
تعالى النداءات وكبر الحشد ووصل إلى الشوارع البعيدة، في هذا الوقت  
سمعت أبواق سيارات الإسعاف والنجدة، ومن خلفها سيارات عسكرية فيها عدد من  
المسلحين التابعين للجيش أو للأمن الداخلي.  
تقدم ضابط وطلب إلى أم عدنان تسليم الطفل.  
رفضت طلبهم، كما رفضته الجماهير، فبدؤوا يتقدمون محاولين الوصول إليها  
واعتقاله. في هذا الوقت تسلل مئات الأطفال إلى أم عدنان في حين بدأ الآلاف  
منهم يرشقونهم بالحجارة.

كتبت الرواية في الأعوام ما بين 1990-1994  
وانتهيت من كتابتها مساء 31 آب.

□□



## صدر للكاتب

- 1- رحلة إلى مجرة الأندروميديا - قصص للأطفال - دمشق 1981
- 2- النخلة وشجرة للموز - قصص للأطفال - دمشق 1983
- 3- دراسات في الفولكلور الفلسطيني - إصدار دائرة الإعلام والثقافة في م.ت.ف. دمشق 1983
- 4- الوداع - رواية - دمشق 1987
- 5- سفينة الحرية - قصص للأطفال - إصدار دار الشيخ - دمشق 1988
- 6- تعبيرات الفولكلور الفلسطيني - إصدار دار كنعان - دمشق 1993
- 7- الانتظار - قصص - إصدار اتحاد الكتاب العرب - دمشق 1994.

□□

رقم الايداع في مكتبة الأسد

ويزهر القندول : رواية / عوض سعود عوض - دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1997 - 328ص؛ 25سم.

1-813.03 ع و ض و 2-العنوان 3-عوض  
ع: 1997/11/2001 مكتبة الأسد

□

## هذا الكتاب

يتحدث عن حياة مناضل فلسطيني وقع في الأسر وزج به في سجون الاحتلال الاسرائيلي، وهو مؤمن بنضال شعبه وقدرته على التحرير، مبرزاً همجية العقليّة الصهيونية والأساليب المتبعة في سجون الاحتلال لانتزاع المعلومات وقمع حركة التحرر العربية، وقد عبر الكاتب بأسلوب قومي معزراً صمود الشعب العربي الفلسطيني وتثويره للمشاركة في معركة تحرير الأرض والإنسان والتي تمخضت عنها انتفاضة أطفال الحجارة الشجعان.

□